

المجلد
في علوم القرآن

العلامة محمد هادي معرفه

الجزء الأول
تاريخ القرآن



AL-Shia electronic School



مصورات

حسين الخزاغي لعام 2012م

التمهيد في علوم القرآن

العلامة محمد هادي معرفتي

الجزء الأول

تاريخ القرآن





مؤسسة التمهيد

الجمهورية الإسلامية الإيرانية.
قم المقدسة. شارع انقلاب. فرع ١٨. رقم ٤٩
هاتف و فاكس: ٠٠٩٨/٢٥١/٧٧١٩٣٣٥

التمهيد في علوم القرآن الجزء الأول

العلامة محمد هادي معرفة

الطبعة الثالثة

مزيدة ومنقحة

١٣٨٩ هـ ش، ١٤٣٢ هـ ق، ٢٠١١ م

الكفية: ١٠٠٠ نسخة

مطبعة ستاره

جميع الحقوق محفوظة

التوزيع:

منشورات ذوي القربى: قم المقدسة، شارع
إرم، بناية القدس التجارية، هاتف:

٠٠٩٨/٢٥١/٧٧٤٤٦٦٣

سعر الدورة: ٦٠٠٠٠ تومان

سرشناسه: معرفت، محمد هادي، ١٣٠٩-١٣٨٥.
عنوان و نام پديدآور: التمهيد في علوم القرآن / محمد هادي
معرفة؛

مشخصات نشر: قم: مؤسسة فرهنگي تمهيد، ١٣٢٨ ق -
٢٠٠٧ م = ١٣٨٦.

مشخصات ظاهري: ١ ج.

شابک: دوره: ٩٧٨٩٦٤٩٠٥٩٦٢٤ ج ١: ٩٧٨٩٦٤٩٠٥٩٦٣١

ج ٢: ٩٧٨٩٦٤٩٠٥٩٦٤٨ ج ٣: ٩٧٨٩٦٤٩٠٥٩٦٥٥ ج ٤: ٩٧٨٩٦٤٩٠٥٩٦٦٢

ج ٥: ٩٧٨٩٦٤٩٠٥٩٦٧٩ ج ٦: ٩٧٨٩٦٤٩٠٥٩٦٨٦ ج ٧: ٩٧٨٩٦٤٩٠٥٩٦٩٣

ج ٨: ٩٧٨٦٠٠٥٠٧٩٠٠٥ ج ٩: ٩٧٨٦٠٠٥٠٧٩٠١٢ ج ١٠: ٩٧٨٦٠٠٥٠٧٩٠٢٩

وضعيت فهرست نویسی: فیا

یادداشت: عربی.

یادداشت: چاپ قبلی: حوزه علمی قم. مرکز مدیریت،

١٣٠٠ با عنوان "التمهيد: دراسات مبسطة عن مختلف شؤون

القرآن الكريم عرفت باسم علوم القرآن" به چاپ رسانده است.

یادداشت: کتابنامه.

عنوان دیگر: التمهيد: دراسات مبسطة عن مختلف شؤون

القرآن الكريم عرفت باسم علوم القرآن.

موضوع: قرآن -- علوم قرآنی.

رده بندی کنگره: ١٣٨٦ ت ٨٠ م ٦٧ / ٥ / ٦٩ BP

رده بندی دیویی: ٢٩٧ / ١٥

شماره کتابشناسی ملی: ١١٣٣٥١٧

ISBN: 978-964-90596-3-1 (Vol.1)

ISBN: 978-964-90596-2-4 (Vol.SET)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين

العلامة محمد هادي معرفة

حياته وسيرته العلمية

بقلمه

إطلالة على الحياة

بسم الله الرحمن الرحيم. أنا محمد هادي معرفة، ولدت في عائلة من رجال الدين في كربلاء المقدسة عام ١٣٤٩ هـ والذي هو الشيخ علي بن الميرزا محمد علي، أحد أحفاد الشيخ عبد العالي الميسي الإصفهاني خطيب كربلاء المعروف آنذاك. هاجر والذي مع أبويه و هو في سن الخامسة عشرة من إصفهان إلى كربلاء عام ١٣٢٩ هـ ثم توفي فيها عام ١٣٧٨ هـ عن عمر ناهز ٦٣ عاما ووري الثرى في صحن ضريح أبي الفضل العباس (عليه السلام). كان عالما و خطيباً بارعاً حظي باحترام أهالي كربلاء، وكان جميع أجدادي إلى ثلاثة قرون من السلسلة الجليلة لعلماء الدين.

أما والدتي فهي السيّدة زهراء بنت السيّد هاشم التاجر الرشتي الذي توطن كربلاء ثم توفي فيها عام ١٤٠٤ هـ ودفن هناك.

المسيرة العلمية

لما بلغت الخامسة من عمري أرسلني والدي إلى مدرسة خاصّة أسّسها الشيخ باقر، ثم درست المقدّمات على يد الأستاذ الحاج الشيخ علي أكبر النائيني ثم والدي، ثم درست علم الأدب و المنطق على أساتذة حوزة كربلاء و تعلّمت جملةً من العلوم الفلكية

و الرياضية، و كان أساتذتي في هذه الدورة هم كل من: والدي، السيّد سعيد التنكابني (المختص بتدريس الأدب العربي)، آية الله السيّد محمد الشيرازي، الشيخ محمد حسين المازندراني، السيّد مرتضى القزويني.

أمّا المرحلة التالية من الدراسة فقد اشتملت على الفقه و الأصول و مبادئ الفلسفة و كان أساتذتي فيها كل من: الشيخ محمد الكلّباسي. الشيخ محمد حسين المازندراني، والدي، الشيخ محمد الخطيب (مرجع و عالم كبير في الحوزة)، السيّد حسن مير قزويني (من أشهر علماء الحوزة، و هو تلميذ المرحوم الآخوند الخراساني)، الشيخ محمد مهدي الكابلي (درست عليه شيئاً من قوانين الأصول) و الشيخ يوسف البيارجمندي الخراساني (من أشهر تلامذة المرحوم النائيني و ضليح في الفقه و الأصول) و قد درست لديه كتاب الفصول و الرسائل و المكاسب و دورة في أصول الفقه الخارج و مقداراً كبيراً من الفقه الخارج. و بما أنّه كان من تلاميذ الأديب النيسابوري الكبير، فقد درست المطوّل على يديه أيضاً، و قد دامت هذه الدورة حتى عام ١٣٧٩ هـ.

أوائل العطاء

و فضلاً عن الدراسة في هذه الدورة باشرت بالتدريس و التحقيق في المجال الأدبي و العلمي في الحوزات العملية، كما كنت أعقد ندوة دينية أسبوعية للشباب حيث حظي كلاهما بإقبال شديد و تخرّج منهما تلاميذ كثر. و إزاء ذلك بادرت إلى تأسيس و إصدار مجلّة شهرية تحت عنوان «أجوبة المسائل الدينية» و ذلك بمرافقة و معونة جمع من فضلاء الحوزة هم: السيّد محمد الشيرازي، السيّد عبد الرضا الشهرستاني، السيّد محمد علي البحراني، الشيخ محمد باقر المحمودي و غيرهم، فعملنا فيها بكل جدٍّ ممّا أدّى إلى انتشارها على مستوى واسع خاصّة في الجامعات، لا سيّما بعض الجامعات خارج العراق، و استمرّت تلك المجلّة مدّة طويلة. و قد تمّ تدوين مقالات علمية - دينية وافرة و نشرت فيها، ثمّ أعيد طباعة و نشر بعض تلك المقالات لأهمّيّتها بشكل كتاب أو رسالة.

منها: «حقوق المرأة في الإسلام»، «ترجمة القرآن: الإمكانية، النقد، الضرورة»، «فرقتنا الشيخية»، «أهمية الصلاة و تأثيرها على الحياة الفردية و الاجتماعية» و غيرها. و قد ترجمت بعضها إلى اللغة الفارسية.

في رحاب الحوزة العلمية

بعد وفاة الوالد، أي عام ١٣٨٠ هـ هاجرت إلى النجف الأشرف بمرافقة أسرتي بغية إتمام الدراسة. و كان الهدف الرئيسي من ذلك المساهمة في الحلقات الدراسية لقطاع العلم و الفقه، و في هذا المضمار استفدت غاية الاستفادة من كبار الأساتذة و الفقهاء نحو: السيّد محسن الحكيم، السيّد أبو القاسم الخوئي، الميرزا باقر الزنجاني، الشيخ حسين الحلّي، السيّد علي الفاني الإصفهاني، و أخيراً السيّد الإمام الراحل، قدّس سرّهم جميعاً. كان السيّد الحكيم يتمتّع بمهارة و دقّة فائقة في طرح و تحليل آراء الفقهاء، فحظي درسه بميزة خاصّة من هذه الناحية. كان يبدّي عناية و دقّة متناهية بآراء و فقهاء السلف بمقدار تلك العناية التي يبدّيها بأقوال المعصومين عليهم السلام.

و كان السيّد الخوئي بارعاً في قوّة البيان و قدرة الاستدلال و البلاغة و البساطة المقترنة بالعمق، فكان يطرح أبحاثاً فقهية و أصولية زاخرة بالمطالب العلمية الدقيقة في زمن قياسي، و كان لا يضاهي في هذا المجال.

و اختصّ السيّد الزنجاني بشرح و بسط المواضيع و تبيان أبعاد المسألة ببيان عذب و عميق.

واتسم الشيخ الحلّي بمهارة بالغة في عرض الأقوال المختلفة في كلّ مسألة و دراسة دلائلها و الجرح و التعديل فيها، كما خلف إبداعاً منقطع النظير في الأبحاث الفقهية. فيما كان عدد تلامذته محدوداً، إلّا أنّهم من الممتازين و الأفاضل في الحوزة العلمية. و اتبع الشيخ المرحوم أسلوباً خاصّاً في التدريس، و لم يكن يعرب عن رأيه نوعاً ما، بل كان يبدّي بين سطور آراء الآخرين. و كلّما طُلب منه الإفصاح عن رأيه كان يجيب: ليس في

صالحكم، لأنّ التلميذ يميل إلى أستاذه و ربما يرجّح رأيه من دون أن يشعر، في حين أنّ هذا الأمر مضللّ و يحدّ من حرّية التفكير. نعم كان الأستاذ هكذا فاستطاع إعداد تلامذة أقوياء و يتمتّعون بحرّية التفكير.

أما السيّد الفاني فقد كان محقّقاً بعيد النظر و ضليعاً، و بذلّ جلّ مساعيه لإعداد نخبة من التلاميذ إعداداً علمياً. و فضلاً عن الحلقات الدراسية اليومية، كنّا: أنا و السيّد رضواني (عضو مجلس صيانة الدستور حالياً) و السيّد غديري (المسؤول حالياً عن الاستفتاءات في مكتب الإمام و القائد الخامنئي) نحضر لديه يومي الخميس و الجمعة من الصباح الباكر حتى الظهر لعقد جلسات حوارية حول المواضيع المختلفة ممّا منحنا قدرات علمية جمّة.

و تميّز الإمام الخميني بمهارة خاصّة بطرح آراء الأعظم و التوسّع في نقدها و تحليلها، و كان يعتقد بانحصار القدسية في أقوال المعصومين، و ربّى تلامذته على ذلك، نعم، أقوال الكبار محترمة و ليست بمقدّسة، و احترامها يكمن في نقدها و تحليلها دون قبولها تعبدّاً. و كان يتناول ذلك بلياقة تامّة و لا يتملّل من أسئلة و نقوض تلامذته، فاستطاع إعداد تلامذة يتمتّعون بروح النقد و انتقاد الفكر، جزاه الله خير الجزاء.

و في تلك المرحلة درست مقداراً من الفلسفة و الحكمة المتعالية لدى الأستاذ الفاضل الرضواني، و إلى جانب هذه الدراسة في المراكز العلمية مارست التدريس أيضاً، فخصّصت الصباح للدراسة و العصر للتدريس.

علماً أنّي لم أغفل عن العمل التحقيقي و كتابة المقالات العلمية. و كانت لنا جلسات أسبوعية مع عدد من فضلاء الحوزة المعروفين كالسيّد جمال الدين الخوئي (نجل آية الله الخوئي)، السيّد محمد النوري، السيّد عبد العزيز الطباطبائي، الشيخ محمّد رضا الجعفري الإشكوري، الدكتور محمّد الصادقي (صاحب التفسير) و الأستاذ عميد الزنجاني، للبحث و التحقيق في مختلف المواضيع، كلّ حسب تخصصه و ميوله، حيث اخترت مجال العلوم القرآنية. بالإضافة إلى ذلك عمدت إلى كتابة المقالات و نشرها في المجلّات، كمجلة

«أجوبة المسائل الدينية» التي ما زالت تصدر إلى ذلك الوقت، و تدوين مسائل مختلفة، منها: كتاب «تناسخ الأرواح» في ردّ هذه النظرية، التي كانت شائعة ذلك العهد، و انتشر هذا الكتاب على نطاق واسع بين الجامعيين في بغداد، ثمّ ترجم في إيران إلى اللغة الفارسية، و أعيد نشره مع بعض الإضافات. و منها رسالة في قضاء الفوائت تحت عنوان «تمهيد القواعد» التي كانت عبارة عن تقرير درس آية الله الأستاذ الخوئي. و كانت هذه باكورة أعماله الفقهية الاستدلالية، إذ سلّط الضوء على المسائل الفقهية بأسلوب حديث.

محورية القرآن و التفسير

كان الدافع وراء التعرّض للمسائل القرآنية - إلى جانب الفقه و الأصول - هو اصطدامي بحقيقة مُرّة أثناء مراجعاتي و مطالعاتي من أجل التهيؤ لتدريس التفسير، و كانت تلك الحقيقة عبارة عن فقدان بحث حيّ حول المسائل القرآنية في المكتبة الفعلية للشيعة آنذاك. و قد نشأ لديّ هذا الانطباع لمّا راجعت المكتبة القرآنية المختصة، لكتابة مقالة حول ترجمة القرآن، حيث عثرت في هذا المجال على كتب كثيرة بعضها في جزءين و كذلك رسائل و مقالات عدّة كتبها العلماء المعاصرون في مصر، فيما لم أجد في حوزة النجف سوى إعلان من صفحة واحدة لآية الله الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء، فثقل عليّ ذلك، ممّا حدا بي إلى بسط الكلام في بيان آراء و أقوال العلماء الماضين و الفعليين في مجال المسائل القرآنية، فكانت نتيجة ذلك العمل الدؤوب كتاب «التمهيد» بسبعة مجلّدات و «التفسير و المفسرون» بمجلّدين^١، و كان الأخير بمثابة ردّ أو تكميل و تدارك ما فات محمّد حسين الذهبي المصري الذي تجاهل ظلماً منزلة الشيعة في المجال القرآني.

١. و هما الجزء التاسع و العاشر من التمهيد.

من النجف إلى قم

في عام ١٣٩٢ هـ أصدرت الحكومة البعثية في العراق أمراً بترحيل الإيرانيين، فسرت بأسرتي إلى حوزة قم العلمية حاملاً معي كتباً مهمة. وخاصة مخطوطاتي اليدوية، ثم أرسل لي باقي الكتب لاحقاً.

ما إن وصلت إلى قم حتى شرعت بتطبيق النهج الذي كنت أتبعه في حوزة كربلاء و النجف، لكنني لم أحضر إلا درس الأصول للمرحوم الميرزا هاشم الآملي و خصّصت باقي الأوقات للتدريس و التحقيق العلمي. أمّا في مجال التدريس فبدأت بتدريس الرسائل و المكاسب و الكفاية ثمّ درس الخارج للفقّه و الأصول، علماً أنّي عملت في مدرسة حقّاني العالية، التي كانت تدار من قبل الشهيد القدّوسي بدعوة منه في حقل تدريس المسائل القرآنية، لا سيّما العلوم القرآنية، و كان أفراد جديرون يحضرون ذلك الدرس و هم الآن من الأعلام في هذا المجال.

و زيادة على التفسير و العلوم القرآنية، طلب منّي تدريس الفقّه (مكاسب الشيخ) و الأصول (الرسائل). وإزاء التدريس أخذت الجدّية مأخذها منّي في مجال التحقيق، فأخضعت التحقيقات التي أنجزتها في النجف إلى دراسة جادة و شاملة، فكان نصيبها التقدّم و الرقي، فرأت أجزاء «التمهيد» النور، الواحد تلو الآخر.

و في عام ١٣٩٩ هـ في بداية الثورة الإسلامية المباركة، كان المجلّد الثالث في مرحلة الطباعة، ثمّ قامت مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرّسين بإعادة طباعتها في ستة مجلّدات. مع العلم أنّ المواضيع المطروحة في هذا الكتاب اعتبرت من قبل الحوزة بعد استقرار الثورة، مواد دراسية أوّلية، و شرعت بتدريسها في مركز الحوزة، فتخرّج في ضوئها أفراد كثيرون و استحدثت في الحوزة حقول علمية مختلفة كحقل التفسير و العلوم القرآنية، و أقدم البعض على التآليف و التدريس في هذا الحقل و اتسعت رقعته إلى أن أصبح لدينا اليوم ١٤ كليّة خاصّة في العلوم القرآنية في أرجاء البلاد إلى جانب الحوزات العلمية التخصصية.

قطوف و ثمار

و في هذا السياق ألّفت كتباً أخرى حسبما اقتضت الظروف، منها كتاب: «صيانة القرآن من التحريف»^١، دفاعاً عن حرمة القرآن الكريم وردّاً على أحد الكتّاب الباكستانيين المدعوّ إحسان إلهي ظهير، الذي ألّف كتباً ضدّ الشيعة متّهماً إيّاه بالقول بالتحريف.

وسعيًا منّي لردّ هذه التهمة و حفاظاً على الكيان المقدّس للقرآن عقدت العزم على تأليف هذا الكتاب و أنجزت ذلك في ستّة أشهر (رمضان ١٤٠٧ هـ - ٣٠ صفر ١٤٠٨ هـ) فحظي باهتمام بالغ و طبع عدّة مرّات، علماً أنّه ترجم إلى الفارسية مرّتين: إحداهما مختصرة و الأخرى مفصّلة. و كذلك كتاب: «التفسير و المفسرون». في مجلّدين، و ترجمته إلى الفارسية.

أمّا في مجال المعارف القرآنية فقد كتبت مقالات عديدة نشرت في المجلّات المختلفة يصل مجموعها إلى خمسة مجلّدات جاهزة للطبع.

والعمل الأخير الذي باشرته منذ أول عام ١٤٢١ هـ وهو ذو أهميّة بالغة، عبارة عن جمع و تنسيق الروايات التفسيرية للفريقين، والعمل جار فيه على وجه السرعة بمعونة لجنّتين من عشرة أشخاص من النخبة الحوزوية و خريجي المدرسة القرآنية. و الروايات التفسيرية موجودة في الكتب بشكل خام، لم تناله يد الاجتهاد و التمحيص كما نالت روايات الأحكام الفقهية، فاختلط سليمها بسقيمها و غثّها بسمينها، فبادرت مع ثلّة من الفضلاء إلى تصنيفها، و نسأل الله تعالى التوفيق لإتمامها على الوجه الأكمل إن شاء الله. علماً أنّ المجلّد السابع من كتاب التمهيد الذي حمل عنوان «شبهات وردود» قد فرغ من طباعته.


و إلى جانب العمل القرآني كان لي نشاط في المجال الفقهي مذ كنت في النجف الأشرف، فالّفت كتباً و رسائل متعدّدة في هذا المضمار: نحو «تمهيد القواعد»، «حديث

١. وهو الجزء الثامن من التمهيد.

لا تعاد»، «ولاية الفقيه: أبعادها و حدودها»، «مالكية الأرض» و «مسائل في القضاء» و جميعها باللغة العربية.

أما العمل الفقهي الضخم الذي كنت و ما زلت منهمكاً به فهو استخراج الآراء الفقهية الحديثة على أساس تطوّر الاجتهاد في القرون الأخيرة، و هو حصيلة دروس الفقه الخارج، و منظم حسب ترتيب الأبواب الفقهية لـ «جواهر الكلام» من بداية كتاب الطهارة حتى نهاية كتاب الديات، حاملاً عنوان الشرح و التعليق على «الجواهر». و هذا العمل على وشك الإتمام بعونه تعالى.

و اليوم (عام ١٤٢١ هـ) لازلت أمارس أعمالي بحمد الله تعالى بنشاط و حيوية حيث تدريس الفقه و الأصول الخارج و العلوم القرآنية بالأسلوب الحديث و التحقيق في مجالي الفقه و التفسير وفقاً للمباني الرصينة المقبولة لدى أهل التحقيق، و الله ولي التوفيق.

تم - محمد هادي مروة

١٤٢١ / ١٢ / ٢٥ هـ

فهرس مواضيع الكتاب

المقدمة	١١
القرآن و أسماؤه	١٣
علوم القرآن	١٥
تاريخ علوم القرآن	١٦
علوم القرآن	٤١
اشتقاق القرآن	٤٢
صياغة القرآن صناعة الوحي	٤٥
صياغة القرآن صياغة خطاب لاصياغة كتاب	٥٠
١ - التنقل الفجائي	٥١
٢ - ظاهرة الالتفات	٥٢
٣ - مراعاة الروي	٤٣
٤ - ألحان وأتغام	٥٤
٥ - اتكاء على دلائل من خارج النص	٥٥
لغة القرآن التي خاطب بها العرب والناس جميعاً	٥٦
صياغة القرآن في خطابه عامة	٥٦
إن للقرآن ظهراً وبطناً	٥٨

٦٠	منه آيات محكمات وأخر متشابهات
٦٠	دفع التباس وشبهة
٦١	تنوع مفاهيم القرآن
٦٦	القرآن واضح البيان
٦٧	الوحي والقرآن
٦٧	ظاهرة الوحي
٦٧	الوحي في اللغة
٦٨	الوحي في القرآن
٧٠	الوحي الرسالي
٧٣	التعريف بالوحي الرسالي
٧٣	وقفه عند مسألة الوحي
٧٥	جانب روحانيّة الإنسان
٧٦	براهين فلسفية لإثبات النفس
٧٦	١ - الإنسان في كينونة ذاته
٧٨	٢ - الإنسان في صفاته وغرائزه
٨٠	٣ - الإنسان وظاهرة الإدراك
٨٣	أدلة حديثة على وجود الروح
٩١	الوحي عند فلاسفة الغرب
٩٤	أنحاء الوحي الرسالي
٩٤	١ - الرؤيا الصادقة
٩٨	٢ - نزول جبرائيل
١٠١	٣ - الوحي المباشر

١٠٦	تجربة روحية
١٠٨	موقف النبي من الوحي
١٠٩	النبوة مقرونة بدلائل نيرة
١١٣	قصة ورقة بن نوفل
١١٧	الوحي لا يحتمل التباساً
١١٩	أسطورة الغرائيق
١٢١	نقد الحديث سنداً
١٢٤	نقد الحديث مدلولاً
١٢٤	مناقضته مع القرآن
١٢٦	منافاته لمقام العصمة
١٢٧	تهافته مع آي السورة
١٣١	كتاب الوحي
١٣٥	نزول القرآن
١٣٥	بدء نزول الوحي «البعثة»
١٤١	بدء نزول القرآن
١٤٣	فترة ثلاث سنوات
١٤٥	آراء وتأويلات
١٥٢	تحقيق مفيد
١٥٥	إنزال وتنزيل
١٥٧	أول ما نزل
١٦٠	آخر ما نزل
١٦٢	المكي والمدني

١٦٤	اتجاهات في تعيين المكي والمدني
١٦٥	شبهات حول المكي والمدني
١٦٧	ترتيب النزول
١٦٨	السور المكية
١٧٠	السور المدنية
١٧٨	سور مختلف فيها
١٩٦	آيات مستثنيات
١٩٧	استثناءات من سور مكية
٢٤٣	استثناءات من سور مدنية
٢٥٥	أسباب النزول
٢٥٥	معرفة أسباب النزول
٢٥٦	قيمة هذه المعرفة
٢٥٩	الطريق إلى معرفة أسباب النزول
٢٦٧	سبب النزول أو شأن النزول
٢٦٨	التنزيل والتأويل
٢٧٣	هل يجب حضور ناقل السبب؟
٢٧٤	العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد
٢٧٦	نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي يا جارة
٢٧٧	تاريخ القرآن
٢٧٧	تأليف القرآن
٢٧٨	نضد كلماته

٢٨٠	نظم آياته
٢٨٥	ترتيب السور
٢٨٧	تمحيص الرأي المعارض
٢٩٢	جمع علي بن أبي طالب <small>عليه السلام</small>
٢٩٥	وصف مصحف علي <small>عليه السلام</small>
٢٩٨	أمد مصحف علي <small>عليه السلام</small>
٢٩٩	جمع زيد بن ثابت
٣٠٠	منهج زيد
٣٠٤	شكوك واعتراضات
٣٠٦	جدارة زيد
٣٠٨	مصاحف أخرى
٣٠٩	أمد هذه المصاحف
٣١٢	وصف عام عن مصاحف الصحابة
٣١٣	وصف مصحف ابن مسعود
٣٢٢	وصف مصحف أبي بن كعب
٣٢٥	جدول يقارن بين ثلاثة مصاحف
٣٣١	توحيد المصاحف
٣٣١	اختلاف المصاحف
٣٣٢	نماذج من اختلاف العامة
٣٣٤	قدوم حذيفة المدينة
٣٣٥	عثمان يأتمر الصحابة
٣٣٦	لجنة توحيد المصاحف
٣٣٧	موقف الصحابة تجاه المشروع المصاحفي

٣٣٩	عام تأسيس المشروع
٣٤٢	منجزات المشروع
٣٤٦	عدد المصاحف العثمانية
٣٥٠	تعريف عام بالمصاحف العثمانية
٣٥٠	١ - الترتيب
٣٥٢	٢ - النقط والتشكيل
٣٥٤	نشأة الخط العربي
٣٥٦	أول من نقط المصحف
٣٥٧	أول من شكل المصحف
٣٥٩	تحسينات متأخرة
٣٦١	مخالفات في رسم الخط
٣٦٩	نماذج من مخالفات الرسم
٣٧١	مناقضات في الرسم العثماني
٣٧٣	غلو فاحش
٣٧٩	الرأي الحاسم
٣٨٢	سبعة آلاف مخالفة في رسم الخط!
٣٨٧	جدول يقارن بين رسم الكلمة بإملائها القديم ورسمها بالإملاء المعاصر
٣٩٧	اختلاف المصاحف
٤٠٠	جدول نموذجي يعيّن مواضع الاختلاف من مصاحف الآفاق
٤٠٢	القرآن في أطوار الإناقة والتجويد
٤٠٧	فهرس الآيات

المقدمة

وبعد، فإنّ دراسة شؤون القرآن الكريم في مختلف جوانبه المتنوّعة دراسة ممتعة هي في نفس الوقت ضرورة إسلامية ملحة، يستجيبها كلّ مسلم واع وجد من هذا الكتاب السماوي الخالد حقيقة ناصعة وبرهاناً من الله صادقاً، فيه تبيان كلّ شيء وهدى ورحمة للعالمين:

أولاً، هو سند الإسلام الحي، و معجزته الباقية، الذي لا يزال الإسلام يتحدّى به جموع البشريّة - في نداءٍ صارخ - : لو تستطيع أن تأتي بمثله! لكنّها - بكلّ صراحة و ضراعة - تعترف بعجزها المستمرّ مع كلّ العصور.

«قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»^١.

ثمّ، هو دستور الإسلام الجامع و الكافل لإسعاد البشرية في كافّة ميادين الحياة الاجتماعية والإدارية والسياسية وغيرها أجمع. وقد تحقّقت هذه الواقعية المشرقة، يوم سارت ركب البشرية في ضوء هذا المشعل المضيء.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ»^١.

وأيضاً، تجاوبه الوثيق مع فطرة الإنسان الأصيلة انسجاماً متشابكاً مع جبلتيه الأولى التي فطر عليها. وهذا التجاوب يبدو - بكلّ وضوح - على محيى كافة تشريعاته و تنظيماته و جميع أحكامه الشاملة. الأمر الذي يجعل من هذا القانون السماوي الجامع نظاماً منبثقاً من صميم الإنسانية، جاء ليؤمن عليه جميع حاجاته النزيهة في مختلف شؤون الحياة.

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»^٢.

كما و أنه أتحنف للبشرية جمعاء بمعارف و تعاليم جليلة، كان المستوى البشري ولا يزال يقصر عن البلوغ إليها لولا سماح القرآن بمثلها بكلّ سخاء و جعلها في متناولها اقريب في أبلغ بيانٍ و أبدع أسلوبٍ حكيم.

«وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ»^٣ «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ»^٤ «مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا»^٥.

وأخيراً، هيمنته الخارقة على نفوس بشرية كبيرة، كانت تأبى الرضوخ لغير الحق الصريح، فأشرف بها على واقعية مشهودة كانت دلائل الصدق لائحة على محيّاها بوضوح، و من ثمّ استسلمت لقيادته الحكيمة مذ تعرّفت إلى حقيقته الصارخة.

«لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ»^٦.

تلك خصائص و ميزات بارزة امتاز بها هذا الكتاب الإلهي العظيم، الذي لم يكد يمض من انبثاق نوره اللئلاء أكثر من نصف قرن حتى ملك رقاب أممٍ كبيرة، و سيطر على رقعة واسعة من الأرض كانت مهد الحضارة الإنسانية منذ زمنٍ سحيق. فدوّخ صدهاء

٢ - الروم ٣٠: ٣٠.

٤ - العلق ٩٦: ٥.

٦ - النساء ٤: ١٦٢.

١ - الأنفال ٨: ٢٤.

٣ - النساء ٤: ١١٣.

٥ - هود ١١: ٤٩.

الأجواء، وهزت لهيمنتها العادلة أرجاء العالم المعمور.
الأمر الذي جعل من هذا القرآن موضع اهتمام العلماء و منصرف عناية الباحثين في
مختلف العصور والدهور.

القرآن و أسماؤه

القرآن عَلم (اسم خاص) للكتاب المنزل على نبي الإسلام، حافلاً بمباني شريعته
وآية باقية على صدق رسالته. وليكون تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين.
وقد جاءت تسميته بهذا الإسم محلّي باللام^١ في القرآن أكثر من خمسين مرة
«وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأَتَذَرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ»^٢ وبلا لام في خمسة عشر موضعاً «وَقُرْآنًا
فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُتٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا»^٣ ويطلق على الكل وعلى الجزء أيضاً
«وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا»^٤ وذلك
لأن التسمية هنا لوحظ فيها معنى الوصفية (كونه مقروءاً)، ومن ثم صحّ عموم الإطلاق.
والكلمة ذات أصل عربي عريق، في أصلها مصدر «قرأ، يقرأ، قراءة وقرآنًا» على
وزان غُفران ورُجحان وكُفران. وجاء استعمالها في القرآن مصدراً في قوله تعالى: «وَقُرْآنَ
الْفَجْرِ. إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا»^٥ وقوله: «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ»^٦
والاشتقاق وكثرة التصريفات - ولا سيما الثلاثيات - دليل على الأصالة في اللغة.

قال ابن فارس: القاف والراء والحرف المعتل أصل صحيح يدل على جمع واجتماع.
من ذلك القرية، سميت قرية لاجتماع الناس فيها... ومن الباب القرى: الظُّهر، وسمي قرى
لما اجتمع فيه من العظام... وإذا هُمَز هذا الباب كان هو والأول سواء. يقولون: ما قرأت هذه

١ - وهو لام التلميح بلحاظ سبق معنى الوصفية فيه. كما قال ابن مالك:

«وبعض الأعلام عليه دخلا للمح ما قد كان عنه نُقلاً»

٢ - الأنعام ٦: ١٩. ٣ - الإسراء ١٧: ١٠٦.

٤ - يونس ١٠: ٦١. ٥ - الإسراء ١٧: ٧٨.

٦ - القيامة ٧٥: ١٨-١٧.

الناقة سلى،^١ كأنه يراد أنها ما حملت قط. قال عمرو بن كلثوم في معلقته المشهورة:

ذراعِي عيطل أدماءٍ بِكرٍ هجانِ اللونِ لم تقرأ جنيناً^٢

قالوا: ومنه القرآن كأنه سمّي بذلك لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص وغير ذلك.^٣

وقال الراغب: والقرآن - في الأصل - مصدرٌ نحو كفران ورجحان. قال تعالى: «إِنْ

عَلَيْتَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ».^٤ وقد خصّ بالكتاب المنزل على محمد ﷺ

فصار كالعلم. قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كُتب الله لكونه جامعاً

لثمرة كتبه بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار تعالى إليه بقوله: «وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ»^٥

وقوله: «تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ»^٦.

ومن ثمّ فمن العبث محاولة البعض فيما حسب أنّ الكلمة من الدخيل وأنها مأخوذة

من أصل سرياني: قريانة بمعنى تلاوة النصوص الدينية.^٧ إذ لا غرو في تواجد المشتركات

في اللغات الشرقية ولا سيّما الساميّة منها، كما هو معروف.

والفرقان، اسم آخر للقرآن، وأصله مصدر بمعنى الفاعل باعتبار أنّه كلام فارق بين

الحقّ والباطل. قال تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا».^٨ ويبدو

هذا الوصف فيه جلياً في قوله تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، هُدًى لِّلنَّاسِ

وَيُبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ».^٩ بالجرّ عطفاً على الهدى، أي بيّنات من الفرقان. قال الإمام

جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «القرآن جملة الكتاب والفرقان المحكم الواجب العمل به».^{١٠}

١ - جلدة يكون في ضمنها الولد في بطن أمه.

٢ - العيطل: الطويلة العنق من النوق. الأدماء: البيضاء منها. البكر: الناقة التي حملت بطناً واحداً. الهجان: الأبيض الخالص

البياض، يستوي فيه الواحد والثنية والجمع، وينعت به الإبل والرجال وغيرهما. لم تقرأ جنيناً: أي لم تظم في رحمها

ولداً. راجع: شرح المعلقات للزوزني، ص ١٢٠. ٣ - معجم مقاييس اللغة، ج ٥، ص ٧٨-٧٩.

٤ - الإسراء ١٧: ٧٨. ٥ - يوسف ١٢: ١١١.

٦ - النحل ١٦: ٨٩.

٧ - هكذا جاء في دائرة المعارف البريطانية (قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية للدكتور فضل حسن عباس، ص ٢٢).

٨ - الفرقان ١: ٢٥. ٩ - البقرة ٢: ١٨٥.

١٠ - مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٧٦.

وبهذا الوصف أطلق على كتاب موسى أيضاً: «وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ»^١ باعتباره عطفاً توضيحياً. وأصرح منه قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ»^٢.

وبهذا الاعتبار لا يكون الفرقان اسماً خاصاً بالقرآن، وإنما أطلق عليه باعتبار جانب الوصفية فيه.

وهذا الاسمان (القرآن والفرقان) أشهر أسماء الذكر الحكيم. ويلى هذين الاسمين في الشهرة اسمان آخران: الكتاب، مصدر بمعنى المفعول؛ اسم عام. والآخر: الذكر باعتبار أنه مُذكر؛ أيضاً وصف عام.

وقد تجاوز صاحب البرهان وغيره حدود التسمية، معتمدين في ذلك على إطلاقات وردت في القرآن باعتبارها أوصافاً ناعية للقرآن، كقوله تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ»^٣ وقوله: «وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ»^٤ فحسبوا من الكريم اسماً ومن المبارك اسماً آخر، إلى خمسة وخمسين اسماً كما عدّه صاحب البرهان! وبعضهم أنهاها إلى نيف وتسعين اسماً،^٥ وهو من التكلف الظاهر! والأمر في ذلك سهل، غير أنه مسهب وتطويل بلا طائل، حتى لقد أفرد بعضهم بالتأليف، وفيما ذكرناه كفاية «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ»^٦.

علوم القرآن

علوم القرآن - بهذا التركيب الإضافي - مصطلح خاص لمجموعة مباحث دارت حول مختلف شؤون القرآن الكريم، لغاية معرفة هذه الشؤون معرفة فنية وفق أصول وضوابط. وبما أن هذه الشؤون تختلف عن بعضها اختلافاً جوهرياً، كانت المباحث الدائرة حول كل واحد منها تختلف في مبانيها ودلائلها وكذلك النتائج، ولا تلتقي مع

١ - البقرة ٢: ٥٣. ٢ - الأنبياء ٢١: ٤٨.

٣ - الواقعة: ٥٦: ٧٧. ٤ - الأنبياء ٢١: ٥٠.

٥ - راجع: البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٧٣-٢٧٦. ٦ - النحل ١٦: ٩.

بعضها لا في الأصول ولا في الفروع، ومن ثمّ كان كلّ مبحث علماً مستقلاً في الموضوع وفي المسائل والدلائل، وأصبحت مجموعة تلك المباحث علوماً متنوّعة، ولكن يجمعها: أنّها جميعاً باحثة عن شؤون القرآن الكريم.

مثلاً: البحث عن القراءات شيء، والبحث عن النسخ في القرآن شيء آخر. وكذلك البحث عن الإعجاز، والبحث عن الجمع والنزول وغير ذلك، فكلّ بحث هو مستقل في ذاته لا يربطه مع سائر الأبحاث سوى أنّها جمع هادفة إلى معرفة مختلف جوانب هذا الكتاب العزيز الحميد.

تاريخ علوم القرآن

* ومنذ الصدر الأوّل: بذل كبار الصحابة وفضلاء التابعين عنايتهم البالغة في البحث عن شتّى جوانب القرآن الكريم، واهتمّوا بالتكلّم عن ناسخه و منسوخه، و محكمه و متشابهه، و تنزيله و تأويله، و عامّه و خاصّه، و إطلاقه و تقييده، و ترتيبه و تجويده، و عن كافّة شؤونه المترامية. وهكذا لم يزل تطرّد وتتوسّع دائرة الدراسات القرآنية عبر القرون والأعصار. كما طفحت من نتائج تلكم البحوث والدراسات جوامع الحديث والتفسير في مختلف الأدوار.

أمّا عهد التدوين فيرجع إلى مؤخر القرن الأوّل، فكان أوّل من صنّف في القراءة هو يحيى بن يعمر (ت ٨٩) من تلامذة أبي الأسود الدؤلي. ألف كتابه في «القراءة» في قرية واسط، و يضمّ الاختلافات التي لوحظت في نسخ القرآن المشهورة. كما في «تأريخ التراث العربي» لفؤاد سزكين.

* وفي القرن الثاني: صنّف الحسن بن أبي الحسن يسار البصري (ت ١١٠) كتابه في «عدد آي القرآن».

وعبدالله بن عامر اليحصبي (ت ١١٨) كتابه في «اختلاف مصاحف الشام و الحجاز

والعراق» و «المقطوع و الموصول» في الوقف و الوصل.

وأبو محمد إسماعيل بن عبدالرحمان السدي الكبير (ت ١٢٨) له كتاب في «الناسخ و المنسوخ».

وشيبة بن نصاح المدني (ت ١٣٠) له «كتاب الوقوف».

وأبان بن تغلب (ت ١٤١) صاحب الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام هو أول من صنّف في «القراءات» بعد ابن يعمر. و له كتاب «معاني القرآن» أيضاً.

ومحمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦) أول من صنّف في «أحكام القرآن».

ومقاتل بن سليمان المفسّر (ت ١٥٠) له كتاب «الآيات المتشابهات».

وأبو عمرو بن العلاء زبّان بن عمّار التميمي (ت ١٥٤) له «الوقف و الابتداء» و كتاب «القراءات».

وحمزة بن حبيب، أحد القراء السبعة (ت ١٥٦) صاحب الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام له كتاب في «القراءة».

وموسى بن هارون من تلامذة أبان بن تغلب (ت حدود ١٧٠) له كتاب «الوجوه و النظائر».

وعلي بن حمزة الكسائي (ت ١٧٩) له كتاب «القراءات» و كتاب «الهاءات» المكنى بها في القرآن، وغيرهما.

ويحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧) له «معاني القرآن» طُبِعَ في ثلاث مجلّدات.

و«اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف» و«الجمع والتشنية في القرآن» وغير ذلك.

ومحمد بن عمر الواقدي الكاتب العلامة والمؤرّخ الشهير (ت ٢٠٧) له كتاب «الرغيب» في علوم القرآن و غلط الرجال.

وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٩) له «مجاز القرآن» طُبِعَ في جزءين، و«معاني القرآن».

وفي القرن الثالث: صنّف أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤) كتابه «فضائل القرآن» و«المقصود والممدود» في القراءات و«غريب القرآن» و«الناسخ والمنسوخ» وغير ذلك. والحسن بن علي بن فضّال (ت ٢٢٤) من أصحاب الرضا عليه السلام له كتاب «الناسخ والمنسوخ».

وعلي بن المديني (ت ٢٣٤) صنّف في أسباب النزول. والحاتّ بن أسد المحاسبي (ت ٢٣٦) له كتاب «العقل وفهم القرآن». وأبو الفضل جعفر بن حرب (ت ٢٣٦) له كتاب «متشابه القرآن». وأحمد بن محمّد بن عيسى الأشعري شيخ القميّين ووجههم (ت حدود ٢٥٠) له كتاب «الناسخ والمنسوخ». وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥) له كتاب «نظم القرآن». وأبو حاتم سهل بن محمّد السجستاني البصري (ت ٢٥٥) له كتاب «القراءات» و«اختلاف مصاحف الأمصار».

وأبو عبد الله أحمد بن محمّد بن سيّار (ت ٢٦٨) كاتب آل طاهر وصاحب الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام له كتاب «ثواب القرآن» و«القراءات» وسمّي «التنزيل والتحرّيف».

وأبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيّبة (ت ٢٧٦) له «تأويل مشكل القرآن» و«تفسير غريب القرآن» و«إعراب القرآن» وكتابه في «القراءات».

وأبو العباس محمّد بن يزيد المبرّد النحوي (ت ٢٨٦) له «إعراب القرآن». وأبو عبد الله محمّد بن أيّوب بن ضريس (ت ٢٩٤) كتب فيما نزل بمكة وما نزل بالمدينة، وله كتاب «فضائل القرآن».

وأبو القاسم سعد بن عبد الله الأشعري القميّ (ت ٢٩٩) صنّف رسالة جامعة في صنوف آيات القرآن. عثر عليها العلامة المجلسي، ونقلها متقطّعة في موسوعته الكبرى

«بحار الأنوار»^١.

وأبو عمرو محمد بن عمر بن سعيد الباهلي (ت ٣٠٠) له كتاب «إعجاز القرآن» وهو أول كتاب ظهر بهذا العنوان وخصّ أبحاثه بوجوه إعجاز القرآن.

* ويمتاز القرن الرابع بازدهاره بأنواع العلوم والمعارف الإسلامية وشتّى الفنون، ولا سيّما بشأن القرآن ومختلف أبعاده.

وممن كتب في علوم القرآن في مطلع هذا القرن هو: محمد بن يزيد الواسطي (ت ٣٠٦) وهو من جلة المتكلمين وصاحب كتاب «الإمامة». ذكر له ابن النديم كتاباً في «إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه». قيل: هو أول من بسط القول حول إعجاز القرآن. وقد كتب عليه الشيخ عبدالقاهر الجرجاني شرحين لطيفين.

ومحمد بن خلف بن حيّان (ت ٣٠٦) له كتاب «عدد آي القرآن».

ومحمد بن خلف بن المرزبان (ت ٣٠٩) له كتاب «الحاوي في علوم القرآن» في ٢٧ جزءاً.

وأبو محمد الحسن بن موسى النوبختي (ت حدود ٣١٠) له كتاب «التنزيه وذكر متشابهات القرآن».

وأبو علي الحسن بن علي الطوسي (ت ٣١٢) له كتاب «نظم القرآن».

وأبوبكر بن أبي داود، عبدالله بن سليمان السجستاني (ت ٣١٦) له كتاب «المصاحف»

و«الناسخ والمنسوخ» ورسالة في القراءات.

وأبو عبدالله محمد بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت ٣٢٠) له كتاب «الناسخ

والمنسوخ».

والأديب اللغوي العلامة أبوبكر محمد بن الحسن الأزدي - المعروف بابن دُرَيْد -
(ت ٣٢١) له كتاب في غريب القرآن.

وأبوزيد أحمد بن سهل البلخي (ت ٣٢٢) له كتاب «ما أغلق من غريب القرآن»
و«الحروف المقطّعة في أوائل السور» و«البحث عن كيفية التأويلات» وغير ذلك.

وأبوبكر أحمد بن موسى العطشي - المعروف بابن مجاهد - (ت ٣٢٤) صنّف كتابه
«السبعة» في القراءات السبع. وهو الذي حصرها في السبع!

وأبوبكر أحمد بن علي بن إخشيد (ت ٣٢٦) له كتاب «نظم القرآن».

وثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩) له «فضائل القرآن» أردفه ضمن
الأصول من الكافي الشريف.

وأبوبكر محمد بن العزيز السجستاني (ت ٣٣٠) الذي اشتهر بكتابه «غريب القرآن»
أسماء «نزهة القلوب» رتبه على حروف المعجم وأكمّله في (١٥) عاماً.

وأبوجعفر أحمد بن محمد النحاس (ت ٣٣٨) له «إعراب القرآن» و«الناسخ
والمنسوخ» و«معاني القرآن».

وأبو عبدالله محمد بن إبراهيم، المعروف بابن أبي زينب، الكاتب النعماني
(ت حدود ٣٥٠) صنّف في صنوف آي القرآن نقلها العلامة المجلسي في بحار الأنوار.^١
كان خصيصاً بالكليني، يكتب له كتاب الكافي.

وأبو محمد القصاب محمد بن علي الكرخي (ت حدود ٣٦٠) له «نكت القرآن».

وأبوبكر أحمد بن علي الرازي الجصاص (ت ٣٧٠) صنّف في أحكام القرآن. وهو
كتاب حافل جامع كبير، طبع في ثلاث مجلّدات كبار، وهو أكمل كتاب وأنفعه في الباب.
وأبو علي الفارسي، علّم من أعلام الإماميّة ممّن ازدهر به القرن الرابع فضلاً ونبلاً

وأدباً (ت ٣٧٧) له كتاب «الحجّة في القراءات». وهو أحسن كتاب وأجمعه وأتقنه في الباب.

وأبو الحسن علي بن عيسى الرّماني (ت ٣٨٤) له «النكت في إعجاز القرآن» ورسالة وجيزة يغلب عليها طابع كلامي عريق في الاعتزال الجدلي.

وأبو الحسن عبّاد بن عبّاس الطالقاني والد الصاحب (ت ٣٨٥) له كتاب في أحكام القرآن.

وأبو محمّد عبدالله بن عبدالرحمان القيرواني (ت ٣٨٦) من أعلام الفقهاء بديار المغرب. له كتاب في إعجاز القرآن.

ومحمّد بن علي الأدفوي (ت ٣٨٨) له «الاستغناء» في علوم القرآن. مائة جزء. رأى منها صاحب «الطالع السعيد» عشرين جزءاً.

وأبو سليمان حمد بن محمّد بن إبراهيم الخطّابي (من أحفاد زيد بن الخطّاب) البُستي -نسبة إلى «بُست» من بلاد كابل- (ت ٣٨٨) له رسالة وجيزة في «بيان إعجاز القرآن» عالج الموضوع فيها معالجةً فنيّة حاول إبداء وجه الإعجاز من زاوية البيان من جهة النظم والتنسيق وانتقاء الكلمات المتناسبة مع مواضعها تمام المناسبة. ولعلّه أوفى بحث ظهر في الوجود عرض لهذا الجانب الخطير من إعجاز القرآن.

وأبو الفتح عثمان بن جنيّ (ت ٣٩٢) له «المحتسب» في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها.

والقاضي أبوبكر محمد بن الطيّب الباقلاني (ت ٤٠٣) له «إعجاز القرآن» و«نكت الانتصار» في القراءات وجمع القرآن وتأليفه.

وأبو الحسن محمد بن الحسين الشريف الرضي (ت ٤٠٤) له كتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» و«حقائق التأويل في متشابه التنزيل». لم يوجد سوى الجزء الخامس منه، عثرت عليه مؤسسة منتدى النشر بالنجف الأشرف، فحقّقه وأعدّته للنشر عام ١٣٥٥ فطُبِعَ في النجف وبيروت.

* وفي القرن الخامس: صَنَّف القاضي أبوزرعة عبدالرحمان بن محمد (ت حدود ٤١٠) كتاب «حجّة القراءات». وضع كتابه على أثر «الحجّة في القراءات» لأبي علي الفارسي وعلى أسلوبه ومنهجه. طُبِع في جامعة بنغازي بتونس ثُمَّ في بيروت عدّة طبعات.

وأبو القاسم هبة الله بن سلامة (ت ٤١٠) له «الناسخ والمنسوخ».

وأبو عبدالله محمد بن محمد بن النعمان الملقَّب بالشيخ المفيد (ت ٤١٣) له كتاب في «إعجاز القرآن» وكتاب «البيان» في أنواع علوم القرآن.

وأبو الحسن عماد الدين القاضي عبدالجبار المتكلّم المعتزلي (ت ٤١٥) له «متشابه القرآن» في جزئين، و«تنزيه القرآن عن المطاعن».

وأبو القاسم الحسين بن علي الوزير المغربي الإمامي (ت ٤١٨) وهو سبط ابن أبي زينب النعماني من أصل فارسي، له كتاب «خصائص القرآن».

ومحمد بن عبدالله الإسكافي - العلامة المسدّد - (ت ٤٢١) له كتاب «درّة التنزيل وغرّة التأويل» في متشابهات القرآن، ويشمل الحِكم والأمثال والمكرّر من الآيات. وأبو الحسن علي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي (ت ٤٣٠) له «البرهان في علوم القرآن» وهو أشبه بالتفسير والبحث عن مطاوي القرآن.

وأبو المعالي الشريف المرتضى علّم الهدى علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦) له كتاب «الدرر والغرر» وكتاب «الموضح من جهة إعجاز القرآن» بحث فيه عن جانب الصرفة فيه.

وأبو محمد مكّي بن أبي طالب (ت ٤٣٧) له «الكشف عن وجوه القراءات السبع» في جزءين كبيرين، يبحث عن علل القراءات وحججها بشكلٍ مستوفٍ وهو أثر جيّد لطيف. وأبو عمرو الداني (ت ٤٤٤) له «التيسير» في القراءات السبع، و«المحكم» في النقط، و«المقنع» في رسم مصاحف الأمصار. وهي كتب لها شأن كبير في هذا الباب.

وأبو محمد علي بن أحمد بن سعيد المعروف بابن حزم الظاهري الأندلسي (ت ٤٥٦) له رسالة في القراءات المشهورة الآتية مجيء التواتر في الأمصار.

وأبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠) له في مقدمة تفسيره «التبيان» مباحث جليلة عن مختلف شؤون القرآن، فتد فيها مزعومة التحريف وزيف نسبة القول به إلى الشيعة الإمامية الأبرياء، ويبحث عن شؤون آخر في ضوء البرهان الرشيد. والخطيب النيسابوري الحسن بن الحسين الخزاعي (ت حدود ٤٦٠) له كتاب «إعجاز القرآن».

وأبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨) له «أسباب النزول» و«فضائل القرآن» و«نفي التحريف عن القرآن» وغيرها من رسائل بحث فيها عن شؤون القرآن.

وأبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١) له «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز» والثالثة «الشافية» سلك فيها مسلك التحدي الكاشف عن عجز العرب عن مقابله.

وأبو عبد الله محمد بن شريح الرعيني (ت ٤٧٦) من أعلام الإشبيلية، اختصر كتاب «الحجة» لأبي علي الفارسي وله كتاب «الكافي» في القراءات.

وأبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري (ت ٤٧٨) له كتاب «التلخيص» في القراءات الثمان، فأضاف قراءة يعقوب. وله أيضاً كتاب «الوقف والابتداء» و«هجاء المصاحف» و«العدد» وغير ذلك.

وأبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الإصفهاني (ت ٥٠٢) له «المفردات في غريب القرآن» وقد أغرب في هذا الكتاب وأعجب. وله أيضاً «المقدمة» بحث فيها عن مختلف شؤون القرآن ولا سيما المباحث المتعلقة بالتفسير وشروطه وآدابه. وهو كتاب جيد لطيف. وهو كمقدمة لتفسيره الجامع.

وأبو القاسم محمود بن حمزة الكرمانى (ت حدود ٥٠٥) له كتاب «أسرار التكرار في القرآن». وكتاب «عجائب القرآن» و«لباب التأويل».

وأبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥) له «جواهر القرآن» بحث فيه عن الصلة بين القرآن والعلوم البشرية وأسرار الطبيعة، سوى ما عقده فصلاً في كتابه «إحياء علوم الدين» بحثاً عن شؤون القرآن.

* وفي القرن السادس: صنّف أبو محمد القاسم بن علي الحريري (ت ٥١٦) كتابه «تفسير مشكل إعراب القرآن».

ومحمد بن بركات بن هلال النحوي (ت ٥٢٠) له «الإيجاز» في معرفة الناسخ من المنسوخ.

وأبو العزّ محمد بن الحسين الواسطي القلانسي (ت ٥٢١) له «كفاية المبتدي» في القراءات العشر و«اختلاف القراء بالحجاز والشام والعراق».

وأبو الفضل محمد بن أبي القاسم - المعروف بزين الشيخ - (ت ٥٢٣) من تلامذة الزمخشري. له كتاب «التنبيه» في إعجاز القرآن.

وأبو الحسن علي بن عبيد الله الزاغوني (ت ٥٢٧) له «الوجوه والنظائر في القرآن».

وعلي بن الحسين الباقرلي الإصفهاني (ت ٥٣٥) له كتاب «كشف المشكلات عن القرآن» و«البيان في شواهد القرآن».

وعلاّمة الأدب والبيان جارا لله الزمخشري (ت ٥٣٨) له تفسير وجيز لسورة الكوثر، أبان فيه اعتلاء هذا الفخيم من كلام الله العزيز الحميد، ولقد أفاد وأجاد، كما في سائر تأليفه القيّمة التي طار صيته في الآفاق. وقد لخصّه العلامة الطبرسي - على عادته - في موجز بيان.

وأبو بكر محمد بن عبد الله - المعروف بابن العربي - (ت ٥٤٣) له «أحكام القرآن» طبع في أربعة مجلدات.

والقاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤) له رسالة موفية بإثبات إعجاز القرآن.

والقاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦) له بحث ضافٍ بمختلف شؤون القرآن، في مقدمة تفسيره «المحرر الوجيز».

وأمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨) له أبحاث متنوعة عن شؤون القرآن، جعلها في مقدمة تفسيره «مجمع البيان».

وأبو الفضل حبش بن إبراهيم بن محمد التفلسي (ت ٥٥٨) له «وجوه القرآن» بالفارسية.

وأبو الحسن ظهير الدين علي بن زيد الأوسي الأنصاري - المعروف بفريد خراسان - (ت ٥٦٥) له «أسئلة القرآن مع الأجوبة» في متشابهات الآيات و«إعجاز القرآن» و«قرائن آيات القرآن». وله شرح لطيف على نهج البلاغة باسم «معارض نهج البلاغة».

وقطب الدين أبو الحسين سعيد بن هبة الله الراوندي (ت ٥٧٣) هو أول من صنّف من علمائنا الإمامية في «فقه القرآن» و بسط الكلام حول آيات الأحكام بأسلوبٍ يخالف أساليب غيرهم. حيث رتبّه على أبواب الفقه، جامعاً في كلّ باب ما يخصّه من آيات، تسهيلاً على الطالب في الوقوف على ما جاء في القرآن حول كلّ مسألة بالذات. و جرى على منواله من جاء بعده ممّن كتب في آيات الأحكام من فقهاءنا.

أما الذي كتبه محمد بن السائب الكلبي وعباد بن عباس الطالقاني - فيما سبق - من آيات الأحكام فكان على نهج العامة وغير مبسّطة.

وأبو البركات عبد الرحمان بن أبي سعيد الأنباري (ت ٥٧٧) له «البيان في إعراب القرآن» طبع في مجلدين. و«عجائب علوم القرآن».

وأبو القاسم عبد الرحمان - المعروف بالسهيلي - (ت ٥٨١) صاحب كتاب «الروض الأنف» ألف في مبهمات القرآن: «التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام».

ورشيد الدين أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب (ت ٥٨٨) تلميذ القطب الراوندي. صنّف كتابه القيم «متشابهات القرآن» في جزئين، وهو أحسن كتاب في الباب.

وأبو محمد القاسم بن فيرة الشاطبي (ت ٥٩٠) ألف قصيدته المشهورة «حرز الأمانى ووجه التهاني» في القراءات تعرف بالشاطبية.

وأبو الفرج عبد الرحمان بن علي - المعروف بابن الجوزي - (ت ٥٩٧) صنّف «فنون الأفتان في عجائب علوم القرآن» و «المجتبى» في علوم تتعلّق بالقرآن. والإمام الرازي صاحب التفسير الكبير (ت ٦٠٦) له كتاب قيّم في «إعجاز القرآن».

* وفي القرن السابع: صنّف أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (ت ٦١٦) كتابه القيّم في إعراب القرآن «إملاء ما منّ به الرحمان» في وجوه الإعراب والقراءات، وهو كتاب جيّد لطيف يجمع بين الإيجاز والإيفاء.

ومحمّد بن سليمان الزهري (ت ٦١٧) له «البيان» فيما أيهم من الأسماء في القرآن.

ومحمّد بن أبي الفرج الموصلي (ت ٦٢١) له «نبذة المرید» في علم التجويد.

ومحمّد بن أحمد بن سراقّة (ت ٦٢٢) له «أمثال القرآن».

ومحمّد بن علي بن الخيمي (ت ٦٤٢) له «أمثال القرآن».

والحسين بن أبي العزّ الهمداني (ت ٦٤٣) له كتاب «الفريد» في إعراب القرآن المجيد.

وعلم الدين علي بن محمد السخاوي (ت ٦٤٣) له «جمال القراء وكمال الإقراء».

وأبو القاسم محمد بن عبد الله (ت حدود ٦٥٠) تلميذ شرف الدين أبي الحسن علي بن المفضل المقدسي، ألف رسالة وجيزة تتضمّن ما ورد في القرآن من لغات القبائل. وهو أثر لطيف، لخصّها جلال الدين السيوطي في النوع (٣٧) من كتابه «الإتقان».

وكمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزمّلكاني (ت ٦٥١) له كتاب «البرهان»

الكاشف عن وجوه إعجاز القرآن.

وابن أبي الأصبع عبد العظيم بن عبد الواحد (ت ٦٥٤) له «بديع القرآن» وهو أثر جيّد

لطيف يشرح فيه أنواع البديع الوارد في القرآن، وكتاب «أمثال القرآن».

وأبو محمد عبدالعزيز بن عبدالسلام - المشهور بالعزّ - (ت ٦٦٠) له كتاب في «مجاز القرآن».

وقدوة العارفين رضي الدين أبو القاسم عليّ بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت ٦٦٤) صنّف كتابه الأثري الخالد «سعد السعود». هو على صغر حجمه كبير الفائدة، وهو في الواقع فهرسة فنيّة عن كلّ ما ألّف في تفسير القرآن وتاريخه وسائر شؤونه. وقد تُرجم إلى عدّة لغات. وكان هذا الكتاب رصيدنا الوافي لمعرفة كثير من الكتب والمؤلّفين. فله درّه من إبداع في البيان.

وأبوشامة شمس الدين عبدالرحمان بن إسماعيل (ت ٦٦٥) له كتاب «المرشد الوجيز فيما يتعلّق بالقرآن العزيز».

ومحمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٦٦) له «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها». يحتوي على (١٢٠٠) سؤال وجواب في غرائب آي القرآن.

وجمال الدين أحمد بن موسى بن جعفر ابن طاووس الحلّي (ت ٦٧٣) له كتاب «شواهد القرآن» في مجلّدين.

ويحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٧) له كتاب «التبيان في آداب حملة القرآن».

ولابن النقيب جمال الدين محمد بن سليمان بن الحسن (ت ٦٩٨) كتاب موسّع في تفسير متشابهات القرآن.

* وفي القرن الثامن: ألّف ابن الزبير أحمد بن إبراهيم الثقفي (ت ٧٠٨) كتابه «البرهان في تناسب سور القرآن».

وسليمان بن عبدالقوي بن عبدالكريم الصرصري الطوفي البغدادي (ت ٧١٦) كتابه «الإكسير في علم التفسير» تعرّض فيه لمختلف شؤون القرآن الكريم وتفسيره وتأويله.

وأبو عبدالله محمد بن محمد بن إبراهيم الشريشي الفاسي - الشهير بالخرّاز - (ت ٧١٨) قام بنظم أرجوزته المعروفة بـ «مورد الظمان في رسم أحرف القرآن» على

قراءة نافع. وقد وقعت موضع عناية العلماء ولا تزال.

ومحمد بن المطهر بن يحيى الزيدي (ت ٧٢٨) له منظومة في الناسخ والمنسوخ في القرآن. نظم ما أورده أبو القاسم هبة الله بن سلامة (ت ٤١٠) ثم شرحه وأوضح موارده. وأبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي (ت ٧٢٨) له مقدمة و جيزة في أصول التفسير، و «التبيان في نزول القرآن» و «الإكليل في المتشابه والتأويل».

والسيد محمد بن إدريس الصنعاني (ت ٧٣٠) له رسالة في الناسخ و المنسوخ أسماها «الدرة المضيئة في الآيات المنسوخة الفقهية».

وبرهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري (ت ٧٣٢) له منظومة في تبیین السور و الآيات المكيّة و المدنية. و «كنز المعاني في شرح حرز الأمان» و هو من أحسن شروحه. و له رسائل أخرى بهذا الشأن.

وابن جماعة محمد بن إبراهيم الحموي (ت ٧٣٣) ألف كتاب «كشف المعاني في المتشابه المثاني».

وهبة الله بن عبد الرحيم البارزي الحموي (ت ٧٣٨) له «بديع القرآن» و «ناسخ القرآن و منسوخه».

والأمير يحيى بن حمزة العلوي الزيدي (ت ٧٤٥) ألف كتابه القيم «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز» في ثلاث مجلدات.

ولأبي حيّان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥) كتاب «تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» و رسائل أخرى في القراءات.

ولأبي عبدالله محمد بن أحمد بن لبّان (ت ٧٤٩) كتاب «متشابه القرآن والحديث».

ولابن قيم الجوزية شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١) كتاب «التبيان في أقسام القرآن» و «أمثال القرآن» و «أعلام الموقعين».

ولابن هشام الأنصاري عبدالله بن يوسف بن أحمد صاحب كتاب «مغني اللبيب»

(ت ٧٦١) كتاب «إعراب مواضع من القرآن».

ولأبي الفداء إسماعيل بن عمر - المعروف بابن كثير الدمشقي - (ت ٧٧٤) رسالة في «فضائل القرآن» بحث فيها عن مختلف شؤون القرآن الكريم.
ولابن العتائقي كمال الدين عبدالرحمان بن محمد الحلبي (ت ٧٨١) كتاب «الناسخ والمنسوخ».

ولالإمام بدرالدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت ٧٩٤) كتابه القيم «البرهان في علوم القرآن» والذي لم يكتب مثله، وكان قدوة لمن جاء بعده. جعله على سبع وأربعين نوعاً، استوعب فيها فنون هذا العلم، وقد أفاد وأجاد.

❖ وفي القرن التاسع: يأتي العلامة الأديب سراج الدين عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الأندلسي - المعروف بابن الملقن - (ت ٨٠٤) ليكتب في تفسير غريب القرآن، وهو أثر لطيف استوعب فيه جوانب الموضوع وجمع شوارده.
وأبو زرعة العراقي عبدالرحيم بن الحسين (ت ٨٠٦) نظم ألفيته في تفسير غريب القرآن.

ومحمد بن علي بن محمد السمهودي المعروف بابن القطان (ت ٨١٣) له كتاب «بسط السهل» في القراءات السبع.

وأحمد بن محمد المقدمي - المعروف بابن الهائم - (ت ٨١٥) له كتاب «التبيان في تفسير غريب القرآن».

وللعلم العلامة اللغوي الكبير مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي صاحب كتاب «القاموس المحيط» (ت ٨١٧) أثر جيد لطيف بحث فيه عن مختلف شؤون القرآن الكريم بتفصيل وتعميق أسماه: «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» وهو كتاب جامع شامل في ستة مجلدات نافع كثير الفائدة.

ولجلال الدين البلقيني أبو الفضل عبدالرحمان بن عمر بن رسلان الكناني العسقلاني

(ت ٨٢٤) كتاب «مواقع العلوم في مواقع النجوم» جعله على ستة أمور، كلُّ أمرٍ يحتوي على أنواع تختلف عدداً و مجموع الأنواع خمسون نوعاً بحث فيها عن مختلف شؤون القرآن الكريم.

واتخذ جلال الدين السيوطي في بادئ الأمر من هذا الكتاب أصلاً جامعاً لفنون هذا العلم، فنقّحه و هذّبه في كتاب أسماه «التحبير في علوم التفسير» في ٢٠٢ نوعاً. فرغ منه سنة ٨٧٢.

وفي هذا القرن قام العلم العلامة الفاضل السيوري أبو عبدالله المقداد بن عبدالله الحلّي الأسدي (ت ٨٢٦) بتأليف كتابه القيم: «كنز العرفان في فقه القرآن».

ولأبي الخير شمس الدين محمد بن محمد بن محمد الجزري الشيرازي ثمّ الدمشقي (ت ٨٣٣) أثره الخالد «النشر في القراءات العشر» في مجلدين ضخمين، وهو كتاب حافل فريد في بابهِ. وله كتب أخرى قيّمة في الموضوع، أبدى فيها براعته وسعة باعه، كـ «تحبير التيسير» و «الدّرة المضيئة» و «منجد المقرئين» و «مرشد الطالبين». ومن أعظمها «غاية النهاية في طبقات القراء» كتابٌ نافعٌ جامعٌ في مجلدين كبيرين. وله في الإعجاز رسالة وجيزة في تبیین مواضع الإعجاز من قوله تعالى «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ ...»^١.

ولشهاب الدين أحمد بن عبدالله بن سعيد البحراني - المعروف بابن المتوّج - من أعلام الإمامية وكان معاصراً للشهيد الأوّل وتلمذ لديه (ت ٨٣٦) كتاب «الناسخ و المنسوخ» وقد شرحه السيّد عبدالجليل الحسيني القاري (ت ٩٧٦) وقدمه للأمير أحمد (حاكم جيلان). وترجمه إلى الفارسية الدكتور محمد جعفر الإسلامي المعاصر بإشراف الدكتور «السيّد محمد مشكاة». و طبع المجموع ونُشر عام ١٣٦٠ هـ. ش بطهران.

ولابن حجر العسقلاني أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد (ت ٨٥٢) رسائل وجيزة في مواضيع شتى قرآنية كـ «أسباب النزول» و «غريب القرآن» و «فضائل القرآن» و «ما وقع في القرآن من غير لغة العرب».

ولمحمد بن سليمان الكافيجي (ت ٨٧٩) «التيسير في قواعد علم التفسير».
ولبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥) كتاب «الضوابط والإشارات
لأجزاء علم القراءات» و«القول المفيد في أصول علم التجويد» والأهم تفسيره للقرآن
الذي اهتم فيه لبيان تناسب الآيات والسور أسماء «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»
في حجم كبير. وكتابه الآخر: «مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور». جاء فيهما
بتكلفت كان القرآن في غنى عنها.

* وفي القرن العاشر: يأتي دور العلامة الكبير فارس هذا الميدان الإمام الحافظ
جلال الدين عبدالرحمان نجل العلامة كمال الدين الخضيري السيوطي (ت ٩١١) ليقوم
بنشر آثار قيّمة في الحديث والتفسير وعلوم القرآن. ومن أهم تأليفه في التفسير «الدر
المنثور»، وفي علوم القرآن «الإتقان». وبهما طار صيته وعلامته في عالم الإسلام.
إنّه - كما نبّهنا - بدأ بكتاب البلقيني فنقّحه وهذّبه، لكنّه بعد ذلك عثر على كتاب
«البرهان» للإمام بدر الدين الزركشي فاستحسنه ووجده أحسن ما صنّف في هذا الباب،
فصوّب اهتمامه إلى تنقيحه وتحريره ليؤلّف عليه كتابه الخالد الحافل بفنون هذا العلم
«الإتقان» وجعله ٨٠ نوعاً، وكان خاتمة المؤلفات الموسّعة على هذا النمط البديع الجامع،
ولم تسمح القرون المتأخّرة بسوى رسائل ومختصرات تعالج طرفاً من شؤون القرآن.
أمّا سائر كتبه فهي: «التحبير في علم التفسير» - وهو مهذّب «مواقع العلوم» للبلقيني -
و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» و«لباب النقول في أسباب النزول» و«مفحّمات
الأقران في مبهمات القرآن» و«المهذّب فيما وقع في القرآن من المعرّب» و«المتوكّلي»
فيما وقع في القرآن من اللغات، قدّمه للخليفة العبّاسي عبدالعزيز بن يعقوب المتوكّل
على الله (ت ٩٠٣). و«قطف الأزهار» في بيان أسرار التنزيل و«تناسق الدرر في تناسب
الآي والسور» و«الإكليل في استنباط التنزيل» و«مرصد الطالع في تناسب القاطع

والمطالع» و«خمائل الزهر في فضائل السور» و«شرح الشاطبية» وغيرها.
ولأبي عبدالله محمد بن أحمد المكناسي (ت ٩١٩) كتاب «إنشاد الشريد» في رسم القرآن.

وللقاضي زكريّا بن محمد الأنصاري (ت ٩٢٦) كتاب «فتح الرحمان بكشف ما يلتبس في القرآن».

ولأبي عبدالله جمال الدين محمد بن أحمد بن سعيد المكي (ت ٩٣٠) كتاب «الإحسان في علوم القرآن».

ولشهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني صاحب الشرح الكبير على البخاري (ت ٩٣٣) كتاب جميل في القراءات أسماه «لطائف الإشارات بفنون القراءات».

ومحمد بن يحيى الحلبي التاذفي (ت ٩٦٣) له كتاب «القول المذهب في بيان ما في القرآن من الروميّ المعرب». والظاهر أنّه أخذه من «المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب» تأليف جلال الدين السيوطي.

ولأحمد بن أحمد بن إبراهيم الطيّبي (ت ٩٨١) منظومته الخالدة في القراءات ورسائل أخرى في علمي التجويد والقراءات.

وللمولى أحمد بن محمد الشهير بالحقّق الأردبيلي (ت ٩٩٣) كتابه القيم «زبدة البيان في أحكام القرآن» تأليف علمي وضع على أساس التحقيق والتدقيق.

* وفي القرن الحادي عشر: كتب القاضي الإمام الحافظ أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي صاحب كتاب «الشفّا بتعريف حقوق المصطفى» (ت ١٠١٤) كتابه «حدّث الأمانى بشرح حرز الأمانى» و«الفيض السماوي في تخريج قراءات البيضاوي» و«المنح الفكرية بشرح المقدّمة الجزرية» وغيرها في مختلف شؤون القرآن الكريم.

وسيف الدين بن عطاء الله البصري (ت ١٠٢٠) له في القراءات: «الأصول

المختصرة» و«الجواهر المضيئة».

وللفقيه البارع مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي المقدسي (ت ١٠٣٣) كتاب «قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ من القرآن» و«الآيات المحكمات والمتشابهات».

ولعبد الواحد بن أحمد بن عاشر الأنصاري الفاسي الأندلسي (ت ١٠٤٠) كتاب «فتح المنان بشرح أرجوزة مورد الظمان» وهو شرح لطيف. ولما كانت الأرجوزة مقتصرة على قراءة نافع أكملها ابن عاشر في رسم الباقي من الأئمة السبعة وأسماء «الإعلان بتكميل الظمان».

ومحمد بن أحمد العوفي (ت حدود ١٠٥٠) له «الجواهر المكللة» و«بحر المعاني» في القراءات و«الجواهر اليمانية» في رسم الخط العثماني.

وللمولى صدرالدين محمد بن إبراهيم الشيرازي (ت ١٠٥٠) رسالته الوجيزه في متشابهات القرآن كتبها في ضوء فلسفه الإشراق.

والمولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١) العلامة الكبير والمحدث الخبير صاحب التصانيف الكثيرة الممتعة النافعة في شتى ميادين العلوم الإسلامية، جعل في مقدّمة تفسيره القيم «الصافي» ١٢ فناً، بحثاً مستوعباً عن جوانب خطيرة من شؤون القرآن الكريم.

وللفاضل الجواد الكاظمي من أعلام القرن الحادي عشر كتابه القيم «أحكام القرآن».

ولعمادالدين علي بن محمود المعروف بعمادالدين شرف القاري الاسترآبادي من أعلام القرن الحادي عشر (توفي في أواخر هذا القرن) كتابه القيم: «إرشاد الأذهان إلى تجويد القرآن» و«التحفة الشاهية» قدّمه إلى الشاه طهماسب الصفوي. وكتاب «أصول قراءة أبي عمرو» و«أصول قراءة حمزة» و«أصول قراءة الكسائي» و«أصول قراءة نافع» وغيرها من أصول القراءات بروايات المشايخ. وكان يعدّ مفخرة عصره في فنّ القراءات و التجويد وسائر علوم القرآن. وله تصانيف جيدة في هذا السبيل.

* وفي القرن الثاني عشر: صدر السيد هاشم بن سليمان الحسيني البحراني (ت ١١٠٩) تفسيره الأثرى «البرهان» بالتكلم عن طرف من شؤون القرآن الكريم في ١٦ مقدمة.

وخصّص المولى محمد باقر المجلسي العظيم (ت ١١١١) من موسوعته الحديثية الكبرى «بحار الأنوار» - وهي تربو على ١١٠ مجلداً - مجلدين ٨٩ و ٩٠ طبع بيروت بالبحث عن مختلف شؤون القرآن الكريم في ضوء مذهب أهل البيت عليهم السلام و نقد آراء مخالفة. وضعه على ١٣٠ باباً و تكلم في الباب ١٢٨ عمّا ورد في القرآن من موهم التناقض، و أورد محاوره جرت بين بعض الزنادقة و الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يكون الإطلاع عليها ممتعاً. هذا فضلاً عمّا صدر كل باب من أبواب بحار أنواره بلفيف من آيات قرآنية ماسّة بالموضوع و في دقّة فائقة و عن إحاطة شاملة، يكون بذلك أول تبويب للآيات حسب المواضيع المتنوعة.

وصنّف شهاب الدين ابن البناء أحمد بن محمد الدميّاطي (ت ١١١٦) كتابه «إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر».

وللمولى أبي الحسن بن محمد طاهر بن عبد الحميد النباطي الفتوني (ت ١١٣٨) كتاب «مرآة الأنوار و مشكاة الأسرار» جعله على ثلاث مقدمات، كلّ مقدمة مشتملة على مقالات تختلف عدداً، و تحت كلّ مقالة فصول بأعداد مختلفة أيضاً. و مجموع الفصول التي تكلم فيها عن شؤون القرآن هي ٢٥ فصلاً. وفي المقالة الثانية من المقدمة الثالثة أسهب في بيان تأويل كلمات جاءت في القرآن، رتبها حسب حروف المعجم، يربو عددها ١٢٠٠ كلمة تكلم عن تأويلهنّ واحدة واحدة. و وضع خاتمة كتابه على ثماني فوائد.

ولعبد الغني بن إسماعيل النابلسي (ت ١١٤٣) كتاب «القول القاسم في قراءة حفص عن عاصم» يبيّن فيه وجه تفضيلها على سائر القراءات.

ولمحمد بن أبي بكر ساجلقي زاده المرعشي (ت ١١٥٤) كتاب «نهر النجاة في بيان مناسبات آيات الكتاب».

وللشيخ مصطفى بن عبدالرحمان بن محمد الأزميري (ت ١١٥٥) كتاب «بدائع البرهان في وصف حروف القرآن».

والحسن بن علي بن أحمد المنطاوي (ت ١١٧٠) له «إتحاف فضلاء الأمة» في القراءات السبع.

وللشيخ عطية الأجهوري (ت ١١٩٠) كتاب «إرشاد الرحمان» في أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه وأصول علم التجويد.

* وفي القرن الثالث عشر: صنّف الوحيد البهبهاني المولى محمد باقر بن محمد أكمل - المعروف بالأستاذ الأكبر - (ت ١٢٠٦) رسالته التحقيقية بشأن «حجية ظواهر الكتاب». والمولى محمد جعفر بن سيف الدين الإسترآبادي (ت ١٢٦٣) له «حلّ مشاكل القرآن».

وأستاذ المتأخرين المولى مرتضى بن محمد أمين الأنصاري التستري (ت ١٢٨١) له رسالة في «حجية ظواهر الكتاب».

والمولى محمد تقى الهروي الإصبهاني (ت ١٢٩٩) له «خلاصة البيان في حلّ مشكلات القرآن».

* وفي القرن الرابع عشر: صنّف الميرزا محمد بن سليمان التتكابني (ت ١٣٠٢) كتابه «حجية القراءات السبع» و «حجية ظواهر الكتاب».

وللمولى محمد تقى بن محمد حسين الكاشاني (ت حدود ١٣١٦) كتاب «إيضاح المشتبهات» في تفسير مشكل القرآن.

* وفي هذا القرن الأخير: أقبل الكثير من العلماء على تأليف كتب و رسائل حول تاريخ القرآن و علومه و سائر شؤونه:

فألف السيّد أحمد حسين بن رحيم علي الأمروهي (ت ١٣٢٨) كتاب «مناهج العرفان في علوم القرآن».

والشيخ محمد علي سلامة صنف «منهج الفرقان في علوم القرآن».

ومحمد غوث النائطي الأوكاتي له «نثر المرجان في رسم القرآن» في سبع مجلّدات.

ولإبراهيم بن محمد المارغني التونسي كتاب «دليل الحيران على مورد الظمان»

وهو شرح على منظومة الخراز في رسم المصحف على قراءة نافع. وأكملها بشرحه الآخر

على «الإعلان بتكميل مورد الظمان» لابن عاشر الأندلسي لسائر القراءات وأسماء «تنبيه

الخلان». وقد أكمل الشرحين في أواخر عام (١٣٢٥).

والأستاذ محمّد عبد العظيم الزرقاني: له «مناهل العرفان في علوم القرآن».

والمولى المحقّق حيدرقلي بن نور محمد - المعروف بسرّدار كابلّي - له «تحفة

الأحباب» في بيان آي القرآن وسوره والمكي والمدني وغيرها.

وللدكتور محمد عبدالله دراز: «النبا العظيم» نظرات جديدة في القرآن.

والعلامة السيّد هبة الدين الشهرستاني: «إعجاز القرآن» و«تنزيه القرآن».

والأستاذ محمد الغزالي: «نظرات في القرآن».

والأستاذ المحقّق الشيخ أبو عبدالله الزنجاني: «تاريخ القرآن».

والأستاذ مصطفى صادق الرافعي: «إعجاز القرآن».

والشيخ خليل ياسين العاملي: «أضواء على متشابهات القرآن» يحتوي على ١٦٠٠

سؤال وجواب.

والدكتور صبحي الصالح: «مباحث في علوم القرآن».

والأستاذ سيّد قطب: «التصوير الفني في القرآن» و«مشاهد القيامة في القرآن».

وتلميذه الموفق الدكتور عبدالله شحاته: «أهداف كلِّ سورة ومقاصدها».

والإمام المجاهد العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي، جعل في صدر تفسيره «آلاء الرحمن» مقدّمة منيفة تحتوي على أهمّ المباحث القرآنية، وأتى فيها بنظرات مستجدة يكون الإطلاع عليها ضرورياً. وطبعت هذه المقدّمة أيضاً مع تفسير السيّد عبدالله شبر المطبوع بمصر أخيراً.

والمرجع الديني الأكبر سماحة سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي رحمته الله وضع في مقدّمة تفسيره «البيان» فصولاً مسهبة حقّق فيها عن جوانب خطيرة من شؤون القرآن، لها قيمتها وأثرها الكبير في الأوساط العلمية الراهنة، لا يستغني الباحث عن مراجعتها.

وفضيلة العلامة الكبير السيّد محمد حسين الطباطبائي رحمته الله: «قرآن در إسلام» بحثٌ حافلٌ بأهمّ المسائل القرآنية فضلاً عن أبحاث زان بها تفسيره القيم «الميزان».

هذا غيضٌ من فيض، ولم أكن تقصّيت الكتب المصنّفة في علوم القرآن بصورة شاملة، سوى الغالبية المعروفة. الأمر الذي يكفي لإبداء ما بذله علماؤنا الأعلام من جهود جبّارة حول تحقيق هذا الكتاب المقدّس الخالد، ومدى اهتمامهم البالغ بشأنه العزيز، شكر الله مساعيهم الجميلة، وأفاض عليهم سجال رحمته الواسعة، آمين.

ومنذ القرن الثاني عشر واكب علماء الإفرنج علماء الإسلام في البحث والتنقيب عن شؤون القرآن بنواحٍ شتّى، فبدأوا يبحثون عن تأريخه، وعن الكتب المؤلّفة فيه، وعن تفسيره وما أشبه ذلك. وحوالي منتصف القرن الرابع عشر قامت ألمانيا بعملٍ عظيمٍ محمود؛ ذلك أن المجمع العلمي في مونيخ بألمانيا عنى عناية خاصّةً بالقرآن الكريم، وجمع كلّ ما يمكن الحصول عليه من المصادر الخاصّة بالقرآن وعلومه. وأدلى هذا الأمر إلى الأستاذ «برجشتراسر» الذي كان قد بدأ بالعمل في حياته، فلمّا توفي سنة (١٣٥٢هـ/١٩٣٣م) عهد المجمع بالسير في هذا المشروع إلى العالم «اوتوبرتيزل» أستاذ اللغة العربية في مونيخ. وهذا الأستاذ كتب إلى المجمع العلمي العربي في دمشق كتاباً

يقول فيه:

«ولقد نوينا تسهيلاً لمحبي الاطلاع أن تدوّن كلّ آية من القرآن الكريم في لوحة خاصّة تحوي مختلف الرسم الذي وقفنا عليه في مختلف المصاحف مع بيان القراءات المختلفة التي عثرنا عليها في المتون المتنوّعة، ومتبوعة بالتفاسير العديدة التي ظهرت على مدى العصور وتوالي القرون».

وأخذ في نشر أهمّ الكتب المؤلّفة في القرآن، ككتاب «التيسير» في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني. وكتاب «المقنع» في رسم مصاحف الأمصار، مع كتاب «النقط» أيضاً له. وكتاب «مختصر الشواذ» لابن خالويه. وكتاب «المحتسب» لابن جنّي. وكتاب «غاية النهاية في طبقات القراء» لشمس الدين ابن الجزري. وكتاب «معاني القرآن» للفرّاء. ورسالة في تأريخ علوم القرآن باللغة الألمانية، وهي تحتوي على أسماء المؤلّفات في علوم القرآن الموجودة في الآفاق ودور الكتب في العالم.

أدلى بهذه المعلومات فضيلة الأستاذ الشيخ أبو عبد الله الزنجاني في كتابه الوجيز «تأريخ القرآن» وكان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق.

غير أنّ الشعلة التي كادت تنوهج وتتوسّع فاجأها الانطفاء المرير، على أثر اندلاع نيران الحرب العالميّة الثانية القاسية، على يد ألمانيا نفسها (١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ م) فياله من أسف.

وكنْتُ منذ تعلّمت القراءة مشغولاً بدراسة شؤون القرآن الكريم و مطالعة الكتب المصنّفة في مختلف جوانبه المتنوّعة. وكنْتُ أجد من ذلك متعةً ولذةً فائقة، حتّى خضتُ عباها وإذا هي ضرورة إسلامية ملحة، لا بدّ لكلّ مسلم أن يتعرّف إليها إن كان يريد التحقق من أقوى دعامة لهذا الدين الحنيف. فقمْتُ أدرس من شؤونهِ بدقّة وإمعان، وأسجّل من مطالعاتي لقطات، إمّا نقداً فيما شككت في صحّته، أو إعجاباً بما استطرفته من موضوع.

والآن - وبعد سنين - اجتمعت لديّ من تلكم المذكرات عدد ضخم وفي حجم كبير، فجعلت أرتبها وأنظّمها، وإذا هي تصلح لتأليف كتاب يحتوي على أبواب وفصول في متنوع البحوث القرآنية فأسميته «التمهيد»، لأنني جعلت من هذه الأبحاث كمقدمة لتفسييري «الوسيط». وأسأله تعالى أن يوفّقني لإتمامه، ولأن أكون قد خدمت جيلي المسلم بنظرات مستجدة حول القرآن الكريم، ربّما لا يجدها الباحث في موسوعة سواء، أو يصعب عليه تناولها، وهي في مطاوي كتب ذوات أحجام كبيرة أو بعيدة عن تناول العموم.

والذي شدّ من عزمي على إنجاز هذا الأثر المتواضع أنّي لمست فراغاً في مكتبة الطائفة في عهدنا الحاضر - وقد كانت غنيّة قبل اليوم - فيما يخصّ جانب البحوث القرآنية مستوفاة ما عدى بحوث قليلة عالجت طرفاً من شؤون القرآن الكريم، وبقيت الجوانب الأخر - وهي كثيرة - قابعة في زاوية الخمول، لا يجدها الباحث إذا ما حاول التطلّع على رأي الطائفة في ضوء مذهب أهل البيت عليهم السلام.


ومن ثمّ جعلت أتتبع الآثار والآراء وأتقدّها نقداً موضوعياً، عرضاً على نصوص تاريخية ثابتة وروايات متواترة أو محفوفة بقرائن قطعية.

وسيبدو من خلال بحوثنا الآتية مدى انحرافات أودت بكثير من أئمة النقد والتمحيص، مغبة تسرّعهم في بت الأمر أو عصبيتهم لمذهب أو طريقة خاصّة في تحقيق الآراء والآثار. فلم أفرغ من مسألة إلا وكنت مطمئناً من صحتها ومستوثقاً من أصالتها مبلغ جهدي الذي بذلت فيها حسب المستطاع.

كما ولم أغفل - مدّة بقائي في النجف الأشرف (١٣٧٩ - ١٣٩١) وبعد المهاجرة إلى مدينة قم المقدّسة (نهاية عام ١٣٩١) - من إلقاء محاضرات جامعية على طلبة المعاهد الدينية العالية وإفساح المجال لهم في المناقشة والتساؤل، تحقيقاً لغاية التثبت الكامل فيما استجددته من نظريات، وتحكيمياً لمتفق الآراء المتتورة في كل مسألة عزمتم البت

فيها قطعياً.

ولنفس الغاية كنت أحياناً أقوم بنشر كراسات أستعرض عليها بحوثاً قرآنية كانت كنماذج عن مباحث مسهبة، ألخص فيها من آراء ومناقشات، لأستلفت أنظار زملائي الأفاضل، تجاوباً مع أفكارهم الثمينة، وتقاهماً معهم على صعيد النقد النزيه. ومن ثم أقدم لهم شكري الجزيل وتقديري المتواصل لهذا التجاوب الودّي الكريم جزاهم الله عن القرآن خير جزاء، ووفقنا جميعاً لمرضاته إنه وليّ قدير وهو الموفق والمعين.

تم - محمد هادي مرفعة

 شهر رمضان المبارك ١٣٩٥ هـ

علوم القرآن

مصطلح لمسائل دارت حول مختلف شؤون القرآن الكريم، كل مسألة تبحث عن شأنٍ من شؤونه غير الذي تبحث عنه مسألة أخرى، فكانت المسائل تدور حول مواضيع شتى متنوعة، كل مسألة لها موضوعها الخاص، ولارابط لها سوى المحور العام؛ وهو القرآن الكريم، ومن ثم أصبحت علوماً لاعلماء لموضوع فرد.

خذ مثلاً البحث عن القراءات: مناقشتها، تنوعها، حصرها في السبع، تواترها وحجيتها، وما إلى ذلك كلها مباحث تدور حول موضوع واحد وهي: القراءة، ومجموعة هذه المباحث تشكل علماً على حدة، ولارابط بينها وبين المباحث الدائرة حول مسألة الناسخ والمنسوخ في القرآن. وكذا مسألة التشابه والإحكام في القرآن، ومسألة جمع القرآن وتأليفه، ومسألة الإعجاز، وكذا صيانة القرآن من التحريف، وهلم جرّاً. كل مسألة علم برأسه وله موضوعه انخاص. ويجمع الكل أنها بحوث عن متنوع شؤون القرآن، فكانت علوماً لاعلماء واحداً. نظراً لتنوع المواضيع من غير جامع.

وهذا على خلاف مصطلح آخر راج أخيراً وهو: معارف القرآن. هي مجموعة مباحث تدور حول مواضيع تعرّض لها القرآن في نصّه، كمسألة التوحيد والصفات والمعاش والمعاد، ومسألة الاستطاعة والتكليف، والجبر والاختيار، ومسألة الخير والشرّ

والشرائع والأحكام، والثواب والعقاب، وما إلى ذلك من مسائل جاءت في القرآن نصاً وبحث عنها العلماء والنبهاء من كبار المفسرين. فإذا كان البحث عنها - سواء في المجموع أو في البعض - بشكل موضوعي (أفردت آيات تخصه ودرست دراسة موضوعية) كان هذا النمط من البحث والتبيين القرآني تفسيراً موضوعياً له أهميته في عالم التفسير وفي عرض رسالة القرآن العامة، ولا سيما في هذا العصر حيث تعطش العالمين لمعرفة تعاليم القرآن الكريم. وقد ذكرنا جوانب أهميته في دراستنا للمناهج التفسيرية في كتابنا «التفسير والمفسرون» (الجزء التاسع والعاشر من التمهيد).

وأما جانب أهمية علوم القرآن (بحوث عن مختلف شؤون القرآن) فيكفيك أن تعلم أن ليس باستطاعتك الحصول على حقائق معاني القرآن إلا عبر هذه البحوث والتي هي مبادئ وتمهيدات لإمكان البلوغ إلى تلك الغاية المنشودة.

وإذا لاحظنا مباحث هذا العلم مسألة مسألة وجدنا أن لكل واحدة منها دوراً أساسياً في إمكان الاستفادة من القرآن. فمثلاً مباحث «حجية ظواهر القرآن» هي التي مهدت للفقيه سبيل الاستنباط من آيات الأحكام. وكذا معرفة النسخ من المنسوخ، والمتشابه من المحكم. وهكذا مباحث «حجية القراءات و تواترها» تلعب دورها الخطير في معرفة النص القرآني الحكيم. ومثلها مباحث نفي التحريف من القرآن ومسألة الإعجاز وغيرها من مسائل، كل لها دور في عرفان النص بما لا يمكن إغفائه. الأمر الذي دعا بنا لتقديم البحث عن وحيانية القرآن وهي أسس المسائل.

اشتقاق القرآن

«القرآن» اسم علم للكتاب النازل على محمد رسول الله ﷺ ليكون للعالمين نذيراً. والكلمة عربية محضاً لها أصل في اللغة من «قَرَأَ يَقْرَأُ قَرَاءً وقراءةً وقُرْآنًا».

والكلمة مهموزة تحولت من أصل معتل. قال ابن فارس: القاف والراء والحرف المعتل، أصل صحيح يدل على جمع واجتماع. من ذلك: القرية، سميت قرية لاجتماع

الناس فيها. ويقولون قرئت الماء في المقرأة: جمعته. وذلك الماء المجموع: قرئ. والمقرأة: الجفنة، سميت لاجتماع الضيف عليها أو لما جمع فيها من الطعام.

ومن الباب «القرؤ»: حوض معروف ممدود عند الحوض العظيم تردّه الإبل. ومن الباب «القرؤ»: وهو كل شيء على طريقة واحدة، تقول: رأيت القوم على قرؤ واحد. ومن الباب «القرى»: الظهر. وسمي قرئ لما اجتمع فيه من العظام. وناقّة قرواء: شديدة الظهر.

قال: وإذا هُمز هذا الباب كان هو والأوّل سواء. يقولون: ماقرأت هذه الناقة سلى^١، كأنه يُراد: أنها ما حملت قطّ.

قالوا: ومنه القرآن، كأنه سمي بذلك لجمعه مافيه من الأحكام والقصص وغير ذلك.^٢ وقال الخليل بن أحمد: وقرأت القرآن عن ظهر قلب أو نظرت فيه... وقرأ فلان قراءة حسنة، فالقرآن مقروء وهو قارىء.^٣

قال الراغب: والقراءة، ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل. والقرآن في الأصل مصدرٌ نحو كفران ورجحان [وغيران]. قال تعالى: «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ»^٤ وقد خصّ بالكتاب المنزل على محمد ﷺ فصار له كالعلم، كالتوراة لما أنزل على موسى والإنجيل على عيسى عليه السلام.^٥

والكلمة ذات اشتقاق في اللغة دليلاً على أصالتها وليست من الدخيل، وإلا لم يأت منها الاشتقاق ثلاثياً ومزيداً فيه.

«وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتوراً»^٦.

«فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»^٧.

«وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً»^٨.

٢ - معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ج ٥، ص ٧٨ - ٧٩.

٤ - القيامة ٧٥: ١٧ و ١٨.

٦ - الإسراء ١٧: ٤٥.

٨ - الإسراء ١٧: ١٠٦.

١ - جلدة يكون ضمنها الولد في بطن أمه.

٣ - العين للخليل، ج ٥، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

٥ - مفردات الراغب، ص ٤٠٢.

٧ - النحل ١٦: ٩٨.

وقال تعالى حكايةً عن العرب: «وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُقْرَأُهُ»^١.

«فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَتْلُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ»^٢.

«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»^٣.

«فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ»^٤.

«سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى»^٥.

على أن لفظة «قرآن» استعملت مصدراً بمعنى القراءة:

«إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ»^٦.

«وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً»^٧. أي القراءة في صلاة الفجر.

وبمعنى المقروء أيضاً:

«وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ»^٨ وقرآن - هنا منكرراً - يراد به المصدر

بمعنى المفعول أي الشيء المقروء. فقد أطلق على الكتاب وصفاً لا علماً كما في المعرف باللام.

وكذا في قوله: «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ»^٩. وقوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»^{١٠}. أي مقروءاً بالعربية. وغيرهن من آيات.

وهذا نظير صنوه: «الفرقان»، أطلق على القرآن باعتباره الفارق بين الحق والباطل، أي ما يُفَرِّقُ به بينهما.

«تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا»^{١١}.

«شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ»^{١٢}.

١ - الإسراء ١٧: ٩٣.

٢ - يونس ١٠: ٩٤.

٣ - العلق ١: ٩٦.

٤ - المزمل ٧٣: ٢٠.

٥ - الأعلى ٨٧: ٦.

٦ - القيامة ٧٥: ١٧ و ١٨.

٧ - الإسراء ١٧: ٧٨.

٨ - الإسراء ١٧: ١٠٦.

٩ - الحجر ١: ١٥.

١٠ - يوسف ١٢: ٢.

١١ - الفرقان ٢٥: ١.

١٢ - البقرة ٢: ١٨٥.

أي بينات هادية إلى الحق وفارقة، أي فاصلة بين الباطل والصواب.
والقرآن كالفرقان عَلَّمَ وَصَفَى لكتاب الله. كلاهما من أصلٍ عربيٍّ صميم.
هذا، ومن الغريب ما نجده من المستشرقين الأجانب حسبوا كلمة (القرآن) دخيلة
مشتقة من «قريانة» كلمة سريانية!

جاء في دائرة المعارف البريطانية: «القرآن هو كتاب المسلمين المقدس. ومن
المحتمل أن الكلمة مشتقة من كلمة «قرأ» وهي كلمة سريانية في أصلها، وهو: قريانة، أي
القراءة. حيث كانت تُستعمل في الكنيسة السريانية».^١

لكن لا مجال لهذا الاحتمال بعد ما عرفت من عربية الكلمة واشتقاقها في اللغة. أمّا
التقارب أو التقارن في حروف الكلم ونظيراتها في سائر اللغات فهذا يعلّله التقارب في
أصول الكلم الشرقية ولاسيما اللغات السامية كالعبرية والعربية، حيث التقارن القريب في
أكثر كلماتها كما في نفس العبري والعربي. الأمر الذي لا يدع مجالاً لاحتمال التبادل مع
فرض التقارب في أصل الانحدار.

صياغة القرآن صناعة الوحي

من صريح الكتاب العزيز، فضلاً عن الحديث المتواتر، أن القرآن نَزَلَ كُـمَلاً، لفظاً
ومعنى، من عند الله وأنه بنظمه ونضده، في كلِّ جُمْلَةٍ وتعايره، صياغة الوحي وصناعة
السماء، لا يد لغيره فيه إطلاقاً لا جبرائيل الأمين ولا النبي الكريم ﷺ. ولنسرد عليك
آيات ناصّة على ذلك:

منها: ما جاء التصريح فيه بأنه كلام الله.^٢ ولا ينسب كلام إلى أحد إلا إذا كان صنيعه

١ - راجع: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية للدكتور فضل حسن عباس، ص ٢٣.

٢ - قال تعالى: «يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ». الفتح ٤٨: ١٥. وقال: «وَلَنْ أَخَذَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَتَجَاكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ». التوبة ٩: ٦.

قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: «ما آمن بي من فسر برأيه كلامي». (أمالى الصدوق، المجلس الثاني، ص ٦، ط نجف). وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بشأن القرآن: «وهو كلام الله، وتأويله لا يشبه كلام البشر». (كتاب التوحيد للصدوق، باب ٢٦ في الرد على الثنوية رقم ٥، ص ٢٦٤).

نظماً وتأليفاً، لفظاً ومعنى.

وكذا التصريح بأنه ممّا قرأه الله على النبي،^١ ولا تكون قراءة إلا بتلاوة آياته كمّلاً عليه. وليست مجرد إلقاء المعاني. إذ لا يكون ذلك قراءة قرآن وإنما هو إلقاء مفاهيم لا غير.

ومثله ما جاء التعبير فيه بأنه إقرأ على النبي.^٢ وكذا التعبير بأنه ﷺ كان يتلقّى القرآن تلقياً^٣ وتلقّى هذا القرآن إنما يعنى بلفظه ونظمه، وليس مجرد معانيه. إذ القرآن هو: ما يقرأ، لا ما يفهم ويدرك.

وعلى غراره الآيات الناصّة على أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن لا أنّه كان يتكلّم به.^٤ هذا بالإضافة إلى أن القرآن معجزة الإسلام الخالدة، وأن ليس باستطاعة البشرية جمعاء أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وهذا العموم يشمل النبي نفسه أيضاً. فليس باستطاعة النبي - وهو بشر - أن يصوغ كلاماً في صياغة القرآن فكيف يظنّ - ما ترى - أنّه من صنيعه، وهو عاجز عن أن يأتي بمثله حتى ولو كان كلّ الناس معه ظهيراً!

ولعلّ القائل بذلك مدسوس عليه فزعم أن القرآن ليس من كلام الله المعجز وأنّه قول بشر، وبذلك حاول أهل الريب التشكيك في أكبر دعامة من دعائم الإسلام.

وذكر الإمام بدر الدين الزركشي أنّه نقل بعضهم عن السمرقندي^٥ حكاية ثلاثة أقوال في المنزل على النبي ﷺ ما هو:

أحدها: الرأي السائد وهو: أن النازل على النبي ﷺ هو اللفظ والمعنى معاً، حسب تعبير صريح القرآن.

١ - «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعَ قُرْآنَهُ». القيامة ٧٥: ١٧ - ١٨.

٢ - «سَتَقَرُّوْكَ فَلَا تَنْسَى». الأعلى ٨٧: ٦.

٣ - «وَإِنَّكَ لَتَلَقِّي الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ». النمل ٢٧: ٦.

٤ - «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ». الإسراء ١٧: ١٠٦. «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ حِجَابًا مَسْتُورًا».

الإسراء ١٧: ٤٥؛ «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ». النحل ١٦: ٩٨.

٥ - هو: أبو بكر محمد بن اليمان السمرقندي (ت ٢٦٨) كان فقيهاً حنفياً ومتكلماً.

ثانيها: أن جبرائيل إنما نزل بالمعاني خاصّة، وأنه ﷺ كان قد صاغها في صياغة لغة العرب. و تمسك القائل بذلك بظاهر قوله تعالى: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ»^١ وقوله: «فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ»^٢ زاعماً أن ما يعيه القلب هي المعاني دون الألفاظ الخاصّة بمدرك السمع!

ثالثها: أن جبرائيل هو الذي كان يفرغها في قوالب الألفاظ بلسان عربي مبين كان يلقيها على النبي ﷺ و من ثمّ كان أهل السماء استمعوا إلى قرآن جبرائيل وجعلوا يقرأونه بالعريّة. ولا مستند لهذا القول سوى ما زعموه من روايات نزول القرآن جملةً إلى البيت المعمور أو بيت العزّة في السماء الدنيا أو الرابعة، ثمّ نزوله تدريجياً على رسول الله ﷺ في طول عشرين سنة:^٣

قال الجويني^٤: الوحي على قسمين: أحدهما أن يأمر الله جبرائيل بأن يقول للنبي: افعل كذا أو أن الله أمر كذا. فكان جبرائيل يتلقّى المعنى ويلقيه على قلب النبي. الثاني أن يقول له: اقرأ على رسول الله بكذا، فهذا يلقيه بلفظه الذي كان يتلقّاه من غير تبديل، كما كان الملوك يكتبون الرسائل ويرسلونها على أيدي الرسل فيوصلونها من غير تصرّف أو تغيير....

قال جلال الدين السيوطي - بعد نقل كلام الجويني -: والقرآن من قبيل الثاني، كان يتلقّاه جبرائيل بلفظه ويلقيه على النبي كما تلقّاه من غير تصرّف فيه لافي لفظه ولا في معناه، ولم يجزله إلقاء المعنى فقط. والسّرّ في ذلك أن المقصود من القرآن التعبّد بلفظه وراء التعبّد بالعمل بمعناه، ولأنّه دليل الإعجاز، فلا يستطيع أحد أن يأتي بلفظ يقوم مقامه، لا جبرائيل ولا غيره، وأنّ تحت كلّ حرف منه مقاصد لا تحصى. فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليها...^٥

٢ - البقرة ٢: ٩٧.

١ - الشعراء ٢٦: ١٩٣-١٩٤.

٣ - البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ونقله السيوطي في الإتقان، ج ١، ص ١٢٦.

٤ - هو أبو المعالي إمام الحرمين، الفقيه الشافعي أستاذ الغزالي. له مصنّفات في مختلف العلوم.

٥ - الإتقان، ج ١، ص ١٢٧ - ١٢٨.

قال الزرقاني: وقد أسفّ بعض الناس فزعم أن جبرائيل كان ينزل على النبي ﷺ بمعاني القرآن، والرسول يعبر عنها بلغة العرب. وزعم آخرون أن اللفظ لجبرائيل وأن الله كان يوحى إليه المعنى فقط. وكلاهما قول باطل أثيم، مصادم لصريح الكتاب والسنة والإجماع، ولا يساوي قيمة المداد الذي يكتب به. وعقيدتي أنه مدسوس على المسلمين في كتبهم. وإلا فكيف يكون القرآن حينئذ معجزاً واللفظ لمحمد أو لجبرائيل؟! ثم كيف تصح نسبته إلى الله واللفظ ليس لله؟!^١

وأما الآيات التي استند إليها هذا القائل، فعلى عكس مطلوبه أدل! ذلك لأن المراد بالقلب فيها هو شخصيّة الرسول الباطنة الآهلة لتلقّي الوحي من عند الله وليس هذا العضو الصنوبري الكامن في الصدور. حيث إن أجهزة الإدراك عندنا لم تُعدّ لاستلام هكذا تلقّيات ممّا وراء المادّة، وإنما هي تعمل في إطار محدود. ونظير هذه المحدوديّة في المادّة، الأمواج اللاسلكيّة تتلقّاها أجهزة خاصّة بذلك، تلقّياً بنفس الألفاظ وحتى الصور والأشكال والألوان من مكان بعيد، ممّا لا يمكن تلقّيها بهذا الحسّ الظاهري العاديّ. وهكذا النفوس المستعدّة تستأهل لإدراك أمور تعجز الأحاسيس العاديّة عن إدراكها مادامت على كثافتها الأولى ولم تبلغ لطافتها المتناسبة مع الملاء الأعلى!

على أن الآية من سورة الشعراء «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ... بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» ناصّة على أن النازل من عند الله وعلى يد أمينه جبرائيل، هو هذا القرآن بنصّه ولفظه العربي المبين! فالآية على عكس مطلوب المستدلّ أدل!

وقد نسب هذا القول إلى «معمر بن عبّاد السلمي» (ت ٢١٥) من زعماء المعتزلة،^٢ نسبة مأخوذة من قياس المساواة، إذ لا تصريح له بذلك وإنما هو لازم كلامه ومذهبه في

١ - مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، ج ١، ص ٤٩.

٢ - هو أبو المعتمر معمر بن عمرو، وقيل: ابن عبّاد البصري، كان بينه وبين النظام مناظرات و منازعات. سير أعلام النبلاء للذهبي، ج ١٠، ص ١٧٦/٥٤٦.

كلامه تعالى فيما زعموا لأنّه قائل بأنّ الكلام في ذاته عرض، والعرض عند المعتزلة حركة، وهو قائم بجسم، فيستحيل أن يقوم به تعالى إذ لا يكون محلاً للأعراض. فليس كلامه تعالى سوى ما يبدو من المحلّ الصادر منه إن شجرة أو إنساناً. فالكلام الصادر من الشجرة فعل لها، والصادر من إنسان، فعل له. وإن كان بإرادة الله ومشيئته سبحانه...^١ قالوا: فمعنى ذلك: أنّ كلامه تعالى الصادر عن محلّ، عبارة عن استعداد وقابليّة يخلقها الله في شجرة أو يمنحها لإنسان، فيقوم هو بإنشاء كلام يتجلّى فيه إرادته تعالى. فالكلام الصادر من الشجرة فعلها والصادر من إنسان فعله، وإن كان في ذاته منسوباً إليه تعالى، لأنّه إنّما صدر وفق إرادة الله.

وهكذا استندوا إلى ما نسبته إليه الراوندي قائلاً: «وكان (أي معمر) يزعم أن القرآن ليس من فعل الله ولا هو صفة له في ذاته كما تقول العوامّ، ولكنّه من أفعال الطبيعة...». لكنّ أبا الحسين الخياط المعتزلي رفض هذه النسبة رفضاً باتّاً، قال: «إعلم - أرشدك الله إلى الخير - أنّ معمرًا كان يزعم أنّ الله هو المكلّم بالقرآن، وأنّ القرآن قول الله وكلامه ووحيه وتنزيله لا مكلّم له سواه ولا قائل له غيره، وأنّ القرآن مُحدث لم يكن ثم كان...»^٢. لكن رغم ذلك نجد أنّ بعض المستشرقين الأجانب،^٣ وتبعه بعض الكتاب الإسلاميين^٤ متابعه من غير تحقيق، ذهب إلى أنّ معمرًا يقول بأنّ القرآن ليس من كلامه تعالى، وأنّ الله سبحانه أعطى نبيّه قابليّة أن يصوغ كلاماً يفرغ فيه إرادة الله التي كان يتلقّاها بالوحي على نفسه.

وهو استنتاج باطل بعد كونه قياساً محضاً وليس من صريح كلامه؛ هذا وقوله تعالى:

١ - جاء في مقالات الإسلاميين، ج ١، ص ٢٦٨: «والفرقة الخامسة منهم أصحاب معمر، يزعمون أنّ القرآن عرض، ومحال أن يكون الله فعلاً في الحقيقة، لأنّهم يُحيلون أن تكون الأعراض فعلاً لله. وزعموا أنّ القرآن فعل للمكان الذي يُسمع منه، إن سُمع من شجرة فهو فعل لها، وحيثما سمع فهو فعل للمحل الذي حلّ فيه».

٢ - راجع: كتابه «الانتصار»، ص ١٠٤.

٣ - هو: «هري أوسترين ولفسين» في كتابه «فلسفة علم الكلام» ترجمة أحمد آرام، ص ٢٩٨ و ٣٠٢.

٤ - هو: «مقصود فراستخواه» في كتابه «زبان قرآن» ص ٣٠٥ وفي مقال له في مجلة «فرا راه» ع ١٢٣٧، ص ٢٣.

«وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا»^١ يؤكد على أن الله تعالى كان يكلمه بنفس هذا الكلام المعهود، وأنه حقيقة الكلام وليس عن مجاز أو استعارة. وإلا لم يصحّ هذا التأكيد (بالمفعول المطلق).

ويحمل قول معمر على أن الكلام المسموع من أي شيء إنما خلقه الله فيه لسمع منه، لا أنه من صنع ذلك الشيء. فإن سُمع من الهواء فهو فعل الهواء أي صادر منه وإن كان بخلقه تعالى فيه. وهكذا إذا سُمع من شجرة. أمّا الصادر عن إنسان مثل النبي ﷺ فهو بإلهام منه تعالى عليه، فهو أيضاً صنيعه تعالى وليس من صنع النبي نفسه.

صياغة القرآن صياغة خطاب لصياغة كتاب

من مميزات صياغة الكتاب هو الانسجام التام من بدء الكلام إلى الختام، فما من مقال في صحيفة أو رسالة في كتاب أو تصنيف أو تأليف إلا ويكون منتظماً على نضد ورصف منسجم وملتم مع بعض كالتئام حلقات السلسلة متماسكة بعضها مع بعض ويعبر عنه بالتناسق في الكلام. الأمر الذي يفقده المقال إذا كان في خطاب حيث لا يتقيد المتكلم فيه بمراعاة التناسق، لا اللفظي فقط بل وحتى المعنوي، فقد ينتقل في كلامه من موضوع إلى موضوع آخر بمناسبة يراعيها حال الخطاب، حتى ولو لم يكن بين المواضيع التي تعرض لها ذلك الربط الوثيق. الأمر الذي نجده في القرآن كثيراً. فهذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغياب، وكذا التنوع في الضمائر واختلافها مع المراجع وهكذا أسماء الإشارات أو من الظاهر إلى ضمير الخطاب وما شاكل ليس إلا لكونه منساقاً على أسلوب الخطابة لا الكتابة، وإلا لم يصحّ ذلك التنقل الفجائي والتبدل من حال إلى حال! ومن ثمّ جاز النطق بجمل معترضة أثناء الكلام إذا كان خطاباً لا كتاباً. وإليك من ميزات الخطاب نجدها في القرآن الكريم:

١ - التنقل الفجائي:

من ميزات الكلام إذا كان مقالاً في خطاب، جواز التنقل الفجائي من موضوع إلى موضوع ومن حالة إلى حالة أخرى قد لا تكون بينهما مناسبة ظاهرة، ومما يُعَدُّ عيباً في سرد الكلام إذا كان كتاباً لا إذا كان خطاباً معتمداً على قرائن المقام.

خذ مثلاً سورة القيامة، تبتديء بالكلام عن الإنسان وشأنه من قيام الساعة حتى تأتي إلى قوله تعالى: «بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ». وفجاءةً يتوجّه الكلام خطاباً إلى النبي ﷺ: «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ».

ويعود فوراً إلى مواجهة الإنسان بالتقريع عليه: «كَلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ». ثُمَّ يتحوّل إلى الكلام عن حالة الإنسان في يوم القيامة: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٌ...»^١ إلى آية ثلاثين. وبعدها يتحدث عن إنسان متبخرٍ لا صدق ولا صلّى ولكن كذب وتولّى ثُمَّ ذهب إلى أهله يتمطى... وهكذا نجد السياق يصول ويجول ويتحوّل ويتنقل... فتارة تشنيع وأخرى تقريع وثالثة تهويل وتفضيع حتى نهاية السورة.

فما هذا الكرّ والفرّ، والرجعة والإقدام، إلّا لكونه سياق خطاب لاسياق كتاب! فقد حصل التنقل في هذه السورة ست مرّات، وهذا من خصائص القرآن البديعة بلا ريب. يقول الإمام الرازي بصدد تبرير هذا النوع من الالتفات الفجائي (الشديد الانحراف) عند تفسير الآية: «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ...»: يجوز أن الرسول ﷺ اتفق له عند نزول هذه الآيات أن استعجل بقراءتها خوف الضياع، فلا جرم نهى عن ذلك لفوره. وهذا كما أنّ المدرّس إذا كان يلقي على تلميذه درساً فأخذ التلميذ يلتفت يميناً وشمالاً، فينبّه المدرّس لفوره ويقول له في أثناء ذلك الدرس: لا تلتفت يميناً وشمالاً، ثُمَّ يعود إلى الدرس.

فإذا ضبطت تلك المحاضرة بكاملتها مع ما تخللها من كلام - كما إذا سجلت على شريط - لم يعرف من لا علم له بالواقعة، وجه المناسبة في سياق هذا الكلام. ولكن من علم ذلك عرف أنه حسن الترتيب.^١

٢ - ظاهرة الالتفات

ومن سورة يس، تجد فيها بديعة الالتفات بيّنة:

«إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأُرَائِكِ مُتَكِنُونَ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ. سَلَامٌ، قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ. وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ - إلى قوله -: هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ...»^٢

فأولاً كان الكلام عن أصحاب الجنة بصورة غياب.

ثم تحوّل إلى صورة خطاب بالسلام عليهم ذلك اليوم.

وفجأة تحوّل الخطاب إلى المجرمين - إلى قوله -: «كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ». لكنّه رجع إلى

صورة الغياب في قوله: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ...».

وهذا النوع من التداور في الكلام لا يحسن في الكتابة، ويكون بديعاً في الخطاب.

وفي سورة الفتح:

«لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا. وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا...»^٣

بدأ بالكلام عن المؤمنين غياباً في خطاب موجه إلى النبي، وفجأة تحوّل إلى

الخطاب مع المؤمنين أنفسهم.

٢ - يس ٣٦: ٥٥-٦٥.

١ - التفسير الكبير، ج ٣٠، ص ٢٢٢-٢٢٣.

٢ - الفتح ٤٨: ١٨-٢٠.

وهي لطيفة بديعة تحسن في الخطاب لاثبت الكتاب!

وهذا نظير ما حكاه سبحانه عن عزيز مصر، خطاباً مع يوسف ويلتفت لفوره إلى امرأته يؤنبها: «يُوسُفُ أَغْرِضْ عَنْ هَذَا. وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ»^١. الأمر الذي يصحّ حال المواجهة بالكلام شفاهاً لا غير.

وفي سورة الحمد، تبتديء بتمجيد الله سبحانه غياباً، ثُمَّ يتحوّل الكلام إلى مسألته تعالى خطاباً. وهو من بديع الالتفات بيّناه في التفسير.

وفي سورة عبس تبتديء بالعتاب غياباً «عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى». ثمّ مواجهة خطاباً مع الرسول «وَمَا يُذْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي...»^٢.

وفي سورة الأنفال: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ. قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ». كلام عن المؤمنين غياباً في خطاب مع النبي. وفجأة يتوجّه الخطاب مع المؤمنين: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ...»^٣ وما ذلك إلا لكونه في صياغة خطاب.

وفي سورة الأعراف: «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً. ذَلِكَ خَيْرٌ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» نراه تعالى يواجه بني آدم في الخطاب معهم مشافهةً ويكتمل كلامه وكأنه يتكلّم عن غائبين. ثُمَّ يكرّر عليهم راجعاً ليخاطبهم بقوله: «يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ...»^٤.

كان الخطاب أولاً مع بني آدم بالمواجهة. ثُمَّ صُرف الكلام إلى بيان الحكمة من غير مواجهة لأحد. ثُمَّ رجع إلى ما كان عليه أولاً من الوعظ والإرشاد والتحذير والإنذار.

٣- مراعاة الروي

من مزايا السجع في الكلام مراعاة الروي إذا لوحظ منطوقاً لا مكتوباً. وفي القرآن كثير من التسجيع على حساب النطق بالكلام لاثبته محض كتاب.

٢- عبس ٨٠: ١-٣.

٤- الأعراف ٧: ٢٦-٢٧.

١- يوسف ١٢: ٢٩.

٣- الأنفال ٨: ١.

مثلاً قوله تعالى: «بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ».^١ إنما يلتئم الكلام سجعاً في حالة الوقف على كلٍّ من «بصيرة» و«معاذيره» عند النطق والقراءة بياء وراء وهاء في آخرهما. الأمر الذي لا يتحقق في الثبت والكتابة.

وهكذا قوله: «وَالْتَقَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ - إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ».^٢ إنما يلتئم السجع والروي لدى القراءة بالوقف على كلٍّ من «بالساق» و«المساق».

وقوله: «فَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ يَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ أَكْتَابِيهِ. إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ».^٣ فإنَّ الرويَّ فيها إنما هو على حساب النطق والوقف على السكون.

وقوله: «وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ. نَارُ حَامِيَةٍ».

فإنَّ الرويَّ فيها إنما يكون على حساب الوقف على التاء من «هاوية» و«حامية» ليلتئم مع هاء السكت في «ماهيّة». وهذا خاصٌّ بالتلاوة لا الكتابة.

وقوله: «وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ. وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ. وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ...»^٤ فحذفت الياء من «يسر» مراعاة للرويَّ حالة النطق بهذا الكلام.

هكذا تليت على النبيّ وتلاها على الناس ويجب الاتّباع أبداً. فحتّى الكتابة هنا تابعت التلاوة، نظراً لأنّها الأصل في القرآن!

٤- ألحان وأنغام

جانب خطير لوحظ في القرآن يتناسب وتلاوته لفظاً لا قراءته خطأً. وهو جانب نظامه الصوتي البديع المنتظم على ألحان وأنغام. كان بادئ ذي بدء هو المؤثر المستحوذ على شعور العرب قبل أن يتمكن في نفوسهم. وقد أمر النبيّ ﷺ أن يقرأ القرآن بألحان العرب وأصواتها تمهيداً لتحقيق هذا الغرض، وليس يتحقق إلّا في تلاوته جهاراً حيث

٢- القيامة ٧٥: ٢٩ و٣٠.

١- القيامة ٧٥: ١٤-١٥.

٤- الفجر ٨٩: ١-٤.

٣- الحاقة ٦٩: ١٩-٢٣.

يسوقها لحن الأداء، لاهمساً وراء ستار الخفاء.

هذا مضافاً إلى لحن الأداء المرعى في تعابيره إمّا تقريع أو تعنيف. تهديد أو تهويل. تبشير أو إنذار. تحسّر أو تحزّن وما شاكل، يتكفّله اللهج الصوتي المتناسب مع أحدها لا القراءة همساً.

الأمر الذي تغافله من زعم صياغة القرآن كتباً، لا حماسةً في خطاب! وقد قيل - قديماً -: القرآن، إنّما هو بقراءة ته لا بكتابته.

٥ - اتّكاء على دلائل من خارج النصّ

الكلام إذا كان في صياغة كتاب فلا بدّ أن تتوفّر دلائله في ذات التعبير، مسبقاً أو ملحقاً أو في الأثناء (قرائن متّصلة مرفقة) ولا يجوز الاتّكال على قرائن منفصلة.^١ الأمر الذي يجوز إذا كان الكلام في صياغة خطاب. والقرآن من هذا القبيل. والمعتمد في فهم معانيه غالبياً على معرفة أسباب النزول.

لا يجوز لمن ألّف كتاباً أو صنّف رسالة أن يعتمد لفهم مغالقه على معهودات خاصّة لا حضور لها عند العموم. ذلك أنّ خطابه عام ونداءه شامل لا يخصّ من حضر تلك الدلائل بالذات. أمّا القرآن فقد اعتمد في بيان معانيه وإدلاء مقاصده كثيراً على دلائل منفصلة عن النصّ عرفت بأسباب النزول، لا محيص لمعرفة معاني القرآن عن العلم بها مسبقاً. ولأصبح النصّ مبهماً إذا لم يعرف سبب النزول.

خذ مثلاً قوله تعالى: «إِنَّ الصّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا. وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ».^٢ فمن لم يعرف شأن نزولها حسب من ظاهر التعبير (لاجناح) أنّ نسك السعي ليست فريضة واجبة. لكنّه إذا عرف أنّها نزلت بشأن أولئك المؤمنين الذين تحرّجوا من السعي بين الصفا والمروة - بعد أن أُعيدت

١ - وممّا يجدر التنبّه له: أنّ القرينة العقلية - كدليل الحكمة - إذا كانت بيّنة، تعدّ من القرائن المتّصلة المرفقة وليست

بمنفصلة عن النصّ، فليتدبّر!

٢ - البقرة ٢: ١٥٨.

الأصنام عليهما - خوف أن يكون تكريماً لها كما كان يفعل المشركون. فنزلت الآية دفعاً لتوهم الحظر، وليس لمجرد الرخصة المبيحة. فهي رخصة لأداء هذا الواجب الشرعي من غير شائبة المنع. وهذا المعنى لا يفهم من الآية - ولا دلالة في نصّها - إلا بعد الإحاطة بسبب النزول.

والآيات من هذا القبيل كثيرة، الأمر الذي لا يجوز - حتمياً - في كتابة كتاب إذا كان منهجه عاماً ونداؤه شاملاً!

وهذا هو عمدة الدليل على أن صياغة القرآن صياغة خطاب لا صياغة كتاب!

لغة القرآن التي خاطب بها العرب والناس جميعاً صياغة القرآن في خطابه عامة

جاء القرآن ليخاطب العرب والناس جميعاً بلسان يفهمونه ويتعاهدون صياغته في يسر وسهولة، وهولسان: «العرف العام» والذي جرى عليه متعارف الناس في أساليب محاوراتهم العامة.

قال سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي - طاب ثراه - : لا شك أن النبي ﷺ لم يُبدع طريقة خاصّة لإفهام شريعته، وإنما واجه قومه بما ألفوه من أساليب التفاهم. وقد جاء بالقرآن ليفهموا معانيه ويدركوا مقاصده. وليتدبروا آياته ويأخذوا عظمتهم منه «هَذَا يَبَيِّنُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ»^١ «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ»^٢ «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»^٣ إلى غير ذلك من آيات كلّها تنمّ عن سهولة في فهم معاني القرآن ويسر في إدراك مقاصده الكريمة. ليس هناك صعوبة ولا تعقيد ولا التباس على المراجعين ...^٤

وهذا هو مقتضى حكمة بعث الرسل وإنزال الكتب «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ

١ - آل عمران ٣: ١٣٨.

٢ - القمر ٥٤: ١٧.

٣ - محمد ٤٧: ٢٤.

٤ - راجع: البيان - تلخيص - ص ٢٨١ - ٢٨٢.

قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ^١. «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»^٢. «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»^٣. «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»^٤. «فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»^٥. «قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»^٦. «وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ»^٧.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَيَّ بِكَلَامِ الْعَرَبِ وَالْمَتَعَارِفِ فِي لُغَتِهَا»^٨.

وهكذا كان العرب يفهمونه ويستسيغون عذوبته في سهولة من غير صعوبة!

ومن ثمَّ فإنَّ لسان القرآن - وهو لسان الوحي - لسان العرف العام، الذي خاطب به عامَّة الناس، على مختلف مستوياتهم ومبلغ مقدراتهم في إدراك مقاصد الكلام، كلُّ حسب استعداده الخاصِّ وسعة ظرفيته القابلة: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا»^٩. وهذا الاختلاف في مقدار الاغتراف يعود إلى تفاوت ظرفية القابل، أمَّا البيان الصادر من الفاعل فلا اختلاف فيه ولا تفاوت. والقرآن إنما خاطب عموم الناس بلسانهم وعلى وفق أساليب كلامهم المألوف، وإن اختلفوا في التلقِّي والبلوغ إلى مغزى الكلام! فالاختلاف فيهم وفي فهمهم، وليس في البيان أيَّ اختلاف، بعد كونه عامًّا شاملاً سعة الآفاق.

نعم إنَّ للقرآن ظهراً وبطناً ومحكماً ومتشابهاً، ممَّا يوجب تفاوتاً في دلالة الكلام ظهوراً وخفاءً، وضوحاً وإيهاماً، لكنَّه لا يمسُّ جانب دلالة العامَّة المخصوصة بظهر القرآن ومحكمات آياته، دون دلالة الباطنة ومتشابهات الآيات، الخاصَّة فهمها بالراسخين في العلم من ذوي الاختصاص!

وإليك بعض الكلام في ذلك:

- | | |
|---|--------------------------|
| ١ - إبراهيم ١٤: ٤. | ٢ - يوسف ١٢: ٢. |
| ٣ - الزخرف ٤٣: ٣. | ٤ - الشعراء ٢٦: ١٩٣-١٩٥. |
| ٥ - الدخان ٤٤: ٥٨. | ٦ - الزمر ٣٩: ٢٨. |
| ٧ - النحل ١٦: ١٠٣. | |
| ٨ - كثر الفوائد للكراچكي، ص ٢٨٥ - ٢٨٦؛ وبحار الانوار، ج ٩، ص ٢٨٢. | |
| ٩ - الرعد ١٣: ١٧. | |

إِنَّ لِلْقُرْآنِ ظَهْرًا وَبَطْنًا

قال رسول الله ﷺ: «ما من آية في القرآن إلا ولها ظهر وبطن»! وقد سئل الإمام الباقر عليه السلام عن ذلك فقال: «ظهره تنزيله وبطنه تأويله».^١

وهذا من طبعي البيان القرآني أن يكون له ظهر لائح وبطن خفي، أمّا الظهر فهو المستفاد حسب تنزيله. أي بدلائل شواهد النزول يستفاد مفهوم هو محدود في إطار تلك المناسبة المستدعية للنزول، لا يتعدّاها. وهي دلالة ضيقة النطاق. غير أن هناك وراء هذه الدلالة الظاهرة دلالة على مفهوم عام مستفاد من فحوى الكلام بعد إلغاء الخصوصيات المكتتفة بأسباب النزول. وهذا المفهوم الواسع هو المقصود الأصلي الذي يُشكّل غرض الكلام، فهو تأويله أي يعود إليه مفهوم الكلام في نهاية المطاف.

مثال ذلك قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ».^٢

هذا خطاب مع المشركين حيث تشكّكوا في إمكان بعثة بشر «قالوا ما أنزل على بشر من شيء».^٣ فعرض عليهم أن يتساءلوا أهل الكتاب عن ذلك «فاَسْأَلِ الَّذِينَ يَقرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ»!^٤

هذا هو مفهوم ظاهر التنزيل المحدود بأناس خاصّة ومسألة خاصّة وعصر خاص... أمّا لو كانت الآية محدودة بهذا الظاهر الضيق النطاق، إذن لأصبحت لا فائدة فيها بعد فوات ذاك الأوان سوى حكاية أمرٍ ماضٍ. ولكانت كلّ آية قيد تاريخها، غير صالحة للجريان مع الأبد... لولا الإمعان في مفاد الآية العام، المستفاد من فحوى الآية بعد إلغاء الخصوصيات غير المرتبط بأصل المراد. إذ لا خصوصيّة في كونهم مشركين، بعد كون المناط هو جهلهم بحقيقة الأمر. كما لا خصوصيّة في مسألة النبوة، بل المراد: مطلق ما جهلوا من أمر الشريعة. وهكذا لا خصوصية في كون المسؤولين هم أهل الكتاب بعد

٢ - النحل ١٦: ٤٣-٤٤.

٤ - يونس ١٠: ٩٤.

١ - تفسير العياشي، ج ١، ص ١١.

٣ - الأنعام ٦: ٩١.

اعتبار علمهم بما جهل المشركون. إذن أصبح مفاد الآية: ينبغي لكل جاهل بشأن من شؤون الشريعة أن يراجع العلماء في ذلك «على الجاهل أن يراجع العالم فيما لا يعلم» هذا هو مفهوم الآية العام المستفاد من فحوى الآية، والتي كانت باطنة، أي خافية على قاصري النظر على ظاهر الآية البدائي. وهذا المفهوم العام هو تأويل الآية، أي مآلها في نهاية الأمر. وهو المقصود الأصلي من الآية والذي ضمن بقاءها مع الخلود.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «لو أن الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم - وكانت خاصة بهم - إذن لماتت الآية بموتهم، وما بقي من القرآن شيء. قال: ولكنه يجري كما تجري الشمس والقمر، كلما جاء منه شيء وقع...»^١.

فالقرآن بمفاهيمه العامة وبمحتوى بطونه الشاملة صالح للبقاء وجارٍ مع الأبد. غير أن معرفة هذه المفاهيم واستخراج هذه البطون بحاجة إلى إمعان نظر ودقة، الخاص بذوي الاختصاص من الراسخين في العلم. كما قال الإمام الباقر عليه السلام: «ونحن نعلمه» وتلا الآية: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ»^٢.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «وله ظهر وبطن، فظاهره حكم^٣ وباطنه علم^٤. ظاهره أنيق وباطنه عميق... لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائب...»^٥.

ومن ثم فإن العبارات (الظاهرة) للعوام (أي لعامة الناس على مختلف مستوياتهم) والإشارات (الخافية) للخواص (من العلماء الربانيين الراسخين في العلم) - كما قال الإمام الصادق عليه السلام^٦.

١ - تفسير العياشي، ج ١، ص ١٠ - ١١.

٢ - آل عمران ٣: ٧. راجع: تفسير العياشي، ج ١، ص ١٠ - ١١.

٣ - أي أحكام وتكاليف ظاهرة ومحدودة.

٤ - أي قواعد كلية في مفاهيم عامة صالحة للتطبيق في كل دور وكور.

٥ - الكافي الشريف للكليني، ج ٢، ص ٥٩٩.

٦ - بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٢٧٨. عن جامع الأخبار للصدوق، ص ٤٨.

منه آيات محكمات وأخر متشابهات

قال تعالى: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...»^١

وهكذا نجد في القرآن آيات محكمة بيّنة المراد ممّا يعود إلى بيان التكاليف والأحكام والمواعظ والآداب وماشابه، في وفرة وفيرة تعمّ أكثرية الآيات الغالبة، وهنّ أمّ الكتاب أي مراجع الأمة لمعرفة الحلال والحرام والسنن والأخلاق.

وأخر متشابهة المراد في عدد قليل ممّا يعود إلى أصول المعارف والمبدأ والمعاد ممّا يخفى كنه المراد لغير المتعمّقين... في مثل قوله تعالى: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»^٢ فقد يخفى وجه الشبه في الآية في دقّته وظرافته، سوى معرفة الظاهر من أنّه تعالى منور السماوات والأرض، الأمر الذي تفهمه العامّة من ظاهر الآية وتقتنع به. أمّا الخاصّة فيعرفون وجه الشبه في خفاء الكنه وكونه تعالى - كالنور - قائماً بذاته ومتنوراً وفي نفس الوقت منوراً لغيره، على ما أوضح بيانه الفيلسوف ابن رشد الأندلسي.^٣

والعمدة أنّ الآيات المتشابهة أيضاً ظاهرة المراد في ظاهر تعبيرها لدى العامة و من ثمّ يقتنعون بها ولا يرون فيها غموضاً، وإن كانت الدقائق والظرائف التي تحتويها الآية خافية على غير أهل الدقة والعلم والمعرفة.

فقد أصبحت الآيات القرآنية حسب ظواهر تعابيرها كلّها بيّنة لائحة على العامّة، وإن كانت في باطن خباياها خفيّة على غير ذوي الاختصاص من الراسخين في العلم فلم يعد شيء من الآيات باقية في طيّ الغموض أو التعقيد بصورة الإطلاق.

دفع التباس وشبهة

هناك قد يتساءل البعض عن مواقف العامّة بل الخاصّة تجاه لغة الوحي، وهي لغة الملأ الأعلى التي لا تتسانخ مع لغة أهل الأرض حسب مصطلحاتهم وأعرافهم. فما هي إلّا

٢ - النور ٢٤: ٣٥.

١ - آل عمران ٣: ٧.

٣ - الكشف عن مناهج الأدلة، ص ٨٩ - ١٠٧؛ وراجع: الجزء الثالث من التمهيد «لماذا في القرآن متشابه».

تعبير رمزيّة وإشارات وأحياناً استعارات هي قاصرة على إفادة تمام المراد! ومن ثمّ كانت تلك المخالفات - حسب ظاهر التعبير - في كثير من الكتب المنسوبة إلى وحي السماء! لكنّها شبهة أثارها الغربيّون تبريراً لموقفهم تجاه كتب زعموها وحي السماء، حيث فيها الكثير من الغثّ والهزيل والسخيف والسقيم، فحاولوا تغطيتها بمثل هذا التبرير غير المبرّر... إنّها أباطيل صنعتها أيادٍ أثيمة حرّفت وحي السماء، الأمر الذي لا تشبه شيئاً ممّا في القرآن المصون عن التحريف بعنايته تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^١ فلا تعقيد فيه ولا غموض فضلاً عن المخالفات.

نعم إنّ في القرآن تنوّعاً في البيان ممّا جعله على مستويات أرقى فأرقى وقد يبلغ القمّة في البيان ممّا لا تناله إلا يد الجهابذة وأصحاب العبقريّات، الأمر الذي لا يستدعي كونه غامضاً أو معقّداً بعد كونه واضح المفاد حسب ظاهره البدائي لعامة الناس، على ما أسلفنا.

وإليك بعض الكلام عن تنوّع مفاهيم القرآن وبذلك تختلف الأفهام:

تنوّع مفاهيم القرآن

تتنوّع مفاهيم القرآن حسب تنوّع المقاصد وأهداف الكلام، وبذلك تتفاوت درجات صعود البيان وارتفاعه، وإن كان الجميع على درجة البلاغة الفائقة. ومن ثمّ نستطيع تقسيم هذا التنوّع - إجمالياً - إلى أربعة أنواع:

١ - أحكام وتكاليف، مرتبطة بحياة الإنسان العمليّة من وظائف عبادية وأخرى معامليّة وما شاكل. فيجب أن تكون على مستوى فهم العامّة، لأنّهم المخاطبون بذلك على سبيل التكليف. مثل قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»^٢ فكلّ من يعرف اللغة العربية ويتعاهد أساليبهم الكلاميّة، يعرف أنّ هذا خطاب مع عامّة الناس وتكليف موجّه إليهم جميعاً ويعرف مغزاه تماماً من غير إيهام أو

إجمال. وهكذا قوله: «أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ».^١ وقوله: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ»^٢ و«لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ»^٣ وما شابه من عباديات. ومثلها قوله تعالى: «أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا»^٤ في المعاملات.

أمثال هذه التكاليف وردت في أيسر بيان وأسهل أساليب الكلام، حيث المخاطبون بها هم عامة الناس على مختلف مستوياتهم في الفهم والتلقي، فيجب أن لا يكون عليها أي غموض أو إيهام.

٢ - أمثال وحكم، جاءت لعظة الناس وإيقاظ ضمائرهم في الحياة الفردية والاجتماعية، وليكونوا على أهبة للبلوغ إلى مدارج الكمال الإنساني المنشود. وهذا على نمطين: أحدهما، الاعتبار بمآثر سالفه مرّت على حياة الإنسان، فجاء التذكّر بها لأجل العبرة بها، فلا تتكرّر المآثم ولتتأسّى بالمكارم من الأخلاق والشيم الفاضلة. فيجعل ما ارتكبه الإنسان في سالف حياته نصب عينيه ليعتبر بها، إن فضيلةً فيدوم عليها، وإن رذيلةً فلا يقتربها ثانية، حيث العاقل لا يلدغ من جحر مرتين.

مثلاً جاء بشأن أهل الكتاب ومآثم فعالهم ما يقضي بالعبرة ولكن أنى لهم وقلوبهم جافية! قال تعالى: «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ. فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً».^٥

وقال بشأن المشركين: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ: لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِلُنَا آيَةً! كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ».^٦

وبشأن ديار آل لوط كانت بمعرض من المشركين يندرهم بها: «وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَقْلًا تَعْقِلُونَ».^٧

وبصدد مقارنة حالة مشركي العرب بآل فرعون، حيث اختاروا الضلال على الهدى:

١ - البقرة ٢: ٤٣.

٢ - البقرة ٢: ١٨٣.

٣ - البقرة ٢: ٢٧٥.

٤ - البقرة ٢: ١١٨.

٥ - النساء ٤: ١٥٣.

٦ - الصافات ٣٧: ١٣٨.

«ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ. كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ»^١.

والنمط الآخر، ضرب الأمثال، وهو عبارة عن ترسيم حالة وتجسيد صفة باطنة، في صورة مثال مشاهد، وهو من تشبيه غير المحسوس بالمحسوس تجسيدا للخيال الحاكي عن واقعية ثابتة، من غير أن يكون مجرد تخيل. وهو من التصوير الفني في سبيل تحقيق أهداف رسالة التبليغ، ويعدّ الأداة المفضلة في هذا السبيل.

قال سيد قطب: التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن. فهو يعبر بالصورة المحسنة المتخيّلة، عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة. فإذا المعنى الذهني حياة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية. فأما الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة؛ فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل. فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول، الذي وقعت فيه أو ستقع... إنها الحياة هنا، وليست حكاية الحياة! وإنها قدرة البيان القرآني ومدى تأثيره في قوة التخيل...^٢ وفي القرآن الكثير من ضرب الأمثال: «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»^٣ «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ»^٤ ولقد عرضنا نماذج منها عند البحث عن ضرب الأمثال في القرآن.

١ - الأنفال ٨: ٥١ - ٥٤.

٢ - التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، ص ٢٩.

٤ - الإسراء ١٧: ٨٩.

٣ - الزمر ٣٩: ٢٧.

وهذان النوعان من البيان القرآني (بيان الأحكام والتكاليف، وعرض الحكم والأمثال) كانا من وضوح البيان حينذاك (حين نزول القرآن) بمكان. وهكذا يجري بوضوحه مع الأزمان. الأمر الذي يعمّ غالبية الآيات القرآنية، بلا أن يكون عليها شيء من الغموض والإيهام...

ويبقى النوعان الآخران - في أقلية من الآيات الكريمة - وهما: النوع المرتبط بالحديث عمّا وراء ستار الغيب والنوع المرتبط بأصول المعارف... ويكثر فيهما استعمال المجاز والاستعارة والكناية حيث علو المستوى وانخفاض مرتبة الألفاظ وتصوّرها عن شمول مثل هذه المعاني الشامخة. الأمر الذي قد يسبّب إجمالاً في التعبير أو إيهاماً في الأداء والبيان. وإنّما هو لبعد المستوى عن الأذهان العادية... ولنضرب لكلاً النوعين مثلاً:

٣ - تعابير عن عوالم الغيب. أمر لامحيص عنه في الكتب النازلة من السماء، ففيها طرف من إخبارات عن عوالم الغيب و عمّا يجري هناك من تدابير، أو يؤول إليه أمر هذه الحياة في نهاية المطاف.

مثلاً عند ما يصوّر الملائكة - وهي المدبّرات أمراً - ولبيان مراتب قدرهم في أمر التدبير، يذكر لها أجنحة مثني وثلاث ورباع.^١ ومن المعلوم أن لا أجنحة هناك كأجنحة الطيور هنا، وإنّما هي تعابير كناية عن مراتب قدرهم. واستعارة الجناح للقدرة وكذا الذراع والعضد شائع في المتعارف، من غير أن يكون المعنى الحقيقي مراداً...

وهكذا عند ما يتكلّم عن الحور والقصور والأشجار والأنهار، إنّها تعابير عن ملاذ الآخرة، كما أن النار والحرور كناية عن أليم عقابها، أمّا نفس هذه المفاهيم بعين مانجده في دار الدنيا، فغير معلوم بعد عدم تسانخ بين النشأتين.^٢

نعم عدم معرفتنا بحقيقة الأمر في ذلك، إنّما يعود إلى قصور في أفهامنا الخاصة

١ - «جاءل الملائكة رُسلًا أولي أجنحة مثني وثلاث ورباع»، فاطر ٣٥: ١.

٢ - وفي المجلد السابع من التمهيد تلميحات إلى ذلك حيث ردّ الشبهات الواردة بهذا الشأن وللسيد الطباطبائي إشارة إلى

ذلك في مقدمة تفسيره الميزان، ج ١، ص ٦ - ٩.

بمدركات هذه الحياة دون الحياة الأخرى غير المساخنة مع عالمنا المشهود.

٤ - أصول المعارف فيما يعود إلى المبدأ والمعاد وسر الحياة، إنها معرفة بأصل الوجود في البداية والختام، معرفة إجمالية عن الصفة، أمّا الكنه فغير مستطاع البتة، بعد كونها خارجة عن إطار حيطتنا و متعالية عن مدركات الأحاسيس.

إنّه تعالى و تقدّس، يوصف بتسع وتسعين صفة.^١ فمدى معرفتنا بذاته المقدسة هي مفاهيم هذه الأوصاف على حدّ ترجمة الألفاظ، أمّا المعرفة بالكنه، فليس بإمكاننا لمكان القصور. وفي آيات من آخر سورة الحشر جاء ذكر عمدة هذه الصفات: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ. هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ. سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى. يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».^٢

ومنتهى معرفتنا بالله - جلّ ثناؤه - عن طريق هذه الصفات هو: أنّ الله تعالى متّصف بأوصاف تحمل هذه العناوين في مفاهيمها الظاهرية. أمّا كيف الاتّصاف؟ وهل هو على غرار اتّصاف أحدنا بها؟ ولا شك أنّه غير ذلك. لأنّه تعالى لا يشبه أحداً من المخلوقين في أيّ صفة من صفاته «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ».^٣ ومن ثمّ لو كان الاتّصاف على نحو اتّصاف المخلوقين، فنفي الصفات عنه تعالى أولى. قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه»^٤ أي إن كان الاتّصاف بهذا النحو الذي يتّصف أحدنا به (على نحو المغايرة بين الموصوف والصفة) فهو يتنافى مع عقيدة الإخلاص في ذاته تعالى... وقد شرحنا هذه الناحية في مجاله المناسب.

وأما سرّ الخليقة فيمكننا المعرفة به من زاوية معرفة السرّ في خلقه الإنسان، خلق

١ - أوردها الصدوق في كتاب التوحيد (ص ١٩٤ - ٢٢٠)؛ والفيض الكاشاني في كتابه علم اليقين (ج ١، ص ٩٧-١٥٠)؛ وابن فهد الحلّي في خاتمة كتابه عدّة الداعي (ص ٢٩٨-٣١٢)؛ والسبزواري في شرح الأسماء الحسنى؛ و مصباح الكفعمي (ص ٣١٢-٣٤٧)؛ والرازي في شرح أسماء الحسنى (ص ١٥٢ - ١٥٣) وغير ذلك من الكتب المخصّصة لذلك.

٢ - الحشر ٥٩: ٢٢-٢٤.

٤ - نهج البلاغة، أولى خطبة.

٣ - الشورى ٤٢: ١١.

ليكون خليفة الله في الأرض، وَخُلِقَتِ الْأَشْيَاءُ لِأَجَلِهِ: «يا ابن آدم، خلقتُ الأشياءَ لأجلِكَ وخلقْتُكَ لأجلي».^١ فإذا كانت الخليفةُ كُلُّهَا إنما خلقت لتتجلّى عظمة الربّ تعالى، فهذا لا يكتمل بل لا يتحقّق إلّا بعد خلقه الإنسان الذي هو مظهر تامّ لتجلّيه تعالى في الخلق. ومن ثمّ لما خلقه الله بارك نفسه «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ».^٢ الأمر الذي تحقّق مع مسيرة الحياة في وجه الأرض ولا يزال تتجلّى قدرته تعالى الفائضة على يد هذا الإنسان الذي هو خليفة الله في الأرض. هكذا جاء وصف الإنسان في القرآن بما لم يأت في أيّ مكان.

القرآن واضح البيان

إذن فقد صحّ قوله تعالى: «هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ».^٣ بيان مكشوف وواضح لائح لا غبار عليه ولا تعقيد. الأمر الذي يعمّ الأنواع الأربعة، فالنوعان الأوّلان بحقائق مفاهيمهما في وضوح بيان. والنوعان الأخيران حسب ظاهر التعبير اللائح. وبذلك تبينّ وهن ما زعمه أناس من صُعوبة في فهم القرآن أو وعورة في بياناته الرشيدة، كلاًّ إنّها واهمة يرفضها واقع صراحة القرآن.

نعم هنا شيء، وهو أنّ لفهم القرآن شرائط طبيعيّة لا يمكن إغفاؤها والتي منها: معرفة لغة العرب المعاصرة لنزول القرآن... ومعرفة أسباب النزول... والإحاطة بأقوال السلف وما حقّقه الخلف... وغير ذلك ممّا هو مرتبط بجانب فهم كثير من الآيات الناضرة إلى عادات ورسوم جاهليّة كافحها الإسلام، وكذا حلّ مشكل تعابير - لو لا معرفة شأن النزول - تبدو معقّدة في ظاهر الأمر وشرائط مشابهة ينبغي مراعاتها، على غرار سائر الكتب المتوقّفه فهمها على مقدّمات لا محيص عنها، وليس على الإطلاق.

١ - حديث قدسي. راجع: علم اليقين للمحدث الكاشاني، ج ١، ص ٣٨١.

٢ - المؤمنون ٢٣: ١٤. ٣ - آل عمران ٣: ١٣٨.

الوحي والقرآن

ظاهرة الوحي

الوحي في اللغة:

الوحي: إعلامٌ سريعٌ خفيٌّ، سواء كان بإيماءٍ أو همسةٍ أو كتابةٍ في سرٍّ، وكلُّ ما ألقيته إلى غيرك في سرعةٍ خاطفةٍ حتّى فهمه فهو وحي، قال الشاعر:

نظرت إليها نظرةً فتحيّرت دقائق فكري في بديع صفاتها

فأوحى إليها الطرف أنّي أحبّها فأثر ذاك الوحي في وجناتها

وقال تعالى عن ذكرى الله ﷺ: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشيّاً»^١ أي أشار إليهم على سبيل الرمز والإيماء.

قال الراغب: أصل الوحي الإشارة السريعة، ولتضمّن السرعة قيل: أمرٌ وحيٌّ أي سريع. وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوتٍ مجردٍ عن التركيب، وبإشارةٍ ببعض الجوارح، وبالكتابة.^٢

وقال ابن فارس: «و، ح، ي» أصل يدلّ على إلقاء علم في إخفاء أو غيره إلى غيرك، فالوحي: الإشارة. والوحي: الكتاب والرسالة. وكلُّ ما ألقيته إلى غيرك حتّى علمه فهو

وحي، كيف كان.^١

ولعلّ هذا التعميم في مفهوم الوحي - عند ابن فارس - كان في أصل وضعه، غير أنّ الاستعمال جاء فيما كان خفياً:

قال أبو إسحاق: أصل الوحي في اللغة كلّها: إعلام في خفاء، ولذلك سمّي الإلهام وحيّاً.

وقال ابن بري: وحيّ إليه و أوحى: كلّمه بكلامٍ يخفيه من غيره. و وحي و أوحى: أوماً. قال الشاعر:

فأوحت إلينا و الأنامل رسلها^٢

أي أشارت بأناملها.

ولعلّ الخفاء في مفهوم الوحي جاء من قبل اعتبار السرعة فيه، فالإيماء السريعة تخفى - طبعاً - على غير المومئ إليه. يقال: موتٌ وحيٌّ أي سريع. ومنه الوحا الوحا أي البدار البدار، يقال ذلك عند الاستعجال، ومنه الحديث: «وإن كانت خيراً فتوحّه» أي أسرع إليه. قال ابن الأثير: والهاء للسكت.^٣

قال الزمخشري: أوحى إليه و أومئ بمعنى. و وحيّ إليه و أوحيت: إذا كلّمته بما تخفيه عن غيره. و توحى أي أسرع، قال الأعشى:

مثل ريح المسك ذاك ريحها صبّها الساقى إذا قيل: تَوَحَّ^٤

الوحي في القرآن

واستعمله القرآن في أربعة معانٍ:

- ١ - نفس المعنى اللغوي: الإيماء الخفية. وقد مرّ في آية مريم.
- ٢ - تركيز غريزي فطري، وهو تكوين طبيعي مجعول في جبلة الأشياء، استعارة من

٢ - لسان العرب، ج ١٥، ص ٣٨٠ و ٣٨١.

١ - معجم مقاييس اللغة، ج ٦، ص ٩٣.

٤ - أساس البلاغة، ج ٢، ص ٤٩٦.

٢ - النهاية، ج ٥، ص ١٦٣.

إعلام قولِي لإعلام ذاتي، بجامع الخفاء في كيفية الإلقاء و التلقّي، فيما أنّ الوحي إعلام سرّي، ناسب استعارته لكلّ شعور باطني فطري. ومنه قوله تعالى: «وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا»^١ فهي تنتهج وفق فطرتها، وتستوحي من باطن غريزتها، مذلّة لما أودع فيها من غريزة العمل المنتظم، ومن ثمّ فهي لا تحيد عن تلك السبيل.

و من ذلك أيضاً قوله تعالى: «وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا»^٢ أي قدّر. وقد استوحي العجّاج هذا المعنى من القرآن في قوله:

وحي لها القرار فاستقرّت وشدها بالراسيات الثّبت^٣

٣ - إلهام نفسي، وهو شعور في الباطن، يحسّ به الإنسان إحساساً يخفى عليه مصدره أحياناً، وأحياناً يُلهم أنّه من الله. وقد يكون من غيره تعالى.

و هذا المعنى هو المعروف عند الروحانيين بظاهرة التلبّاثي (التخاطر من بعيد) وهو خطور باطني آني لا يعرف مصدره. قالوا: إنّها فكرة تنتقل من ذهن إنسان إلى آخر والمسافة بينهما شاسعة أو إلقاء روعي من قبل أرواح عالية أو سافلة.^٤ وقيل: إنّها فكرة رحمانية توحىها الملائكة، تنفثها في روع إنسان يريد الله هدايته، أو وسوسة شيطانية تلقىها أبالسة الجنّ لغرض غوايته.

ومن الإلهام الرحماني قوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ قَالَتْ فِي الْمِمْصَرِّ وَلَا تَخَافِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ»^٥.

قال الأزهري: الوحي هنا إلقاء الله في قلبها. قال: وما بعد هذا يدلّ - والله أعلم - على أنّه وحي من الله على جهة الإعلام، للضمان لها «إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ». وقيل: إنّ معنى الوحي هنا الإلهام. قال: وجائز أن يلقي الله في قلبها أنّه مردود إليها وأنّه يكون مرسلاً. ولكن

٢ - فصلت ٤١: ١٢.

١ - النحل ١٦: ٦٨ و ٦٩.

٣ - لسان العرب، ج ١٥، ص ٣٨٠.

٤ - راجع: مطوّل الإنسان روح لاجسد للرؤف عبيد، ج ١، ص ٥٤٢.

٥ - القصص ٢٨: ٧.

الإعلام أبين في معنى الوحي هنا.^١

والشيخ المفيد رحمته الله أخذ الوحي هنا بمعنى الإعلام الخفي، وذلك في كتابه «أوائل المقالات». لكنه في كتابه «تصحيح الاعتقاد» جعله بمعنى رؤيا أو كلام سمعته أم موسى في المنام. وقال - بصدد إيضاح معنى الوحي -: أصل الوحي هو الكلام الخفي، ثم قد يُطلق على كل شيء قصد به إفهام المخاطب على السر له عن غيره.^٢

وأما التعبير بالوحي عن وسواس الشيطان و تسويله خواطر الشر والفساد فجاء في قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا».^٣ وقال: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ».^٤ ويفسره قوله: «مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ».^٥

كما جاء التعبير عما يلقيه الله إلى الملائكة من أمره ليفعلوه من فورهم بالوحي أيضاً في قوله تعالى: «إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا».^٦ و أما التعبير بالوحي عما يلقيه الله إلى نبي من أنبيائه بواسطة ملك أو بغير واسطة لأجل تبليغ رسالة الله فهو معنى رابع استعمله القرآن، وهو موضوع بحثنا في الفصل التالي.

الوحي الرسالي

«الوحي الرسالي» معنى رابع استعمله القرآن في أكثر من سبعين موضعاً، معبراً عن القرآن أيضاً بأنه وحي أُلقي على النبي صلوات الله عليه: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ».^٧ «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا».^٨ «أَتْلُ مَا أُوحِيَ

١ - لسان العرب، ج ١٥، ص ٣٨٠.

٢ - راجع: أوائل المقالات، ص ٣٩: وتصحيح الاعتقاد، ص ٥٦.

٣ - الأنعام ١١٢: ٦.

٤ - الأنعام ١٢١: ٦.

٥ - الناس ١١٤: ٤-٦.

٦ - الأنفال ١٢: ٨.

٧ - يوسف ١٢: ٣.

٨ - الشورى ٤٢: ٧.

إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ»^١

وظاهرة الوحي بشأن رسالة الله هي أولى سمات الأنبياء، امتازوا بها على سائر الزعماء والمصلحين أصحاب العبقريات الملهمين. ولم يكن النبي محمد ﷺ بدعاً من الرسل في هذا الاختصاص النبوي، ولا أول من خاطب الناس باسم الوحي السماوي، و من ثمّ فلا عجب في هذا الاصطفاء مادام ركب البشرية منذ بداية سيرها لم تنزل يرافقتها رجال إصلاحيون يهتفون بهذا النداء الروحي، ويدعون إلى الله باسم الوحي وتبليغ رسالة الله.

«أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ»^٢

ودفعاً لهذا الاستنكار الغريب قال: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا. وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا. رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا»^٣

والوحي الرسالي لا يعدو مفهومه اللغوي بكثير بعد أن كان إعلاماً خفياً، وهو اتصال غيبي بين الله ورسوله، يتحقق على أنحاء ثلاثة، كما جاءت في الآية الكريمة: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ»^٤

فالصورة الأولى: إلقاء في القلب ونفث في الروح. والثانية: تكليم من وراء حجاب،

٢- يونس ١٠: ٢.

١- العنكبوت ٢٩: ٤٥.

٤- الشورى ٤٢: ٥١.

٣- النساء ٤: ١٦٣-١٦٧.

بخلق الصوت في الهواء بما يقرع مسامع النبي ﷺ^١ ولا يرى شخص المتكلم ومن ثمَّ شُبِّهَ بمن يتكلم من وراء حجاب. والثالثة: إرسال ملك الوحي فيبلغه إلى النبي، إمَّا عياناً يراه، أو لا يراه ولكن يستمع إلى رسالته.

إذن، فالفارق بين الوحي الرسالي و سائر الإيحاءات المعروفة هو جانب مصدره الغيبي اتصالاً بما وراء المادة. فهو إيحاء من عالم فوق، الأمر الذي دعا بأولئك الذين لا يروقهم الاعتراف بما سوى هذا الإحساس المادي أن يجعلوا من الوحي الرسالي سبيله إلى الإنكار، أو تأويله إلى وجدان باطني ينتشي من عبقرية واجده، و سنبحث عن ذلك في فصل قادم إن شاء الله.

ملحوظة: بما أن الوحي ظاهرة روحية فإنه بأيِّ أقسامه إنما كان مهبطه قلبه الشريف (شخصيته الباطنة: الروح) سواء أكان وحياً مباشراً من الله أم بواسطة جبرائيل. قال تعالى: «فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ»^٢ «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ»^٣ والقلب هو لبَّ الشيء وحقيقته الأصلية.

قال سيّدنا الطباطبائي: «وهذا إشارة إلى كيفية تلقيه ﷺ القرآن النازل عليه، وأنّ الذي كان يتلقاه من الروح هي نفسه الكريمة من غير مشاركة الحواس الظاهرة التي هي أدوات لإدراكات جزئية خارجية... فكان ﷺ يرى شخص الملك ويسمع صوت الوحي، لكن لا بهذه السمع والبصر الماديتين، وإلا لكان أمراً مشتركاً بينه وبين غيره، ولم يكن يسمع أو يبصر هو دون غيره. فكان يأخذه برحاء الوحي وهو بين الناس فيوحى إليه ولا يشعر الآخرون الحاضرون...»^٤.

اللهم سوى ماورد بشأن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، كان يرى ما يراه النبي ويسمع ما

١ - لكن لا بهذه الأذن المادية وإلا لسمعه الآخرون أيضاً، بل بذلك السمع الذي يخص باطنه، قال تعالى: «فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى

٢ - البقرة ٢: ٩٧.

قَلْبِكَ»، البقرة ٢: ٩٧.

٣ - الشعراء ٢٦: ١٩٣-١٩٤.

٤ - تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٣٤٦. برحاء الوحي: شدة ألمه والإحساس بكرهه.

يسمعه إلا أنه ليس بنبي كما قال له الرسول.^١
وسياتي تفصيل أنحاء الوحي الرسالي وما كان يعرض له عند نزول الوحي.

التعريف بالوحي الرسالي

وبعد فیتلخص التعريف بالوحي الرسالي: في أنه عبارة عن اتصال روحي مباشر بين الملاً الأعلى وشخصية الرسول الباطنة. وذلك لخصائص فيه أهله لهذا الاتصال الغيبي الفذ. ومن ثم أمكنته من مكاشفات روحية صاحبة يرى من خلالها ملكوت العلى رؤياً بالعيان من غير ما التباس ولا إيهام. ويفترق عن الإلهام بمعرفة مصدر الإيحاء معرفة صاحبة كالشمس اللاتحة، على خلاف الإلهام الخافي مصدره على الشخص الملهم. كما ويفترق عن الاستلهام النفسي بأن هذا انعكاس الخواطر النفسية المتراكمة في النفس فتتجلّى أحياناً وربما من غير شعور. على خلاف الوحي الرسالي المستلهم من خارج النفس، من الملاً الأعلى من عند رب العالمين، معلوماً ذلك للنبي علماً قاطعاً لا يتردد ولا يشك فيما أوحى إليه أنه وحي السماء، ومن ثم لا يفرع ولا يتروّع على ما سنفضّل الكلام فيه.

وقفة عند مسألة الوحي

وبعد... فإنّ الوحي - الوحي الرسالي - في واقعه: اتصال روحي بما وراء المادة، يحصل للأنبياء بداعي الرسالة، فيحملون رسالة الله إلى الناس في وعي وأمانة وإخلاص. أمّا وكيف يحصل هذا الاتصال الروحي، وماهي مقوماته وماهي عناصره الأولى، فهذا أمر خفي علينا، نحن العائشين على الأرض، ولانملك سوى أحاسيس مادية ومعايير مادية، لاتمكننا فهم حقائق هي فوق المادة وما وراء المادة. وهذا الخفاء من جهة قصورنا الذاتي، دعى ببعض المتشاكسين إنكار النبوات من

رأس، متدرّعين بحجة تباعد ما بين العالمين، العالم العلوي والعالم السفلي، ذاك ناصع بيضاء لطيف، وهذا منكدر ظلماء كثيف، وإذا لا رابط بين نور وظلمة، ولا صلة بين لطيف وكثيف، فلا علة تربط أحد العالمين بالآخر، لكن إذا ما عرفنا من هذا الإنسان وجوداً برزخياً ذا جانبين، هو من أحدهما جسمانيّ كثيف، وفيه خصائص المادة السفلى. ومن جانبه الآخر روحاني لطيف، وهو ملكوتيّ رفيع، لم يكن موقع لهذه الشبهة رأساً.

الإنسان وراء شخصيته هذه الظاهرة، شخصية أخرى باطنة، هي التي تؤهله - أحياناً - للارتباط مع عالم روحاني أعلى، إذ كان مبدؤه منه وإليه منتهاه: «إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»^١ هذا هو واقع الإنسان الحقيقي، ذو التركيب المزدوج من روح وجسم، ومن ثمّ فهو برزخ بين عالمي المادة وما وراء المادة، فمن جهة هو مرتبط بالسماء ومن أخرى مستوثق بالأرض. قال تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا» إلى هنا تكتمل خلقة الإنسان المادية، ثمّ يقول: «ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»^٢ وهذا الخلق الآخر هو وجود الإنسان الروحي، وهو وجوده الأصيل. الذي أشارت إليه آية أخرى: «وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ»^٣ قال الإمام الصادق (عليه السلام): «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقًا وَخَلَقَ رُوحًا. ثُمَّ أَمَرَ مَلَكًا فَنَفَخَ فِيهِ...»^٤ فهذا هو الإنسان، مخلوق متركّب من جسم هو مادّي، وروح هو لامادّي، فبوجوده المادّي خلق، وبوجوده اللامادّي خلق آخر. وبوجوده هذا الآخر يستأهل للاتصال بالملا الأعلى، لا بوجوده ذاك المادي الكثيف.

نعم جاءت فكرة إنكار الوحي، نتيجة للنظرة المادية البحتة إلى هذا الإنسان، وهي نظرة قاصرة بشأن الإنسان، سادت أوروبا في عصر نشوء الفكرة المادية عن الحياة، والتي جعلت تتقدّم وتتوسّع كلّما تقدّمت العلوم الصناعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأخذت المقاييس المعنوية في الحياة تتدهور تراجعاً إلى الوراء. وكادت الموجهة تطبق

١ - البقرة ٢: ١٥٦.

٢ - المؤمنون ٢٣: ١٢-١٤.

٣ - السجدة ٣٢: ٧-٩.

٤ - بحار الأنوار، ج ٦١، ص ٣٢، ح ٥.

العالم أجمع، لولا أن انتهزت الفكرة الروحية في أمريكا ومنها سرت إلى أوروبا كلها فجعلت مسألة الوحي تحيى من جديد.

قال الأستاذ وجدي: كان الغربيون إلى القرن السادس عشر كجميع الأمم المتديّنة يقولون بالوحي، وكانت كتبهم مشحونة بأخبار الأنبياء، فلمّا جاء العلم الجديد بشكوكه ومادّياته، ذهبت الفلسفة الغربيّة إلى أنّ مسألة الوحي، هي من بقايا الخرافات القديمة، وتغالت حتى أنكرت الخالق والروح معاً، وعلّلت ماورد عن الوحي في الكتب القديمة بأنّه إمّا اختلاق من المتنبأة أنفسهم لجذب الناس إليهم وتستخيرهم لمشيتّتهم، وإمّا هذيان مرضي يعتري بعض العصبيّين، فيخيّل إليهم أنّهم يرون أشباحاً، تكلمهم وهم لا يرون في الواقع شيئاً.

راج هذا التعليل في العالم الغربي، حتى صار مذهب العلم الرسمي. فلمّا ظهرت آية الروح في أمريكا سنة ١٨٤٦م وسرت منها إلى أوروبا كلها، وأثبت الناس بدليل محسوس وجود عالم روحانيّ أهل بالعقول الكبيرة والأفكار الثاقبة، تغيّر وجه النظر في المسائل الروحانيّة، وحييت مسألة الوحي بعد أن كانت في عداد الأضاليل القديمة. وأعاد العلماء البحث فيها على قاعدة العلم التجريبي المقرّر، لا على أسلوب التقليد الديني، ولا من طريق الضرب في مهامّ الخيالات، فتأدّوا إلى نتائج، وإن كانت غير مآقرّره علماء الدين الإسلامي، إلّا أنّها خطوة كبيرة في سبيل إثبات أمر عظيم كان قد أُحيل إلى عالم الأمور الخرافيّة.^١

جانب روحانيّة الإنسان

قلنا: إنّ موجة إلحاديّة لم تطل غير قرنين، كادت تطبق العالم المتمدّن، لولا أن قام في وجهها واقع الأمر، الذي تجلّى أخيراً على محيي العلم، فانقاد له العلماء المحقّقون أجمع، ومن ثمّ اندحرت تلك الفكرة الإلحاديّة، وتراجعت القهقريّ تراجعاً مع الأبد.

غير أنّنا نجد أنفسنا في ضرورة النظر إلى أدلّة أقامها فلاسفة قدماء ومحدّثون، بشأن

إثبات النفس، أي وجود الإنسان الباطن، ليكون هذا الإنسان مزدوج الشخصية: روحاً وجسداً، وليكون هذا الأخير آلة لإرادية يسيّرهما وجود الإنسان الباطني، الذي هو وجود الإنسان الحقيقي الأصيل. وهذه النظرة المزدوجة إلى الإنسان كانت ولا تزال هي الفكرة السائدة عن الحياة، في الأوساط المتديّنة في العالم القديم، وتواصلت في سيرها حتى حيتت معالمها من جديد، وكانت الأديان السماوية كلّها تؤيّدُها أيضاً وتجعلها الأساس لجميع تعاليمها وبرامجها في التشريع والعبادات.

وإليك بعض البراهين الفلسفية أولاً ممّا أقامها فلاسفة إسلاميون. وهي كثيرة ومتنوعة، اخترنا لك ما يلي، ثمّ نعقبها بأدلة حديثة جاء بها العلم التجريبي الحديث.

براهين فلسفية لإثبات النفس

جاءت الفلسفة العقلية بأدلة ضافية، تثبت وجود النفس بصورة واضحة، تكلم عنها الشيخ أبو علي ابن سينا في كتابيه «الشفاء» و«الإشارات». ثمّ تكلم عنها غيره من فلاسفة إسلاميين، كابن رشد، ونصير الدين، والرازي، والنيسابوري، وابن حزم، وصدر المتألّهين، والحكيم السبزواري، وأخيراً سيّدنا الطباطبائي. وغيرهم كثيرون. وإليك منها:

١- الإنسان في كينونة ذاته

لهذا الإنسان وجود باطن، يدعى بالنفس، هو الذي يشكّل كينونته الذاتية الثابتة، ويكون وجوده الأصيل الحقيقي، والذي لا يتغيّر مهما تغيّر هذا الجسد الظاهر. وهذا ما يجده كلّ إنسان من ذاته أنّه شيء وراء هذا الجسد. وتوضيحاً لهذا الجانب من وجود الإنسان الحقيقي نستوضح ما يلي:

✽ إنّنا نجد في كيّاننا الذاتي شيئاً نعبر عنه: بـ«أنا»، لا يمكننا التعبير عنه بغير هذا

اللفظ، كما لا نستطيع التعبير بهذا اللفظ عن أي شيء سواه في وجودنا.

حينما نقول: «أنا» نقصد من أنفسنا وجوداً باطناً هو الذي يشكّل كينونتنا الذاتية،

لا شيء آخر سواه، فلا نعبر عن أي جارحة من جوارحنا أو أي عضو من أعضائنا الجسدية، بـ «أنا» سواء أكانت أعضاء داخلية كالقلب والكبد والمخ والمعدة وأمثالها، أو كانت أعضاء خارجية كالرأس واليد والرجل والبطن وأمثالها كل ذلك لا يصح التعبير عنه بـ «أنا» بل ولا عن الجسم كله.

نعم عندما نريد النفس والذات - وهو وجود باطن حقيقي أصيل - نقول: أنا.

فالإنسان في كينونة ذاته وجود آخر غير وجوده الجسدي الظاهر.

* الإنسان يسند جميع ما في وجوده الجسدي - سواء كانت خارجية أم داخلية -

إلى نفسه، فيقول: رأسي، يدي، رجلي، قلبي، مخي، بدني، وهذا «المضاف إليه» في جميع ذلك، شيء وراء تلك «المضافات» كلها. الأمر الذي يدل على تباين ما بين الجسد وذلك الوجود الحقيقي الأصيل المنسوب إليه تلك الأشياء.

وأما إضافة النفس أو الروح إلى الذات: «نفسي»، «روحي» فهي من إضافة الشيء إلى نفسه كما في «ذاتي» بشهادة الوجدان بعدم فهم تغاير ما بين المضاف والمضاف إليه في ذلك، على عكسها في إضافة أعضاء الجسد إلى النفس.

* الإنسان ينسب جميع أفعاله وتصرفاته وهكذا جميع حالاته وصفاته إلى نفسه،

يقول: تكلمت، تعلمت، أعطيت، أخذت، سافرت، ذهبت، بعث، اشتريت ...

لا يريد بذلك إسنادها إلى شيء من جوارحه، لا يريد أن لسانه هو الذي تكلم. أو قلبه هو الذي تعلم. أو يده هي التي أعطت أو أخذت. أو رجله هي التي مشت أو ذهبت وإنما يريد أنه بذاته فعل هذه الأمور، وكانت جوارحه آلات توصل بها إلى مآربه وحاجاته.

فكل أحد يجد من نفسه وجوداً - وراء هذه الأعضاء الجسدية - هو الذي يفعل

ويتصرف وينسب إليه جميع حالاته وتقلباته.

* إننا نوجه الخطاب أو التكليف، وكل ما يستتبعه من مدح أو ذم أو تحسين أو تقبيح،

وكذا كل أمر أو نهى أو بعث أو زجر، إلى الإنسان، لا نريد به جسده ولا شيئاً من أعضائه

وجوارحه. وإنما نريد بذلك ذاته ونفسه، وهو المقصود بقولنا: «أنت» لا شيء آخر.

ونتساءل: من المخاطب بقولنا: أنت؟ ومن المأمور أو المنهي عندما نأمر أو نزجر؟ ومن الموجّه إليه المدح أو القدح؟

لا شك أنّه وجود الإنسان الحقيقيّ الثابت وهو ذاته ونفسه، ليس إلّا.

* إنّ في وجود هذا الإنسان شيئاً لا يغفل عنه أبداً، وما عداه فإنّه قد يغفل عنه أحياناً. الإنسان قد يغفل عن جسده وعن كلّ ما يتعلّق بجسده من أعضاء وجوارح داخلية وخارجية، لكنّه لا يستطيع الغفلة عن ذاته هو. فذاته متمثلة لديه في جميع حالاته وتقلّباته. فوجود الإنسان الحقيقيّ هو ذاته - الذي لا يغفل عنه أبداً - لا جسده ولا أعضاؤه - ممّا يغفل عنه أحياناً، لأنّ الذات - وهو حقيقة الشيء - هو الذي لا يغفل عنه وأمّا الذي يغفل عنه فيبدو أنّه ليس من الذات الأصل.^١

الأمر الذي يدلّ على أنّ وجود الإنسان الحقيقيّ شيء وراء الجسد، وهو ذاته ونفسه، لاشيء في وجود الإنسان يمكن التعبير عنه بالذات أو النفس سوى الروح، فهو وجود الإنسان الحقيقيّ الأصل.

٢ - الإنسان في صفاته وغمائزه

الإنسان يملك صفات وغمائز هي ثابتة له أو تبقى له طول الحياة، كما أنّ له صفات وحالات تتغيّر حسب تغيّر الأوضاع والأحوال. وأنّ صفاته الثابتة الغريزية صفات قائمة بنفسه ومن ثمّ فهي باقية مدى الحياة. وأمّا صفاته المتبدّلة - وتسمّى بعوارض - فهي قائمة بجسمه، ومن ثمّ فهي متغيّرة، الأمر الذي يدلّ على جانبين من وجود هذا الإنسان، وتوضيحاً لهذا الفرق بين نوعين من صفاته نشرح النقاط التالية:

* لا شك أنّ هذا الجسد، بما فيه من أجهزة وغدد وتلافيف وأعصاب وعروق،

١ - ومن هنا كان قولهم المعروف: «غير المغفول عنه غير المغفول عنه». لتكون الغير الأولى أداة معدولة، لأنّها صارت جزء الموضوع. والغير الثانية أداة سلب محصّلة، لأنّها لسلب النسبة حيثئذ. أي الذي لا يغفل عنه أبداً يختلف عن الذي يغفل عنه أحياناً.

وحتى العظام والغضاريف، في تغيّر وتبدّل دائم - ظاهرة الإحراق والتعويض - وقد قيل: إنَّ جسم الإنسان يتبدّل كلياً في كلِّ سبع سنوات.

وهذا التغيّر المستمرّ في جسم الإنسان يستدعي - طبعاً - تبدّلاً في صفات وحالات قائمة بهذا الجسم. أمثال الصحة والمرض والسمن والهزال والقوّة والضعف والطفولة والشباب والكهولة والهرم.

لكن الإنسان يملك إلى جانب هذه الصفات والأحوال المتغيّرة، صفات و غرائز ثابتة لا يعرضها أيّ تغيّر أو تبدّل رغم تبدّل الجسم وتغيّره، وهي صفات الحبّ والبغض والرغبة والرغبة، وملكات الكرم والبخل، والشجاعة والجبن، والسماحة والحسد، وماشاكلها من صفات ذاتيّة لا ترتبط مع الجسم أيّ ارتباط.

إذن فما هو المحلّ القائم به هذه الصفات الراسخة؟

لا شيء يصلح محلاً لها سوى النفس «الروح»!

وهنا اعتراض معروف نتعرّض له في الفصل القادم.^١

* الإنسان لا يزال ينمو وتستحكم قواه الجسديّة إلى حدّ معيّن، ثمّ يقف في مستوى واحد، ومن بعده يأخذ في الهبوط والانتكاس تدريجياً، فهو إلى العقد الثالث من عمره - تقريباً - آخذ في النموّ الجسدي، وإلى العقد الخامس هو على مستوى واحد وبعده يأخذ في ضعف تدريجي. حتى إذا طعن في السن يتسرّع هبوطه ضعفاً فوق ضعف.

«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ».^٢

هذه طبيعة الإنسان الجسديّة. وأمّا حياته العقليّة فلا تتساق مع ظاهرة الجسم في سرعة التبدّل والتغيّر، فهو لا يزال ينمو في قواه العقليّة وتزداد حيويّة ونشاطاً عبر العقود الخمسة من عمره، فبينما الجسم آخذ في الهبوط التدريجي منذ العقد الرابع، وإذا بالجانب العقلي من الإنسان بعد، مستمرّ في طريقه إلى الكمال، الأمر الذي يدلنا على أنّ وجود

الإنسان جانبيين، هو من أحدهما آخذ في الهبوط ومن الآخر آخذ في الصعود. ذاك سائر في الاكتمال، وهذا راجع في طريقه إلى الانتكاس.

* قد يحصل نقص في عضو أو أعضاء من جسد الإنسان، فيصبح الجسم ناقصاً لا محالة، لكن هذا النقص الجسدي لا يؤثر نقصاً في ذات الإنسان، فهو هو بعد، على كماله الإنساني الأول، ليس الإنسان الذي فقد رجله أو يده أو عضواً آخر من جسده خارجياً كان أم داخلياً، إنساناً ناقصاً في إنسانيته، وإن كان ناقصاً في هيكله الجسدي. ومن هنا نعرف أن في وجود الإنسان شيئين: روحاً وجسداً، والنقص في أحدهما لا يؤثر نقصاً في الآخر.

وأما القولة المشهورة: العقل السليم في البدن السليم، فتعني: أن الآلة كلما كانت أسلم كان العمل لها أتقن، نظراً لأن الروح يستخدم في فعاليات الحاضرة، آلات البدن مادام قيد هذا الجسد، فكلما كان البدن أكمل وأنشط كان العمل به أيسر وأتم.

٣- الإنسان وظاهرة الإدراك

الإنسان في داخل وجوده ذو طاقة جبّارة، تختلف تماماً عن قواه الجسدية المحدودة. إنه في جانب عقليته يذهب إلى أبعاد شاسعة لانهاية لها، ويتحلّق في أجواء لأمد لها، كما وينطلق إلى ما وراء المادة وإلى آفاق واسعة، انطلاقاً لاوقفة لها عند حدّ. إنه يدرك، وظاهرة الإدراك ذاته ظاهرة غير مادية، إذ لا يوجد فيها أي خاصية من خواصّ المادة إطلاقاً، إنها لا تقبل انقساماً إلى أبعاد ثلاثة. ولا تحمل ثقلًا ولا هي محدود بالجهات.

إنه يدرك، وقسم من مدركاته تفوق حدود المادة في جميع أبعادها ومميزاتها بصورة مطلقة: إنه يدرك معاني كلية ليست تتحقّق خارجياً ألبتة. إنه يفهم ملازمات عقلية، والملازمة ذاتها لا وجود لها سوى طرفيها اللازم والملزوم. إنه يعلم بأمور غائبة عن الحسّ. ويفكر في شؤون ما وراء الإحساس.

وبكلمة جامعة: الإنسان يعرف، والمعرفة في كيان الإنسان ظاهرة غير ماديّة، في حين أنّ اللاماديّ لا يقوم بماديّ، فأين محلّها من وجود الإنسان؟ ونتيجة على ذلك نعتزف - بالضرورة من بديهة العقل - أنّ وراء وجود هذا الإنسان الجسدي الظاهر، وجوداً آخر لاماديّ، هو «النفس» الذي تقوم به ظاهرة الإدراك، ومجال النفس أوسع من المادّة بنسبة فائقة.

وتوضيحاً لهذا الجانب النفسي من ظاهرة الإدراك نقول: قد تنعكس في ذهنية الإنسان - عندما يواجه منظراً طبيعياً - صورة منطبقة مع الواقع تمام الانطباق في جميع أبعادها وسماتها، من حركة ولون وزهور وأشجار، وجبال وأنهار، وأبعاد وأغوار. وتتجلّى هذه الصورة بنفس الأبعاد والسمات كلّما تذكّرها، فيجدها حاضرة نفسه على مقاييسها الأولى... تلك ظاهرة التذكّر، فياترى أين محلّها الذي تقوم به؟

وثانية نقول: الإنسان يجد صورة المنظر كلّما تذكّرها بنفس الأبعاد والمقاييس والحركات والألوان، كأنّه يشاهدها الآن، صورة طبق الواقع تماماً، إنّ هذه الصفحة التي تقع عليها هذه الصورة، وتسمّى بصفحة الذهن صفحة ذات أبعاد توازي نفس أبعاد المنظر، حسبما يجدها الإنسان حاضرة نفسه الآن. أين تقع هذه الصفحة المتّسعة من وجود الإنسان؟

إنّ جزئيات المخ، تنطبع عليها صور المحسوسات، لكنّها في غاية الصغر. لا تتناسب والأبعاد التي يجدها الإنسان عند التذكّر.

إنّنا لا ننكر وجود جزئيات مخيّة تحتفظ في نفسها صور المشاهدات، لكن ذلك وحده ليس إدراكاً ولا تذكّراً لأنّ هذه الصّور موجودة، وهي مستمرّة في وجودها حتى مع الغفلة، وتتجلّى مع التذكّر وعند التفات النفس. وهو إدراك متجدّد للصورة بعد أن كان إدراكاً لذات الصورة.

لعلّك تقول، إنّ تلك الصّور المنطبقة على جزئيات المخ قد تبدو للنفس وقد تخفى

وبهذا تعلل ظاهرتي «التذكر» و«الغفلة»!

لكننا نتساءل: إذا كانت هذه الصور تبدو وتخفى، فتجاه أي شيء تبدو، وعن أي شيء تخفى؟ وهذه المقابلة بين أي شيء وشيء؟ وبعبارة أخرى إن هذه الصور تتجلى. لكنها لمن تتجلى؟ ومن المواجه له؟ لاشك أن المواجهة أمر قائم بجانبين، فإذا كانت الصور المنطبعة تشكّل جانباً من هذه المواجهة، فأين الجانب الآخر المواجه له؟ نعم إن الصور المنطبعة على جزيئات المخ تتجلى أمام النفس، فالنفس شيء، وهذه الجزيئات شيء آخر. فالنفس وهو وجود الإنسان الباطن هو الذي يشكّل الجانب الآخر من هذه المواجهة النفسية، والنفس هي التي تدرك تلك الصور متى تذكرتها، وهو إدراك متجدد وإن شئت فسمّه التذكر.

إن جزيئات المخ أفلام تنعكس صورها على صفحة النفس الواسعة عند التذكر، وعندما تتجه النفس إلى ما خزنتها في آلة الإدراك. وبذلك تتحقق تلك المقابلة والمواجهة القائمة بطرفين.

فالصحيح: إن ظاهرة الإدراك والتذكر، ظاهرة نفسية، تقوم بنفس الإنسان، وهو وجود الباطن «الروح» ومن ثم لا توجد فيها خصائص المادة إطلاقاً، فلا محدودية ولا تراحم أبداً.

وأيضاً فإن الإدراك حكم للنفس: هذا ذاك أو ذاك هذا. وهذا يدلنا على أمرين: الأول: إن وراء هذه الصور المنتقشة على صفحة الضمير، وجوداً آخر هو الذي يحكم عليها بأن هذا ذاك أو ذاك هذا، وليس سوى النفس التي تحكم بذلك.

الأمر الثاني: إن الحكم ذاته بما أنه غير مادي - لعدم وجود خواص المادة فيه إطلاقاً - فإن الحاكم بذلك - وهو النفس - أيضاً غير مادي، بالمعنى المعروف للمادة. وذلك اقتضاءاً للسنخية بين الأثر - وهو الحكم - والمؤثر - وهو الحاكم.

كما أن الإدراك يتعلق بأمر كليّة هي ثابتة في صقع النفس لا تتغير ولا تتجدد، الأمر الذي يتنافى وظاهرة التغير والتجدد المستمرين في جميع جزيئات الجسم بصورة عامّة.

وأخيراً فإن ظاهرة التذكّر ليست سوى إعادة لإدراك أمر سابق، كان موجوداً وهو مستمرّ، وليس إدراكاً لشيء جديد، وإن كان نفس الإدراك جديداً.

إننا عندما نتذكّر شيئاً نجده عين ما وجدناه سابقاً، ومحفوظاً في خزانة الذهن، من غير ما تفاوت أو تغيير، فلو كان قائماً بغير النفس، أي بأجزاء هذا الجسم العنصري، لكان هذا المدرك - بالفتح - ثانياً غير المدرك أولاً، إذ لا شيء في الجسم إلا وهو آخذ في التبدّل والتغيّر لفترة محدودة، ولا سيّما إذا كان التذكّر بعد أمد طويل.

فإمّا أن نخطئ ذاكرتنا - التي حكمت بالعينية - أو نسلّم بلامادية ظاهرة الإدراك والتذكّر، الأمر الذي يجعل الأخير هو الصحيح، حيث كانت بداهة الوجدان هي المحكّمة في هذا الرفض أو القبول.

أدلة حديثة على وجود الروح

أمّا الفلسفة الحديثة فأخذت من التعمّق في علم الفزيولوجيا «علم وظائف الأعضاء»، براهين جلية على صحّة وجود النفس وتمييزها عن الدماغ ووظيفته:

أولاً: إنّ الأعصاب المنتشرة على سطح الجسم لا تؤثر فيها العوامل الخارجية على حدّ سواء، بل يقتضي لها مؤثّرات معيّنة لا هتزاز الألياف الدقيقة المؤلّفة منها. مثلاً إنّ التأثيرات النظرية لافعل لها في عصب السمع و بالعكس. فإذا اتّخذنا مثلاً حاسة البصر موضوعاً لبحثنا نرى أنّ الحركة التمرّجية في الأثير، بتأثيرها في شبكة العين، تحدث اهتزازاً في العصب البصري، وهذا الاهتزاز يمتدّ إلى الطبقة البصرية المستقرّة في وسط الدماغ ومن هناك يندفع إلى مركز الحواس، حيث ينتشر في القلالي الدقيقة، ويوقظ الخلايا العصبية المتعلقة بالتأثيرات البصرية. وعليه فكلّ نوع من التأثيرات الحسية تتفرّق ثمّ تتجمّع في مكان مخصوص من الدماغ وقد أثبت التشريح وجود أماكن معيّنة في الدماغ، ونواح محدودة يتجمّع فيها ويتكاثف ويتحوّل ماتنقله إليها الحواس من التأثيرات الخارجية. وقد قام علماء الفزيولوجيا ببعض امتحانات على الحيوانات الحية،

أظهروا بها أنهم بنزعهم عن هذه الحيوانات قطعاً أصلية من المادة المخية قد افقدوها قوة إدراك التأثيرات النظرية أو السمعية. بل أثبت العلامة «شيف» بالامتحان، أن الحرارة ترتفع في جزء من أجزاء دماغ الكلب، نسبة لنوع التأثيرات الواصلة إليه من إحدى الحواس.

وإذا سألنا الماديين: كيف تتحوّل هذه الحركات الاهتزازية، بعد وصولها إلى مراكزها النسبية من الدماغ، إلى أفكار فهمية؟ فيجبونا: أن هذه الاهتزازات، حينما تبلغ القلالي الحسية من الدماغ يحدث فيها من ردّ الفعل ما يحدث في قلالي النخاع الشوكي!

لكن غيرخاف على أحد ما يتمّ في حادث ردّ الفعل هذا، وهو: أن محرّكات الأعصاب الحسية تنقل إلى القلالي الدقيقة من النخاع الشوكي تهيجاً ينعكس إلى القلالي الغليظة، فتتهزّز له الأعصاب المحرّكة المناسبة لها، وعلى هذه الصورة يرتدّ الاهتزاز إلى نقطة مصدره تحت هيئة تأثير محرّك. هذا شرح ما يحدث في ضفدعة قطع رأسها، ومع هذا فتتشجّج رجلها لدى مسيسها بحامض مهيج.

والأمر نفسه يحدث في مؤثرات القلالي الحسية من الدماغ، أي أن القلية القشرية عندما يبلغها الاهتزاز الخارجي تنتصب لدرجة ما وتتنبّه حاسيتها الذاتيه، و تفرغ القوة الكامنة فيها، ثمّ تمتدّ الحركة إلى ما جاورها من القلالي وتوقظ القوة المضمورة فيها حتّى تبلغ القلالي الغليظة وهذه تنقلها إلى المادة الرمادية ذات الأخاديد، من الدماغ، التي تقوّي الاهتزازات، وتدفعها إلى الأعضاء تحت هيئة تأثير، أو بالأحرى: أمر محرّك.

إننا نسلّم مع ناكري النفس بكيفية مجرى الحسّ هذا، المعبر عنه بالاهتزاز العصبي، وبلوغه إلى الدماغ ثمّ ارتداده من هناك تحت هيئة أمر محرّك، ولكن فاعلمنا أن حادث خطير جرى ما بين البلوغ والارتداد وهو «حادث الإدراك» أي دراية الشخصية الإنسانية بما حدث لها من الأمور الخارجية، لأنّ تلك الاهتزازات والتهيجات العصبية ماهي إلا حركات مادية تولّد حركات أخرى، ولكنها لا تحدث إدراكاً وماتيجتها سوى أن تنبّه القوة العاقلة لإدراك مصدر هذا التنبيه، وعلته وأثره. وبدون ذلك لا يكون للاهتزاز أو الحركة الخارجية أدنى مفعول في قوة الفهم.

إنَّ القلية العصبية المركبة من كمّيات، متناسبة من الكوليسترين والماء والفسفور وحامض الأوميك... الخ ليست بذاتها قوّة مدركة. والحركة الاهتزازية هي بذاتها حركة ماديّة محضة، فكيف يولد اهتزاز هذه القلية العصبية وانتصابها إدراكاً؟ هذا ما عجز الماديون عن تبيانه، أمّا الفلاسفة الروحيّون فيعلموننا بوجود شخصيّة عاقلة فينا، تدعى «النفس» تنتبه بهذا الاهتزاز، إلى ما طرأ من الحوادث الخارجيّة وعندما يتمّ انتباهها هذا يحدث الإدراك!

ويؤيّد ذلك بأجلى بيان، حادث «الذهول».

مثلاً عندما نكون مستغرقين داخل حجرتنا في عمل من الأعمال، فربّما نغفل عن سماع تكتكة الساعة، بل حتى عن طرق ناقوسها أيضاً، ومع هذا فإنّ اهتزازات الصوت أثّرت في عصب سمعنا وبلغت حتى الدماغ من دون أن ننتبه لها. وما ذاك إلاّ لكون نفسنا مشغلة بأفكار أخرى لم تنتبه، ولا أثّرت فيها اهتزازات القلالي الدماغية فلم يحصل الإدراك السمعي.

وبالاختصار نجد أنّ المادّة هي بذاتها عديمة الاختيار، لا تولّد شيئاً من تلقاء نفسها، والمادّة الدماغية هي آلة لتبيان إحساسات النفس العاقلة، وأفكارها، فلا تعقل هي لما يصدر بواسطتها من التعبيرات الفكرية، كآلة الساعة مثلاً لا تدرك حركة الأوقات التي تشير إليها، كما لا تدرك قراطيس الكتاب الأفكار المسطرة عليها. «ومن زعم أنّ الدماغ يدرك الفكر، فهو كمن يزعم أنّ الساعة تدرك حركة الوقت. أو القرطاس يدرك معاني الكتابة!».

ثانياً: قرّر علماء الفزيولوجيا -إجمالاً- أنّ كلّ حركة تصدر من الإنسان أو الحيوان، يصحبها احتراق جزء من المادّة العضليّة. وكلّ فعل من الإرادة أو الحسّ يتأتّى عنه فناء في الأعصاب. وكلّ عمل فكريّ ينتج عنه إتلاف في الدماغ.

وبكلمة جامعة: إنّه لا يمكن لذرة واحدة من المادّة أن تصلح مرّتين للحياة، فعندما يبدو من الحيوان أو الإنسان عمل عضليّ أو عقليّ، فالجزء من المادّة الحيّة التي صرفت

لصدور هذا العمل تتلاشى تماماً. وإذا تكرر العمل فمادة جديدة تصلح لصدوره ثانية وثالثة وهلمّ جرّاً. وهذا الإِتلاف هو بمناسبة قوّة الظهورات الحيويّة، فحيثما اشتدّ ظهور الحياة ازداد تلف المادّة الحيّة.

نعم هذا التلف الدائم يصحبه تعويض مستمرّ من المادّة المستجدّة الداخلة في الدم بواسطة الهواء والمواد الغذائيّة.

وهذان العاملان - أي عامل الإِتلاف وعامل التجديد - مرتبطان ببعضهما في الكائن الحي ارتباطاً لا ينفصم. وبالإجمال يمكن القول: إنّ الإِتلاف شرط ضروريّ للتعويض. وهذا العمل الثاني - أي العمل التجديدي وهو عمل باطنيّ سريّ - لا ظهور له في الخارج، في حين أنّ عوامل الإِتلاف تبدو ظاهرة للعيان، فندعوها «ظواهر الحياة» وماهي إلّا بوادر الموت، لأنّ ظهورها لا يتمّ إلّا بإِتلاف جزء من أنسجتنا العضويّة.

ينتج ممّا تقدّم: أنّ في وسط تنازع هذين العاملين، يتجدّد جسمنا مراراً عديدة في مدار الحياة. ويتمّ هذا التجديد على ما ارتأى الفزيولوجي «موليشوت» في كلّ ثلاثين يوماً. أمّا «فلورنس» فيزعم أنّ ذلك لا يتمّ إلّا في سبع سنين. وقد قام هذا العلامة بامتحانات على الأرانب أثبت فيها تجدد عظامها ذرّة فذرّة في مدّة محدودة.

وبعد فإنّ ناكري النفس يزعمون أنّ قوّة الذاكرة عبارة عن اهتزازات فسفوريّة تتخزّن في القلية العصبية من الدماغ بعد وصول التأثيرات الخارجيّة إليها!

فإن صحّ ذلك - وإذا تقرّر أنّ كلّ ما فينا من العظام والأنسجة العضليّة والقلالي العصبية تتلاشى وتتجدّد في مدّة معلومة لا تتجاوز السبع سنين - اقتضى لقوّة الذاكرة أن تتناقص فينا بالتدريج، إلى أن تتلاشى في كلّ سبع سنوات، وأن نضطرّ في كلّ سبع سنين إلى تجديد كلّ ما تعلمناه سابقاً، والحال أنّنا نشعر بأنّ الأمر ليس كذلك وأنّ تيار المادّة المتجدّدة فينا باتصال، لم تحدث أدنى تغيير في ذاكرتنا. وأنّ أموراً حدثت لنا أيام الصبا تخطر على بالنا زمن الهرم.

وبالإجمال: كلّ ما فينا يؤيّد ثبات شخصيتنا، وعدم تغييرها، رغماً عن استبدال كلّ

ذرات كيانتنا المادّي.

وهذا دليل قاطع على وجود قوّة روحية فينا تدعى «النفس» يقيها جوهرها البسيط من التحوّلات والتقلّبات على المادّة الهيووليّة، وفيها ينطبع ذكر الحوادث الماضية والعلوم التي اكتسبناها بإجهاد العقل والفكر.

وقد يعترض البعض: بأنّ الخلايا المخيّة في تنقّلات ذراتها تدريجياً، لعلّها تنقل ما عليها من صور ونقوش ذاكريّة، إلى ذرات مستجدّة، كما تنتقل قسمات الوجه وألوان منطبعة على ظاهر الجسد، وحتى الخال، إلى ذرات جديدة من البشرة، ومن ثمّ يبقى شكل الجسد ولون الخال طول الحياة، وبذلك يعلّل - أيضاً - ظاهرة بقاء الذاكرة المنتقلة من ذرات فانية إلى ذرات مستجدّة في المخ.

لكن فاعلم هذا المعترض: أنّ المنتقل من الصفات الباقية، هي الطبعيّة الناتجة من داخل الذات، لا العارضة التي طرأت من أحوال المحيط الخارج. مثلاً: لون الخال إنّما يبقى، أي ينتقل من ذرات فانية إلى ذرات مستجدّة، لأنّه طبيعيّ ذاتيّ، فلا بدّ أنّ نفس الذرات التي كانت تشكّل ظاهرة الخال في حالة سابقة، أن تتبدّل وتتجدّد إلى ذرات أخرى تشكّل نفس الظاهرة أيضاً. أمّا الصفات العارضة كاللون العارض من لفحة الشمس، فإنّها تخصّ ذرات الجسم المواجهة للعوامل الأولى، فإذا فنيّت تلك الذرات المواجهة تدريجياً، فإنّ اللون العارض أيضاً يذهب تدريجياً، ما لم تتجدّد تلك العوامل الأولى.

وعليه فإنّ التي تودعها ذرات مخيّة فانية إلى ذرات مستجدّة، هي صفات ذاتيّة كقابلية الانطباع والانتقاش والتلقّي، أمّا نفس الصّور والنقوش، فبما أنّها صفات طارئة عليها، وليست ذاتيّة ناتجة من داخل الطبيعة، فلا بدّ أن تذهب تدريجياً مع فناء ذرات سابقة. ولا تعود باقية إلّا مع إعادة العوامل الأولى. اللهمّ إلّا أن نقول بأنّ النفس هي التي تكرر بقاء الصّور على الذرات المستجدّة، وهذا يلتئم مع مطلوبنا في هذا البحث.

ثالثاً: منذ قرن ونيّف وجدت طريقة بحثيّة تؤيّد وجود النفس بنوع حسّي، وهي

طريقة «المغنطيسيّة الحيوانيّة» وفيها يشاهد انفصال الروح عن الجسد وقيامها بأعمال مدهشة تنبى عن صحة وجودها الذاتي وصدور أعمال فكريّة بمعزل عن الحواس.

إنّ المغنطيسيّة الحيوانيّة - على ما حدّد منشئها الحديث «انطونيوس مزمر» - هي: عبارة عن سيّال رقيق جداً ينبعث من جسم الفاعل في المغنطيسيّة إلى الشخص المنفعل، بواسطة إشارات وحركات، بل نظرة حادّة تصدر من الأوّل إلى الثاني.

إنّ هذه الظاهرة الروحيّة قديمة جداً. لكنّها كانت أو كادت تعدّ متأخراً من الخرافات البائدة، حتى جاء العلماء الروحيّون «فيسان» و«كرنيليوس» و«باراسلوس» ممّن عاشوا في القرن الرابع عشر والخامس عشر، فأحيوا هذا العلم الروحي من جديد ووضعوا له أصولاً وقواعد، نشرها فيما بعد «انطونيوس مزمر»^١. ومن ثمّ شاع وذاع هذا العلم واعترف به العلماء جميعاً، فهو اليوم من الحقائق الراهنة التي تنمو وتزداد صيتاً وأعواناً. الأمر الذي لا يبقى معه شكّ في أنّ الإنسان في كينونته الباطنة وجوداً آخر، ذا طاقة جبّارة، يفعل بها أفعالاً يعجز عنها هذا البدن المادّي. وتضعف عنها قواه الجسديّة.

وقد جمع من هذه الظواهر، وأسماء علماء قاموا بتحقيقها وتمحيصها، الأستاذ رؤوف عبيد في كتابه «الإنسان روح لا جسد» ثمّ فصلها في «مفصل الإنسان روح لا جسد» فراجع.

وظاهرة روحيّة أخرى: «تحضير الأرواح» جاءت أيضاً - في العصر الأخير - لتؤيّد وجود الروح وراء هذه البدن العنصري المادّي، ليكون الإنسان وراء وجوده الظاهر المحسوس، وجوداً آخر باطناً، ينفصل عنه أحياناً - في هذه الحياة - ونهائياً بعد الممات. وقد ظهرت آية ذلك لأوّل مرّة في أمريكا سنة ١٨٤٦م، وسرت منها إلى أوروبا كلّها، و أثبتت بدليل علميّ تجريبيّ وجود عالم روحاني - وراء هذا العالم المادّي - أهل بالعقول الكبيرة والأفكار الثاقبة، ومن ثمّ تغيّر وجه النظر في المسائل الروحانيّة، وحييت مسألة بقاء الروح بعد مفارقة الجسد من جديد بعد أن كانت في عداد الأضاليل القديمة. وأعاد

العلماء البحث فيها على قواعد العلم التجريبي الحديث، ووصلوا إلى نتائج هامة، كانت خطوة كبيرة في سبيل إثبات أمر عظيم كان قد أُحيل إلى عالم الخرافات.

تألفت في لندرة من سنة ١٨٨٢م جمعية دعيت باسم «جمعية المباحث الروحية» تحت رئاسة الأستاذ جويك المدرّس بجامعة كمبردج، وهو من أكبر العقول في إنجلترا. وعضوية الأستاذ السير اوليفر لودج الملقب بدارون علم الطبيعة، والسير وليم كروكس أكبر كيماوي الإنجليز، والأستاذين فردريك ميرس، وهودسون، المدرّسين بجامعة كمبردج والأستاذ وليم جيمس المدرس بجامعة هارفارد بأمريكا، والأستاذ هيزلوب المدرّس بجامعة كولومبيا، والعلماء الكبار: غارني وباريت وبودمور، والعلامة الكبير شارل ريشية المدرّس بجامعة الطب الباريزية والعضو بالمجمع العلمي الفرنسي، والرياضي الكبير كاميل فلامريون الفلكي الفرنسي المشهور، وعدد كبير غيرهم من كبار علماء الأرض.

وكان الغرض من هذه الجمعية: البت في المسألة الروحية وتحقيق حوادثها بأسلوب النقد الصارم، والحكم بقبولها نهائياً في العلم إن كانت حقيقة. أو تقرير إبعادها عن العلم والفلسفة إن كانت من الأمور الوهمية.

فمضى على هذه الجمعية حوالي نصف قرن، حققت في خلالها ألوفاً من الحوادث الروحية، وعملت من التجارب في النفس وقواها، مالا يكاد يدرك، لولا أنه مدوّن في محاضر تلك الجمعية في نحو خمسين مجلداً ضخماً. فكان من ثمرات جهادها إثبات شخصية ثانية للإنسان، أي أننا أحياء مدركون في حياتنا الحاضرة، لا بكل قوى الروح التي فينا، بل بجزء من تلك القوى سمحت لنا بها حواسنا الخمس القاصرة. ولكن لنا فوق ماتعطيه لنا حواسنا هذه حياة أرقى من هذه الحياة، لا تظهر بشيء من جلالها إلا إذا تعطلت فينا هذه الشخصية العادية بالنوم العادي أو النوم الصناعي المغناطيسي أو بالموت.

وقد سجّل الأستاذ «فريد وجدي» شهادات ضافية من علماء كبار بهذا الشأن، في

دائرة معارفه،^١ والأستاذ «أمين الهاللي» في كتابه: المذهب الروحاني،^٢ والدكتور «رؤوف عبيد» في كتابه: الإنسان روح لا جسد،^٣ والأستاذ «جيمس آرثر. فندلاي» في كتابه: على حافة العالم الأثيري،^٤ وغيرهم كثيرون، فراجع.

فذلكة البحث

وخلاصة ما سبق من الأبحاث: إن الإنسان يملك في وجوده جانبين، هو من أحدهما جسماني، ومن الآخر روحاني، فلاغرو أن يتصل - أحياناً - بعالم وراء المادة ويكون هذا الاتصال مرتبطاً بجانبه الروحي الباطن. وهو اتصال خفي، الأمر الذي يشكل ظاهرة الوحي.

الوحي: ظاهرة روحية، قد توجد في آحاد من الناس، يمتازون بخصائص روحية تؤهلهم للاتصال بالملا الأعلى، إما مكاشفة في باطن النفس أو قرعاً على مسامع، يحس به الموحى إليه إحساساً مفاجئاً يأتيه من خارج وجوده، وليس منبعثاً من داخل الضمير، ومن ثم لا يكون الوحي ظاهرة فكرية تقوم بها نفوس العباقرة - كما يزعمه ناكرو الوحي - كلاً، بل إلقاء روحاني صادر من محل أرفع إلى مهبط صالح أمين.

قال تعالى: «أَكَاَنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ».^٥

نعم شيء واحد لا نستطيع إدراكه، وإن كنا نعتبره واقعاً حقاً، ونؤمن به إيماناً صادقاً، وهو: كيف يقع هذا الاتصال الروحي؟ هذا شيء يخفى علينا إذا كنا نحاول إدراكه

١ - دائرة المعارف: إثبات الروح بالبراهين الحسية، مادة روح: ج ٤، ص ٣٦٤-٤٠٠؛ والوحي وفلاسفة الغرب، مادة وحي، ج ١٠، ص ٧١٢-٧٢٠.

٢ - الباب الثاني: إثبات وجود النفس بالأدلة الطبيعية، ص ٣٦-٤٤؛ والباب الثالث: إثبات خلود النفس بالحوادث الروحية، ص ٦٢-٦٤.

٣ - مطوّل الإنسان روح لا جسد، الفصل التاسع، بين العقل والمخ، ج ١، ص ٦٤٩-٦٨١.

٤ - الفصل الثالث، المادة والعقل: ص ٤٧-٥١، ترجمة أحمد فهمي.

٥ - يونس ١٠: ٢.

بأحساسينا المادية أو نريد التعبير عنه بمقاييسنا اللفظية الكلامية، إنها ألفاظ وضعت لمفاهيم لا تعدو الحس أو لا تكاد. وكل ما باستطاعتنا إنما هو التعبير عنه على نحو التشبيه والاستعارة أو المجاز والكناية لا أكثر، فهو ممّا يدرك ولا يوصف، فالوحي ظاهرة روحية يدركها من يصلح لها. ولا يستطيع غيره أن يصفها وصفاً بالكنه، ماعدا التعبير عنها بالآثار والعوارض هذا فحسب.

الوحي عند فلاسفة الغرب

أشرنا فيما سبق أنّ فلاسفة أوروبا بعد أن عادوا إلى الاعتراف بوجود شخصية باطنة للإنسان، تسمّى بالروح، وعلموا أنّها هي التي كوّنت جسمه في الرحم وهي التي تحرّك جميع عضلاته وأعضائه التي ليست تحت إرادته كالكبد والقلب والمعدة وغيرها، فهو إنسان بها لا بهذه الشخصية العادية... عادوا يعترفون أيضاً بالوحي، الوحي الذي يدّعيه الأنبياء ملء كتبهم النازلة المنسوبة إلى السماء.

ولكن فسّروه تفسيراً يختلف عمّا قرّره علماء الدين الإسلامي - على ما سبق تعريفه بأنّه إلقاء من خارج الوجود إمّا قذفاً في قلب أو قرعاً في سمع -.

قالوا: الوحي عبارة عن إلهامات روحية تنبعث من داخل الوجود، أي الروح الواعية هي التي تعطينا تلكم الإلهامات الطيبة الفجائية في ظروف حرجية، وهي التي تنفث في روع الأنبياء ما يعتبرونه وحياً من الله، وقد تظهر نفس تلك الروح المتقبّعة وراء جسمهم، متجسّدة خارجاً فيحسبونّها من ملائكة الله هبطت عليهم من السماء، وماهي إلّا تجلّي شخصيتهم الباطنة، فتعلّمهم ما لم يكونوا يعلمونه من قبل، وتهديهم إلى خير الطرق لهداية أنفسهم وترقية أمتهم وليس بنزول ملك من السماء ليلقي عليهم كلاماً من عند الله.

هذا ما يراه العلم الأروبي التجريبي الحديث في مسألة الوحي.

ودليلهم على ذلك: أنّ الله أجلّ وأعلى من أن يقابله بشر أو يتصل به مخلوق، وأنّ الملائكة مهما قيل في روحانيّتهم وتجرّدهم عن المادّة فلا يعقل أنّهم يقابلون الله أو

يستمعون إلى كلامه، لأنّ هذا كلّهُ يقتضي تحيّزاً في جانبه تعالى، ويستدعي عدم التنزيه المطلق اللائق بشأنه جلّ شأنه. ولأنّ الملائكة مهما ارتقوا فلا يكونون أعلى من الروح الإنساني التي هي من روح الله نفسه، فمثلهم ومثلها سواء.

وبهذه النظريّة حاولوا حلّ ما عسى أن يصادفوه في بعض الكتب السماويّة من أنواع المعارف المناقضة للعلم الصحيح طبيعياً وإلهياً. فهم لا يقولون بأنّ تلك الكتب قد حرّفت عن أصلها الصحيح النازل من عند الله، ولكنهم يقولون بأنّ الشخصية الباطنة لكلّ رسول إنّما تؤتي صاحبها بالمعلومات على قدر درجة تجلّيها وعبقريّتها، وعلى قدر استعداده لقبول آثارها ومن ثمّ قد تختلط معارفها العالية بمعارف باطلة آتية من قبل شخصيّة العاديّة، فيقع في الوحي خلط كثير بين الغثّ والسمين، فتري بجانب الأصول العالية التي لم يعرفها البشر إلى ذلك الحين، أصولاً أخرى عاميّة اصطلاح عليها الناس إلى ذلك الزمان.^١

وبعد: فإذا ما أخضعتهم الحقيقة العلميّة، على طريقة تجريبيّة قاطعة، بأنّ وجود الإنسان الحقيقيّ هو شخصيّة الثانية القابعة وراء هذا الجسد، وأنّه يبقى خالداً بعد فناء الجسد، فما عساهم امتنعوا من الاعتراف بحقيقة الوحي كما هي عند المسلمين؟! لاشكّ أنّما وصلوا إليه خطوة كبيرة نحو الواقعيّة، لانزال تقدّرها تقديراً علمياً، لكنّها بلاموجب توقّفت أثناء المسير ودون أن تنتهي إلى الشوط الأخير.

إنّ منار العلم وضوء الحقيقة قد هدياهم إلى الدرب اللائح، وكادوا يلمسون الحقيقة مكشوفة بعيان، فوجدوا وراء هذا العالم عالماً آخرّاً مليئاً بالعقول. ووجدوا من واقع الإنسان شخصيّة أخرى وراء شخصيّة الظاهرة: فهاتان مقدّمتان أذعنوا لهما، وقد أشرفتا بهم على الاستنتاج الصحيح وصاروا منه قاب قوسين أو أدنى، لكنّهم بلاموجب توقّفوا، وأنكروا حقيقة كانوا على وشك لمسها.

١ - راجع: دائرة معارف القرن العشرين، ج ١٠، ص ٧١٥، فيما نقله عن العلامة «ميرس - myers» من كتابه «الشخصيّة الإنسانيّة»، ص ٧٧ فما بعد.

فعلى ضوء هاتين المقدمتين، لا مبرر لعدم فهم حقيقة اتصال روعي خفي يتحقق بين ملاً أعلى وجانب روحانية هذا الإنسان. فيتلقى بروحه إفاضات تأتيه من ملكوت السماء وإشراقات نورية تشع على نفسه من عالم وراء هذا العالم المادي. وليس اتصالاً أو تقارباً مكانياً لكي يستلزم تحيزاً، في جانبه تعالى. وأظنهم قاسوا من أمور ذاك العالم غير المادي بمقاييس تخص العالم المادي. مع العلم أن الألفاظ هي التي تكون قاصرة عن أداء الواقع، وأن التعبير بنزول الوحي أو الملك تعبير مجازي، وليس سوى إشراق وإفاضة قدسية ملكوتية يجدها النبي ﷺ حاضرة نفسه، ملقاة عليه من خارج روحه الكريمة. وليست متباعدة من داخل كيانه هو.

هذا هو حقيقة الوحي الذي نعترف به، من غير أن يقتضي تحيزاً في ذاته تعالى. أمّا التعليل الذي يعللون به ظاهرة الوحي، فهو في واقعه إنكار للوحي وتكذيب ملتوٍ للأنبياء بصورة عامة، كما هم فسروا معجزة إراء الأكمه والأبرص بظاهرة الهينوتوزم (المغناطيسية الحيوانية) فجعلوا من المسيح ﷺ إنساناً مشعوذاً - حاشاه - يستغل من عقول البسطاء مجالاً متسعاً لترويج دعوته، بأساليب خداعة ينسبها إلى الباري تعالى...!

ونحن نقدر ساحة الأنبياء من أيّ مراوغة أو احتيال مسلكي، وحاشاهم من ذلك. وماهي إلا واقعية بنوا عليها دعوتهم الإصلاحية العامة، واقعية يعترف بها العلم سواء في مراحل القديمة أو الجديدة الحاضرة. إذن لا مبرر لتأويل ما جاء في كتب الأنبياء من ظاهرة الوحي، اتصالاً حقيقياً بمبدأ أعلى.

نعم: إن ما بقي بأيدي الناس من تراجم كتب منسوبة إلى الأنبياء السالفين، لم تبق سائمة من تطاول أيدي المحرّفين، ومن ثمّ ففيها من الغث والسمين الشيء الكثير، ونحن نربأ بعلماء محققين أن يجعلوا من موضوع دراستهم لشؤون الأنبياء ﷺ تلكم التراجم المحرّفة.

أنحاء الوحي الرسالي

قال تعالى: «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخِيًا» أي إلهاماً وقذفاً في روعه، وهو إلقاء في الباطن، يحسّ به الموحى إليه كأنما كتب في ضميره صفحة لامعة، أو رؤياً في منام «أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» أي يكلمه تكليماً يسمع صوته ولا يرى شخصه، كما كلم موسى ﷺ بخلق الصوت في الهواء يخرق مسامعه، ويأتيه من كل مكان، وكما كلم نبينا ﷺ ليلة المعراج.

والتكليم من وراء حجاب كناية أو تشبيه بمن يتكلم محتجباً، أو المراد بالحجاب الحجاب المعنوي، لبعد الفاصلة بين كمال الواجب ونقص الممكن.

«أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا»: ملكاً من الملائكة «فَيُوحِي بِأُذُنِهِ مَا يَشَاءُ» إمّا إلقاء على السمع أو نقراً في القلب «إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ»

«وَكَذَلِكَ» أي على هذه الأنحاء الثلاثة: إلهاماً وتكليماً وإرسال ملك^١ «أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا»: هي الشريعة أو القرآن «مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^٢.

هذه أنحاء الوحي بوجه عام وبصورة إجمالية. أمّا بالنسبة إلى نبينا محمد ﷺ فكان يأتيه الوحي تارة في المنام، وهذا - أكثرياً - كان في بدء نبوته. وأخرى وحيّاً مباشريّاً من جانب الله، بلا توسط ملك. وثالثة مع توسط جبرائيل ﷺ. غير أن الوحي القرآني كان يخصّ الأخيرين إمّا مباشرة أو على يد ملك. وإليك بعض التفصيل:

١ - الرؤيا الصادقة

كان أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصادقة، كان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح - وهو كناية عن تشعشع نوراني كان ينكشف لروحه المقدّسة، تمهيداً لإفاضة روح القدس عليه صلوات الله عليه وآله - ثمّ حبّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء

يتحنّث فيه،^١ الليالي أولات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثمّ يرجع إلى خديجة فتزوّده لمثلها،^٢ حتى فجأه الحقّ، وهو في غار حراء: جاءه الملك فقال: «اقرأ...»^٣.

قال علي بن إبراهيم القمي: «إن النبي ﷺ لما أتى له سبع وثلاثون سنة، كان يرى في منامه كأنّ آتياً يأتيه، فيقول: يا رسول الله. ومضت عليه برهة من الزمن وهو على ذلك يكتمه، وإذا هو في بعض الأيام يرعى غنماً لأبي طالب في شعب الجبال إذ رأى شخصاً يقول له: يا رسول الله، فقال له: من أنت؟ قال: أنا جبرائيل أرسلني الله إليك ليتّخذك رسولاً...»^٤.

قال الإمام الباقر عليه السلام: «وأما النبيّ فهو الذي يرى في منامه، نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام ونحو ما كان رأى رسول الله ﷺ من أسباب النبوة قبل الوحي، حتى أتاه جبرائيل عليه السلام من عند الله بالرسالة...»^٥.

قوله: «قبل الوحي» أي قبل الوحي الرسالي المأمور بتبليغه. لأنّ هذا البيان تفسير لمفهوم «النبيّ» قبل أن يكون رسولاً. وهو إنسان أوحى إليه من غير أن يكون مأموراً بتبليغه. فهو يتصل بالملأ الأعلى اتصالاً روحياً، وينكشف له الملكوت كما حصل لنبيّنا ﷺ قبيل بعثته المباركة.

قال صدرالدين الشيرازي: «يعني أنّه ﷺ اتصفت ذاته المقدّسة بصفة النبوة وجاءته الرسالة من عند الله، باطناً وسراً، قبل أن يتصف بصفة الرسالة أو ينزل عليه جبرائيل معائناً محسوساً بالكلام المنزل المسموع. وإنّما جاءه جبرائيل معائناً حين جمع له من

١ - التحنّث: التحنّف، وهو الميل إلى الحنيفة، كناية عن التعبّد الذي هو مطهرة للعبد، قال ابن هشام: تقول العرب: التحنّث والتحنّف، فيبدلون الفاء من الثاء، كما في جدث وجدف أي القبر. قال: وحدّثني أبو عبيدة أنّ العرب تقول: فمّ في موضع

ثمّ، راجع: السيرة، ج ١، ص ٢٥١. ٢ - التزوّد: استصحاب الزاد.

٣ - صحيح البخاري، ج ١، ص ٣؛ وصحيح مسلم، ج ١، ص ٩٧؛ وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٩٨.

٤ - بحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٨٤، ح ١٤ و ص ١٩٤، ح ٣٠.

٥ - الكافي، ج ١، ص ١٧٦، ح ٣؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٦، ح ٢٧.

أسباب النبوة ما جمع للأنبياء الكاملين، كإبراهيم، من الرؤيا الصادقة والإعلامات المتتالية بحقائق العلوم والإحياءات بالمغيبات. والحاصل: أن النبي ﷺ استكمل باطنه وسرّه قبل أن يتعدّى صفة الباطن منه إلى الظاهر، فتصف القلب بصفة القلب محاكياً له، والأوّل نهاية السفر من الخلق إلى الحقّ، والثاني نهاية السفر من الحقّ بالحقّ إلى الخلق».^١ نعم ربّما كانت الرؤيا الصادقة سبيل الوحي إليه ﷺ فيلقى إليه العلم أحياناً في المنام. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «رؤيا الأنبياء وحي».^٢ ولكن لم يكن شيء من ذلك قرآناً، إذ لم يعهد نزول قرآن عليه في المنام. نعم وإن كان بعض رواه أسباباً لنزول القرآن، كما في قوله تعالى: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ...»^٣ فقد رأى النبي ﷺ ذلك، عام الحديبية^٤ وصدقت عام الفتح.^٥ وكما في قوله: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ»^٦ فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر، عن سعيد بن المسيّب، قال: رأى رسول الله ﷺ بني أمية على المنابر، فسأه ذلك، فأوحى الله إليه: إنّما هي دنيا أعطوها وهي قوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا...» يعني بلاء للناس.^٧

هذا... وقد ذكر بعضهم أن سورة الكوثر نزلت على رسول الله ﷺ في المنام، لرواية أنس بن مالك، قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءً، ثم رفع رأسه متبسّماً. فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله ﷺ؟ فقال: أنزلت عليّ آفا سورة، فقرأ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ...» الخ.^٨

قال الرافعي: إنّهم فهموا من ذلك أن السورة نزلت في تلك الإغفاءة، لكن الأشبه أنّه

١ - شرح أصول الكافي، (صدر المتألهين): كتاب الحجة، ج ٣، ص ٤٥٤.

٢ - أمالي الشيخ الطوسي، ص ٢١٥؛ راجع: بحار الأنوار، ج ١١، ص ٦٤، ح ٤.

٣ - الفتح ٤٨: ٢٧. ٤ - وهي سنة ست من الهجرة.

٥ - وهي سنة ثمان. ٦ - الإسراء ١٧: ٦٠.

٧ - اندر المثنون، ج ٤، ص ١٩١؛ وجامع البيان، ج ١٥، ص ٧٧.

٨ - الدر المثنون، ج ٦، ص ٤٠١.

خطر له في النوم سورة الكوثر المنزلة عليه قبل ذلك، فقرأها عليهم وفسرها لهم. قال: وقد يحمل ذلك على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي - ويقال لها: برحاء الوحي - وهي سبته شبه النعاس كانت تعرضه من ثقل الوحي.

قال جلال الدين: الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه، والتأويل الأخير أصح من الأول لأن قوله «آنفاً» يدفع كونها نزلت قبل ذلك، بل نزلت في تلك الحالة، ولم يكن الإغفاء إغفاء نوم بل الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي^١ وآنف بمعنى: قبيل هذا الوقت. أقول: لاشك أن سورة الكوثر مكّية، وهذا هو المشهور بين المفسرين شهرة تكاد تبلغ التواتر. قالوا: نزلت بمكة عندما عابه المشركون بأنه أتر لآعقب له، أو أنه مبتور من قومه منبوذ.

وهكذا لما مات ابنه عبدالله مشيت قريش بعضهم إلى بعض متباشرين، فقالوا: إن هذا الصابي قد بتر الليلة.

قال ابن عباس: دخل رسول الله ﷺ من باب الصفا وخرج من باب المروة، فاستقبله العاص بن وائل السهمي، فرجع العاص إلى قريش، فقالت له قريش: من استقبلك يا أبا عمرو آنفاً؟ قال: ذلك الأتر - يريد به النبي ﷺ - فأنزل الله - جلّ جلاله - سورة الكوثر، تسلياً لنفس نبيه الزكية^٢.

هذا وأنس عند وفاة النبي ﷺ لم يبلغ العشرين، إذ كان عند مقدمه ﷺ المدينة طفلاً لم يتجاوز التسع وقيل: ثماني سنوات،^٣ فكيف نثق بحديث منه يخالف إطباق الأمة على خلافه، وأنها نزلت بمكة في قصة جازت حدّ التواتر؟!

الأمر الذي يرجّح الوجه الأول من اختيار الإمام الرافعي، أو نجعل من رواية أنس حبلها على غاربها!

١ - الإتيان، ج ١، ص ٦٥-٦٦.

٢ - راجع: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، ج ٢، ص ١٤٢؛ والدر المنثور، ج ٦، ص ٤٠١.

٣ - أسد الغابة، ج ١، ص ١٢٧.

نعم أخرج مسلم والبيهقي هذه الرواية من وجه آخر، ليس فيه «أنزلت عليّ». قال أغفى النبي ﷺ إغفاءة ثم رفع رأسه فقرأ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ...» الخ ثم فسرها بنهر في الجنة. قال البيهقي: وهذا اللفظ أولى، حيث لا يتنافى وما عليه أهل التفاسير والمغازي من نزول سورة الكوثر بمكة.^١

٢ - نزول جبرائيل

كان الملك الذي ينزل على النبي ﷺ بالوحي هو جبرائيل عليه السلام فكان يلقيه على مسامعه الشريفة، فتارة يراه، إمّا في صورته الأصلية - وهذا حصل مرّتين - أو في صورة دحية بن خليفة. وأخرى لا يراه، وإنما ينزل بالوحي على قلبه ﷺ: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ».^٢

قال تعالى: «وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ». جبرائيل. مثال قدرته تعالى «ذُو مِرَّةٍ» أي ذو عقلية جبّارة «فَاسْتَوَىٰ» استقام على صورته الأصلية. وهذا هو المرّة الأولى في بدء الوحي «وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ»: سدّ ما بين الشرق والغرب «ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى».

فجعل يقترب من النبي ﷺ «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ. فَأَوْحَىٰ» الله بواسطة جبرائيل «إِلَىٰ عَبْدِهِ» محمد ﷺ «مَا أَوْحَىٰ. مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ»: فؤاد محمد ﷺ «مَا رَأَىٰ» فكان قلبه ﷺ يصدّق بصره فيما يرى أنه حقّ «أَفْتَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ. وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ» مرّة ثانية في مرتبة أنزل من الأولى «عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ. إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ»^٣ فكان الذي يراه حقيقة واقعة، ليس وهماً ولا خيالاً.

وقال: «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ»: جبرائيل «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ. وَمَا صَاحِبُكُمْ» محمد ﷺ «بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَءَاهُ»: رأى جبرائيل في صورته الأصلية «بِالْأُفُقِ

٢ - الشعراء ٢٦: ١٩٣-١٩٤.

١ - الدر المنثور، ج ٦، ص ٤٠١.

٣ - النجم ٥٣: ٢-١٧.

المبين»^١ إشارة إلى المرة الأولى أيضاً.

قال ابن مسعود، إنَّ رسول الله ﷺ لم ير جبرائيل في صورته إلاَّ مرتين، إحداهما أنه سأله أن يراه في صورته فأراه صورته فسدَّ الأفق. وأمَّا الثانية فحيث صعد به ليلة المعراج، فذلك قوله «وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى»^٢.

والصحيح أنَّ المَرتين كانت إحداهما في بدء الوحي بحراء. ظهر له جبرائيل في صورته التي خلقه الله عليها، مالئاً أفق السماء من المشرق والمغرب، فتهيَّبه النبي ﷺ تهيَّياً بالغاً، فنزل عليه جبرائيل في صورة آدميَّين فضمَّه إلى صدره، فكان لا ينزل عليه بعد ذلك إلاَّ في صورة بشر جميل.

والثانية كانت باستدعائه ﷺ الذي جاءت به الروايات: كان لا يزال يأتيه جبرائيل في صورة آدميَّين. فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه مرَّة أخرى على صورته التي خلقه الله، فأراه صورته فسدَّ الأفق. فقوله تعالى: «وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى» كانت المرة الأولى. وقوله «نَزَلَتْ أُخْرَى» كانت المرة الثانية.^٣

قال رسول الله ﷺ: وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلِّمني فأعي ما يقول.^٤
وقال الإمام الصادق عليه السلام: إنَّ جبرائيل كان إذا أتى النبي ﷺ لم يدخل حتى يستأذنه، وإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد.^٥

هذا... وكان جبرائيل - عندما يتمثل لرسول الله ﷺ - يبدو في صورة دحية بن خليفة الكلبي. وبتعبير أصح: يبدو في صورة شبيهة بدحية. كما جاء في تعبير ابن شهاب: كان رسول الله ﷺ يشبه دحية الكلبي بجبرائيل، حينما يتصوَّر بصورة بشر.^٦
وذلك لأنَّ دحية كان أجمل إنسان في المدينة، كان إذا قدم البلد خرجت الفتيات ينظرن إليه.^٧

٢ - الدر المنثور، ج ٦، ص ١٢٣.

١ - التكوير ٨١: ١٩-٢٢.

٣ - مجمع البيان، ج ٩، ص ١٧٣ و ١٧٥ و ج ١٠، ص ٤٤٦؛ والصافي في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٦١٨.

٥ - كمال الدين، ص ٨٥.

٤ - صحيح البخاري، ج ١، ص ٣.

٧ - الإصابة، ج ١، ص ٤٧٣.

٦ - الاستيعاب بهامش الإصابة: ج ١، ص ٤٧٤.

والسبب في ذلك: أن جبرائيل كان حينما يتمثل بشراً، يتمثل صورة إنسان خلقه الله على الفطرة الأولى، والإنسان في أصل خلقته جميل، فكان يتمثل جبرائيل في أجمل صورة إنسانية. وبما أن دحية كان أجمل انسان في المدينة، كان الناس يزعمون من جبرائيل - وهو يتمثل بشراً - إنه دحية الكلبي، ومن ثم كان العكس هو الصحيح. قال رسول الله ﷺ: كان جبرائيل يأتيني على صورة دحية الكلبي، وكان دحية رجلاً جميلاً. والظاهر أن الجملة الأخيرة هي من كلام أنس، راوي الحديث^١ أي على صورة تشبهها صورة دحية. وكان الصحابة يزعمونه دحية حقيقة، ومن ثم نهاهم رسول الله ﷺ أن يدخلوا عليه إذا وجدوا دحية عنده. قال: إذا رأيتم دحية الكلبي عندي فلا تدخلن علي أحد.^٢

وكان جبرائيل قد يتمثل للصحابة أيضاً بصورة دحية، كما في غزوة بني قريظة سنة خمس من الهجرة شاهدته الصحابة على بغلة بيضاء.^٣

وشاهده أيضاً علي عليه السلام دفعات بمحضر النبي ﷺ وتكلم معه، والنبي ﷺ راقداً.^٤ وأما نزول الملك عليه بالوحي من غير أن يراه فكثير أيضاً، إما إلقاء على مسامعه وهو يصغي إليه، أو إلهاماً في قلبه فيعيه بقوة. قال تعالى: «وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ».^٥

كان ﷺ في أوائل نزول الملك عليه بالوحي، يخشى أن يفوته اللفظ ومن ثم كان يحرك لسانه وشفتيه ليستذكره ولا ينساه، فكان يتابع جبرائيل في كل حرف يلقيه عليه، فنهاه تعالى عن ذلك ووعده بالحفظ والرعاية من جانبه تعالى، قال: «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجَازِلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ»^٦ وربما كان ﷺ

١ - المصدر؛ واسد الغابة، ج ٢، ص ١٣٠.

٢ - بحار الأنوار، ج ٣٧، ص ٣٢٦، ح ٦٠، عن كتاب حجة التفصيل لابن الأثير.

٣ - سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٢٤٥.

٤ - بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢١٠ و ج ٢٢، ص ٣٣١-٣٣٢، ح ٤٣؛ ومجمع البيان، ج ٨، ص ٣٥١.

٥ - الشعراء ٢٦: ١٩٥-١٩٢.

٦ - القيامة ٧٥: ١٦-١٩.

يقرأ على أصحابه فور قراءة جبرائيل عليه، وقبل أن يستكمل الوحي أو تنتهي الآيات النازلة، حرصاً على ضبطه وثبته، فنهاه تعالى أيضاً وقال: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا»^١ فاطمأنه تعالى بالحفظ والرعاية الكاملة. فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبرائيل، استمع له، فإذا انطلق قرأه كما أقرأه^٢ قال تعالى: «سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى»^٣.

وإشارة إلى هذا النحو من الوحي الذي هونكت في القلب قال ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفْثٌ فِي رُوعِي»^٤ وهو سواد القلب، كناية عن السر الباطن، والمقصود: روحه الكريمة.

٣- الوحي المباشر

ولعل أكثرية الوحي، كان مباشرياً لا يتوسطه ملك، على ما جاء في وصف الصحابة حالته ﷺ ساعة نزول الوحي عليه، كان ذا وطءٍ شديد على نفسه الكريمة، يجهد من قواه وتعثره غشوة منهكة، فكان ينكس رأسه ويتردد وجهه ويتصبب عرقاً، وتسطو على الحضور هيبة رهيبة، ينكسون رؤوسهم صموداً، من روعة المنظر الرهيب. قال تعالى: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا»^٥ قال الإمام الصادق عليه السلام: كان ذلك إذا جاءه الوحي وليس بينه وبين الله ملك، فكانت تصيبه تلك السببة^٦ ويغشاه ما يغشاه، لثقل الوحي عليه. أمّا إذا أتاه جبرائيل بالوحي فكان يقول: هو ذا جبرائيل أو قال لي جبرائيل...^٧

قال الشيخ أبو جعفر الصدوق: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَكُونُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ فَيَغْمِي عَلَيْهِ وَهُوَ يَنْصَابُ عِرْقًا، فَإِذَا أَفَاقَ قَالَ: قَالَ اللَّهُ كَذَا وَكَذَا؛ أَمْرُكُمْ بِكَذَا وَنَهَاكُمْ عَنْ كَذَا. قَالَ: وَكَانَ يَزْعَمُ أَكْثَرُ مُخَالِفِينَا أَنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ نَزُولِ جِبْرَائِيلَ. فَسُئِلَ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عليه السلام عَنِ الْغَشِيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَأْخُذُ النَّبِيَّ ﷺ أَكَانَتْ عِنْدَ هَبُوطِ جِبْرَائِيلَ؟ فَقَالَ: لَا، إِنَّ جِبْرَائِيلَ كَانَ إِذَا أَتَى

٢- الطبقات، ج ١، ص ١٣٢.

١- طه ٢٠: ١١٤.

٤- الإتيقان، ج ١، ص ١٢٩.

٣- الأعلى ٨٧: ٦.

٦- هي إغماءة تشبه النعسة.

٥- المزمل ٧٣: ٥.

٧- محاسن البرقي، كتاب العلل، ج ١، ص ٦٩، ح ١٢١؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٧١، ح ٣٦.

النبي ﷺ لم يدخل حتى يستأذنه، وإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد، وإنما ذلك عند مخاطبة الله عز وجل إياه بغير ترجمان وواسطة»^١.

وفيما يلي أوصاف جرت على السنة الصحابة، يذكرون مشهوداتهم عن الحالة التي كانت تعترى رسول الله ﷺ ساعة نزول الوحي عليه:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «نزلت على النبي ﷺ سورة المائدة، وهو على بغلته الشهباء، فثقل عليه الوحي حتى وقفت، وتدلّى بطنها، حتى رأيت سرّتها تكاد تمسّ الأرض، وأغمي على رسول الله ﷺ حتى وضع يده على ذؤابة شيبه بن وهب الجمحي...»^٢.

وقال عبادة بن الصامت: «كان إذا نزل الوحي على النبي ﷺ كرب له وتربّد وجهه»^٣. وفي رواية: «نكّس رأسه ونكّس أصحابه رؤوسهم فلمّا سرى عنه رفع رأسه»^٤.

وقال عكرمة: «كان إذا أوحى إلى رسول ﷺ وقد لذلك ساعة كهياة السكران»^٥.

وقال ابن أروى الدوسي: «رأيت الوحي ينزل على النبي ﷺ وإنّه على راحلته فترغو، وتقتل يديها حتى أظنّ أنّ ذراعها ينقصم، فربّما بركت وربّما قامت موتّدة يديها حتى يُسرّى عنه، من ثقل الوحي. وإنّه ليتحدّر منه مثل الجمان»^٦.

وقالت عائشة: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإنّ جبينه ليتفصد عرقاً»^٧. وقالت أيضاً: «إنّه كان ليوحى على رسول الله ﷺ وهو على

١ - كمال الدين، ص ٨٥؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٠، ح ١٢.

٢ - تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٨٨، ح ٢ والذؤابة، شعر مقدّم الرأس.

٣ - الطبقات، ج ١، ص ١٣١. «كرب» - بالبناء للمجهول -: أي انقبضت نفسه وتغيّرت حالته. «تربّد» أي تغيّر لون وجهه إلى الغبرة.

٤ - دائرة معارف القرن العشرين، ج ١٠، ص ٧١٢.

٥ - الطبقات، ج ١، ص ١٣١. «وقد» - بالبناء للمجهول -: أي غشي عليه. والموقوذ: من غلبه النعاس فصار كهياة السكران.

٦ - الطبقات، ج ١، ص ١٣١. «ترغو» أي تضجّ وتكابد من شدّة الثقل. «تقتل يديها» أي تباعد بينهما. «ينقصم» أي ينكسر. «قامت موتّدة» أي وقفت جامدة لا حراك لها، وثبتت قوائمها كالسمار المثبت في الأرض. «التحدّر»: الانصباب السريع، «الجمان»: اللؤلؤ. والواحدة: جمانة شبه بذلك قطرات عرق جبينه الطيب.

٧ - صحيح البخاري، ج ١، ص ٣. «التفصد»: قطع العرق الذي ينصب منه الدم بتدفق، استعارة لكثرة انصباب عرقه الطيب حين نزول الوحي.

راحلته فيضرب بجرانها»^١.

وقال ابن عباس: «كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي، يعالج من ذلك شدة، وألماً شديداً وثقلاً، ويتصدّع رأسه»^٢.

وقال ابن شهر آشوب: وروي أنه كان إذا نزل عليه الوحي، نكس رأسه ونكس أصحابه رؤوسهم. ومنه يقال: برحاء الوحي^٣.

وروى ابن قيم: «أنه ﷺ جاءه الوحي مرّة، وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضّها»^٤.

وروى صاحب المنتقى، قال: وفي الحديث المقبول أنه ﷺ أوحى إليه وهو على ناقته فبركت ووضعت جرانها بالأرض فماتستطيع أن تتحرّك. وأن عثمان كان يكتب للنبي ﷺ وفخذه على فخذ عثمان فغشيه الوحي، فثقلت فخذه على فخذ عثمان حتى قال: خشيت أن ترضّها»^٥.

وأخيراً فقد وصف هو ﷺ نزول الوحي عليه بما يدهش:

سأله عبدالله بن عمر: هل تحسّ بالوحي؟ فقال: أسمع صلاصلا، ثمّ أسكت عند ذلك، فما من مرّة يوحى إليّ إلّا ظننت أن نفسي تُقبض!^٦

وسأله الحارث بن هشام، قال: يا رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال»^٧.

١ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٧٨؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٤٦، ح ٢٠. «الجران» من البعير مقدم عنقه. يقال: ألقى البعير جرانه أي برك.

٢ - بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦١، ح ١٣؛ عن المناقب، ج ١، ص ٤٤.

٣ - بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦١، ح ١٣؛ والمناقب، ج ١، ص ٤٣-٤٤. البرحاء: شدة الكرب والألم.

٤ - زاد المعاد، ج ١، ص ١٨.

٥ - بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٣-٢٦٤، ح ٢٠ و ٢٦٨ و ٢٦٩، ح ٣٢. وعثمان هذا هو ابن مطعون، كما جاء التصريح به

في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام في كتاب سعد السعود: ص ١٢٢.

٦ - الإيقان، ج ١، ص ١٢٨. عن مسند أحمد بن حنبل. ٧ - سنشرح هذا الكلام فيما تنبّه عليه تالياً.

وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول^١ وهو أهونه عليّ^٢.
وتذيلاً على هذه الرواية - وهي متواترة إلى حدّ ما - يجب أن ننبّه القارئ على نقاط هامة:

أولاً: صلصلة الجرس في هذه الرواية، كناية عن صوت متعاقب كصوت الناقوس المصلصل المجلجل، كان ﷺ يسمع صوتاً متداركاً كجلجلة الناقوس، هو صوت الوحي المباشر، فكان ﷺ ينصت له بكلّ وجوده حتى يتلقّاه كملاً. وكان ذا وقع شديد على نفسه الكريمة. وهذا التعبير «صلصلة الجرس» يشي بشدّة الوقع، حيث تتابع الصوت المتدارك يؤثر على حاسة السمع تأثيراً نافذاً في الأعماق، فكأنّما يأخذ بلبّ القلب، أخذاً متواصلاً قوياً ومن ثمّ قال ﷺ: ظننت أن نفسي تقبض.

والظاهر أن هذه الصلصلة كانت تمهيداً لنزول الوحي عليه ﷺ كي يستعدّ لذلك الاتصال الروحي الشديد. ومن ثمّ قال: ثمّ أسكت عند ذلك، أي أنصت حيث الإشعار بنزول الوحي.

نعم كان للوحي ذاته دويّ شديد بالغ الشدّة، لم يكن يتحمّله أهل السماوات العلى.
قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ»^٣. «كان أهل السماوات لم يسمعوا وحيّاً في الفترة بين المسيح عليه السلام وبعثة محمد ﷺ فلما بعث الله محمداً ﷺ سمع أهل السماوات صوت وحي القرآن كوقع الحديد على الصفا، فصعقوا أجمعين. فلما فرغ الله من الوحي، انحدر جبرائيل كلّما مرّ بأهل سماء فزع عن قلوبهم، أي كشف عنهم تلك الغشية. فجعل بعضهم يقول لبعض: «ماذا قال ربّكم؟ قالوا الحقّ، وهو العليّ الكبير»^٤.

وفي حديث ابن مسعود: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات صلصلة

١ - صحيح البخاري، ج ١، ص ٣؛ والطبقات، ج ١، ص ١٣٢؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٠. والصلصلة: صوت تذاكّ الحديد بعضه مع بعض.

٢ - هذه الزيادة جاءت في رواية أبي عوانه في صحيحه. راجع: فتح الباري، ج ١، ص ٢٠؛ والإتقان: ج ١، ص ١٢٩.

٣ - سبأ ٢٤: ٢٣. ٤ - تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٠٢.

كصلصلة السلسلة على الصفوان - الحجر الأملس - فيفزعون»^١.

وقال ابن عباس: «كان إذا نزل الوحي كان صوته كوقع الحديد على الصفوان، فيصعق أهل السماء «حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ» أي رفع عنهم الفزع «قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ» قالت الرسل ﷺ: «الْحَقُّ»^٢.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أراد الله أن يوحى بأمر، تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السماوات صُعقوا وخرّوا سجّداً...»^٣.

وبعد... فلانكاد نستغرب من غشية تعتري رسول الله ﷺ ساعة نزول الوحي عليه إذا كان أهل السماوات لا تتحمّل وقع صوته المدهش.

ثانياً: هذا النمط من الوحي الشديد الواقع على نفسه الكريمة، كان يخصّ الوحي المباشر، كما تقدّم حديثه. كما أنّ الرواية ذاتها تشي بهذا التفصيل، حيث جعلت من النوع الأول مثل صلصلة الجرس، فكان صوت الوحي النازل عليه مباشرة. ومن ثمّ قال ﷺ: وكان أشده عليّ، وجعلت من النوع الثاني ما يكلمه الملك مشافهة فيعي ما يوحى إليه في حينه، لأنّه ﷺ كان حينئذ في حالته العادية.

وزعم جلال الدين، أنّ النوعين اللذين أشارت إليهم الرواية: أحدهما ما كان الملك النازل بالوحي مختفياً. والآخر ما كان متمثلاً؛ وهذا مخالف لما يفهم من الرواية ذاتها، كما نبّه بذلك شيخنا الصدوق.^٤ ومرّ في حديث الإمام الصادق عليه السلام^٥.

ثالثاً: إنّ الجذبة الروحية القويّة في الصورة الأولى ربّما كانت توهم انفلات شيء من الوحي، حينما يفقد ﷺ وعيه الظاهر. لكنّه ﷺ تدارك هذا الوهم بأنّه كان بعدما يتقشّع غشوته يجد كلّ ما أوحى إليه حاضرة ذهنه الشريف، كأنما كتب في كتاب، ولم ينفلت منه

١ - الإتيان، ج ١، ص ١٢٧.

٢ - الدر المنثور، ج ٥، ص ٢٣٥.

٣ - المصدر، ص ٢٣٦.

٤ - الإتيان، ج ١، ص ١٢٨-١٢٩.

٥ - كمال الدين، ص ٨٥؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٠، ح ١٢.

٦ - محاسن البرقي، كتاب العلل، ج ١، ص ٦٩، ح ١٢١؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٧١، ح ٣٦.

شيء. وهذا معنى قوله ﷺ: «فيفصم عني وقد وعيت».

والسبب في ذلك: أن الوحي في صورة المباشرة كان يخالط لبّه، ويتسرّب إلى أعماق وجوده ﷺ بما أنفذه الله في قلبه الكريم «سَنُفِّرُكَ فَلَا تَنْسَى»^١.

وبهذا يتضح معنى الحديث الذي رواه ابن أبي سلمة عن عمّه، أنّه بلغه أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: «كان الوحي يأتيني على نحوين، يأتيني جبرائيل فيلقيه عليّ، كما يلقي الرجل على الرجل،^٢ فذلك الذي يتفلّت منّي. ويأتيني في شيء^٣ مثل صوت الجرس، حتى يخالط قلبي، فذاك الذي لا يتفلّت منّي»^٤.

قوله ﷺ: فذلك الذي يتفلّت منّي، أي الذي كان يكاد يتفلّت منه، لأنّه كان سماعاً مباشراً من ملك الوحي، وسرعان ما ينسى الإنسان ما يسمعه من غيره إذا لم يعه وعياً.

فهذا النمط من الوحي كان بمعرض النسيان وخوف التفلّت - كما هو شأن السماع المجرّد إذا لم يتقيّد بالكتابة في وقته - لأنّه كان يتفلّت منه بالفعل. أمّا في صورة الوحي المباشر فحيث كان يخالط لبّه وينفذ في أعماق قلبه الكريم، فلم يكن يخشى عليه التفلّت أصلاً.

هذا وقد وقع بعض الباحثين، في خلط من هذا الحديث^٥ ورفضه آخرون. لكن المعنى على ما ذكرنا صحيح، توافقه سائر الأحاديث.

تجربة روحية

رأينا من المناسب أن نأتي هنا بذكر شاهد واحد من مئات الشواهد، والتي مرّت الإشارة إليها على صحّة وجود النفس، وأنّ للإنسان روحاً مستقلة عن الجسم، وهي لا تتحلّ بانحلاله، ويمكنها الاتصال بعالم ما وراء المادّة... وهي طريقة التنويم الصناعي أو التنويم المغناطيسي. وهذه التجربة حضرها الأستاذ الشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني

١ - الأعلى ٨٧: ٦.

٢ - أي كما يلقي الرجل بكلامه على صاحبه. وهذا هو الصورة الثانية ممّا تقدّم.

٣ - أي الوحي ذاته يأتيني بلا توسط ملك. وهي الصورة الأولى ممّا تقدّم.

٥ - فتح الباري، ج ١، ص ١٨.

٤ - الطبقات، ج ١، ص ١٣١.

سنة ١٣٥١ هجرية بالقاهرة مع حشد مثقف، وشهد تفاصيلها بنفسه بمرأى الملاء ومسمع. وهذه التجربة أثبتت كيف يمكن التأثير على ذهنية الوسيط وتغيير عقيدته بفعل المنوم، فيوحي إليه وهو في حالة الإغماء، ويأمره بالاحتفاظ به إلى مدة كذا، ثم يوقظه وإذا بالذي أُوحي إليه حاضر ذهنه إلى تمام المدة:

قام المحاضر - وهو أستاذ في التتويم المغناطيسي - وأحضر الوسيط، وهو فتى فيه استعداد خاص للتأثر بالأستاذ، والأستاذ فيه استعداد خاص للتأثير على الوسيط، فالأول ضعيف النفس، والثاني قويها. نظر الأستاذ في عين الوسيط نظرات عميقة نافذة، وأجرى عليه حركات يسمونها سحبات، فما هي إلا لحظة حتى رأينا الوسيط يغط غطيظ النائم، وقد امتنع لونه، وهمد جسمه، وفقد إحساسه المعتاد، حتى لقد كان أحداً يخزّه بالأبرة وخزات عدة، ويخزّه كذلك ثان وثالث، فلا يبدي الوسيط حراكاً، ولا يظهر أي عرض لشعوره وإحساسه بها. وحينئذ تأكدنا أنه قد نام ذلك النوم الصناعي.

وهناك تسلط الأستاذ على الوسيط يسأله: ما اسمك؟ فاجابه باسمه الحقيقي، فقال الأستاذ: ليس هذا هو اسمك، إنما اسمك كذا (وافترى عليه اسماً آخر) ثم أخذ يقرّر في نفس الوسيط هذا الاسم الجديد الكاذب، ويمحو منه أثر الاسم القديم الصادق، بواسطة أغاليط يلقنها إيّاه في صورة الأدلة، وبكلام يوجّهه إليه في صيغة الأمر والنهي، وهكذا أملى عليه هذه الأكذوبة املاء وفرضها عليه فرضاً، حتى خضع لها الوسيط وأذعن. ثم أخذ الأستاذ وأخذنا نناديه باسمه الحقيقي المرة بعد الأخرى في فترات متقطعة، وفي أثناء الحديث على حين غفلة، كل ذلك وهو لا يجيب، ثم نناديه كذلك باسمه المصنوع فيجيب دون تردد ولا تلثم.

ثم أمر الأستاذ وسيطه أن يتذكر دائماً أن هذا الاسم الجديد هو اسمه الصحيح حتى إلى ما بعد نصف ساعة من صحوه ويقظته. ثم أيقظه وأخذ يتم محاضرتة ونحن نفجأ الوسيط بالاسم الحقيقي فلا يجيب، ثم تفجؤه باسمه الثاني فيجيب، حتى إذا مضى نصف الساعة المضروب عاد الوسيط إلى حاله الأولى من العلم باسمه الحقيقي...

قال الأستاذ الزرقاني: وبهذه التجربة ثبت لي ما قرب إلى الوحي فهماً عملياً، فالوحي اتصال روحي يتأثر الموحى إليه بما يلقي إليه الموحى في حالة يتسلخ من الرسول ﷺ حالته العادية، ويظهر أثر التغير عليه، ويستغرق في الأخذ والتلقي، وينطبع ما تلقاه في نفسه، حتى إذا انجلى عنه الوحي وعاد إلى حالته الأولى، وجد ما تلقاه ماثلاً في نفسه، حاضراً في قلبه، كأنما كتب في صحيفة فؤادة كتاباً.

ثم يقول: أظن أن المخلوق يستطيع التأثير في نفس مخلوق آخر ذلك التأثير الغريب، ولا يستطيع مالك القوى والقدر أن يؤثر في نفس من شاء من عباده بواسطة الوحي؟ كلا ثم كلا، إنه على كل شيء قدير.^١

أقول: ونحن إذ لانسلم بجميع التفاصيل التي جاءت بها طريقة التنويم المغناطيسي، ولانصدق بجميع مظاهرها بصورة مطلقة، إذ لاتخلوا أحياناً عن الشعوذة لكننا نعترف بصحتها وإمكانها في الجملة، ومن ثم فباستطاعة هذه الطريقة العلمية الحديثة المعترف بها إجمالياً، إثبات ظاهرة الوحي - ولو إجمالياً - وفي هذا كفاية على نحو الإيجاب الجزئي.

موقف النبي من الوحي

هنا موضوعان لهما أهمية كبيرة بشأن رسالة الأنبياء وصدق دعوتهم إلى الله، لا بد من معالجتهما بصورة علمية مقبولة. وقد تكلم فيهما عامة أهل السنة بطريقة غير مألوفة، وربما لا يستسيغها العقل الفطري في شيء. أمّا علماؤنا الإمامية فتكلموا فيهما بطريقة عقلية على أساس الاستدلال البرهاني مدعماً بالنقل المأثور عن أئمة أهل البيت ﷺ:

الأول: كيف عرف النبي ﷺ أنه مبعوث؟ ولم لم يشك في أن الذي أتاه شيطان، واطمأن أنه جبرائيل؟

الثاني: هل يجوز على النبي ﷺ أن يخطأ فيما يوحي إليه، فيلتبس عليه تخيلات

باطلة في نفسه لتبدو له بصورة وحي، أو يلقي عليه ابليس ما يظنه وحيًا من الله؟
والأكثر في الموضوع الأول جعلوا من النبي ﷺ مرتاعاً في أول أمره، خائفاً على نفسه من مس جنون، عائداً إلى أحضان زوجه الوفيّة، لتستجد هي بدورها إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل، فيطمئنه هذا بأنه نبيّ ويؤكد عليه ذلك حتى يطمئن ويستريح بانه.
أمّا الموضوع الثاني فقد أجازوا الإيليس أن يتلاعب بوحي السماء فيلقي على النبي ما يظنه وحيًا - كما في حديث الغرائق - لولا أن يتداركه جبرائيل فيذهب بكيد الشيطان.
وقد ذهب أئمة أهل البيت  في كلا الموضوعين مذهبا نزيهاً، وجعلوا من النبي ﷺ أكرم على الله من أن يتركه إلى إنسان غيره ولا ينير عليه الدلائل الواضحة على نبوته الكريمة في تلك الساعة الحرجة. كما لا يدع للشيطان أن يستحوذ على مشاعر نبيه الكريم: «وَاصِرٌ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ»^١.
هذا... ويجدر بنا ونحن نحاول تنزيه جانب رسول الله ﷺ ممّا ألصقوه بكرامته، أن نتكلّم في كلا المجالين بصورة مستوفاة، كلّاً على حدة.

النبوة مقرونة بدلائل نيّرة

يجب على الله - وجوباً منبعثاً من مقام لطفه ورأفته بعباده - أن يقرن تنبيهه إنساناً بدلائل نيّرة لاتدع لمسارب الشك مجالاً في نفسه، كما أرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، ليكون من الموقنين.^٢ وكما «نودي يا موسى. إني أنا ربك»^٣ «ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم»^٤ «ياموسى لا تخف إني لا يخاف لديّ المرسلون»^٥.

هذا هو مقتضى قاعدة اللطف، وقد بحث عنها علماء الكلام،^٦ وتتلخّص في تمهيد سبيل الطاعة. فواجب عليه تعالى أن يمهد لعباده جميع ما يقربهم إلى الطاعة ويبعدهم عن

٢ - مقتبس من الآية ٧٥ من سورة الأنعام.

١ - الطور ٥٢: ٤٨.

٤ - النمل ٢٧: ٩.

٣ - طه ٢٠: ١١-١٢.

٥ - النمل ٢٧: ١٠.

٦ - علم منشعب عن الفلسفة الحكيمية، يبحث عن أحوال المبدأ والمعاد في ضوء العقل وإرشاد الشريعة.

المعصية. وهذا الوجوب منبعث من مقام حكمته تعالى إذا كان يريد من عباده الانقياد، وإلا كان نقضاً لغرضه من التكليف. ومن ثمّ وجب عليه تعالى أن يبعث الأنبياء وينزل الشرائع ويجعل في الأمم ما ينير لهم درب الحياة، إمّا إلى سعادة فباختيارهم، أو إلى شقاء فباختيارهم أيضاً.^١

وطبقاً لهذه القاعدة لا يدع - تعالى - مجالاً لتدليس أهل الزيغ والباطل، إلا ويفضحهم من فورهم «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ»^٢ فالحقّ دائماً يعلو ولا يعلو عليه، والحقّ والباطل كلاهما، على وضع الجلاء، لا يكدر وجه الحقّ غبار الباطل أبداً: «بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ».^٣ «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا».^٤ وهذا إنّما هو نصر واعتلاء مبدئي، فالحقّ دائماً ظاهر منصور، وأنّ رسالة الأنبياء دائماً تكون هي الغالبة الظافرة، «وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ».^٥ نعم «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً».^٦

قال الإمام الصادق عليه السلام: «أبى الله أن يعرف باطلا حقّاً. أبى الله أن يجعل الحقّ في قلب المؤمن باطلا لاشك فيه. وأبى الله أن يجعل الباطل في قلب الكافر المخالف حقّاً لاشكّ فيه. ولولم يجعل هذا هكذا ما عُرِف حقّ من باطل».

وقال: «ليس من باطل يقوم بإزاء الحقّ، إلا غلب الحقّ الباطل. وذلك قوله تعالى: «بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ»».^٧

هذا... وقد سأل زرارة بن أعين، الإمام أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن نفس الموضوع قال: قلت لأبي عبد الله: كيف لم يخف رسول الله ﷺ فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ممّا

١ - راجع: شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الحلي، ص ٣٢٤.

٢ - الحاقة ٦٩: ٤٤-٤٦.

٣ - الأنبياء ٢١: ١٨.

٤ - الصافات ٣٧: ١٧١-١٧٣.

٥ - غافر ٤٠: ٥١.

٦ - النساء ٤: ٧٦.

٧ - الأنبياء ٢١: ١٨. راجع: محاسن البرقي، كتاب مصابيح الظلم، ج ٢، ص ٣٥٤، ح ١٥٣.

ينزع به الشيطان؟ فقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا اتَّخَذَ عَبْدًا رَسُولًا، أَنْزَلَ عَلَيْهِ السَّكِينَةَ وَالْوَقَارَ - أي الطمأنينة والاتزان الفكري - فكان الذي يأتيه من قبل الله، مثل الذي يراه بعينه»^١ أي يجعله في وضوح الحق، لا غبار عليه أبداً، فيرى الواقع ناصعاً جلياً لا يشك ولا يضطرب في رأيه ولا في عقله. وقد أوضح الإمام ﷺ ذلك في حديث آخر، سئل ﷺ: كيف علمت الرسل أنها رسل؟ قال: «كشف عنهم الغطاء»...^٢

قال العلامة الطبرسي: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُوحِي إِلَى رَسُولِهِ إِلَّا بِالْبَرَاهِينِ النَّيِّرَةِ وَالْآيَاتِ الْبَيِّنَةِ، الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ مَا يُوحَى إِلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ سِوَاهَا، وَلَا يَفْزَعُ وَلَا يَفِرُّ»^٣.

وقال القاضي عياض: «لَا يَصَحُّ - أي في حكمته تعالى، وهو إشارة إلى قاعدة اللطف - أن يتصوّر له الشيطان في صورة الملك، ويلبس عليه الأمر، لافي أول الرسالة ولا بعدها. والاعتماد - أي اطمئنان النبي - في ذلك دليل المعجزة. بل لا يشك النبي ﷺ أن ما يأتيه من الله هو الملك ورسوله الحقيقي إمّا بعلم ضروري يخلقه الله له، أو ببرهان جلي يظهره الله لديه. لتتم كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلمات الله»^٤.

إذن فلا بد أن يكون النبي ﷺ حين انبعاثه نبياً على علم يقين، بل عين يقين من أمره، لا يشك ولا يضطرب، مستيقناً مطمئناً باله مرعياً بعناية الله تعالى ولطفه الخاص، منصوراً مؤيداً، ولا سيما في بدء البعثة فيأتيه الناموس الأكبر وهو الحق الصراح معانياً مشهوداً، وهي موقعية حاسمة لا ينبغي لنبي أن يتزلزل فيها أو يتروّع في موقفه ذلك الحرج العصيب: «إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ»^٥.

وأيضاً فإن النبي ﷺ لم يختره الله لنبوته، إلا بعد أن أكمل عقله وأدبه فأحسن تأديبه. وعرفه من أسرار ملكوت السماوات والأرض ما يستأهله للقيام بمهمة السفارة

١ - تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٠١، ح ١٠٦: وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٢، ح ١٦.

٢ - بحار الأنوار، ج ١١، ص ٥٦، ح ٥٦. ٣ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٨٤.

٤ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج ٢، ص ١١٢. ٥ - النمل ٢٧: ١٠.

وتبليغ رسالة الله إلى العالمين. كما فعل بإبراهيم الخليل عليه السلام. قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره...»^١ وقال الإمام العسكري عليه السلام: «إن الله وجد قلب محمد صلى الله عليه وآله أفضل القلوب وأوعاها فاختاره لنبوته...»^٢ كما قال صلى الله عليه وآله: «ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمته...»^٣.

قال العلامة المجلسي: «منذ أن أكمل الله عقله، لم يزل مؤيداً بروح القدس يكلمه ويسمع صوته ويرى الرؤيا الصادقة، حتى بعثه الله نبياً رسولاً»^٤.

والدلائل على أنه صلى الله عليه وآله منذ بدايته كان مورد لطفه تعالى وعنايته الخاصة كثيرة، وقد عرف قومه فيه النبوغ والجدارة الذاتية، ولمسوا فيه الصدق والأمانة والذكاء والفطنة، فوجدوه مزيجاً من الاستقامة وحصافة العقل، حتى حُبب إلى الناس جميعاً ولقبوه بالصادق الأمين، أميناً في رأيه، وأميناً في سلوكه.

وكان قبيل بعثته تظهر له علائم النبوة، فقد ظهرت آياتها قبل ثلاث سنوات من بعثته وهو في سن السابع والثلاثين - كما في رواية علي بن إبراهيم القمي -^٥ فكان يرى الرؤيا الصادقة، وكان يختلي بنفسه في غار حراء، متفكراً في أسرار الملكوت، متعمقاً في ذات الله متطلعاً سرّ الخليفة، حتى فجأه الحق وقد بلغ سن الأربعين. فقد كان ممهداً نفسه لذلك، عارفاً بسمات أمر قد أشرفت طلائعه منذ حين.

وهكذا إنسان لا يفرع ولا يفرق ولا يظنّ بنفسه الجنة أو عارضة سوء، ليلتجأ إلى امرأة لاعهد لها بأسرار النبوات أو رجل^٦ كان حظّه من العلم أن قرأ كتباً محرّفة وآثاراً بائدة، لم يثبت آنذاك أنه لمس حقائق ومعارف من الملك والملكوت كانت موجودة فيها لحدّ ذاك، غير ممسوخة عن فطرتها الأولى.

١ - نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، ١٩٢، ص ٣٠٠. ٢ - بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٠٥-٢٠٦، ح ٣٦.

٣ - الكافي الشريف، ج ١، ص ١٢-١٣. ٤ - بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٧٧.

٥ - المصدر، ص ١٨٤، ح ١٤ وص ١٩٤، ح ٢٠. ٦ - هو: ورقة بن نوفل ابن عم خديجة.

على أن النبي محمد ﷺ كان أشرف الأنبياء وأفضل المرسلين وخاتم سفراء رب العالمين، فكان أكرم عليه تعالى من أن يتركه ونفسه يتلوّى في أحضان القلق والاضطراب، خائفاً على نفسه من جنون أو الاستحواذ على عقله الكريم - على ما جاءت في روايات آتية لاقيمة لها عندنا -.

إذن فقد كان موقف النبي ﷺ تجاه نزول الحق عليه - في بدء البعثة - موقف إنسان واع بجليّ الأمر، عارف بحقيقة الحق النازل عليه، في اطمئنان بالغ وسكون نفس وانسراح صدر، لم يتردد ولم يشك ولم يضطرب، كما لم يفزع ولم يفرق. وسنذكر قصة بدء البعثة على ما جاءت في روايات أهل البيت  وهم تشرح جوانب من موقف النبي ﷺ آنذاك ملؤها عظمة وإكبار وأبهة وجلال.

قصة ورقة بن نوفل

تلك كانت قصة البعثة، وفق ما جاءت في أحاديث أهل البيت، وهم أدري بما في البيت، وإليك الآن حديثاً آخر عن بعثة النبي محمد ﷺ على ما جاءت في روايات غيرهم:

روى البخاري ومسلم وابن هشام والطبري وأضرابهم: «بينما كان النبي ﷺ مختلياً بنفسه في غار حراء إذ سمع هاتفا يدعو، فأخذه الروح ورفع رأسه وإذا صورة رهيبة هي التي تناديه، فزاد به الفزع وأوقفه الرعب مكانه، وجعل يصرف وجهه عما يرى، فإذا هو يراه في آفاق السماء جميعاً ويتقدّم ويتأخّر فلا تنصرف الصورة من كل وجه يتّجه إليه. وأقام على ذلك زمناً، ذاهلاً عن نفسه، وكاد أن يطرح بنفسه من حلق من جبل، من شدة ما ألمّ به من روعة المنظر الرهيب. وكانت خديجة قد بعثت أثناءه من يلتمس النبي ﷺ في الغار فلا يجده، حتى إذا انصرفت الصورة، عاد هو راجعاً، وقلبه مضطرب ممتلئاً رعباً وهلعاً، حتى دخل على خديجة وهو يرتعد فرقاً كأنّ به الحمى، فنظر إلى زوجته نظرة العائد المستنجد، قائلاً: يا خديجة: مالي؟! وحدثها بما رأى، وأفضى إليها بمخاوفه أن

تخدعه بصيرته. قال: لقد اشفقت على نفسي، وما أراني إلا قد عرض لي^١ وقال: إنَّ الأبعد - يعني نفسه الكريمة - لكاهن أو مجنون!

فرنت إليه زوجه الوفيّة بنظرة الإشفاق، وقالت: كلاً يا ابن عم، أبشر واثبت، والله لا يخزيك أبداً. فوالذي نفس خديجة بيده، إنني لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتقري الضيف، وتعين على النوائب، وما أوتيت بفاحشة قط. وهكذا طمأنته بحديثها المرفف.

ثمّ قامت بتجربة ناجحة: قالت: يا ابن عم، أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك؟ قال: نعم. قالت: فإذا جاءك فاخبرني به. فجاءه الملك كما كان يأتيه. فقال رسول الله ﷺ: يا خديجة، هذا هو قد جاءني. فقالت: نعم، فقم يا ابن عم واجلس على فخذي اليسرى. فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها. فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحول واقعد على فخذي اليمنى، فتحول رسول الله ﷺ فجلس عليها. فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. قال فتحول واجلس في حجري، فتحول وجلس في حجرها، ثمّ تحسّرت^٢ وألقت خمارها، ورسول الله ﷺ جالس في حجرها. فقالت: هل تراه يا ابن عم؟ قال: لا. فقالت: يا ابن عم، أبشر واثبت، فوالله إنّه لملك وما هو بشيطان.

ثمّ توكيداً لما استنتجته من تجربتها، انطلقت إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل وكان متصّراً قارئاً للكتب، فقصّت عليه خبر ابن عمّها محمد ﷺ فقال ورقة: قدّوس قدّوس لئن كنت صدقتني يا خديجة، فقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى. فقول لي له: فليثبت. وأنّه لنبيّ هذه الأمة. ولوددت أن أدرك أيامه فأؤمن به وأنصره. فعادت خديجة إلى رسول الله ﷺ وأخبرته بما قال، فعند ذلك اطمأنّ باله، وذهبت روعته، وأيقن أنّه نبيّ^٣. قلت: لاشكّ أن قصة ارتياع النبيّ ﷺ بتلك الصورة الفظيعة، أسطورة خرافة حاكتها

١ - قال ابن الأثير: أي أصابني مسّ من الجن. ٢ - أي كشفت عن نفسها.

٣ - راجع: سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٥٢-٢٥٥؛ وصحيح البخاري، ج ١، ص ٣-٤؛ وصحيح مسلم، ج ١، ص ٩٧-٩٩؛ وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٩٨-٣٠٣؛ وجامع البيان، ج ٣٠، ص ١٦١؛ وحياة محمد لمحمد حسين هيكل، ص ٩٥-٩٦.

عقول ساذجة، جاهلة بمقام أنبياء الله الكرام. ومن ثمّ فهي إزرء بشأنهم الرفيع، وخطّ من منزلتهم الشامخة، إن لم تكن ضعضة بأقوى دعامة رسالة الله!

أولاً النبي ﷺ أكرم على الله من أن يروّعه في ساعة حرجة هي نقطة حاسمة في حياة رسوله الكريم، هي نقطة تحوّل عظيم، من إنسان كامل كان مسؤول نفسه، إلى إنسان رسول هو مسؤول أمة بأجمعها، كان قبل أن يصل إلى موقفه هذا العصيب، يسير قدماً إلى قمة الاكتمال الإنساني الأعلى، في سفرة خطرة كان مبدؤها الخلق ومنتهاها الحقّ تعالى. فكان يسير من الخلق إلى الحقّ. والآن وقد وصل القمة، فعاد من الحقّ، حاملاً للحقّ، إلى الخلق.^١

فساعة البعثة هي الفترة الحاسمة، وهي الحلقة الواصلة بين السفرتين الذاهبة والراجعة، وهي موقف حرج، حاشا لله أن يترك حبيبّه يكابد الأمرين حينما بلغ قمة اللقاء والآن يريد أن يختاره رسولاً إلى الناس، فيتركه يتلوّى في هواجس خطيرة، ويروّعه بتلك الصورة الفضيعة التي تكاد تذهب بنفسه الكريمة أو تستحوذ على عقله روعة المنظر الرهيب!!

أليس محمد ﷺ أكرم على الله من إبراهيم الخليل وموسى الكليم وغيرهما من أنبياء عظام، لم يتركهم في ساعة العسرة، ليلتجأوا إلى إنسان غيره، حاشاه من ربّ رؤوف رحيم!!

ثانياً: إنّنا لنربأ بعلماء - هم أهل تحقيق وتمحيض - أن يفضلوا عقلية امرأة لاشأن لها وأسرار النبوات، على عقلية إنسان كامل كان قد بلغ القمة التي استأهلتها لحمل رسالة الله. ثمّ تقوم هي بتجربة حاسمة يجهلها رسول ربّ العالمين. ليطمئن إلى قولتها، أو قولة رجل كان شأنه أن كان قارئاً للكتب، وليس لذلك العهد كتب فيها حقائق ومعارف غير محرّفة قطعياً. ولم نعرف ما الذي وجده رسول الله ﷺ في قولتهما فكان منشأ اطمئنانه، لم يجده في الحقّ النازل عليه من عند الله العزيز الحكيم؟!

١ - على ما جاء في تعبير الفيلسوف الإلهي، الحكيم صدر الدين الشيرازي تقدّم كلامه في «الرؤيا الصادقة».

ألم تكن الرؤيا الصادقة التي سبقت البعثة، ولم يكن تسليم الملك النازل عليه حينها: السلام عليك يا رسول الله. وتسليم الشجر والحجر كلّما مرّ بهما في طريقه راجعاً إلى بيت خديجة. ولم يكن عرفانه الذاتى الذي كان يتعمّقه مدّة اختلائه بحراء. كل ذلك لم يستوجب استيقانه بالأمر، ليستيقن من طمأنة امرأة أو رجل متنصراً!! إن هذا إلا إزراء فظيع بمقام رسالة الله، إن لم يكن مساً شنيعاً بكرامة رسول الله ﷺ المنيعة.

ثالثاً: اختلاف سرد القصّة، بما لا يلتئم مع بعضها البعض، لدليل على كذبها رأساً. ففي رواية: انطلقت خديجة لوحدها إلى ورقة، فأخبرته بما جرى. وفي أخرى: انطلقت بي إلى ورقة وقالت: اسمع من ابن أخيك، فسألني فأخبرته، فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى. وفي ثالثة: لقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالبيت فقال: يا بن أخي، أخبرني بما رأيت وسمعت. فأخبره رسول الله ﷺ. فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة. ولئن أدركت ذلك لأنصرنّ الله نصرّاً يعلمه. وفي رابعة: عن ابن عباس عن ورقة بن نوفل. قال: قلت: يا محمد أخبرني عن هذا الذي يأتيك، يعني جبرائيل عليه السلام فقال: يأتيني من السماء جناحاه لؤلؤ وباطن قدميه أخضر.^١ وهذا ليس في روايات خديجة مع ورقة. على ما جاءت في الصحاح المتقدّمة. وفي خامسة: إن أبا بكر دخل على خديجة، فقالت: انطلق بمحمد إلى ورقة، فانطلقا فقصّا عليه...^٢

ثم لو صحّت القصّة، فلماذا لم يؤمن به ورقة، حين ذاك وقد علم أنّه نبيّ مبعوث؟! فقد صحّ أنّه مات كافراً لم يؤمن به. قال سبط ابن الجوزي: هو آخر من مات في الفترة (السنوات الأولى بعد البعثة) ودفن بالحجون. قال: فلم يكن مسلماً. وهكذا روي عن ابن عباس: أنّه مات على نصرانيّته.^٣ وقضيّة رؤيا النبي ﷺ: كان ورقة في ثياب بيض؛ أيضاً مكذوبة وسندها مقطوع. وإلا لسجّل اسمه فيمن آمن به. قال ابن عساكر: لأعرف أحداً

١ - أسد الغابة، ج ٥، ص ٨٨ والرواية ضعيفة بروح بن مسافر. ولم يدرك ابن عباس ورقة.

٢ - الإتيان، ج ١، ص ٧١.

٣ - راجع: السيرة الحليّة، ج ١، ص ٢٥٠.

قال: إنه أسلم.^١ هذا وقد عاش ورقة إلى زمن بعد البعثة، ذكر صاحب «الإمتاع»: أن ورقة بن نوفل مات في السنة الرابعة من المبعث. قال برهان الدين الحلبي: ويوافقه ما جاء في سيرة ابن إسحاق. وكذا ما عن كتاب الخميس.^٢ فقد روي أنه مرّ ببلال وهو يعذب^٣ قال ابن حجر: وهذا يدلّ على أنه عاش حتى ظهرت دعوته ﷺ ودعا بلالاً فأسلم. إذن فلم بقي على كفره ولم يُسلم كما أسلم الآخرون؟ ولم لم ينصره كما نصره الآخرون؟ وقد خالف عهده كما جاء في الأسطورة.

الوحي لا يحتمل التباساً

هذا هو الموضوع الثاني - فيما أشرنا سابقاً - النبي ﷺ لا يخطأ فيما يوحى إليه، ولا يلتبس عليه الأمر قط. النبي كان عندما يوحى إليه، يكشف عن عينه الغطاء، فيرى الواقعية فيما يتصل بجانب روحه الملكوتي، منقطعاً عن صوارف المادة، إنه ﷺ حينذاك يلمس تجليات وإشراقات نورية تغشاه من عالم الملكوت، لينصرف بكلّيته إلى لقاء روح الله وتلقّي كلماته، فيرى حقيقة الحقّ النازل عليه بشعور واع وبصيرة نافذة، كمن يرى الشمس في وضوح النهار، لا يحتمل خطأ في إبطاره ولا التباساً فيما يعيه. وهكذا الوحي إذ لم يكن فكرة نابغة من داخل الضمير، ليحتمل الخطأ في ترتيب مقدّمات استنتاجها. أو إبطاراً من بعيد ليتحمّل التباساً في الانطباق.^٤ بل هي مشاهدة

٢ - السيرة الحلبيّة، ج ١، ص ٢٥٠.

١ - الإصابة، ج ٢، ص ٦٣٣.

٣ - الإصابة، ج ٣، ص ٦٣٤.

٤ - الخطأ إنّما يحتمل في مجالين: إمّا في مجال التفكير أو في مجال الإبطار الخارجي - مثلاً - وذلك لأنّ للاستنتاج الفكري شرائط وأحكاماً، إذا ما أهملها المتفكّر فسوف يقع في خطأ التفكير، وكذلك إبطار العين الخارجية إذا كان من بعيد، فربّما يقع الخطأ فيه من ناحية تطبيق ما عند النفس من مرتكزات ومعلومات على خصوصيات يراه موجودة في العين الخارجية، فالخطأ إنّما هو في هذا التطبيق النفسي، لا في العين المشاهدة. لأنّ الإبطار عبارة عن انطباع صورة الخارج - وهي واقعية لا تتغيّر - في الشبكة العصبية خلف بؤرة العين.

وهذه ظاهرة طبيعية تتحقّق ذاتياً إذا ما تحققت شرائطها. نعم كانت النفس هي التي تحكم على ما شاهدته العين بأنّه كذا وكذا، والخطأ إنّما هو في هذا الحكم، لا في ذلك الإبطار الطبيعي. إذن فيما أنّ الوحي خارج عن الأمرين، لا تفكير ولا إبطار من بعيد - مثلاً - وإنّما هو لمس حقيقة حاضرة فلا موقع للخطأ فيه أصلاً.

حقيقة حاضرة بعين نافذة. فاحتمال الخطأ فيه مستحيل.

تلك طريقة علمية فلسفية^١ تهدينا إلى الاعتراف بعدم احتمال الوحي الخطأ أبداً. ومن ثم فإن شريعة الله النازلة على أيدي رسله الأمناء، مصونة عن احتمال الخطأ رأساً. وهناك طريقة أخرى عقلية تحتم لزوم عصمة الأنبياء، فيما يبلغون من شرائع الله، يفصلها علماء الكلام. وتتخلص في أن النبي المبلغ عن الله، يجب - في ضوء قاعدة اللطف - أن ينعم بصحة كاملة في أجهزة إحساسه، وسلامة تامة في قوى مشاعره، وفي قدرته العقلية، فيكون مستقيماً في آرائه ونظرياته، معتدلاً في خلقه وسيرته، مستوياً في خلقته وصورته. وبكلمة جامعة: يجب أن يختار الله لرسالته إنساناً كاملاً في خلقه وخلقه. كي لا يتنفر الناس من معاشرته، ويطمئنوا إلى ما يبلغه عن الله. وإلا كان نقضاً لغرض التشريع.

فالنبي ﷺ معصوم من الخطأ والنسيان، ولا سيما فيما يخص تبليغ أحكام الشريعة. وهذا إجماع من المسلمين ومن غيرهم من عقلاء أذعنوا برسالة الأنبياء. ولولاه لكان الالتزام بشرائع الدين سفهاً ياباه العقل.^٢

هذا مضافاً إلى ما عهد الله لنبيه بالرعاية والحفظ: «سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى».^٣ كان ﷺ في بدء نزول القرآن، يخشى أن يفوته شيء فكان يساق جبرائيل فيما يلقي عليه كلمة بكلمة فنهى عن ذلك: «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ»^٤ «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً»^٥ قال ابن عباس: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبرائيل استمع له، فإذا انطلق قرأ كما أقرأه،^٦ وأخيراً فإن قوله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^٧ يقطع أي

١ - راجع: ما كتبه الأستاذ العلامة الطباطبائي بهذا الصدد في رسالة الوحي «وحي يا شعور مرموز»، ص ١٠٤.

٢ - راجع: مباحث العصمة من شرح تجريد الاعتقاد: المسألة الثالثة من المقصد الرابع من مباحث النبوة العامة، ص ١٩٥.

٣ - الأعلى ٨٧: ٦. ٤ - القيامة ٧٥: ١٦ - ١٩.

٥ - طه ٢٠: ١١٤. ٦ - الطبقات، ج ١، ص ١٣٢.

٧ - الحجر ١٥: ٩.

احتمال الدسّ والتزوير في نصوص القرآن الكريم.

وأما احتمال تلبس إبليس ليتدخل فيما يُوحى إلى النبي ﷺ ويجعل من تسويلاته الشيطانية في صورة وحي ويلبسه على النبي ﷺ ليزعمه وحيًا من الله، فهو أمر مستحيل. لأنّ الشيطان لا يستطيع الاستحواذ على عقلية رسل الله وعباده المكرمين: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ»^١. ومتناف مع قوله تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ...»^٢ وقوله تعالى: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ»^٣. وقد قال الشيطان: «وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي»^٤ ومتناف مع قاعدة اللطف الآنفه، ومتناقض مع حكمته تعالى في بعث الأنبياء ﷺ في شرح سبق تفصيله.

نعم ذهب أصحاب الحديث من العامة إلى إمكان استحواذ الشيطان على عقلية الرسول ﷺ كما جاءت روايتهم لقصة الغرانيق، الأمر الذي نراه مستحيلًا إطلاقاً، ومن ثمّ فهي أسطورة وضعها من يريد الإمتهان بمقام الرسالة، ليعبر بها على عقول البسطاء، فكانت غنيمة بأيدي أعداء الإسلام. وإليك نصّ الأسطورة ونقدها تباعاً:

أسطورة الغرانيق

روى ابن جرير الطبري بإسناد زعمها صحيحة، عن محمد بن كعب، ومحمد بن قيس، وسعيد بن جبير، وابن عباس، وغيرهم: أنّ النبي ﷺ كان في حشد من مشركي قريش، بفناء الكعبة، أو في ناد من أنديتهم. وكانت تساوره نفسه لو يأتيه شيء من القرآن يقارب بينه وبين قومه الألداء. إذ كان يتألم من مباعدهم، وكان يرجو الائتلاف معهم مهما كلف الأمر. فلما نزلت عليه سورة النجم، فجعل يتلوها حتى إذا بلغ: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ

٢ - الحاقة ٦٩: ٤٤-٤٥.

١ - الإسراء ١٧: ٦٥.

٤ - إبراهيم ١٤: ٢٢.

٣ - النجم ٥٣: ٣-٥.

وَالْعَزَى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى»^١ ألقى عليه الشيطان: «تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى»^٢ فحسبها وحياً، فقرأها على ملاً من قريش، ثم مضى وقرأ بقيّة السورة. حتى إذا أكملها سجد وسجد المسلمون، وسجد المشركون أيضاً، تقديرأ بما وافقهم محمد ﷺ في تعظيم آلهتهم ورجاء شفاعتهم. وطار هذا النبأ حتى بلغ مهاجري الحبشة، فجعلوا يرجعون إلى بلدهم مكة، فرحين بهذا التوافق المفاجئ. كما فرح النبي ﷺ أيضاً بتحقيق أمنيته القديمة على ائتلاف قومه.

ويقال: إن شيطانا أبيض هو الذي تمثّل للنبي في صورة جبرائيل وألقى عليه تينك الكلمتين.

ويقال: كان النبي ﷺ يصلي عند المقام إذ نعس نعسة فجرت على لسانه هاتان الكلمتان من غير شعور بهما.

ويقال: النبي ﷺ هو الذي تكلم بهما من تلقاء نفسه حرصاً على ائتلاف قلوب المشركين. ثم ندم من فعله هذا الذي كان افتراء على الله! ويقال: أن الشيطان أجبره على النطق بهذا الكلام... الخ.

ثم لما أمسى الليل أتاه جبرائيل، فقال له: أعرض عليّ السورة. فجعل النبي ﷺ يقرأها عليه حتى إذا بلغ الكلمتين قال جبرائيل: مه، من أين جئت بهاتين الكلمتين؟ فتندّم رسول الله ﷺ وقال: لقد افتريت على الله، وقلت على الله ما لم يقل؟! فحزن حزناً شديداً، وخاف من الله خوفاً كبيراً.

ويقال: إن النبي ﷺ قال لجبرائيل: أنه أتاني آتٍ على صورتك فألقاها على لساني. فقال جبرائيل: معاذ الله أن أكون أقرأتك هذا... فاشتد ذلك على رسول الله. فنزلت: «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيتَ إِلَيْكَ لَيَتَنَزَّرِي عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً. وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَكَ

١ - النجم ٥٣: ١٩-٢٠.

٢ - الغرائق: جمع الغرنوق. وهو الشاب الناعم الأبيض. وفي الأصل: اسم لطير الماء (مالك الحزين) وهو تشبيه آلهة المشركين بطيور بيض متحلفة في أجواء السماء، كناية عن قربهم من الله.

لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً. إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً»^١.

فاشتدَّ حزن رسول الله ﷺ على هذه البادرة المباغتة، ولم يزل مغموماً مهموماً، حتى نزلت عليه: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»^٢ وكانت تسليّة لقلبه الحزين، فعند ذلك سرى عنه الهمّ وطابت نفسه.^٣

نقد الحديث سنداً

تلك أسطورة الغرائق، مفتراة على النبي الكريم ﷺ وقد ألع المستشرقون والطاعنون في الدين الإسلامي الحنيف، بهذه الأسطورة المصطنعة وأذاعوها وأثاروا حولها عجاجة من القول البذيء.^٤

في حين أنها أكذوبة مفتعلة، صنعتها قرائح القصاصين، ونسبوها إلى بعض التابعين، ومن الصحابة إلى ابن عباس، ودلائل الكذب والافتراء بادية على محيّاها القدر. أولاً: لم يتصل تسلس سند الحديث إلى صحابي إطلاقاً. وإنما أسند إلى جماعة من التابعين ومن لم يدرك حياة رسول الله ﷺ وعليه فالحديث مرسل غير موصول السند إلى من شاهد القضية - فرضاً -.

وأما النسبة إلى ابن عباس فلا تقلّ عن غيرها، بعد أن كانت ولادة ابن عباس في السنة الثالثة قبل الهجرة، فلم يشهد القصة بتاتاً، وإنما نقلت إليه على الفرض. فالرواية من جميع وجوهها غير موصولة الإسناد إلى شهود القصة لوصحت الواقعة. وقواعد فنّ التمحيص في إسناد الروايات تأبى جواز الاحتجاج بمثل هذا الحديث المرسل.

٢ - الحج ٢٢: ٥٢. وستكلم عن الآيتين في نهاية المقال.

١ - الإسراء ١٧: ٧٣-٧٥.

٣ - جامع البيان، ج ١٧، ص ١٣١-١٣٤؛ والدر المنثور، ج ٤، ص ١٩٤ و ٣٦٦-٣٦٨؛ وفتح الباري، ج ٨، ص ٣٣٢.

٤ - انظر: تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان، ص ٣٤.

هذا وقد شدّ ابن حجر في قوله: فيها ثلاث مراسيل رجالها ثقات على شرط الصحة. ثم أخذ يتهم على من زعمها مختلقة، قائلاً: إذا كثرت الطرق وتباينت مخارجها، دلّ ذلك على أنّ لها أصلاً، قال: وتلك المراسيل يحتجّ بها ولو عند من لا يحتجّ بالمراسيل، لا اعتضاد بعضها ببعض.^١

أقول: وهل الكذبة إذا راجت تنقلب في ماهيتها وتصبح صادقة؟! ثانياً: شهادة جلّ أئمة الحديث بكذب هذا الخبر، وأنّ الطرق إليه ضعاف واهية، فهو فيما يشتمل عليه من السند أيضاً ساقط في نظر الفن.

قال ابن حجر نفسه: وجميع الطرق إلى هذه القصة - سوى طريق ابن جبير - إمّا ضعيف (يكون الراوي غير موثوق به أو مرمياً بالوضع والكذب) أو منقطع (أي كانت حلقة الوصل بين الراوي الأوّل والراوي الأخير مفقودة)^٢ وسنذكر أنّ بلاء طريق ابن جبير هو الإرسال والضعف أيضاً.

وقال أحمد بن الحسين البيهقي - أكبر أئمة الشافعية، مشهوراً بدقّة النقد والتمحيص -: «هذا الحديث من جهة النقل غير ثابت ورواته مطعون فيهم».^٣

وقال أبوبكر ابن العربي: «كلّ ما يرويه الطبري في ذلك باطل لأصل له»^٤ وصنّف محمد بن إسحاق بن خزيمة رسالة، فنّد فيها هذا الحديث المفتعل، ونسبه إلى وضع الزنادقة.^٥

وقال القاضي عياض: «هذا الحديث لم يخرج أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنّما أولع به وبمثله المفسّرون والمؤرّخون المولعون بكلّ غريب، المتلقّفون من الصحف كلّ صحيح وسقيم. قال: وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بُلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير وتعلّق بذلك الملحّدون مع ضعف

٢ - المصدر.

٤ - فتح الباري، ج ٨، ص ٣٣٣.

١ - فتح الباري، ج ٨، ص ٣٣٣.

٣ - التفسير الكبير، ج ٢٣، ص ٥٠.

٥ - التفسير الكبير، ج ٢٣، ص ٥٠.

نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته»^١.
 وأمّا طريق ابن جبير فذكر أبو بكر البزاز: أنّ هذا الحديث لم يسنده عن شعبة إلاّ أمية بن خالد وغيره، يرسله عن سعيد بن جبير، وإنّما يعرف عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. ثمّ يذكر شكّه في صحّة الإسناد إلى ابن عباس أيضاً فيما اسند إلى ابن جبير^٢. وأمّا طريق الكلبي إلى ابن عباس عن طريق أبي صالح فموهون بالاتفاق، قال جلال الدين السيوطي: هي أوهى الطرق^٣.

ثالثاً: اتفاق كلمة المحقّقين من علماء الإسلام قديماً وحديثاً، على أنّه حديث مفترى وحكموا عليه بالكذب الفاضح، غير آبهين بجانب السند، متصل أم منقطع، صحيح أم سقيم، لأنّه قبل كلّ شيء متناقض مع صريح القرآن الذي «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»^٤. وهادم لأقوى أسس الشريعة وأقوم دعامته الرصينة. قال الشريف المرتضى: فأما الأحاديث المروية في هذا الباب فلا يلتفت إليها، من حيث أنّها تضمّنت ما قد نزّهت العقول الرسل ﷺ عنه. هذا لولم تكن في أنفسها مطعونة ضعيفة عند أصحاب الحديث. وكيف يجيز ذلك على النبي ﷺ من يسمع قول الله تعالى: «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ»^٥. وقوله: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ»^٦ وقوله: «سَنَقْرَأَكَ فَلَا تُشْنِ»^٧. ثمّ أخذ في توضيح الاستدلال^٨.

وقال الإمام الفخر: هذه رواية عامّة المفسّرين الظاهريين. وأمّا أهل التحقيق فيرونها باطلة موضوعة، واحتجّوا عليها بوجوه من العقل والنقل^٩.

وقال السيد الطباطبائي: الأدلّة القطعيّة على عصمة النبي ﷺ تكذب متن الحديث، وإن فرضت صحّة أسناده. فمن الواجب تنزيه جانب قدسيّة النبي ﷺ عن أمثال هذه

٢ - المصدر، ص ١١٨.

٤ - فصلت ٤١: ٤٢.

٦ - الحاقة ٦٩: ٤٤.

٨ - تنزيه الأنبياء، ص ١٠٧-١٠٩.

١ - الشفاء، ج ٢، ص ١١٧.

٣ - الإتيقان، ج ٤، ص ٢٠٩.

٥ - الفرقان ٢٥: ٢٢.

٧ - الأعلى ٨٧: ٦.

٩ - التفسير الكبير، ج ٢٣، ص ٥٠.

الردائل التي تمسّ كرامة الأنبياء.^١

وتكلّم القاضي عياض في تفنيد هذا الحديث بوجوه عديدة اقتبسنا منها فصولاً في هذا العرض. وأخيراً أخذ الدكتور حسين هيكل في تفنيد القصة بأسلوب حديث، لخصناه في نهاية المقال.

نقد الحديث مدلولاً

هذا الحديث، فضلاً عن سنده الموهون، فإنّ مضمونه باطل على كلّ تقدير: أولاً: مناقضته الصريحة مع كثير من نصوص القرآن الكريم في شتى الجهات. ثانياً: منافاته الظاهرة مع مقام عصمة الأنبياء، الثابتة بدليل العقل والنقل المتواتر والإجماع.

ثالثاً: عدم إمكان التّثامه مع سائر آيات السّورة نفسها، لحناً وأسلوباً، بحيث لا يمكن التّباس هذا الجانب على من يعرف أساليب الكلام الفصيح، وبالأحرى أن لا يلتبس الأمر على أفصح من نطق بالضاد، وعلى أولئك الحضور، وهم صناديد قريش وأفلاذ العرب. وتوضيحاً لهذه الجوانب الثلاث الخطيرة نستعرض ما يلي:

١- مناقضته مع القرآن

إنّا لنربأ بمسلم نابه - فضلاً عن ناقد خبير كابن حجر - أن يتسلّم صدق هذا الحديث المفتعل، نظراً لما زعمه من صحّة إسناده المراسيل، ثمّ لا يتدبّر في متنه الفاسد، الظاهر التّنافي مع كثير من نصوص الكتاب العزيز، وإليك طرفاً من ذلك:

أ - تبدأ السّورة بقوله تعالى: «وَالْتَجَمَّ إِذَا هَوَىٰ. مَاضِلٌ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ».^٢

وهي شهادة صريحة من الله، بأنّ محمداً ﷺ لا يضلّ ولا يغوى ولا ينطق إلّا عن

وحي من الله، يعلمه الروح الأمين.

فلو صحّ ماذكروه في رأس الآية العشرين، لكان تكذيباً فاضحاً لهذه الشهادة، وتغليباً لجانب الشيطان على جانب الرحمان، وهو القائل تعالى: «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً»^١. والقائل: «كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ»^٢.

فكيف - ياترى - يتغلب إبليس على ضمان يضمنه الله تعالى، فيبطله صريحاً، قبل أن يفرغ من كلامه عزّ شأنه؟! وهل يتغلب ضعيف في كيدته على قوي في إرادته؟! وهل هذا إلا تهافت باهت، وكلام فارغ، لا يستطيع عاقل تصديقه!

ب - وأيضاً فإنه تعالى يقول: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ»^٣ كناية عن أن أحداً لا يستطيع التقول على الله، تليسياً للحقيقة إلا ويهلكه الله من فوره. الأمر الذي تقتضيه حكمته تعالى، جرياً مع قاعدة اللطف، وقد سبقت الإشارة إليها.

أفهل ترى - بعد هذا التأكيد - يستطيع إبليس، وهو صاحب الكيد الضعيف أن يتقول على الله، ويلبس الأمر على رسول الله ﷺ بما يحسبه وحيّاً آتياً به جبرائيل الأمين؟! إذن فأين الضمان الذي ضمنه الله تعالى الغالب على أمره، وتعهّده على نفسه في الآية المذكورة؟!!

ج - وقال تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^٤ فقد ضمن تعالى سلامة القرآن من تلاعب أيدي المبطلين، وحفظه عن دسائس المعاندين، أفهل يعقل - بعد ذلك - أن يترك إبليس وشأنه في سبيل التلاعب بالذكر الحكيم، فور نزوله على رسوله الكريم؟! وهل هذا إلا تهافت في الرأي، وإبطال لضمان الله؟! ومعه لا تبقى ثقة بما وعد الله المؤمنين من النصر والغلبة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!!

٢ - المجادلة ٥٨: ٢١.

١ - النساء ٤: ٧٦.

٤ - الحجر ١٥: ٩.

٣ - الحاقة ٦٩: ٤٤-٤٦.

د - وقال تعالى: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^١ وقال: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا»^٢. فكيف نجوِّز - بعد هذا الضمان الصريح المؤكّد - أن يتسلّط إبليس على أخلص عباد الله المكرمين، فيلبس عليه ناموس الكبرياء، وفي أمسّ شؤون رسالته المضمونة؟! على أن القرآن يصرّح: أن لاسلطة لإبليس على أحد إطلاقاً، سوى وسوسته الخدّاعة ودعوته إلى شرور، أمّا التدخل عملياً في شؤون الخلق أو الخالق، فهذا لاسبيل لإبليس إليه إطلاقاً، وقد حكى الله سبحانه عن لسان إبليس: «وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي»^٣.

٢ - منافاته لمقام العصمة

قال القاضي عياض: «وقد قامت الحجّة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، أمّا تمنّيه أن ينزل عليه مثل هذا، من مدح آلهة غير الله، وهو كفر. أو أن يتسوّر عليه الشيطان ويشبّه عليه القرآن، حتى يجعل فيه مالم ليس منه، ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن مالم ليس منه، حتى ينبّهه جبرائيل عليه السلام وذلك كلّ ممّتنع في حقّه ﷺ. أو يقول النبي ﷺ ذلك من قبل نفسه عمداً، وذلك كفر. أو سهواً، وهو معصوم من هذا كلّه.

وقد قرّرنا بالبراهين والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه، لاعمداً ولا سهواً.

أو أن يتشبّه عليه ما يلقيه الملك ممّا يلقي الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو يتقول على الله ما لم ينزل عليه، وقد قال تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ... الآية»^٤. وقال تعالى: «إِذْ نُنَاقِشُكَ الضُّعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ... الآية»^٥.

٢ - الإسراء ١٧: ٦٥.

٤ - الحاقة ٦٩: ٤٤.

١ - النحل ١٦: ٩٩.

٣ - إبراهيم ١٤: ٢٢.

٥ - الإسراء ١٧: ٧٥. راجع: الشفاء، ج ٢، ص ١١٨-١١٩.

وأيضاً فلولا العصمة الملحوظة في أداء رسالة الله، لزالَت الثقة بالدين، ولأخذت الشكوك مواضعها من أحكام وتكاليف وشرائع يبلغها النبي ﷺ عن الله تعالى!!

وامتداداً لجانب عصمته ﷺ وأن لا سبيل لإبليس إلى شأن من شؤون المعصمة بعصمة الله تعالى، قال: «من رآني فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي»^١. وقد فهم العلماء من هذا الحديث قاعدة كلية: لا يستطيع إبليس التمثل بأي ولي من أولياء الله العباد المخلصين، وبالأحرى: عدم استطاعته التمثل بجبرائيل، ملك الوحي المقرب الأمين!!

إذن فأنى لإبليس التلاعب بوحي السماء، أو أن ينتحل صورة رسول من رسل الله الأكرمين! كلا، «لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ»^٢.

٣ - تهافته مع آي السورة

قال القاضي عياض - أيضاً: «ووجه ثان، وهو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً وذلك أن هذا الكلام لو كان - كما روي - لكان بعيد الالتئام، متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبي ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك. وهذا لا يخفى على أدنى متأمل، فكيف بمن رجع حلمه واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه»^٣.

أفهل يتصور بشأن النبي محمد ﷺ وهو العارف بمواقع الكلام، الناقد لأفصح أقوال العرب الفصحاء، أن يلتبس عليه شأن كلام ساقط، لا يتناسب وسائر جمل وآيات كانت تنزل عليه حينذاك؟! أم كيف ينسجم ما ذكره مع قوله تعالى: «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ»^٤ أم كيف يقتنع المشركون - وهم أهل نقد وفصاحة - بتلك المجاملة المفضوحة: يقترن مدح مشكوك، بذلك القدح الصارم، ليأخذوه تقارباً

١ - صحيح مسلم، ج ٧، ص ٥٤.

٢ - الصافات ٣٧: ٨.

٣ - الشفاء، ج ٢، ص ١١٩.

٤ - النجم ٥٣: ٢٣.

مبدئياً بين إشراكهم والدعوة التي قام بها محمد ﷺ والتي قامت على محق الشرك وإخلاص الدين الحنيف. ولا سيما مع تعقيبها بقوله أيضاً: «رَكَمَ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً»^١ أفهل يلتئم هذا الكلام التوحيدي الخالص مع تلك الأكذوبة: «وإن شفاعتھن لترتجى»؟!

وأخيراً فلو صحّت الحكاية لشاعت وذاعت، ولأخذها المشركون مستمسكاً في وجه المسلمين طول الدعوة، ولم يصدّقوا النبي ﷺ في دعواه النسخ مهما كلف الأمر. هذا في حين أن التاريخ لم يضبط من تلك الأقصوصة المقتعلة سوى حكايتها عن أناس تأخروا عن ظرفها بزمان بعيد ولم يسجل التاريخ من يقول: حضرتها! الأمر الذي يجعلنا قاطعين بكذبها. ولعلّها من الإسرائيليات المفضوحة التي نسجت أیدی النكاة بالإسلام، في عهد سلطة المظالم على أرجاء البلاد الإسلامية، في ظل حكومة بني أمية أعداء الدين والقرآن، وهذا هو الأرجح في نظرنا. وفي فصول هذا الكتاب الآتية يتّضح موقف هذه الفئة الباغية على الإسلام أكثر.

قال الأستاذ هيكل: «حديث الغرائق حديث ظاهر التهافت، ينقضه قليل من التمحيص. وهو بعد حديث ينقض ما لكل نبي من العصمة في تبليغ رسالات ربه. فمن العجب أن يأخذ به بعض كتّاب السيرة وبعض المفسرين المسلمين. ولذلك لم يتردد ابن إسحاق حين سئل عنه في أن قال: إنه من وضع الزنادقة. لكن بعض الذين أخذوا به حاولوا تبرير أخذهم هذا، فاستندوا إلى قوله تعالى: «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ»^٢ وإلى قوله: «إِلَّا إِذَا مَنَّيَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ»^٣ ويضيف «سير وليم موير» أن مرجع المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة بعد ثلاثة أشهر من إقامتهم هناك لدليل قاطع على صحة هذه القصة.

وهذه الحجج التي يسوقها القائل بصحة حديث الغرائق، حجج واهية لا تقوم أمام التمحيص: أمّا رجوع المسلمين فكان سببه اضطراب سياسي، عمّ أرجاء الحبشة على أثر

٢- الإسراء ١٧: ٧٣.

١- النجم ٥٣: ٢٦.

٣- الحج ٢٢: ٥٢.

ثورة جديدة قامت فيها.

أمّا الاحتجاج بالآيات فاحتجاج مقلوب، لأنّ الآية الأولى لاتشي بوقوع الأمر: «وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ»^١.

فالآية تقول: إنّ الله ثبتّه فلم يفعل. وأمّا آية التمني فلا صلة لها بحديث الغرائيق، وقد تقدّم شأنها.

ودليل آخر أقوى وأقطع: سياق السورة وعدم احتمالها لمسألة الغرائيق، فإنّها ذمّ صريح، ولهجة تقريع لا ينسجم وإدراج هكذا جملة، الأمر الذي لا يكاد يخفى على العرب آنذاك.

وأيضاً فإنّ وصف آلهة قريش بالغرائيق لم يأت في نظمهم هم ولا في خطبهم ولا شيء من معنى الغرنوق يلائم معنى الآلهة التي وصفها العرب - كما قاله الشيخ محمد عبده -.

وبقيت حجة قاطعة نسوقها للدلالة على استحالة قصة الغرائيق هذه، من حياة محمد نفسه، «فهو منذ طفولته وصباه وشبابه لم يجرب عليه الكذب قط، حتى سمّي الأمين. وكان صدقه أمراً مسلماً به من الناس جميعاً، فكيف يصدق إنسان أنّه يقول على ربّه ما لم يقل، ويخشى الناس والله أحقّ أن يخشاه! هذا أمر مستحيل، يدرك استحالته الذين درسوا هذه النفوس القويّة الممتازة التي تعرف الصلابة في الحقّ ولا تداجي فيه لأي اعتبار»^٢.

والآيتان - من سورة الإسراء وسورة الحج - لاتمسّان قصة الغرائيق في شيء، وإنّما تعنيان شيئاً آخر ذكره المفسّرون. وسيأتي تفصيل الكلام فيهما في خاتمة الجزء الثالث من هذا الكتاب عند التعرّض لمسألة العصمة عند الكلام عن عصمة خاتم النبيّين ﷺ وإليك الآن إجمال الكلام فيهما:

أما الآية من سورة الإسراء: «وَلَوْلَا أَنْ تُبَشَّاكَ لَقَدْ كَذَبْتَ تَزَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا...»^١ فهي - كما أشار إليه هيكل - صريحة في أنه ﷺ لم يفعل... بدليل «لولا» الامتناعية.. فهي إن دلت فإنما تدلّ على أن مقام عصمته ﷺ التي هي عناية من الله خاصة بأوليائه المنتجبين هي التي تحول دائماً دون ارتكاب أية رذيلة مهما كانت صغيرة أو كبيرة...

وكم حاول أهل الزيف والفساد أن يميلوا بمنهج الإسلام المستقيم، سواء بدسائسهم حال حياة الرسول ﷺ أم بعد وفاته... ولكن أنى لهم التناوش من مكان بعيد... «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^٢.

فالآية تضمنين سلامة هذه الشريعة دون تحريف المبطلين... وكاف الخطاب إنما وردت من باب «إيّاك أعني واسمعي يا جارة».. كما ورد في التفسير.. وليكون ذلك اعتباراً لأولياء المسلمين طول عهد التاريخ أبداً..

وكذا الآية من سورة الحج: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ»^٣ لاساس لها بقصة الغرائق، بعد أن كانت تشير إلى ظاهرة طبيعية كانت تخالغ نفوس كبار المصلحين أبداً.. وهي: تحكيم مباني دعوتهم الإصلاحية، وتدعيم أسسها وقوائمها، دون تضعع أو ضياع أو فساد، وأن تطبق شريعة الله عامّة الخلائق وكافة الأمم، وأن تزدهر معالمها وتزهو أنوارها في أرجاء العالم المعمور. هذه هي أمنية كلّ رسول أو نبي، بل وكلّ قائم بالإصلاح خالصاً مخلصاً له الدين.^٤ غير أن دسائس أهل الزيف والفساد قد تحول دون تحقق هذه الأمنية؛ لكنّه حوّل لاقرار له، لأنّه من كيد الشيطان. «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا»^٥ وقد «كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي»^٦ «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ

١ - الإسراء ١٧: ٧٤.

٢ - الحجر ٩: ١٥.

٣ - الحج ٢٢: ٥٢.

٤ - وقد عبّر عنه في لسان أحاديث أهل البيت ﷺ بالمحدث، أي الملهم بأصول الخير ومناشئ البركات، بإشراق ملكوتي مفاض عليه من عند ربّ العالمين. راجع: الصافي، ج ٢، ص ١٣٠.

٥ - النساء ٤: ٧٦.

٦ - المجادلة ٥٨: ٢١.

الدُّنْيَا»^١ «إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ»^٢ «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ»^٣ «فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَنَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ»^٤ فهذه الآية أيضاً ضمان لبقاء هذا الدين وسلامته عن تطاول أيدي المحرّفين. «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».

كُتَابُ الْوَحْيِ

كان النبي ﷺ حسبما عرفه قومه أمياً لا يقرأ ولا يكتب وهكذا وصفه القرآن: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ...»^٥ «فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ...»^٦ ولقد كان قومه أمّة أميين لا يعلمون الكتاب: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ...»^٧ أي المنسويين إلى أمّ القرى كما جاء في قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا»^٨ أو الذين لا يعلمون الكتاب كما جاء في قوله: «وَمِنْهُمْ (اليهود) أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ»^٩ أي لادراية لهم في فهم الكتاب سوى تلاوته حفظاً لأمانيّ يتغونها، وهم الجهلة من عوامّ الناس.

وقد صرح القرآن بأُمِّيّة النبي بهذا المعنى الثاني في الآية: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنَّكَ الْمُبْطَلُونَ»^{١٠} والآية لاتنفي معرفته بذلك وإنما هو نقي لمعرفة قومه إياه بذلك. الأمر الذي يفى بغرض الآية. فكان النبي ﷺ لم يُعرف بالكتابة^{١١} وكانت المصلحة أن لا يعرفوه بذلك. إذن فمست الحاجة إلى استخدام كتبة يكتبون رسائله إلى جنب كتابة الوحي فلا يضيع.

٢ - الحديد ٥٧: ٢٥.

١ - غافر ٤٠: ٥١.

٤ - الرعد ١٣: ١٧.

٣ - الأنبياء ٢١: ١٨.

٦ - الأعراف ٧: ١٥٨.

٥ - الأعراف ٧: ١٥٧.

٨ - الشورى ٤٢: ٧.

٧ - الجمعة ٦٢: ٢.

١٠ - العنكبوت ٢٩: ٤٨.

٩ - البقرة ٢: ٧٨.

١١ - الأمر الذي لاتنفي المعرفة ذاتاً وهو كمال لا ينبغي لنبيّ العراء منه.

كان علي عليه السلام أول من كتب له ﷺ في مكة ودام حتى آخر حياته.
ومن ميزاته عليه السلام أنه لم يفته شيء من الوحي إلا وسجله في كتاب، حتى الذي كان ينزل في غيابه فيحفظه له النبي ﷺ حتى يحضر ويملي عليه ليكتب.
وميزة أخرى: أنه ﷺ لم يكن ليقتصر على إملاء الوحي عليه نصاً، بل وكان يردفه بما احتاج إلى تفسير وتأويل. فأملى عليه التنزيل والتأويل معاً.
روى سليم بن قيس الهلالي العامري (من أصحابه الأجلاء توفي حدود ٩٠) قال: جلست إلى علي عليه السلام بالكوفة في المسجد والناس حوله. فقال: سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن كتاب الله فوالله ما نزلت آية من كتاب الله إلا وقد أقرانيها رسول الله ﷺ وعلمني تأويلها! فقال ابن الكواء: ^١ فما كان ينزل عليه وأنت غائب؟ فقال: بلى، يحفظ علي ما غبت عنه، فإذا قدمت عليه قال لي: يا علي، أنزل الله بعدك كذا وكذا فيقرانيه وتأويله كذا وكذا فيعلمنيه. ^٢

وأول من كتب له في المدينة أبي بن كعب الأنصاري كان من المعدودين الذين يجيدون الكتابة ذلك العهد. وهو أول من ختم الرسائل بـ «وكتب فلان...» وقد تولى النبي ﷺ عرض القرآن عليه كماً وقد حضر العرضة الأخيرة فيمن حضر، ومن ثم تولى الإشراف على الكتبة على عهد عثمان وكان هو المرجع فيما كانوا يختلفون فيه. ^٣
كان زيد بن ثابت يسكن في جوار النبي ﷺ وكان شاباً جلدأً يحسن الكتابة، وكان النبي إذا غاب أبي أرسل إلى زيد ليكتب له، حتى أصبح من كتّابه الرسميين. والأغلب كان يتصدى كتابة رسائله. وأمره أن يتعلم العبرية في مدارس يهودية كانت هناك باسم

١ - اسمه عبدالله من بني يشكر كان من رؤوس الخوارج حين خرجوا على علي عليه السلام في وقعة صفين. ثم رجع هو وجماعة بعد أن نصحهم ابن عباس. كان يلزم علياً ويسأله المشاق فيما يراه وكان يسأل فيما يسأل - أكثرياً - تعنتاً لاتفهماً. وكان الإمام يجيبه برحابة صدر أجوبة رشيدة بقيت لنا رصيذاً حافلاً بأنواع العلوم والمعارف طول الأيام.

٢ - كتاب سليم برواية أبان (ط نجف)، ص ٢١٣ - ٢١٤.

٣ - راجع: الطبقات، ج ٣، ق ٢، ص ٥٩؛ والإصابة لابن حجر، ج ١، ص ١٩؛ والاستيعاب لابن عبد البر بهامش الإصابة، ج

١، ص ٥٠ - ٥١؛ والمصاحف للسجستاني، ص ٣٠.

«ماسلة» ليستعين بها على كتابة رسائله العبرية.

فعمدة الكتاب الرسميين هم هؤلاء الثلاثة: عليٌّ وأبيّ وزيدٌ. أمّا غيرهم فهم في الدرجة الثانية. يقول ابن الأثير: كان عبدالله بن الأرقم الزهري من المواظبين على كتابة الرسائل، أمّا العهود والمواثيق فكان يكتبها عليٌّ عليه السلام وعدّ من كتّابه جماعة منهم الخلفاء الثلاثة وزبير بن العوام و خالد و أبان إنا سعيد بن العاص و حنظلة الأسدي و علاء بن الحضرمي و خالد بن الوليد وعبدالله بن رواحة ومحمد بن مسلمة وعبدالله بن أبي سلول ومغيرة بن شعبة وعمر بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان وجهم او جهيم بن الصلت ومعيقب بن أبي فاطمة وشرحبيل بن حسنة.

ويضيف قائلاً: أوّل من كتب له من قريش عبدالله بن سعد بن أبي سرح وهاجر معه إلى المدينة ثمّ ارتدّ وهرب إلى مكة يعيب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تساهله بأمر الوحي.

كان يقول لقريش: إنّي كنت أصرف محمداً حيث أريد، كان يُملي عليّ «عزيز حكيم» فأقول: أو عليم حكيم؟ فيقول: نعم كلُّ صواب! فلما كان يوم الفتح أهدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم دمه، ولكن عثمان - وكان أخاه من الرضاعة - تشفّع له وأصرّ ولم يزل به حتى أعفاه النبيّ بعد صمت طويل يريد أن يبادر أحد فيقتله. ومات في كنف معاوية سنة سبع وثلاثين.^١

قال ابن أبي الحديد: الذي عليه المحققون من أهل السيرة أنّ الوحي كان يكتبه عليٌّ عليه السلام وزيد بن ثابت وزيد بن أرقم. وأنّ حنظلة بن الربيع التيمي ومعاوية بن أبي سفيان كانا يكتبان له إلى الملوك وإلى رؤساء القبائل، ويكتبان حوائجه بين يديده، ويكتبان ما يجبي من أموال الصدقات وما يقسّم في أربابها.^٢

ويبدو أنّ من ذكرناهم كانوا هم العدة المعروفين بمعرفة الكتابة واستخدمهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حوائجه.

يروى البلاذري عن الواقدي قال: ظهر الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً يعرفون

١ - أسد الغابة لابن الأثير، ج ١، ص ٥٠، ذيل ترجمة أبيّ بن كعب: وج ٣، ص ١٧٣ في ترجمة عبدالله نفسه.

٢ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢٣٨.

الكتابة: علي بن أبي طالب و عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح وطلحة بن عبيد الله ويزيد بن أبي سفيان وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وحاطب بن عمرو أخو سهيل بن عمرو العامري وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي وأبان بن سعيد بن العاص بن أمية وخالد بن سعيد أخوه وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري وحويطب بن عبد العزى العامري وأبو سفيان بن حرب بن أمية ومعاوية بن أبي سفيان وجهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف والعلاء بن الحضرمي.

ومن النساء اللاتي كنّ يعرفن الكتابة منذ ظهر الإسلام: أم كلثوم بنت عقبة وكريمة بنت المقداد والشفاء بنت عبد الله العدوية فطلب منها رسول الله ﷺ أن تعلم حفصة بنت عمر الكتابة كما علّمتها رقة النملة.^١ وكانت أم سلمة تقرأ المصحف ولا تكتب وكذا عائشة بنت أبي بكر.

قال الواقدي: كتب حنظلة بن الربيع بن رباح الأسدي من بني تميم بين يدي رسول الله ﷺ مرةً فسَمِّي حنظلة الكاتب. قال: كان الكتاب بالعريّة في الأوس والخزرج قليلاً. وكان بعض اليهود قد علم كتاب العريّة وكان تعلّمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدّة يكتبون، وهم: سعد بن عباد بن دليم والمنذر بن عمرو وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت، فكان يكتب العريّة والعبرانيّة^٢ ورافع بن مالك وأسيد بن حضير ومعن بن عديّ البلوي وبشير بن سعد وسعد بن الربيع وأوس بن خوليّ وعبد الله بن أبي المنافق.

قال: أول من كتب لرسول الله ﷺ عند مقدمه المدينة أبيّ بن كعب الأنصاري، وهو أول من كتب في آخر الكتاب: وكتب فلان. فكان إذا لم يحضر، دعا رسول الله ﷺ زيد بن ثابت الأنصاري فكتب له. فكان أبيّ وزيد يكتبان الوحي بين يديه ورسائله إلى الآفاق.^٣

١ - الرقة: التزيين بالحناء أو الزعفران. ولعلّ رقة النملة كانت نوع تزيين تتزيّن به النساء.

٢ - ذكر الواقدي بإسناده عن خارجة بن زيد: أنّ أبا زيد بن ثابت قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلّم له كتاب يهود. وقال لي: إني لا آمن يهوداً على كتابي، فلم يمرّ بي نصف (أي برهة قصيرة من الزمن) حتى تعلّمته فكنت أكتب له إلى اليهود، وإذا كتبوا إليه قرأت كتابهم.

٣ - فتوح البلدان للبلاذري، ص ٤٥٦ - ٤٦٠.

نزول القرآن

هناك مسألة ذات أهمية تمسّ جانب نزول الوحي قرآناً، وارتباطه مع بدء الرسالة، حيث اقترنت البعثة - وكانت في شهر رجب - بنزول شيء من القرآن (خمس آيات من أوّل سورة العلق) في حين تصريح القرآن بنزوله في ليلة القدر من شهر رمضان! فما وجه التوفيق؟ وهكذا تعيين المدة التي نزل القرآن خلالها تدريجاً، والسور التي نزلت قبل الهجرة لتكون مكيّة - اصطلاحاً - والتي نزلت بعدها لتكون مدنيّة. وهل هناك استثناء لآيات على خلاف السور التي ثبتت فيها؟ والأرجح أن لا استثناء، وأنّ السورة إذا كانت مكيّة فجميع آياتها مكيّة، وهكذا السور المدنيّات. إذ لا دليل على الاستثناء على ماسنبيّن.. وإليك تفصيل هذه الجوانب:

بدء نزول الوحي «البعثة»

قال الشيخ الجليل الثقة علي بن إبراهيم القمّي: إنّ النبي ﷺ لما أتى له سبع وثلاثون سنة، كان يرى في منامه كأنّ آتياً يأتيه فيقول: يا رسول الله! ومضت عليه برهة من الزمان وهو على ذلك يكتمه، وإذا هو في بعض الأيام يرعى غنماً لأبي طالب في شعب الجبال، إذ رأى شخصاً يقول له: يا رسول الله! فقال له: من أنت؟ قال: أنا جبرائيل، أرسلني الله

إليك ليتخذك رسولاً، فجعل يعلمه الوضوء والصلاة. وذلك عندما تمّ له أربعون سنة. فدخل عليّ ﷺ وهو يصلي. قال: يا أبا القاسم ما هذا؟ قال: هذه الصلاة التي أمرني الله بها. فجعل يصلي معه. وكانت خديجة ثالثتهما. فكان عليّ ﷺ يصلي إلى جناح رسول الله الأيمن، وخديجة خلفه، فأمر أبو طالب ابنه جعفرًا أن يصلي إلى جناح رسول الله الأيسر. وكان زيد بن حارثة عتيق رسول الله^١ قد أسلم عند ما تبّى رسول الله ﷺ، فكان يصلي معهم أيضاً. وبهذا الجمع انعقدت بذرة الإسلام.^٢

وفي تفسير الإمام: كان رسول الله ﷺ يغدو كل يوم إلى حراء، وينظر إلى آثار رحمة الله، متعمّقاً في ملكوت السماوات والأرض، ويعبد الله حقّ عبادته، حتى استكمل سنّ الأربعين، ووجد الله قلبه الكريم أفضل القلوب وأجلّها وأطوعها وأخشعها. فأذن لأبواب السماء ففتحت، وأذن للملائكة فنزلوا، ومحمد ﷺ ينظر إلى ذلك، فنزلت عليه الرحمة من لدن ساق العرش، ونظر إلى الروح الأمين جبرائيل مطوّقاً بالنور، هبط إليه وأخذ بضبعه وهزّه، فقال: يا محمد! اقرأ. قال: وما أقرأ؟ قال: يا محمد! «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ».^٣

ثمّ أوحى إليه ما أوحى. وصعد جبرائيل إلى ربّه، ونزل محمد ﷺ من الجبل وقد غشيه من عظمة الله وجلال أبيهته ماركبه الحمى النافضة^٤ وقد اشتدّ عليه ما كان يخافه من تكذيب قريش ونسبته إلى الجنون وقد كان أعقل خلق الله وأكرم بريته. وكان أبغض الأشياء إليه الشيطان وأفعال المجانين. فأراد الله أن يشجّع قلبه ويشرح صدره، فجعل كلما يمرّ بحجر وشجر ناداه: السلام عليك يا رسول الله ﷺ.^٥

١ - قيل: اشتراه رسول الله ﷺ لخديجة، فلما تزوّجها وهبته له، فأعتقه رسول الله ﷺ وقيل: استوهبته خديجة من ابن أخيها حكيم بن حزام بن خويلد، عندما قدم مكة برقيق فيهم زيد وصيف أي غلام لم يراهق. فقال لها: يا عمّة! اختاري أيّ هؤلاء الغلمان شئت. فاخترت زيدا، ثمّ وهبته لرسول الله ﷺ فأعتقه رسول الله ﷺ وتبنّاه.

٢ - بحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٨٤، ح ١٤ وص ١٩٤، ح ٣٠.

٣ - العلق ٩٦: ١ - ٥.

٤ - وهي الشديدة.

٥ - تفسير الإمام، ص ١٥٧، وهو منسوب إلى الإمام الحادي عشر: الحسن بن علي العسكري ﷺ وقد طعن بعض

وفي شرح النهج: أن بعض أصحاب أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام سأله عن قول الله - عز وجل - : «إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا»^١ فقال: يوكل الله تعالى بأنبيائه ملائكة يحصون أعمالهم، ويؤدون إليه تبليغهم الرسالة، ووكل بمحمد صلى الله عليه وآله ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع يرشده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق، ويصدّه عن الشرّ ومساوئ الأخلاق، وهو الذي كان يناديه: السلام عليك يا محمد يا رسول الله، وهو شاب لم يبلغ درجة الرسالة بعد، فيظن أن ذلك من الحجر والأرض، فيتأمل فلا يرى شيئاً.^٢

و راجع الخطبة القاصعة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الشأن، وقد نقلنا فيما سبق شرطاً منها. وهي الخطبة رقم: ٢٣٨ في شرح النهج لابن أبي الحديد.

وفي تاريخ الطبري: كان رسول الله صلى الله عليه وآله من قبل أن يظهر له جبرائيل عليه السلام برسالة الله إليه، يرى ويعاين آثاراً وأسباباً من آثار من يريد الله إكرامه واختصاصه بفضله، فكان من ذلك ماضى من خبره عن الملكين اللذين أتياه فشققا بطنه^٣ واستخرجا ما فيه من الغلّ والدنس، وهو عند أمّه من الرضاعة حليلة، ومن ذلك أنه كان إذا مرّ في طريق لا يمرّ بشجر ولا حجر إلّا سلّم عليه. وهكذا كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتاً، ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية. فلا يمرّ بحجر ولا شجرة إلّا قالت: السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليه وآله فكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً.^٤

قال اليعقوبي: كان جبرائيل يظهر له ويكلّمه أو ربّما ناداه من السماء ومن الشجرة

→ المحققين في نسبته إلى الإمام عليه السلام لما فيه من مناكير. لكن لو كان المقصود أنه من تأليف الإمام بقلمه وإنشائه الخاص، فهذا شيء لا يمكن قبوله بتاتاً. وأمّا إذا كانت النسبة بملاحظة أن الراوي كان يحضر مجلس الإمام عليه السلام ويسأله عن أشياء ممّا يتعلّق بتفسير آي القرآن، ثمّ عندما يعود إلى منزله يسجّله حسب ما حفظه ووعاه، وربّما يزيد عليه أشياء أو ينقص، وفق معلوماته الخاصّة أيضاً. فهذا شيء لا سبيل إلى إنكاره. ونحن نقول بذلك، ومن ثمّ نعتد على كثير ممّا جاء في هذا التفسير، ممّا يوافق سائر الآثار الصحيحة؛ وراجع أيضاً: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٠٥ - ٢٠٦، ح ٣٦.

١ - الجن ٧٢: ٢٧. ٢ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٣، ص ٢٠٧.

٣ - لم يرد بهذا التعبير حديث من طريق أهل البيت عليهم السلام ولعلّ هذه التعابير كانت كناية عن أمور معنويّة بإبعاد الصفات الخسيسة عن طباعه صلى الله عليه وآله.

٤ - تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

ومن الجبل. ثم قال له: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَجْتَنِبَ الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ، فَمَا كَانَ أَوَّلَ أَمْرِهِ. فكان رسول الله ﷺ يأتي خديجة ابنة خويلد ويقول لها ماسمع وتكلم به، فتقول له: استر يا ابن عم! فوالله إني لأرجو أن يصنع الله بك خيراً.^١

وكان رسول الله ﷺ يوم بعث قد استكمل الأربعين، لعشرين مضي من ملك كسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان.^٢ قال اليعقوبي: كان مبعثه ﷺ في شهر ربيع الأول. وقيل: في رمضان. ومن شهور العجم: في شباط. قال: وأتاه جبرائيل ليلة السبت وليلة الأحد، ثم ظهر له بالرسالة يوم الاثنين.^٣ قال ابن سعد: نزل الملك على رسول الله ﷺ بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان.^٤

قال أبو جعفر الطبري: وهذا - أي نزول الوحي عليه بالرسالة يوم الاثنين - مما لا خلاف فيه بين أهل العلم وإنما اختلفوا في أي الاثنين كان ذلك؟ فقال بعضهم: نزل القرآن على رسول الله ﷺ لثمانية عشرة خلت من رمضان. وقال آخرون: لأربع وعشرين خلت منه. وقال آخرون: لسبع عشرة خلت من شهر رمضان. واستشهدوا لذلك بقوله تعالى: «وَمَا أَنزَلْنَاهُ عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ»^٥ وذلك ملتقى رسول الله ﷺ والمشركين ببدر، وكان صبيحة سبع عشرة من رمضان.^٦

لكن لا دلالة في الآية على أن مبعثه كان مصادفاً لذلك اليوم.

أولاً: لأن المقصود: ما أنزل عليه ذلك اليوم من دلائل الحق وآيات النصر، لا القرآن كله ولا مبدأ نزوله.

وثانياً: سوف نذكر: أن مبدأ نزول القرآن - بعنوان كونه كتاباً سماوياً - كان متأخراً عن يوم مبعثه بالرسالة، فقد بعث ﷺ رسولاً إلى الناس في ٢٧ رجب، وأنزل عليه القرآن في شهر رمضان ليلة القدر، وربما كان بعد فترة ثلاث سنين كما يأتي.

١ - تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٧. طبعة النجف الثانية. ٢ - الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٩ - ٣٠.

٣ - تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٧ - ١٨. ٤ - الطبقات، ج ١، ص ١٢٩.

٥ - الأنفال ٨: ٤١. ٦ - تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

وثالثاً: معنى يوم الفرقان: اليوم الذي فرق فيه بين الحق والباطل، وغلب الحق على الباطل فكان زهوقاً، وكان يوماً حاسماً في حياة المسلمين، وقد أيس الشيطان فيه أن يعبد أو يطاع إلى الأبد.^١

قال المسعودي: أول ما نزل عليه ﷺ من القرآن: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ». وأتاه جبرائيل في ليلة السبت ثم في ليلة الأحد وخاطبه بالرسالة يوم الاثنين، وذلك بحراء، وهو أول موضع نزل فيه القرآن، وخاطبه بأول السورة إلى قوله: «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» ونزل تمامها بعد ذلك.

وكان ذلك بعد بنیان الكعبة بخمس سنين، على رأس عشرين سنة من ملك كسرى أبرويز، وعلى رأس مائتي سنة من يوم التحالف بالربذة.^٢
وكانت سنة ستمائة وتسع من تاريخ ميلاد المسيح ﷺ.^٣

والصحيح عندنا في تعيين يوم مبعثه ﷺ: أنه اليوم السابع والعشرون من شهر رجب الأصب، على ما جاء في روايات أهل البيت ﷺ ويستحب صيامه والقيام بآداب وعبادات تخصه، تلتزم بها الشيعة الإمامية، كل عام تقديساً لهذا اليوم المبارك، الذي أنزلت الرحمة فيه على الناس جميعاً، وافتتحت أبواب البركة العامة على أهل الأرض، إذ بعث النبي ﷺ رحمة للعالمين، فياله من يوم مبارك!

قال الإمام الصادق عليه السلام: «في اليوم السابع والعشرين من رجب نزلت النبوة على رسول الله ﷺ»^٤ وقال: «لا تدع صيام يوم سبع وعشرين من رجب فإنه هو اليوم الذي نزلت فيه النبوة على محمد ﷺ».^٥

وقال الإمام الرضا عليه السلام: «بعث الله - عز وجل - محمداً ﷺ رحمة للعالمين في سبع وعشرين من رجب، فمن صام ذلك اليوم كتب الله له صيام ستين شهراً».^٦

١ - راجع: تفسير شبر، ص ١٩٥.

٢ - تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان، ج ١، ص ٤٣.

٣ - الأمالي لابن الشيخ، ص ٢٨. راجع: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٨٩، ح ٢١.

٤ - الكافي، ج ٤، ص ١٤٩، ح ١.

٥ - المصدر، ح ٢.

والروايات بهذا الشأن من طرق أهل البيت عليهم السلام كثيرة.^١
وهكذا وردت روايات من طرق أهل السنة، بتعيين نفس اليوم:
أورد الحافظ الدمي في سيرته عن أبي هريرة، قال: «من صام يوم سبع وعشرين
من رجب كتب الله تعالى له صيام ستين شهراً، وهو اليوم الذي نزل فيه جبرائيل على
النبي صلى الله عليه وآله بالرسالة وأول يوم هبط فيه جبرائيل». ^٢
وروى البيهقي في شعب الإيمان، عن سلمان الفارسي، قال: «في رجب يوم وليلة،
من صام ذلك اليوم وقام تلك الليلة كان كمن صام مائة سنة وقام مائة سنة، وهو ثلاث
بقيين من رجب، وفيه بعث الله محمدًا صلى الله عليه وآله». ^٣
وروى صاحب المناقب عن ابن عباس، وأنس بن مالك: أنهما قالوا: «أوحى الله إلى
محمد صلى الله عليه وآله يوم الاثنين، السابع والعشرين من رجب، وله من العمر أربعون سنة». ^٤
قال العلامة المجلسي رحمته الله: اختلفوا في اليوم الذي بُعث فيه النبي محمد صلى الله عليه وآله على
خمس أقال:

الأول: سابع عشر شهر رمضان.

الثاني: ثامن عشر شهر رمضان.

الثالث: أربع وعشرون شهر رمضان.

الرابع: ثاني عشر ربيع الأول.

الخامس: سابع وعشرون شهر رجب.

قال: وعلى الأخير اتفاق الإمامية.^٥

أقول: وهناك قول سادس: ثامن ربيع الأول. وقول سابع: ثالث ربيع الأول. ذكرهما
ابن برهان الحلبي في سيرته. ثم ذكر القول بأنه الثاني عشر من ربيع الأول، يوم مولده

١ - راجع: وسائل الشيعة، باب ١٥ من أبواب الصوم المندوب، ج ٧، ص ٣٢٩، ح ١.

٢ - السيرة الحلبيّة، ج ١، ص ٢٣٨.

٣ - منتخب كنز العمال بهامش المسند، ج ٣، ص ٣٦٢.

٤ - المناقب، ج ١، ص ١٧٣؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٠٤، ح ٣٤.

٥ - بحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٩٠.

الشريف، ليوافق القول بأنه بعث على رأس تمام الأربعين.^١
وسنذكر: أن أكثرية القائلين ببعثته ﷺ في شهر رمضان، لعلّه قد اشتبه عليهم مبدأ
حادث النبوة بمبدأ حادث نزول القرآن كتاباً فيه تبيان كل شيء وهذا الاشتباه يبدو من
استدلالهم على تعيين يوم البعثة بما دلّ على أن القرآن نزل في ليلة القدر من شهر رمضان.
وسنتحقق: أن لاصلة بين الحادئين، فقد بعث ﷺ في رجب: ٢٧. ولكن القرآن بسمته
كتاباً مفصلاً، بدأ نزوله على النبي ﷺ في شهر رمضان: ليلة القدر. بعد ثلاث سنين من
نبوته ﷺ فكانت مدة نبوته ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة. ولكن فترة نزول القرآن مفرقاً
استغرقت عشرين عاماً، بدأت بدخول السنة الرابعة من البعثة، وختمت في عاشر الهجرة
بوفاته ﷺ.

بدء نزول القرآن

لا شك أن القرآن نزل على رسول الله ﷺ في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك،
لقوله تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ».^٢ وقوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ»^٣
وقوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ»^٤

وليلة القدر - عندنا - مرددة بين ليلتين في العشر الأخير من شهر رمضان المبارك:
إحدى وعشرين أم ثلاثة وعشرين؟ والأرجح أنها الثانية، لحديث الجهني.^٥

وقال الصدوق رحمه الله: اتفق مشايخنا على أنها ليلة ثلاث وعشرين.^٦

والكلام في تعيين ليلة القدر ليس من مبحثنا الآن، وإنما يهمنا التعرّض لجوانب من
هذا التحديد، أي نزول القرآن في ليلة واحدة - هي ليلة القدر - من شهر رمضان.

أولاً: منافاته - ظاهراً - مع ما أسلفناه من اتفاق الإمامية وعدد من أحاديث غيرهم،

٢ - البقرة ٢: ١٨٥.

١ - السيرة الحلبية، ج ١، ص ٢٣٨.

٤ - القدر ٩٧: ١.

٣ - الدخان ٤٤: ٣.

٥ - راجع: وسائل الشيعة، باب ٣٢ من أبواب أحكام شهر رمضان، ج ٧، ص ٢٦٢، ح ١٦.

٦ - الخصال، ص ٥١٩.

على أن البعثة كانت في رجب، ولا شك أن البعثة كانت مقرونة بنزول أي من القرآن: خمس آيات من أول سورة العلق. فكيف يتم ذلك مع القول بنزول القرآن - كله أو بدء نزوله - في شهر رمضان في ليلة القدر؟

ثانياً: ماذا يكون المقصود من نزول القرآن في ليلة واحدة هي ليلة القدر؟ هل نزل القرآن كله جملة واحدة تلك الليلة؟ مع العلم أن القرآن نزل نجوماً لفترة عشرين أو ثلاث وعشرين عاماً، حسب المناسبات والظروف المختلفة، ودعيت باسم «أسباب النزول»، فكيف ذلك؟

ثالثاً: ما هي أول آية أو سورة نزلت من القرآن، فإن كانت هي سورة العلق أو أي منها، فلم سُميت سورة الحمد بفاتحة الكتاب؟ إذ ليس المعنى: أنها كتبت في بدء المصحف! لأن هذا الترتيب شيء حصل بعد وفاة النبي ﷺ أو لأقل في عهد متأخر من حياته - فرضاً - في حين أنها كانت تسمى بفاتحة الكتاب منذ بداية نزولها: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»^١ حديث مأثور عن لسان النبي ﷺ!

وللإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة - بصورة إجمالية - نقول: إن بدء البعثة يختلف عن بدء نزول القرآن ككتاب سماوي. لأنه ﷺ نبيء ولم يؤمر بالتبليغ العام إلا بعد ثلاث سنوات، كان خلالها يدعو في اختفاء حتى نزلت الآية: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ»^٢ ومن هذا الحين جعل القرآن ينزل تباعاً، بسمة كونه كتاباً أنزل من السماء وكان يسجل على العصب واللفاف، يكتبه من كان يعرف الكتابة من المؤمنين، وهم عدد قليل، خلال عشرين عاماً.

وقد كان بدء نزول القرآن - بعد تلك الفترة - في ليلة القدر من شهر رمضان. وبهذا الاعتبار صح التعبير بأن القرآن نزل في ليلة القدر، وإن كان نزوله تباعاً استغرق عشرين عاماً. إذ كل حدث خطير تكون له مدة وامتداد، فإن تاريخه يسجل حسب مبدأ شروعه،

١ - صحيح مسلم، ج ٢، ص ٩؛ ومنتخب كنز العمال بهامش المسند، ج ٣، ص ١٨٠.

٢ - الحجر ١٥: ٩٤.

كما سنفضّل الكلام عنه.

أمّا أوّل آية نزلت فهي الآيات الخمس من أوّل سورة العلق، ونزلت بقيّتها في فترة متأخرة. غير أنّ أوّل سورة كاملة نزلت من القرآن هي سورة الحمد، ومن ثمّ سمّيت بفاتحة الكتاب.

هذا إجمال الكلام حول هذه المواضيع الثلاثة، وأمّا التفصيل فهو كما يلي:

فترة ثلاث سنوات

ولنفرض أنّ البعثة كانت في رجب، حسب رواية أهل البيت ولقيف من غيرهم، لكن القرآن - بسمة كونه كتاباً سماوياً ودستوراً إلهياً خالداً - لم ينزل عليه إلّا بعد فترة ثلاث سنين. كان النبي ﷺ خلالها يكتّم أمره من ملأ الناس، ويدعو إلى الله سرّاً، ومن ثمّ لم يكن المشركون يتعرّضون أذاه، سوى طعنات لسنية، حيث لا يرون من شأنه ما يخشى على دينهم.

وكان يصليّ إذ ذاك مع رسول الله ﷺ أربعة: علي وجعفر وزيد وخديجة. وكلّما مرّ بهم ملأ من قريش سخرّوا منهم.

قال علي بن إبراهيم القميّ: فلمّا أتى لذلك ثلاث سنين، أنزل الله عليه: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ»^١ قال: وكان ذلك بعد أن نبيّ بثلاث سنين.^٢

وقال اليعقوبي: وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث سنين يكتّم أمره.^٣

وقال محمد بن إسحاق: وبعد ثلاث سنين من مبعثه نزل «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ» فأمر أن

يجهر بالدعوة ويعمّ الإنذار.^٤

١ - الحجر ١٥: ٩٤-٩٥.

٢ - تفسير القميّ، ج ١، ص ٢٧٨؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٥٢، ح ٧ وص ١٧٩، ح ١٠.

٣ - تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٩.

٤ - سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٨٠؛ والمناقب، ج ١، ص ٤٣؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٩٣-١٩٤، ح ٢٩.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «مكث رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة بعد ما جاءه الوحي عن الله تبارك وتعالى ثلاث عشرة سنة، منها ثلاث سنين مختفياً خائفاً لا يظهر أمره، حتى أمره الله أن يصدع بما أمر به، فأظهر حينئذٍ الدعوة»^١.

وهذه الروايات، إذا لاحظناها مع روايات قائلة: إن فترة نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وآله استغرقت عشرين عاماً، تعطينا: أن مبدأ نزول القرآن كان متأخراً عن البعثة بثلاث سنوات، إذ لا شك أن القرآن كان ينزل عليه صلى الله عليه وآله حتى عام وفاته صلى الله عليه وآله وبذلك يلتئم القول بأن بدء نزول القرآن كان في شهر رمضان، ليلة القدر كما نص عليه القرآن الكريم.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «ثم نزل القرآن في طول عشرين عاماً». كما جاء في رواية الكليني^٢ والعياشي^٣ وأشار إليه الصدوق^٤ والمجلسي^٥. والنص على تحديد فترة نزول القرآن بعشرين عاماً كثير^٦.

وإلى هذا المعنى تشير الرواية عن سعيد بن المسيب، قال: أنزل على النبي صلى الله عليه وآله وهو ابن ثلاث وأربعين^٧ أي أنزل عليه القرآن عند ذلك. إذ لا شك أن النبوة نزلت عليه صلى الله عليه وآله عند اكتمال الأربعين، وهذا إجماع الأمة، وعليه اتفاق كلمتهم، فكيف يخفى على مثل سعيد؟! وروى الواحدي بإسناده إلى الشعبي، قال: فرّق الله تنزيله فكان بين أوله وآخره عشرون أو نحو من عشرين سنة^٨.

وأوضح من ذلك ما رواه الإمام أحمد بسند متصل إلى عامر الشعبي: أن رسول الله صلى الله عليه وآله نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشيء، ولم ينزل القرآن. فلما مضت ثلاث سنين، قرن بنبوته جبرائيل، فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة، عشراً بمكة وعشراً بالمدينة، فمات صلى الله عليه وآله وهو ابن ثلاث

١ - الغيبة للشيخ الطوسي، ص ٣٣٣؛ وكمال الدين، ج ٢، ص ٣٤٤، رقم ٢٩؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٧٧، ح ٤.

٢ - الكافي، ج ٢، ص ٦٢٨-٦٢٩، ح ٦. ٣ - تفسير العياشي، ج ١، ص ٨٠، ح ١٨٤.

٤ - الاعتقادات، ص ١٠١. ٥ - بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٠، ح ٣ و ص ٢٥٣.

٦ - راجع: الإتقان، ج ١، ص ١١٨؛ وتفسير شبر، ص ٣٥٠.

٧ - المستدرك على الصحيحين، ج ٢، ص ٦١٠. ٨ - أسباب النزول، ص ٣.

وستين سنة. قال ابن كثير: وهو إسناد صحيح إلى الشعبي.^١
وهذه الرواية وإن كانت فيها أشياء لا نعرفها، ولعلها من اجتهاد الشعبي الخاص، لكن
الذي نريده من هذه الرواية هو جانب تحديد نزول القرآن في مدة عشرين عاماً، وأن
نزوله تأخر عن البعثة بثلاث سنين، وهذا شيء متفق عليه.

آراء وتأويلات

وأما تأويل نزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان، مع العلم أن القرآن نزل
منجماً طول عشرين أو ثلاث وعشرين عاماً، في فترات ومناسبات خاصة، تدعى
بأسباب النزول، فللعلماء في ذلك آراء وتأويلات:

١ - إن بدء نزوله كان في ليلة القدر من شهر رمضان.

وهذا اختيار محمد بن إسحاق^٢ والشعبي^٣. قال الإمام الرازي: وذلك لأن مبادئ
الملل والدول هي التي تؤرخ بها. لكونها أشرف الأوقات. ولأنها أيضاً أوقات مضبوطة
معلومة.^٤ وهكذا فسر الزمخشري الآية بذلك، قال: «ابتدئ فيه إنزاله».^٥

وهو الذي نرتأيه، نظراً لأن كل حادث خطير، إذا كانت له مدة وامتداد زمني، فإن
بدء شروعه هو الذي يسجل تاريخياً كما إذا سُئل عن تاريخ دولة أو مؤسسة أو تشكيل
حزبي، أو إذا سُئل عن تاريخ دراسة طالب علم أو تلبس الخاص وأمثال ذلك، فإن
الجواب هو تعيين مبدأ الشروع أو التأسيس لا غير.

وأيضاً: فإن قوله تعالى: «أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»^٦ والآيات الأخر، حكاية عن أمر سابق
لا يشمل نفس هذا الكلام الحاكي وإلا لكان اللفظ بصيغة المضارع أو الوصف. فنفس هذا
الكلام دليل على أن من القرآن ما نزل متأخراً عن ليلة القدر، اللهم إلا بضرب من التأويل

١ - البداية والنهاية، ج ٣، ص ٤؛ والإتقان، ج ١، ص ١٢٩؛ والطبقات، ج ١، ص ١٢٧؛ وتاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٨.

٢ - مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٧٦.

٣ - الإتقان، ج ١، ص ١١٨.

٤ - الكشاف، ج ١، ص ٢٢٧.

٥ - التفسير الكبير، ج ٥، ص ٨٥.

٦ - بقرة ٢: ١٨٥.

غير المستند، على ماسياتي.

كما أن اختلاف مناسبات الآيات، حسب الظروف والدواعي، أكبر دليل على اختلاف مواقع نزولها، إذ يربط ذلك كل آية بحادثة في قيد وقتها، وهذا في كل آية نزلت بشأن حدث أو واقعة وقعت في وقتها الخاص، وجاءت آية تعالجها في نفس الوقت. كل ذلك دليل على أن القرآن لم ينزل جملة واحدة. وإلا لما كان موقع لقولة المشركين: «لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً» قال تعالى -رداً على هذا الاعتراض-: «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً».^١ أي كان نزول القرآن تباعاً وفي فترات مناسبة أدم لطمئنان قلبك، حيث الشعور بعناية الله المتواصلة في كل آونة ومناسبة.^٢

وذهب إلى هذا الرأي -أيضاً- ابن شهر آشوب في المناقب، قال: شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن أي ابتداء نزوله. وقال في متشابهات القرآن: والصحيح أن «القرآن» في هذا الموضع لا يفيد العموم، وإنما يفيد الجنس: فأى شيء نزل فيه فقد طابق الظاهر.^٣

ويبدو من الشيخ المفيد رحمته من آخر كلامه رداً على أبي جعفر الصدوق رحمته فيما يأتي، اختيار هذا القول أيضاً، قال: وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملة في ليلة القدر، أنه نزلت جملة منه ليلة القدر، ثم تلاه ما نزل منه إلى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. فأما أن يكون نزل بأسره وجميعه في ليلة القدر، فهو بعيد عما يقتضيه ظاهر القرآن، والمتواتر من الأخبار، وإجماع العلماء على اختلافهم في الآراء.^٤

٢- كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم في كل ليلة قدر من كل عام، ما كان يحتاج إليه الناس في تلك السنة من القرآن، ثم ينزله جبرائيل حسب مواقع الحاجة شيئاً فشيئاً بما يأمره الله تعالى. فيكون المقصود من شهر رمضان: هو النوع. لارمضان خاص -وهو احتمال الإمام الرازي أيضاً-.^٥

١ - الفرقان ٢٥: ٣٢. ٢ - راجع: الإتيان، ج ١، ص ١١٩.

٣ - المناقب، ج ١، ص ١٧٣؛ ومتشابهات القرآن، ج ١، ص ٦٣.

٤ - شرح عقائد الصدوق، ص ٥٨. ٥ - التفسير الكبير، ج ٥، ص ٨٥.

وهذا اختيار ابن جريج^١ والسدي، وأسنده الأخير إلى ابن عباس أيضاً^٢ ونقله القرطبي عن مقاتل بن حيان. ووافقه الحلبي والماوردي وغيرهما.^٣

غير أن هذا الاختيار، يخالفه ظاهر قوله تعالى: «أُنزِلَ فِيهِ» أو «أُنزِلْنَا» حكاية عن حدث سابق، فلو صحّ هذا القول لكان المناسب أن يقول: ننزله، صفة للحال!

وأيضاً يردّه ما استبعدناه على الرأي الخامس الآتي: ماهي الفائدة المتوخاة من نزول قرآن قبل الحاجة إليه، ولا سيما في صيغة جملة الماضي أو الحال، المستدعية كونها نزلت لمناسبة وقتية، لا موقع لنزولها قبل ذلك، حسب التعبير اللفظي!

٣ - شهر رمضان الذي نزل في شأنه القرآن، أي في فرض صيامه، كما يقال: نزل في فلان، أو في مناسبة كذا قرآن. والمراد من القرآن آية أو آيات منه.^٤

قال الضحاك: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»،^٥ أي الذي أنزل صومه في القرآن.^٦

وقال سفيان بن عيينة: معناه: أنزل في فضله القرآن. واختاره الحسين بن الفضل وابن الأنباري.^٧

لكن هذا الوجه يخصّ آية البقرة، ولا يجري في آيتي الدخان والقدر، كما لا يخفى. فضلاً عن أنّه تأويل في اللفظ لا مبرّر له ولا مستند.

٤ - إنّ معظمه نزل في أشهر رمضان، ومن ثمّ صحّ نسبة الجميع إليه.

وهذا احتمال ثانٍ احتملها سيّد قطب، قال: الشهر الذي أنزل فيه القرآن إمّا بمعنى أنّ بدء نزوله كان في رمضان، أو أنّ معظمه نزل في أشهر رمضان.^٨

لكن لا دليل على أنّ معظم آيات القرآن نزلت في أشهر رمضان وفي ليلة القدر بالخصوص. ولعلّ الواقعية تأبى هذا الاحتمال رأساً.

٥ - القرآن نزل جملة واحدة في ليلة واحدة، هي ليلة القدر، إلى بيت العزة أو البيت

١ - الدر المنثور، ج ١، ص ١٨٩.

٢ - مجمع البيان، ج ١، ص ٢٧٦.

٣ - الإتيان، ج ١، ص ١١٨.

٤ - مجمع البيان، ج ١، ص ٢٧٦؛ والكشاف، ج ١، ص ٢٢٧.

٥ - البقرة ٢: ١٨٥.

٦ - الدر المنثور، ج ١، ص ١٩٠.

٧ - التفسير الكبير، ج ٥، ص ٨٥.

٨ - في ظلال القرآن، ج ٢، ص ٢٤٥.

المعمور، ثم نزل على رسول الله ﷺ في فترات ومناسبات، طول عشرين أو ثلاثة وعشرين عاماً.

ذهب إلى هذا القول جماعة من أرباب الحديث، نظراً لظاهر أحاديث رويت في ذلك.

قال الشيخ الصدوق - عليه الرحمة -: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر، جملة واحدة إلى البيت المعمور، في السماء الرابعة، ثم نزل من البيت المعمور في مدة عشرين سنة. وأن الله أعطى نبيه العلم جملة واحدة، ثم قال له: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ»^١.

قال العلامة المجلسي - تعقياً على هذا الكلام -: قد دلت الآيات على نزول القرآن في ليلة القدر. والظاهر نزوله جميعاً فيها. ودلت الآثار والأخبار على نزول القرآن في عشرين^٢ أو ثلاث وعشرين سنة^٣. وورد في بعض الروايات: أن القرآن نزل في أول ليلة من شهر رمضان^٤. ودل بعضها على أن ابتداء نزوله في المبعث^٥. فيجمع بينها بأن في ليلة القدر نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى السماء الرابعة (البيت المعمور) لينزل من السماء الرابعة إلى الأرض تدريجاً.

ونزل في أول ليلة من شهر رمضان جملة القرآن على النبي ﷺ ليعلمه هو، ولا يتلوه على الناس، ثم ابتداء نزوله آية آية وسورة سورة في المبعث أو غيره ليتلوه على الناس...^٦ وأخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس: قال: أنزل القرآن ليلة القدر جملة واحدة إلى السماء الدنيا، ووضع في بيت العزة، ثم أنزل نجوماً على النبي ﷺ في عشرين سنة.

١ - طه ٢٠: ١١٤؛ راجع: الاعتقادات، ص ١٠١. ٢ - الكافي، ج ٢، ص ٦٢٨ - ٦٢٩، ح ٦.

٣ - هي مدة نبوته ﷺ بناء على ابتداء نزول القرآن يوم مبعثه واختتامه بوفاته ﷺ.

٤ - الكافي، ج ٤، ص ٦٦، ح ١.

٥ - وهي روايات دلت على أن أول سورة نزلت هي سورة العلق، نزلت في بدء البعثة في اليوم ٢٧ من رجب. راجع:

بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٣٩، ح ١، وج ١٨، ص ٢٠٦، ح ٣٦.

٦ - بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٣ - ٢٥٤، ح ٢.

قال جلال الدين: وهذا هو أصح الأقوال وأشهرها. وروى في ذلك روايات كثيرة، حكم على أكثرها بالصحة، رواها عن الحاكم والطبراني والبيهقي والنسائي وغيرهم.^١ وروى الطبري بإسناده عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ: قال: «أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان. وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان. وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت. وأنزل القرآن لأربع وعشرين من رمضان».^٢

وفيه عن السدي عن ابن عباس، قال: شهر رمضان، واللييلة المباركة ليلة القدر، فإن ليلة القدر هي اللييلة المباركة، وهي في رمضان، نزل القرآن جملة واحدة من الزبر إلى البيت المعمور، وهي مواقع النجوم في السماء الدنيا، حيث وقع القرآن، ثم نزل على محمد ﷺ بعد ذلك في الأمر والنهي وفي الحروب رسلاً رسلاً.^٣

وكان عطية بن الأسود قد وقع في نفسه الشك من هذه الآية، وقد نزل القرآن في جميع شهور السنة، فسأل ابن عباس عن ذلك، فأجابه بما تقدم.^٤

وهكذا روى جلال الدين بسنده إلى جابر بن عبد الله الأنصاري - رضوان الله عليه - قال: أنزل الله صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان، وأنزل التوراة على موسى لست خلون من رمضان، وأنزل الزبور على داود لاثنتي عشرة خلت من رمضان، وأنزل الإنجيل على عيسى لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ لأربع وعشرين خلت من رمضان.^٥

ومن طرقنا روى العياشي عن إبراهيم، أنه سأل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»^٦ كيف أنزل فيه القرآن، وإنما أنزل القرآن في طول عشرين سنة، من أوله إلى آخره؟! فقال الإمام عليه السلام: «نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثم أنزل من البيت المعمور في طول عشرين سنة. ثم قال: قال

١ - الإتيان، ج ١، ص ١١٦-١١٨.

٢ - جامع البيان، ج ٢، ص ٨٤.

٣ - المصدر، ص ٨٤-٨٥.

٤ - الدر المنثور، ج ١، ص ١٨٩.

٥ - المصدر.

٦ - البقرة ٢: ١٨٥.

النبي ﷺ: نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من شهر رمضان. وأنزلت الإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان وأنزل الزبور لثمانى عشرة من رمضان. وأنزل القرآن لأربع وعشرين من رمضان»^١.

وجاء الحديث في الكافي، إلا أن في آخره: «وأنزل القرآن في ثلاث وعشرين من شهر رمضان» والرواية هي عن الحفص بن غياث^٢. وفي التهذيب جاء قسم من الحديث برواية أبي بصير، وفي آخره: «ونزل الفرقان في ليلة القدر»^٣.

هذه جملة من روايات مأثورة، تفسر نزول القرآن جملة واحدة في ليلة واحدة، إما إلى البيت المعمور في السماء الرابعة، كما في روايات الخاصة. أو إلى بيت العزة في السماء الدنيا، كما في بعض روايات العامة، ثم منها نزلت آياته مفرقة على رسول الله ﷺ حسب الظروف والمناسبات رسلاً رسلاً...

وقد أخذ الظاهريون من أصحاب الحديث بظاهر هذه الروايات، مستريحين بأنفسهم إلى مدلولها الظاهري تعبداً محضاً.

أما المحققون من العلماء فلم يرقهم الأخذ بما لا يمكن تعقله، ولا مقتضى للتعبد بما لا يرجع إلى أصول العباديات، ومن ثم أخذوا ينقدون هذه الأحاديث نقداً علمياً. متسائلين: ماهي الفائدة الملحوظة من وراء نزول القرآن جملة واحدة في إحدى السماوات العلى، ثم ينزل تدريجياً على رسول الله ﷺ؟!

وإجابة على هذا السؤال، قال الفخر الرازي: ويحتمل أن يكون ذلك تسهيلاً على جبرائيل أو لمصلحة النبي ﷺ في توقع الوحي من أقرب الجهات^٤.

وهذا الجواب غاية في الوهن والسقوط، مضافاً إلى أنه تخرّص بالغيب، ونستغرب صدور مثل هذا الكلام الفارغ من مثل هذا الرجل المضطلع بالتحقيق!!

١ - تفسير العياشي، ج ١، ص ٨٠، ح ١٨٤.

٢ - الكافي، ج ٢، ص ٦٢٨ - ٦٢٩، ح ٦.

٣ - تهذيب الأحكام، ج ٤، ص ١٩٣ - ١٩٤، ح ٧.

٤ - التفسير الكبير، ج ٥، ص ٨٥.

وقال المولى الفيض الكاشاني: وكأنه أريد بذلك: نزول معناه على قلب النبي ﷺ، كما قال تعالى: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ»^١. ثم نزل طول عشرين سنة نجوماً من باطن قلبه إلى ظاهر لسانه، كلما أتاه جبرائيل عليه السلام بالوحي وقرأه عليه بالفاظه.^٢

فقد أوّل الله البيت المعمور إلى قلب رسول الله ﷺ. وربما أراد الصدوق رضي الله عنه أيضاً هذا المعنى من قوله: وأعطى نبيّه العلم جملة واحدة.

وهكذا وقع اختيار الشيخ أبي عبد الله الزنجاني في تأويل هذه الرواية، قال: ويمكن أن تقول بأن روح القرآن وهي أغراضه الكلية التي يرمي إليها، تجلّت لقلبه الشريف في تلك الليلة «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ»^٣ ثم ظهرت بلسانه الأظهر مفرقة في طول سنين «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا»^٤.

وقد أخذ العلامة الطباطبائي رحمه الله هذا التأويل وزاد عليه تحقيقاً، قال: إن الكتاب ذا حقيقة أخرى وراء مانفهمه بالفهم العادي، وهي حقيقة ذات وحدة متماسكة لا تقبل تفصيلاً ولا تجزئة، لرجوعها إلى معنى واحد لا أجزاء فيه ولا فصول. وإنما هذا التفصيل المشاهد في الكتاب طراً عليه بعد ذلك الإحكام، قال تعالى: «كِتَابٌ أُخْكِمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ»^٥. وقال تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ»^٦. وقال: «وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ»^٧... إذن فالمراد بإنزال القرآن في ليلة القدر: إنزال حقيقة الكتاب المتوحدة إلى قلب رسول الله ﷺ دفعة، كما أنزل القرآن المفصل في فواصل وظروف، على قلبه ﷺ أيضاً تدريجاً في مدة الدعوة النبوية...^٨

أقول: هذا كلام لطيف، لكنه لا يعدو تأويلاً غير مستند إلى دليل، والمسألة قبل كل شيء عقلية وليست بالعقلية النظرية، ومن ثم نتساءل هؤلاء الأعلام: بم أولتم البيت المعمور الذي هو في السماء الرابعة - حسب روايات الخاصة - أو بيت العزة - حسب

١ - الشعراء ٢٦: ١٩٣-١٩٤.

٢ - الشعراء ٢٦: ١٩٣-١٩٤.

٣ - هود ١: ١.

٤ - الأعراف ٧: ٥٢.

٥ - الصافي في تفسير القرآن، ج ١، ص ٤٢.

٦ - الإسراء ١٧: ١٠٦. راجع: تاريخ القرآن، ص ١٠.

٧ - الواقعة ٥٦: ٧٧ - ٧٩.

٨ - تفسير الميزان، ج ٢، ص ١٤ - ١٦.

روايات العامة - إلى قلب رسول الله ﷺ؟! ولم هذا التعبير جاء في هذا اللفظ؟! وسوف تناقش السيد العلامة في اختيار وجود آخر للقرآن بسيط، وراء هذا الوجود المفصل، سيأتي الكلام عليه في فصل المتشابهات إن شاء الله.^١

تحقيق مفيد

قال المحقق العلامة الشيخ أبو عبد الله المفيد: الذي ذهب إليه أبو جعفر^٢ في هذا الباب، أصله حديث واحد - أي ليس من المتواتر المقطوع به - لا يوجب علماً ولا عملاً. ونزول القرآن على الأسباب الحادثة حالا فحالا يدلّ على خلاف ما تضمنه هذا الحديث. وذلك أن القرآن قد تضمن حكم ما حدث وذكر ما جرى على وجهه، وذلك لا يكون على الحقيقة إلا لوقت حدوثه عند السبب...

مثلاً قوله تعالى: «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا»^٣ نزلت هذه الآية بشأن خولة بنت خويلد جاءت تشتكي زوجها أوس بن الصامت الذي كان قد ظاهرها، وكان ذلك طلاقاً في الجاهلية.^٤

وقوله تعالى: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا»^٥. وقوله: «رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا»^٦.

وكثير في القرآن لفظة «قالوا» و«قال» و«جاؤوا» و«جاء» - بلفظ الماضي - كما أن فيه ناسخاً ومنسوخاً... كل ذلك لا يتناسب ونزوله جملة واحدة في وقت لم يحدث شيء من ذلك.

قال ﷺ: ولو تتبعنا قصص القرآن، لجاء ممّا ذكرناه كثيراً لا يتسع به المقال. وما أشبه

١ - عند الكلام عن حقيقة التأويل في الجزء الثالث من الكتاب.

٢ - نقلنا كلامه سابقاً. وكلام المفيد هنا ردّ عليه، وعلى كل من ذهب مذهبه من اختيار ظاهر تلكم الأحاديث.

٣ - المجادلة ٥٨: ١.

٤ - مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٤٦.

٥ - الجمعة ٦٢: ١١.

٦ - الأحزاب ٤٣: ٢٣.

ما جاء به هذا الحديث بمذهب المشبهة الذين زعموا أن الله سبحانه لم ينزل متكلماً بالقرآن - أي القول بقدم القرآن - ومخبراً عما سيكون بلفظ كان، وقد ردّ عليهم أهل التوحيد بنحو ما ذكرناه.

قال: وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملة في ليلة القدر: أنه نزلت جملة منه ليلة القدر، ثم تلاه ما نزل منه إلى وفاة النبي ﷺ فأما أن يكون نزل بأسره وجميعه في ليلة القدر فهو بعيد عما يقتضيه ظاهر القرآن، والمتواتر من الأخبار، وإجماع العلماء على اختلافهم في الآراء...^١

وقال المرتضى علم الهدى رحمه الله: «والذي ذهب إليه أبو جعفر ابن بابويه رحمه الله من القطع على أنه أنزل جملة واحدة...» إن كان معتمداً في ذلك على الأخبار المروية التي رواها، فتلك أخبار آحاد لا توجب علماً ولا تقتضي قطعاً. وبإزائها أخبار كثيرة أشهر منها وأكثر، تقتضي أنه أنزل متفرقاً، وأن بعضه نزل بمكة وبعضه بالمدينة، ولهذا نسب بعض القرآن إلى أنه مكّي وبعضه مدني. وأنه ﷺ كان يتوقف عند حدوث حوادث، كالظهار وغيره، على نزول ما ينزل إليه من القرآن، ويقول ﷺ: ما أنزل إليّ في هذا شيء ولو كان القرآن أنزل جملة واحدة لما جرى ذلك، ولكان حكم الظهار وغيره مما يتوقف فيه معلوماً له. ومثل هذه الأمور الظاهرة المنتشرة لا يرجع عنها بأخبار الآحاد خاصة.

فأما القرآن نفسه فدالّ على ذلك، وهو قوله تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً» ولو كان أنزل جملة واحدة لقل في جوابهم قد أنزل على ما اقترحتم، ولا يكون الجواب: «كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا»^٢ وفسّر المفسرون كلهم ذلك بأن قالوا: المعنى إنا أنزلناه كذلك أي متفرقاً يتمهل على إسماعه ويتدرج إلى تلقّيه. والترتيل أيضاً إنما هو ورود الشيء في أثر الشيء، وصرف ذلك إلى العلم به غير صحيح، لأن

الظاهر خلافه. ولم يقل القوم: لولا علمنا بنزوله جملة واحدة، بل قالوا: لولا أنزل إليك جملة واحدة. وجوابهم إذا كان أنزل كذلك أن يقال: قد كان الذي طلبتموه، ولا يحتج لإنزاله متفرقاً بما ورد بنزوله في تمام الآية.

فأما قوله: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»^١ فإنما يدل على أن جنس القرآن (معظمه أو بدء شروعه) نزل في هذا الشهر، ولا يدل على نزول الجميع فيه.

فأما قوله: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ»^٢ فلا ندري من أي وجه دل على أنه أنزل جملة واحدة. وقد كان أنه ﷺ يبين وجه دلالة على ذلك. وهذه الآية بأن تدل على أنه ما أنزل جملة واحدة أولى، لأنه تعالى قال: «قَبْلَ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ» وهذا يقتضي أن في القرآن منتظراً ما قضى الوحي به وقوع منه.

وقد كنا سئلاً إملاء تأويل هذه الآية قديماً، فأملينا فيها مسألة مستوفاة، وذكرنا عن أهل التفسير فيها وجهين، وضممنا إليهما وجهاً ثالثاً تفرّدنا به. فأحد الوجهين: إنه كان ﷺ إذا نزل عليه الملك بشيء من القرآن قرأه مع الملك المؤدّي له إليه قبل أن يستتم الأداء. حرصاً منه ﷺ على حفظه وضبطه. فأمر ﷺ بالتثبت حتى ينتهي غاية الأداء، لتعلق الكلام بعضه ببعض.

والوجه الثاني: إنه ﷺ نهى أن يبلغ شيئاً من القرآن قبل أن يوحى إليه بمعناه وتأويله وتفسيره.

والوجه الثالث - الذي انفردنا به - إنه ﷺ نهى عن أن يستدعي من القرآن ما لم يوح إليه به لأنّ ما فيه مصلحة منه لا بدّ من إنزاله وإن لم يستدع، لأنه تعالى لا يدخر المصالح عنهم. وما لا مصلحة فيه لا يُنزل على كلّ حال، فلا معنى للاستدعاء.

فلا تعلق للآية بالموضع الذي وقع فيه...^٣

٢ - طه ٢٠: ١١٤.

١ - البقرة ٢: ١٨٥.

٣ - جواب المسائل الطرابلسيات الثالثة. ضمن المجموعة الأولى من رسائل الشريف المرتضى، ص ٤٠٣ - ٤٠٥.

إنزال وتنزيل

ومما تعلق به أصحاب القول بنزول القرآن مرتين: دفعية وتدرجية، هو الفرق بين التعبيرين (إنزال وتنزيل) بشأن نزول القرآن: قالوا: متى جاء التعبير بإنزال القرآن فالمراد نزوله الدفعي، كما في قوله تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ»^١ وقوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ»^٢ و«إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ»^٣.

أما التعبير بالتنزيل فيعني نزوله التدريجي: «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا»^٤.

قال الزمخشري - في قوله تعالى: «نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ»^٥ -: لِمَ قال بشأن الكتاب: نَزَّلَ. وبسبب التوراة والإنجيل: أنزل؟ فأجاب: لأن القرآن نزل منجماً ونزل الكتابان جملة^٦.

وقال الراغب: والفرق بين الإنزال والتنزيل في وصف القرآن والملائكة: أن التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مفزقاً ومرة بعد أخرى، والإنزال عام.

قال - في الآيات الثلاث الأولى -: وإنما خص لفظ الإنزال دون التنزيل، لما روي أن القرآن نزل دفعة واحدة إلى سماء الدنيا، ثم نزل نجماً فنجماً. وفي قوله تعالى: «الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ»^٧ فخص لفظ الإنزال ليكون أعم. وقوله: «لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ»^٨ ولم يقل: لو أنزلنا، تنبيهاً أننا لو خولناه مرة ما خولناك مراراً «لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا»^٩.

وتابعهما على ذلك سيدنا العلامة الطباطبائي مؤكداً عليه ومصرراً على أن التعبير بالإنزال إنما كان باعتبار نزول حقيقة القرآن البسيطة دفعة في ليلة القدر من شهر رمضان.

٢ - الدخان ٤٤: ٣.

١ - البقرة ٢: ١٨٥.

٤ - الإسراء ١٧: ١٠٦.

٣ - القدر ٩٧: ١.

٦ - الكشاف، ج ١، ص ٣٣٦.

٥ - آل عمران ٣: ٣.

٨ - الحشر ٥٩: ٢١.

٧ - التوبة ٩: ٩٧.

٩ - المفردات للراغب، ص ٤٨٩.

وأما التنزيل فهو نزول تفاصيله تدريجياً في تمام مدّة الرسالة.^١

لكن الحقيقة تبدو غير ذلك، فقد حكى الله عن العرب قولتهم: «لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً»،^٢ فجاء التعبير عن نزول جملة القرآن دفعة بالتنزيل. وأيضاً قوله تعالى: «لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا»،^٣ والملك شخص وهو لا ينزل شيئاً فشيئاً مدرّجاً. وقوله: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ»،^٤ والآية تنزل لفردّها. وقوله: «وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ»،^٥ أي نزولها جملةً. وقوله: «وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطاسٍ فَلَمُسُوهُ»،^٦ أي نزوله بجملته.

ويرد على العلامة فيما حسبه من اختصاص لفظة الإنزال بالبساط، قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ»،^٧ والكتاب المنزل الذي فيه المحكم والمتشابه هو هذا القرآن الذي فيه تفصيل وتبيين. وقوله: «وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا»،^٨ والنازل مفصلاً هو هذا القرآن الذي نزل منجّماً.

وقد جمع بين التعبيرين بشأن هذا القرآن في آية واحدة: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ».^٩

وقد وهم الزمخشري هنا مرّتين، أولاًهما: ما حسبه بشأن الإنجيل أنّه كتاب وما هو إلاّ بشائر ألّقاها على الحواريين. ولم يكن له كتاب بمعناه المصطلح.^{١٠} وقوله: «آتَانِي الْكِتَابَ»^{١١} يعنى به الشريعة ذاتها وهو تعبير مصطلح شائع، قال تعالى: «يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ

١ - تفسير الميزان، ج ٢، ص ١٤.

٢ - الفرقان ٢٥: ٣٢.

٣ - الإسراء ١٧: ٩٥.

٤ - الأنعام ٦: ٣٧.

٥ - محمد ٤٧: ٢٠.

٦ - الأنعام ٦: ٧.

٧ - آل عمران ٣: ٧.

٨ - الأنعام ٦: ١١٤.

٩ - النحل ١٦: ٤٤.

١٠ - راجع: التمهيد، الجزء الثامن، أين صار الإنجيل النازل على المسيح؛ وقصص الأنبياء للنجار، ص ٣٩٩.

١١ - مريم ١٩: ٣٠.

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»^١ أي يعلمهم الشريعة إلى جنب الحكمة وهي البصيرة في الدين. وثانيتها: ما حسبه بشأن التوراة أنها نزلت من السماء بصورة كتاب. في حين أنها ألواح أخذها موسى ﷺ معه ليكتب عليها ما يُمليه عليه الرحمان على جبل طور. فكان كتاب موسى (على حدّ تعبير القرآن)^٢ كتبه بيده. أمّا الذي أنزله الله عليه فهي إملاءات أملاها عليه تدريجياً طول إقامته على جبل طور.^٣

أول ما نزل

اختلف الباحثون في شؤون القرآن، في أن أي آياته أو سوره نزلت قبل؟ والأقوال في ذلك ثلاثة:

١ - سورة العلق. لأنّ نبوته ﷺ بدأت بنزول ثلاث أو خمس آيات من أول سورة العلق. وذلك حينما فجأه الحقّ وهو في غار حراء، فقال له الملك: اقرأ فقال: ما أنا بقارىء، فغطّه غطاً ثمّ قال له: «إِقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»^٤.

وفي تفسير الإمام: هبط إليه جبرائيل وأخذ بضبعه وهزّه، فقال: يا محمد ﷺ اقرأ: قال: وما أقرأ؟ قال: يا محمد «إِقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»^٥.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «أول ما نزل على رسول الله ﷺ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. إِقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ» وآخر ما نزل عليه «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ»^٦.

١ - البقرة ٢: ١٢٩.

٢ - «وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً»، الأحقاف ٤٦: ١٢.

٣ - صحيح البخاري، ج ١، ص ٣.

٤ - راجع: سفر الخروج ٣٤: ٢٧.

٥ - العلق ٩٦: ١-٥. راجع: صحيح مسلم، ج ١، ص ٩٧.

٦ - تفسير الإمام، ص ١٥٧؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٠٦، ح ٣٦؛ وتفسير البرهان، ج ٤، ص ٤٧٨.

٧ - الكافي، ج ٢، ص ٦٢٨ - ٦٢٩، ح ٥؛ وعيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ٥-٦، ح ١٢؛ وبحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٣٩، ح ١؛

وتفسير البرهان، ج ١، ص ٢٩.

٢ - سورة المدثر. لما روي عن ابن سلمة، قال: «سألت جابر بن عبد الله الأنصاري: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: يا أيها المدثر. قلت: أو اقرأ باسم ربك؟ قال: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ: إنني جاورت بحراء، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي - ولعله سمع هاتفاً - ثم نظرت إلى السماء فإذا هو - يعني جبرائيل - فأخذتني رجفة، فأتيت خديجة، فأمرتهم فدثروني، فأنزل الله «يا أيها المدثر. قُمْ فَأَنْذِرْ»^١.

هذا.. ولعل جابراً اجتهد من نفسه أنها أول سورة نزلت، إذ ليس في كلام رسول الله ﷺ دلالة على ذلك، والأرجح أن ما ذكره جابر، كان بعد فترة انقطاع الوحي، فظنه جابر بدء الوحي.^٢ وإليك حديث فترة انقطاع الوحي برواية جابر أيضاً:

قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي، قال: فبينما أنا أمشي إذ سمعت هاتفاً من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض، فجثت منه فرقا - أي فزعت - فرجعت، فقلت: زملوني زملوني فدثروني، فأنزل الله تبارك وتعالى: «يا أيها المدثر قُمْ فَأَنْذِرْ رَبِّكَ فَكَبُرْ. وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُزْ»^٣ - وهي الأوثان - قال ﷺ: ثم تتابع الوحي. وفي لفظ البخاري: فحمى الوحي وتتابع.^٤

٣ - سورة الفاتحة. قال الزمخشري: أكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل.^٥ وروى العلامة الطبرسي عن الأستاذ أحمد الزاهد في كتابه «الإيضاح» بإسناده عن سعيد بن المسيب، عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «سألت النبي ﷺ عن ثواب القرآن، فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء فأول ما نزل عليه بمكة: فاتحة

٢ - راجع: البرهان، ج ١، ص ٢٠٦.

١ - صحيح مسلم، ج ١، ص ٩٩.

٣ - المدثر ٧٤: ١-٥.

٤ - صحيح مسلم، ج ١، ص ٩٨؛ وصحيح البخاري، ج ١، ص ٤.

٥ - الكشف، ج ٤، ص ٧٧٥. وناقشه ابن حجر مناقشة سطحية لا مجال لها بعد توضيحنا الآتي في وجه الجمع بين الأقوال

الثلاثة. وراجع: فتح الباري، ج ٨، ص ٥٤٨.

الكتاب، ثم: **إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ** ثم: **ن وَالْقَلَمِ...**^١.

وروى الواحدى في أسباب النزول بسنده عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل، قال: كان رسول الله ﷺ إذا خلى وحده سمع نداء فيفزع له، وللمرة الأخيرة ناداه الملك: يا محمد! قال: لبيك، قال: قل: **«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (حتى بلغ:) وَلَا الضَّالِّينَ»**^٢.

قلت: لا شك أن النبي ﷺ كان يصلي منذ بعثته، وكان يصلي معه علي وجعفر وزيد بن حارثة وخديجة^٣. ولا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب^٤ فقد ورد في الأثر: **أَوَّلُ مَا بَدَأَ بِهِ جِبْرَائِيلُ: أَنْ عَلَّمَهُ الْوُضُوءَ وَالصَّلَاةَ**^٥ فلا بد أن سورة الفاتحة كانت مقرونة بالبعثة. قال جلال الدين السيوطي: لم يحفظ أنه كان في الإسلام صلاة بغير فاتحة الكتاب^٦. وبعد.. فلانرى تنافياً جوهرياً بين الأقوال الثلاثة، نظراً لأن الآيات الثلاث أو الخمس من أول سورة العلق إنما نزلت تبشيراً بنبوته ﷺ وهذا إجماع أهل الملة، ثم بعد فترة جاءته آيات - أيضاً - من أول سورة المدثر، كما جاء في حديث جابر ثانياً. أما سورة الفاتحة فهي أولى سورة نزلت بصورة كاملة، وبسمة كونها سورة من القرآن كتاباً سماوياً للمسلمين، فهي أول قرآن نزل عليه ﷺ بهذا العنوان الخاص، وأما آيات غيرها سبقتها نزولاً، فهي إنما نزلت لغايات أخرى، وإن سجلت بعدئذ قرآناً ضمن آياته وسوره.

ومن هنا صح التعبير عن سورة الحمد بسورة الفاتحة، أي أول سورة كاملة نزلت بهذه السمة الخاصة. وهذا الاهتمام البالغ بشأنها في بدء الرسالة، واختصاص فرضها في الصلوات جميعاً، جعلها - في الفضيلة - عدلاً للقرآن العظيم: **«وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ»**^٧. فقد امتنَّ الله على رسوله بهذا النزول الخاص تجاه سائر القرآن.

١ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠٥. ٢ - أسباب النزول، ص ١٠.

٣ - تفسير علي بن إبراهيم القمي، ج ١، ص ٣٧٨.

٤ - المستدرک علی الصحیحین، ج ١، ص ٢٣٨-٢٣٩؛ وصحيح مسلم، ج ٢، ص ٩.

٥ - سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٦٠ - ٢٦١؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٨٤، ح ١٤ وص ١٩٤، ح ٣٠.

٦ - الإيقان، ج ١، ص ٢٠. ٧ - الحجر ١٥: ٨٧.

نعم لو اعتبرنا السور باعتبار مفتتحها فسورة الحمد تقع الخامسة، كما جاء في رواية جابر بن زيد^١ الآتية.

آخر منازل

جاء في رواياتنا: أن آخر منزل هي سورة النصر، روي أنها لما نزلت وقرأها ﷺ على أصحابه، فرحوا واستبشروا، سوى العباس بن عبد المطلب، فإنه بكى، قال ﷺ: ما يبكيك يا عم! قال: أظن أنه قد نعت إليك نفسك يا رسول الله ﷺ فقال: إنه لكما تقول. فعاش ﷺ بعدها سنتين.^٢

قال الإمام الصادق عليه السلام: «وآخر سورة نزلت إذا جاء نصر الله والفتح».^٣ وأخرج مسلم عن ابن عباس، قال: آخر سورة نزلت، إذا جاء نصر الله والفتح.^٤ وروي آخر سورة نزلت براءة. نزلت في السنة التاسعة بعد عام الفتح عند مرجعه ﷺ من غزوة تبوك، نزلت آيات من أولها، فبعث بها النبي مع علي عليه السلام ليقرأها على ملأ من المشركين.^٥

وروي: آخر آية نزلت «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».^٦ نزل بها جبرائيل، وقال: ضعها في رأس المائتين والثمانين من سورة البقرة. وعاش الرسول ﷺ بعدها أحداً وعشرين يوماً، وقيل سبعة أيام.^٧

قال ابن واضح اليعقوبي: وقد قيل: إن آخر ما نزل عليه ﷺ «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا»^٨ قال: وهي الرواية الصحيحة الثابتة الصريحة. وكان نزولها يوم النص على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (صلوات الله عليه)

٢ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٥٤.

١ - الإتيان، ج ١، ص ٧٢.

٤ - الإتيان، ج ١، ص ٧٩.

٣ - تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٩.

٦ - البقرة ٢: ٢٨١.

٥ - الصافي في تفسير القرآن، ج ١، ص ٦٨٠.

٨ - المائدة ٥: ٣.

٧ - تفسير شبر، ص ٨٣.

بغدير خم.^١

أقول: لاشك أن سورة النصر نزلت قبل براءة، لأنها كانت بشارة بالفتح، أو بمكة عام الفتح^٢ وبراءة نزلت بعد الفتح بسنة. فطريق الجمع بين هذه الروايات: أن آخر سورة نزلت كاملة هي سورة النصر، فقال ﷺ: أما أن نفسي نعت إلي^٣ وآخر سورة نزلت باعتبار مفتتحها هي سورة براءة. وأما آية «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ» فإن صح أنها نزلت بمنى يوم النحر في حجة الوداع - كما جاء في رواية الماوردي -^٤ فأخر آية نزلت هي آية الإكمال - كما ذكرها اليعقوبي. لأنها نزلت في مرجعه ﷺ من حجة الوداع ثامن عشر ذي الحجة. وإلا فلوصح أن النبي عاش بعد آية «وَاتَّقُوا...» أحدًا وعشرين يوماً أو سبعة أو تسعة أيام، فهذه هي آخر آية نزلت عليه ﷺ.

والأرجح عندنا: هو ما ذهب إليه اليعقوبي، نظراً لأنها آية الإعلام بكمال الدين، فكانت إنذاراً بانتهاء الوحي عليه ﷺ بالبلاغ والأداء. فلعل تلك الآية كانت آخر آيات الأحكام، وهذه آخر آيات الوحي إطلاقاً.

وهناك أقوال وآراء أخر لا قيمة لها، إنها غير مستندة إلى نص معصوم.

قال القاضي أبوبكر - في الانتصار -: وهذه الأقوال ليس في شيء منها ما رفع إلى النبي ﷺ ويجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد، وتغليب الظن وليس العلم بذلك من فرائض الدين، حتى يلزم ما طعن به الطاعنون من عدم الضبط. ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من رسول الله ﷺ، وغيره سمع منه بعد ذلك. ويحتمل أيضاً - أن تنزل الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم منازل معها، وتلاوتها عليهم بعد رسم منازل آخراً وتلاوته، فيظن سامع ذلك أنه آخر منازل في الترتيب.^٥

١ - تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥.

٢ - لباب القول، ج ٢، ص ١٤٥.

٣ - مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٩٤.

٤ - البرهان للزركشي، ج ١، ص ١٨٧.

٥ - المصدر، ج ١، ص ٢١٠.

المكي والمدني

لمعرفة المكي من المدني، سواء أكانت سورة أم آية، فائدة كبيرة تمسّ جوانب أسباب النزول، وتمدّ المفسّر والفقيه في تعيين اتجاه الآية، وفي مجال معرفة الناسخ من المنسوخ، والخاصّ من العامّ، والقيد من الإطلاق، وما أشبه. ومن ثمّ حاول العلماء جهدهم في تعيين المكّيات من المدنيّات، ووقع إجماعهم على قسم كبير، واختلفوا في الباقي. كما استثنوا آيات مدنيّة في سور مكّيّة أو بالعكس، ولذلك تفصيل طريف يأتي.

اتجاهات في تعيين المكي والمدنيّ

والملاك في تعيين المكي والمدنيّ مختلف حسب اختلاف الآراء والأنظار في ذلك، وفيما يلي ثلاث نظريّات جاءت مشهورة:

الأولى: اعتبار ذلك بهجرة النبي ﷺ ووصوله إلى المدينة المنورة. فما نزل قبل الهجرة أو في أثناء الطريق قبل وصوله إلى المدينة، فهو مكّي، وما نزل بعد ذلك فهو مدنيّ. والملاك على هذا الاعتبار ملاك زمني، فما نزل قبل وقت الهجرة، ولو في غير مكّة فهو مكّي. وما نزل بعد الهجرة ولو في غير المدينة حتى ولو نزل في مكّة عام الفتح أو في حجة الوداع، فهو مدنيّ باعتبار نزوله بعد الهجرة. وعلى هذا الاصطلاح فجميع الآيات النازلة في الحروب وفي أسفاره ﷺ بما أنّها نزلت بعد الهجرة، كلّها مدنيّات.

قال يحيى بن سلام: ما نزل بمكّة أو في طريق المدينة قبل أن يبلغها ﷺ فهو مكّي. وما نزل بعدما قدم ﷺ المدينة أو في بعض أسفاره وحروبه فهو مدنيّ. قال جلال الدين: وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أنّ ما نزل في سفر الهجرة مكّي اصطلاحاً.^١

وذلك كقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ»^٢ قيل: نزلت بالجحفة

والنبي ﷺ في طريق هجرته إلى المدينة.^٣

٢ - القصص ٢٨: ٨٥.

١ - الإتيان، ج ١، ص ٢٣.

٣ - البرهان للزركشي، ج ١، ص ١٩٧.

الثانية: ما نزل بمكة وحواليها - ولو بعد الهجرة - فهو مكِّي، وما نزل بالمدينة وحواليها فهو مدني. وما نزل خارج البلدين، بعيداً عنهما فهو لامكِّي ولا مدني، كقوله تعالى: «كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِسُلُوكِ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْتَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ»^١. قيل: نزلت بالحدبيّة حينما صالح النبي ﷺ مشركي قريش فقال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم... فقال سهيل بن عمرو وسائر المشركين: ما نعرف الرحمان إلا صاحب اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، فنزلت الآية^٢ وهكذا آية الأنفال^٣ نزلت في بدر عندما اختصم المسلمون في تقسيم الغنائم^٤ لامكية ولا مدنيّة، على هذا الاصطلاح.

الثالثة: ما كان خطاباً لأهل مكة فهو مكِّي، وما كان خطاباً لأهل المدينة فهو مدني، وهذا الاصطلاح مأخوذ من كلام ابن مسعود: كل شيء نزل فيه يا أيها الناس فهو بمكة. وكل شيء نزل فيه يا أيها الذين آمنوا فهو بالمدينة.^٥ قال الزركشي: لأنّ الغالب على أهل مكة الكفر، والغالب على أهل المدينة الإيمان.^٦

وهذا الاختلاف في تحديد المكِّي والمدنيّ أوجب اختلافاً في كثير من آيات وسور: أنّها مكّية أم مدنيّة.^٧ غير أنّ المعتمد من هذه المصطلحات هو الأوّل، وهو المشهور الذي جرى عليه أكثرية أهل العلم^٨ وكان تحديدنا الآتي في نظم السور حسب ترتيب نزولها معتمداً على هذا الاصطلاح.

نعم، الطرق إلى معرفة مواقع النزول: أنّها كانت بمكة أو بالمدينة أو بغيرهما، قليل جداً، لأنّ الأوائل لم يعيروا هذه الناحية المهمّة اهتماماً معتدلاً به، سوى ما ذكروه في عرض الكلام استطراداً، وهي استفادة ضئيلة للغاية، ومن ثمّ يجب لمعرفة ذلك ملاحظة

١ - الرعد ١٣: ٣٠.

٢ - مجمع البيان، ج ٦، ص ٢٩٣.

٣ - الأنفال ٨: ١.

٤ - راجع: السيرة لابن هشام، ج ٢، ص ٣٢٢.

٥ - المستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ١٨.

٦ - البرهان للزركشي، ج ١، ص ١٨٧.

٧ - كما في آية الأمانات من سورة النساء ٤: ٥٨ زعمها النحاس مكّية لرواية ابن جريج. راجع: مجمع البيان، ج ٣، ص ٦٣.

٨ - راجع: البرهان للزركشي، ج ١، ص ١٨٧؛ والإتقان، ج ١، ص ٢٣.

شواهد وقرائن من لفظ الآية أو استفادة من لهجة الكلام، خطاباً مع نوعيّة موقف الموجه إليهم: أكان في حرب أم في سلم، وعد أم وعيد، إرشاد أو تكليف...؟ فيما إذا أوجب ذلك علماً أو حلاً قطعياً لمشكلة في لفظ الآية، كما في قوله: «فَنَحْجُ الْيَتَامَىٰ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا»^١ فإنّ مشكلة دلالتها على مطلق الترخيص دون الإلزام والإيجاب، تنحلّ بما أثر في سبب نزولها.^٢ الأمر الذي يوجب الثقة بصحة الأثر، مع غضّ النظر عن ملاحظة السند، ومن ثمّ فهي مدنيّة.

قال الجعبري: لمعرفة المكي والمدنيّ طريقان: سماعيّ وقياسيّ. فالسماعيّ ما وصل إلينا نزوله بأحدهما. والقياسيّ، قال علقمة عن ابن مسعود: كلّ سورة فيها «يا أيّها الناس» فقط، أو «كلّا» أو أولها حروف تهجّ سوى الزهراوين (البقرة وآل عمران) والرعد - في وجه - أو فيها قصّة آدم وإيليس سوى الطولي (البقرة) أو فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية، فهي مكية. وكلّ سورة فيها حدّ أو فريضة، فهي مدنيّة. وفي رواية: وكلّ سورة فيها: «يا أيّها الذين آمنوا» فهي مدنيّة.

قال الزركشي: وهذا القول - الأخير - إن أخذ على إطلاقه ففيه نظر، فإنّ سورة البقرة مدنيّة وفيها: «يا أيّها الناس اعبدوا ربّكم»،^٣ وفيها: «يا أيّها الناس كلّوا ممّا في الأرض حلالاً طيباً». وسورة النساء مدنيّة وفيها: «يا أيّها الناس اتّقوا ربّكم». وفيها: «إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ». فإنّ أراد المفسّرون أنّ الغالب ذلك فهو صحيح، ولذا قال مكي بن حموش: هذا إنّما هو في الأكثر وليس بعامّ. وفي كثير من السور المكيّة «يا أيّها الذين آمنوا».^٧

١ - البقرة ٢: ١٥٨.

٢ - كان المسلمون يتحرّجون السعي بين الصفا والمروة، زعموا أنّها عادة جاهلية تكريماً بمقام أساف ونائلة، فنزلت الآية دفعاً لهذا الوهم. راجع: مجمع البيان، ج ١، ص ٢٤٠. ٣ - البقرة ٢: ٢١.

٤ - البقرة ٢: ١٦٨. ٥ - النساء ٤: ١.

٦ - النساء ٤: ١٣٣.

٧ - لم نجد في سورة مكية «يا أيّها الذين آمنوا» نعم فيها كثير ذكر «الذين آمنوا» بلا خطاب. كما في سورة ص والزمر وغافر وفصلت وغيرها. نعم ذكر الزركشي مثلاً لذلك، قوله تعالى: «يا أيّها الذين آمنوا اذكّروا واشجّدوا». الحج ٢٢: ٧٧. فزعمها مكية. لكن الصحيح أنّها مدنية وسيأتي ذلك.

وقال القاضي أبوبكر: كانت العادة تقضي بحفظ الصحابة ذلك، غير أنه لم يكن من النبي ﷺ في ذلك قول، ولا ورد عنه ﷺ أنه قال: ما نزل بمكة كذا وبالمدينة كذا. وإنما لم يفعله لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وكذلك الصحابة والتابعون من بعدهم، لما لم يعتبروا ذلك من فرائض الدين، لم تتوفر الدواعي على إخبارهم به، ومواصلة ذلك على أسماعهم. وإذا كان الأمر على ذلك ساغ أن يختلف من جاء بعدهم في بعض القرآن: هل هو مكّي أو مدني؟ وأن يعملوا في القول بذلك ضرباً من الرأي والاجتهاد...^١

شبهات حول المكّي والمدنيّ

أثيرت لعهد قريب شبهات حول موضوع المكّي والمدنيّ وكانت على أساس مزعومة تأثر القرآن بالبيئة وأنه قد خضع لظروف بشرية مختلفة تركت آثارها على أسلوب القرآن وطريقة عرضه، وعلى مادته والموضوعات التي عنى بها. لكن لا بدّ لنا أن نفرّق بين فكرة تأثر القرآن وانفعاله بالظروف الموضوعية من البيئة وغيرها بمعنى انطباعه بها، وبين فكرة مراعاة القرآن لهذه الظروف بقصد تأثيره فيها وتطويرها لصالح الدعوة.

فإنّ الفكرة الأولى تعني في الحقيقة: بشرية القرآن، حيث تفرض القرآن في مستوى الواقع المعاش وجزءاً من البيئة الاجتماعية يتأثر بها كما يؤثر فيها. وهذا على خلاف الفكرة الثانية فإنّها لا تعني شيئاً من ذلك، لأنّ طبيعة الموقف القرآني الذي يستهدف التغيير، وطبيعة الأهداف والغايات التي يرمي القرآن إلى تحقيقها قد تفرض هذه المراعاة، حيث تُحدّد الغاية والهدف، شاكلة الأسلوب الذي يجب سلوكه للوصول إليه. فهناك فرق بين أن تفرض الظروف والواقع أنفسهما على الرسالة، وبين أن تفرض

الأهداف والغايات التي ترمي الرسالة إلى تحقيقها من خلال الواقع، أسلوباً ومنهجاً للرسالة. والهدف والغاية ليسا شيئين منفصلين عن ذات الرسالة حتى يكون تأثيرهما عليها تأثيراً مفروضاً من الخارج.

والشبهات المعروضة في هذا المجال تتلخص في الفرق البائن بين القسم المكي من القرآن والمدني منه بالقصر والإيجاز الملاحظ في السور والآيات المكية على خلاف التفصيل والإسهاب في المدنيات، مما يدل على انقطاع الصلة بين القسمين وتأثر كل منهما بالبيئة التي كان يعيشها نبي الإسلام. فإن مجتمع مكة لما كان مجتمعاً أمياً لم يكن النبي بقدرته التبسيط في شرح المفاهيم وتفصيلها وإنما واثته القدرة على ذلك عندما أخذ يعيش مجتمع المثقفين المتحضر في يثرب.

وكذا الفرق بطابع الشدة والعنف الذي وُسمت به السور المكية على العكس من المدنيات الموسومة بطابع اللين والهدوء. ويغلب على المكيات عرض الأدلة والبراهين وفي المدنيات التشريعات والأحكام.

ولكنها فوارق تعود إلى طبيعة الدعوة في حركتها بدءاً وهي في حالة كفاح، وبعد التمكّن والظهور وهي في حالة هدوء بال لتتفرّغ إلى البسط والتوسّع والتفصيل.

على أنّ تلك الفوارق ليست بمطرّدة إذا ما وجدنا في المدنيات سوراً قصاراً في مثل سورة النصر وسورة الزلزلة والبيّنة المدنيات. وفي المكيات طوالاً في مثل سورة الأنعام وسورة الأعراف. كما أنّ في سور مدنيّة كثيراً من التأنيب والتقريع^١ ولاسيما بشأن المنافقين ومن رافقهم من أهل الكتاب.

هذا مع ملاحظة اختلاف الظروف في مكة من اضطهاد وقسوة على عكس المدينة من رحاب ورأفة، وبذلك يفترق لون الدعوة والتبليغ بطبيعة الحال.

١ - كما في سورة الأنفال وسورة براءة وكثير من آيات في سور مدنيّات.

ترتيب النزول

اعتمدنا في هذا العرض على عدّة روايات متفق عليها. وثق بها العلماء أكثرها، وعمدتها رواية ابن عباس بطرق وأسانيد اعترف بها أئمة الفن.^١

قال الإمام بدر الدين الزركشي: وعلى هذا الترتيب استقرّت الرواية من الثقات.^٢ وقد أخذناها الأصل الأوّل في هذا العرض، وأكملنا ما سقط منها على رواية جابر بن زيد وغيره، وكذا نصوص تاريخيّة معتمدة،^٣ نعم كان بينها بعض الاختلاف إمّا للاختلاف في تحديد المكي والمدنيّ، أو في عدد المكيّات من المدنيّات، ومن ثمّ جاء اختلافهم في نيف وثلاثين سورة أنّها مكيّات أم مدنيّات.

والنظر في هذا العرض كان إلى مفتتح السور، فالسورة إذا نزلت من أوّلها بضع آيات، ثمّ نزلت أخرى، وبعدها اكتملت الأولى، كانت الأولى متقدّمة على الثانية في ترتيب النزول حسب هذا المصطلح.

وإليك قائمة السور المكيّة، وعددها: ست وثمانون سورة. متقدّمة على السور المدنيّة، وعددها: ثمان وعشرون سورة. مع غرض النظر عن سور مختلف فيها، وسنتكلّم عن ذلك في فصل قادم.

١ - راجع: مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠٥ - ٤٠٦: والإتقان، ج ١، ص ٢٦ و ٧٢.

٢ - البرهان للزركشي، ج ١، ص ١٩٣ - ١٩٤. ٣ - راجع: الفهرست، ص ٤٤: وتاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٢٦.

السور المكيّة

(٨٦)

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف	ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
١	العلق	٩٦	٢٠	الفلق	١١٣
٢	القلم	٦٨	٢١	الناس	١١٤
٣	المزمل	٧٣	٢٢	التوحيد	١١٢
٤	المدثر	٧٤	٢٣	النجم	٥٣
٥	الفاتحة ^١	١	٢٤	عبس	٨٠
٦	المسد	١١١	٢٥	القدر	٩٧
٧	التكوير	٨١	٢٦	الشمس	٩١
٨	الأعلى	٨٧	٢٧	البروج	٨٥
٩	الليل	٩٢	٢٨	التين	٩٥
١٠	الفجر	٨٩	٢٩	قريش	١٠٦
١١	الضحى	٩٣	٣٠	القارعة	١٠١
١٢	الشرح	٩٤	٣١	القيامة	٧٥
١٣	العصر	١٠٣	٣٢	الهمزة	١٠٤
١٤	العاديات	١٠٠	٣٣	المرسلات	٧٧
١٥	الكوثر	١٠٨	٣٤	ق	٥٠
١٦	التكاثر	١٠٢	٣٥	البلد	٩٠
١٧	الماعون	١٠٧	٣٦	الطارق	٨٦
١٨	الكافرون	١٠٩	٣٧	القمر	٥٤
١٩	الفيل	١٠٥	٣٨	ص	٣٨

١ - سقطت الفاتحة من رواية ابن عباس، فأثبتناها على رواية جابر بن زيد. راجع: الإتيان، ج ١، ص ٢٥ وعلى نصّ

تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٢٦.

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف	ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
٣٩	الأعراف	٧	٦٣	الزخرف	٤٣
٤٠	الجن	٧٢	٦٤	الدخان	٤٤
٤١	يس	٣٦	٦٥	الجاثية	٤٥
٤٢	الفرقان	٢٥	٦٦	الأحقاف	٤٦
٤٣	فاطر	٣٥	٦٧	الذاريات	٥١
٤٤	مريم	١٩	٦٨	الغاشية	٨٨
٤٥	طه	٢٠	٦٩	الكهف	١٨
٤٦	الواقعة	٥٦	٧٠	التحل	١٦
٤٧	الشعراء	٢٦	٧١	نوح	٧١
٤٨	النمل	٢٧	٧٢	إبراهيم	١٤
٤٩	القصص	٢٨	٧٣	الأنبياء	٢١
٥٠	الإسراء	١٧	٧٤	المؤمنون	٢٣
٥١	يونس	١٠	٧٥	السجدة	٣٢
٥٢	هود	١١	٧٦	الطور	٥٢
٥٣	يوسف	١٢	٧٧	الملك	٦٧
٥٤	الحجر	١٥	٧٨	الحاقة	٦٩
٥٥	الأنعام	٦	٧٩	المعارج	٧٠
٥٦	الصافات	٣٧	٨٠	النبأ	٧٨
٥٧	لقمان	٣١	٨١	النازعات	٧٩
٥٨	سبا	٣٤	٨٢	الانفطار	٨٢
٥٩	الزمر	٣٩	٨٣	الانشقاق	٨٤
٦٠	غافر	٤٠	٨٤	الروم	٣٠
٦١	فصلت	٤١	٨٥	العنكبوت	٢٩
٦٢	الشورى	٤٢	٨٦	المطففين	٨٣

السور المدنية

(٢٨)

ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف	ترتيب النزول	السورة	ترتيب المصحف
٨٧	البقرة	٢	١٠١	الحشر	٥٩
٨٨	الأنفال	٨	١٠٢	النصر	١١٠
٨٩	آل عمران	٣	١٠٣	النور	٢٤
٩٠	الأحزاب	٣٣	١٠٤	الحج	٢٢
٩١	الممتحنة	٦٠	١٠٥	المنافقون	٦٣
٩٢	النساء	٤	١٠٦	المجادلة	٥٨
٩٣	الزّلزال	٩٩	١٠٧	الحجرات	٤٩
٩٤	الحديد	٥٧	١٠٨	التحرّيم	٦٦
٩٥	محمد	٤٧	١٠٩	الجمعة	٦٢
٩٦	الرعد	١٣	١١٠	التغابن	٦٤
٩٧	الرحمان	٥٥	١١١	الصف ^١	٦١
٩٨	الإنسان	٧٦	١١٢	الفتح	٤٨
٩٩	الطلاق	٦٥	١١٣	المائدة ^٢	٥
١٠٠	البينة	٩٨	١١٤	براءة	٩

١ - جعل الزركشي في البرهان سورة الصف بعد التحريم وقبل الجمعة.

٢ - قدّم الزركشي في البرهان البراءة على المائدة، وجعل هذه الأخيرة آخر السور.

وإليك قائمة أخرى مرتبة على حروف التهجي، والرقم يشير إلى ترتيب السورة في المصحف:

الف		
نزلت بعد الأنفال	مدنيّة	٣- آل عمران
نزلت بعد نوح	مكيّة	١٤- إبراهيم
نزلت بعد آل عمران	مدنيّة	٣٣- الأحزاب
نزلت بعد الجاثية	مكيّة	٤٦- الأحقاف
نزلت بعد القصص	مكيّة	١٧- الإسراء
نزلت بعد ص	مكيّة	٧- الأعراف
نزلت بعد التكويد	مكيّة	٨٧- الأعلى
نزلت بعد إبراهيم	مكيّة	٢١- الأنبياء
نزلت بعد الرحمان	مدنيّة	٧٦- الإنسان
نزلت بعد الانشقاق	مكيّة	٨٤- الانشقاق
نزلت بعد الحجر	مكيّة	٦- الأنعام
نزلت بعد البقرة	مدنيّة	٨- الأنفال
نزلت بعد النازعات	مكيّة	٨٢- الانشقاق

ب

نزلت بعد المائدة	مدنيّة	٩- براءة
نزلت بعد الشمس	مكيّة	٨٥- البروج
نزلت بعد المطففين	مدنيّة	٢- البقرة
نزلت بعد ق	مكيّة	٩٠- البلد
نزلت بعد الطلاق	مدنيّة	٩٨- البيّنة

ت

٦٦- التحريم	مدنيّة	نزلت بعد الحجرات
٦٤- التغابن	مدنيّة	نزلت بعد الجمعة
١٠٢- التكاثر	مكيّة	نزلت بعد الكوثر
٨١- التكوير	مكيّة	نزلت بعد المسد
١١٢- التوحيد	مكيّة	نزلت بعد الناس
٩٥- التين	مكيّة	نزلت بعد البروج

ج

٤٥- الجاثية	مكيّة	نزلت بعد الدخان
٦٢- الجمعة	مدنيّة	نزلت بعد التحريم
٧٢- الجن	مكيّة	نزلت بعد الأعراف

ح

٦٩- الحاقة	مكيّة	نزلت بعد الملك
٢٢- الحجّ	مدنيّة	نزلت بعد النور
١٥- الحجر	مكيّة	نزلت بعد يوسف
٤٩- الحجرات	مدنيّة	نزلت بعد المجادلة
٥٧- الحديد	مدنيّة	نزلت بعد الزلزال
٥٩- الحشر	مدنيّة	نزلت بعد البيّنة

د

٤٤- الدخان	مكيّة	نزلت بعد الزخرف
------------	-------	-----------------

ذ		
مَكِّيَّة	نزلت بعد الأحقاف	٥١- الذاريات
ر		
مَدَنِيَّة	نزلت بعد الرعد	٥٥- الرحمن
مَدَنِيَّة	نزلت بعد محمد	١٣- الرعد
مَكِّيَّة	نزلت بعد الانشقاق	٣٠- الروم
ز		
مَكِّيَّة	نزلت بعد الشورى	٤٣- الزخرف
مَدَنِيَّة	نزلت بعد النساء	٩٩- الزلزال
مَكِّيَّة	نزلت بعد سبأ	٣٩- الزمر
س		
مَكِّيَّة	نزلت بعد لقمان	٣٤- سبأ
مَكِّيَّة	نزلت بعد المؤمنون	٣٢- السجدة
ش		
مَكِّيَّة	نزلت بعد الضحى	٩٤- الشرح
مَكِّيَّة	نزلت بعد الواقعة	٢٦- الشعراء
مَكِّيَّة	نزلت بعد القدر	٩١- الشمس
مَكِّيَّة	نزلت بعد فصلت	٤٢- الشورى

ص		
مكية	نزلت بعد القمر	٣٨- ص
مكية	نزلت بعد الأنعام	٣٧- الصافات
مدنية	نزلت بعد التغابن	٦١- الصف

ض		
مكية	نزلت بعد الفجر	٩٣- الضحى

ط		
مكية	نزلت بعد البلد	٨٦- الطارق
مكية	نزلت بعد مريم	٢٠- طه
مدنية	نزلت بعد الإنسان	٦٥- الطلاق
مكية	نزلت بعد السجدة	٥٢- الطور

ع		
مكية	نزلت بعد العصر	١٠٠- العاديات
مكية	نزلت بعد النجم	٨٠- عبس
مكية	نزلت بعد الشرح	١٠٣- العصر
مكية	هي أول ما نزلت	٩٦- العلق
مكية	نزلت بعد الروم	٢٩- العنكبوت

غ		
مكية	نزلت بعد الذاريات	٨٨- الغاشية
مكية	نزلت بعد الزمر	٤٠- غافر

ف

نزلت بعد المدثر	مكية	١ - الفاتحة
نزلت بعد الفرقان	مكية	٣٥ - فاطر
نزلت بعد الصف	مدنية	٤٨ - الفتح
نزلت بعد الليل	مكية	٨٩ - الفجر
نزلت بعد يس	مكية	٢٥ - الفرقان
نزلت بعد غافر	مكية	٤١ - فصلت
نزلت بعد الفيل	مكية	١١٣ - الفلق
نزلت بعد الكافرون	مكية	١٠٥ - الفيل

ق

نزلت بعد المرسلات	مكية	٥٠ - ق
نزلت بعد قريش	مكية	١٠١ - القارعة
نزلت بعد عبس	مكية	٩٧ - القدر
نزلت بعد التين	مكية	١٠٦ - قريش
نزلت بعد النمل	مكية	٢٨ - القصص
نزلت بعد العلق	مكية	٦٨ - القلم
نزلت بعد الطارق	مكية	٥٤ - القمر
نزلت بعد القارعة	مكية	٧٥ - القيامة

ك

نزلت بعد الماعون	مكية	١٠٩ - الكافرون
نزلت بعد الغاشية	مكية	١٨ - الكهف
نزلت بعد العاديات	مكية	١٠٨ - الكوثر

ل

نزلت بعد الصافات	مكية	٣١- لقمان
نزلت بعد الأعلى	مكية	٩٢- الليل

م

نزلت بعد الفتح	مدنية	٥- المائدة
نزلت بعد التكاثر	مكية	١٠٧- الماعون
نزلت بعد المنافقون	مدنية	٥٨- المجادلة
نزلت بعد الحديد	مدنية	٤٧- محمد
نزلت بعد المزمل	مكية	٧٤- المدثر
نزلت بعد الهمزة	مكية	٧٧- المرسلات
نزلت بعد فاطر	مكية	١٩- مريم
نزلت بعد القلم	مكية	٧٣- المزمل
نزلت بعد الفاتحة	مكية	١١١- المسد
نزلت بعد العنكبوت	مكية	٨٣- المطففين
نزلت بعد الحاقة	مكية	٧٠- المعارج
نزلت بعد الطور	مكية	٦٧- الملك
نزلت بعد الأحزاب	مدنية	٦٠- الممتحنة
نزلت بعد الحج	مدنية	٦٣- المنافقون
نزلت بعد الأنبياء	مكية	٢٣- المؤمنون

ن

نزلت بعد الفلق	مكية	١١٤ - الناس
نزلت بعد النبأ	مكية	٧٩ - النازعات
نزلت بعد المعارج	مكية	٧٨ - النبأ
نزلت بعد التوحيد	مكية	٥٣ - النجم
نزلت بعد الكهف	مكية	١٦ - النحل
نزلت بعد الممتحنة	مدنية	٤ - النساء
نزلت بعد الحشر	مدنية	١١٠ - النصر
نزلت بعد الشعراء	مكية	٢٧ - النمل
نزلت بعد النمل	مكية	٧١ - نوح
نزلت بعد النصر	مدنية	٢٤ - النور

و

نزلت بعد طه	مكية	٥٦ - الواقعة
-------------	------	--------------

هـ

نزلت بعد القيامة	مكية	١٠٤ - الهمزة
نزلت بعد يونس	مكية	١١ - هود

ي

نزلت بعد الجن	مكية	٣٦ - يس
نزلت بعد هود	مكية	١٢ - يوسف
نزلت بعد الإسراء	مكية	١٠ - يونس

سور مختلف فيها

نتيجة على ما سبق كانت السور المكية ستاً وثمانين سورة، أولهنّ سورة العلق وآخرهنّ سورة المطففين. والسور المدنية ثمانين وعشرين سورة، أولهنّ سورة البقرة، وآخرهنّ سورة براءة.

لكن هذا التحديد لم يكن متفقاً عليه عند الجميع، فهناك في أكثر من ثلاثين سورة خالف بعضهم ما أثبتناه في القائمتين. وفيما يلي عرض موجز على هذا الاختلاف، مع إلمامة قصيرة إلى وجه اختيارنا في الموضوع، ونؤجل التفصيل إلى تفسيرنا الوسيط:

١- سورة الفاتحة

قال مجاهد: إنها مدنية.^١

قال الحسين بن الفضل: هذه هفوة من مجاهد، لأنّ العلماء على خلاف قوله^٢ ولقول عليّ عليه السلام: نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش.^٣

ولقوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ»^٤ وسورة الحجر مكية باتفاق، وهذا إخبار عن ماض سبق.

ولأنّها أول سورة كاملة نزلت على رسول الله ﷺ علّمه إيّاها جبرائيل^٥ ومن ثمّ سمّيت بفاتحة الكتاب^٦ فكان ﷺ يصلي بها في أولى جماعة انعقدت بهم نطفة الإسلام، ولا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب.^٧ قال جلال الدين: ولم يحفظ صلاة بغير فاتحة الكتاب.^٨

٢- سورة النساء

زعم النحاس أنّها مكية، نظراً إلى قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى

١- مجمع البيان، ج ١، ص ١٧.

٢- الإتيان، ج ١، ص ٣٠.

٣- المصدر.

٤- الحجر ١٥: ٨٧.

٥- السيرة النبوية (بهامش السيرة الحلبية)، ج ١، ص ١٦١.

٦- تقدّم ذلك في «أول ما نزل».

٧- صحيح مسلم، ج ٢، ص ٩؛ والمستدرك للحاكم، ج ١، ص ٢٣٨ و ٢٣٩.

٨- الإتيان، ج ١، ص ٣١.

أهلها»^١ فقد قال ابن جريج: إنها نزلت بمكة عام الفتح بشأن مفتاح البيت الحرام، أراد النبي ﷺ أن يدفعه إلى العباس بن عبدالمطلب. فأمره الله أن يدفعه إلى عثمان بن طلحة، حيث كان ﷺ قد أخذه منه.^٢

لكن المفسرين اتفقوا على أنها مدنيّة، نظراً لضعف إسناد هذا الحديث. على أن نزول آية أو سورة بمكة عام الفتح لا يجعلها مكّيّة، على الاصطلاح المشهور: ما نزل بعد الهجرة فهو مدنيّ ولو كان نزوله بمكة. وأخيراً فإنّ السورة بكاملها لا تتسم بسمة آية واحدة فيها: كان نزولها على غير نزول السورة.

٣ - سورة يونس

في رواية شاذّة عن ابن عباس: أنها مدنيّة.^٣ ولم تثبت هذه الرواية، فضلاً عن مخالفتها للنصّ المتقدّم عن ابن عباس نفسه في ترتيب نزول السور، وكان متفقاً عليه تقريباً.

٤ - سورة الرعد

قال محمد بن السائب الكلبي ومقاتل وعطاء إنها مكّيّة.^٤ وكذا في رواية رواها مجاهد عن ابن عباس.^٥

ورجّح سيّد قطب هذا القول، قال: ومكّيّة هذه السورة شديدة الوضوح، سواء في طبيعة موضوعها أو طريقة أدائها أو في جوّها العام الذي لا يخطيء تنسّمه من يعيش في ظلال هذا القرآن.^٦

لكن روايات الترتيب اتفقت على أنها مدنيّة نزلت بعد سورة القتال، كما جاء في رواية عكرمة والحسين بن أبي الحسن ورواية خفيف عن مجاهد عن ابن عباس نفسه.^٧

٢ - مجمع البيان، ج ٢، ص ٦٣.

١ - النساء ٤: ٥٨.

٤ - الدرّ المنثور، ج ٤، ص ٤٢؛ ومجمع البيان، ج ٦، ص ٢٧٣.

٣ - الإتيان، ج ١، ص ٣١.

٦ - في ظلال القرآن، ج ١٣، ص ٦٣ الهامش.

٥ - الإتيان، ج ١، ص ٢٤.

٧ - الإتيان، ج ١، ص ٢٧.

وكذا قال الحسن وقتادة.^١

وأما سياق السورة فإنه توجيه عام للبشرية إلى آيات التحدي، الأمر الذي تشترك فيها السور المكية والمدنية، ككثير من آيات سورة البقرة وغيرها من سور مدنيات. والعمدة: اتفاق روايات الترتيب. ويتضح ذلك أكثر عند الكلام عن سورة الرحمان.

٥ - سورة الحج

قال أبو محمد مكي بن أبي طالب: إنها مكية.^٢ وروى ذلك عن مجاهد بسند فيه ضعف^٣ قال: سألت ابن عباس عن نزول السور، حتى انتهى إلى سورة الحج، فقال أنزلت بمكة سوى الآيات الثلاث (١٩ و ٢٠ و ٢١) نزلن بالمدينة^٤ ولما رواه الطبري من حديث الغرائيق^٥ وأيضاً فإن لهجتها الشديدة تناسب نزولها بمكة!

قلت: كل ذلك لا يقاوم اتفاق كلمة روايات الترتيب ونصوص المؤرخين. ورواية مجاهد - مع ضعف سندها - معارضة بروايات الترتيب المتفق عليها.^٦ أما حديث الغرائيق فحديث خرافة لأصل لها.^٧ وأما اللهجة فهي غالبية وليست دائمية، ومن ثم لا تصلح مستنداً للحكم عليها.

٦ - سورة الفرقان

زعم الضحاك أنها مدنية، نظراً لآيات في آخرها قيل فيها: إنها مدنية.^٨ وهذا الوحده لا يصلح دليلاً على مدنيّتها بعد اتفاق روايات الترتيب.

١ - مجمع البيان، ج ٦، ص ٢٧٣؛ والدر المنثور، ج ٤، ص ٤٢.

٢ - الكشف عن القراءات السبع، ج ٢، ص ١١٦.

٣ - بسبب أبي عبيدة معمر بن المثنى، (ت ٢١٠) قيل: كان يرى رأي الخوارج بذيئاً مهتكمًا، قليل العناية بالقرآن، وإذا قرأه قرأه نظراً. كان من أكابر اللغويين الأدباء. هو أول من صنّف في غريب القرآن وله في مثالب العرب كتاب. وأخذ عنه أبو عبيد القاسم بن سلام. راجع: الفهرست، ص ٨٥؛ وميزان الاعتدال، ج ٤، ص ١٥٥؛ وتهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ٢٤٧.

٤ - الإتيان، ج ١، ص ٢٤.

٥ - جامع البيان، ج ١٧، ص ١٣١ - ١٣٢.

٦ - راجع: الإتيان، ج ١، ص ٢٧ و ٧٢؛ والفهرست، ص ٤٤؛ والدر المنثور، ج ٤، ص ٣٤٢.

٧ - تقدم ذلك في «أسطورة الغرائيق».

٨ - المصدر.

٧- سورة يس

قيل: إنها مدنيّة.^١ ولم يعرف هذا القائل ولا دليله الذي استند إليه. والإجماع منعقد على أنها مكّيّة.

٨- سورة ص

أيضاً قيل: مدنيّة.^٢ وهو شاذّ مخالف للإجماع.

٩- سورة محمد ﷺ

فيها قول ضعيف: إنها مكّيّة.^٣ وهو غريب بعد أن كانت سورة القتال!

١٠- سورة الحجرات

قيل: إنها مكّيّة. وهي مدنيّة بالإجماع قولاً واحداً.^٤

١١- سورة الرحمان

جاء في نصّ الفهرست واليعقوبي: أنها مكّيّة. وذهب المشهور أيضاً إلى ذلك.

قال جلال الدين: وهو الصواب، لما رواه الترمذي والحاكم عن جابر قال: لما قرأ رسول الله ﷺ سورة الرحمان على أصحابه حتى فرغ. قال: مالي أراكم سكوتاً؟ للجن كانوا أحسن منكم رداً! ما قرأت من مرّة «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ»^٥ إلا قالوا: ولا بشيء من نعمك ربّنا نكذب، فلك الحمد. قال جلال الدين: وقصّة الجن كانت بمكة.^٦

قال: وأصرح من ذلك ما رواه أحمد في مسنده عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ»^٧ قال: وهذا دليل على أنها نزلت قبل سورة الحجر.

وقال سيّد قطب: نسق السورة تتضح فيه سمات القرآن المكي.^٨

أقول: لا شك أن رنّتها الأخاذة تشبه رنّة غالبية السور المكّيّة، بل من أوقعها على

٢- الإتيان، ج ١، ص ٣٢.

١- المصدر.

٤- المصدر.

٣- المصدر.

٦- الإتيان، ج ١، ص ٣٣.

٥- الرحمان ٥٥: ١٣.

٨- في ظلال القرآن، ج ٢٧، ص ٦٧٠.

٧- مسند أحمد، ج ٦، ص ٣٤٩.

مسامع النفس. لكن ليس هذا وحده دليلاً على مكيتها بعد أن لم يكن ميزة اختصاصية، وكانت توجد في سور مدنية أيضاً، كما في سورة الزلزلة وسورة البيئ وسورة الإنسان وغيرهن. وكثير من سور مكية جاءت في لهجة هادئة كسورة يوسف ويونس وهود والأنعام والأعراف وغيرهن كثير.

وأما حديث الجن فلا دليل على أنه كان بمكة، إذ لا ملازمة بين هذا الحديث وحديث نزول سورة الجن بمكة، فلعلها قصة أخرى كانت بالمدينة.

وأما حديث أسماء - إن صح - فهو يدل على نزولها في باكورة البعثة، ولا قائل بذلك لأنها قالت: قبل أن يصدع بالأمر.

هذا فضلاً عن ضعف إسناد هذا الحديث - كما جاء في المسند - بسبب وجود ابن لهيعة قاضي مصر، في طريقه، وهو مطعون فيه، فقد ضعفه ابن معين وقال: لا يحتج بحديثه. وكان يحيى بن سعيد لا يراه شيئاً^١.

وأخيراً فإن هكذا تعليقات ضعيفة لا تقاوم روايات الترتيب المتفق عليها^٢.

١٢ - سورة الحديد

قال قوم: إنها مكية^٣ استناداً إلى حديث إسلام عمر بن الخطاب، دخل على أخته فوجد عندها صحيفة فيها سورة الحديد، فقرأها حتى بلغ: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»^٤ فحبب إليه الإسلام فأتى النبي ﷺ وأسلم على يديه^٥.

وهذا الحديث معارض بحديث ابن إسحاق: كانت في الصحيفة سورة طه، فقرأها حتى انتهى إلى قوله تعالى: «لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى»^٦. وقيل إن الصحيفة كان فيها مع سورة طه: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ». وإن عمر انتهى في قراءتها إلى قوله: «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا

١ - راجع: ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ٤٧٥؛ وتهذيب التهذيب، ج ٥، ص ٣٧٤.

٢ - راجع: مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠٥؛ والإتقان، ج ١، ص ٢٧ و ٧٢.

٣ - قال ابن حزم: هي مدنية إلا في قول الكلبي: إنها مكية. راجع: رسالة الناسخ والمنسوخ، ج ٢، ص ١٩٧.

٤ - الحديد ٥٧: ٨. ٥ - أسد الغابة، ج ٤، ص ٥٤.

٦ - طه ٢٠: ١٥.

أَخْضَرَتْ». ^١ فلان قلبه ورغب في الإسلام. ^٢

ومعارض أيضاً بحديث شريح بن عبيد، قال: قال عمر: خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم فوجدته سبقني إلى المسجد، فقامت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فلما أتمها وقع الإسلام في قلبي كل موقع. ^٣
هذا وذاك الحديث مرسل، أرسله من لا يوثق به. قال ابن حجر: والحديث بسند فيه إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة. ^٤ وأشار بذلك إلى غمز في السند، لأن ابن أبي فروة هذا مطعون فيه، متروك الحديث. ^٥

وتمسك بعضهم بحديث ابن مسعود: قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بقوله تعالى: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ...» (إلى قوله: فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) ^٦ إلا أربع سنين، فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضاً. ^٧
قلت: وهذا الحديث أيضاً معارض بأحاديث تنص على أنها نزلت بعد الهجرة بسنة، بشأن المنافقين ^٨ أو بعد ما أترف المؤمنون فكادت تقسي قلوبهم. ^٩

١٣ - سورة الصف

قال ابن حزم: مكية ^{١٠} لكن الجمهور وروايات الترتيب على خلاف قوله، فالصحيح أنها مدنية، ونسب ابن الغرس ذلك إلى الجمهور. ^{١١}

١٤ - سورة الجمعة

مدنية بالإجماع، والمخالف غير معروف. قال جلال الدين: ثبت في نصوص صحيحة

١ - التكوين ٨١: ١٤. ٢ - سيرة ابن هشام وهامشه، ج ١، ص ٢٧٠.

٣ - أسد الغابة، ج ٤، ص ٥٣؛ والإصابة، ج ٢، ص ٥١٩. ٤ - الإصابة، ج ٢، ص ٥١٩.

٥ - راجع: تهذيب التهذيب، ج ١، ص ٢٤٠؛ والمغني للذهبي، ج ١، ص ٧١؛ وميزان الاعتدال، ج ١، ص ١٩٣.

٦ - الحديد ٥٧: ١٦. ٧ - مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٣٧؛ والإتقان، ج ١، ص ٢٢.

٨ - مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٢٧. ٩ - لباب القول في أسباب النزول، ج ٢، ص ٩٤.

١٠ - رسالة الناسخ والمنسوخ، ج ٢، ص ١٩٩. ١١ - الإتقان، ج ١، ص ٢٣.

أنها مدنية كلها.^١

١٥- سورة التغابن

قيل: مكية إلى قوله تعالى: «فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»^٢ نسب ذلك إلى ابن عباس^٣ غير أن روايات الترتيب مطبقة على أنها مدنية كلها.

١٦- سورة الملك

فيها قول غريب: أنها مدنية^٤ والصحيح أنها مكية قولاً واحداً.

١٧- سورة الإنسان

قال عبدالله بن الزبير: نزلت بمكة^٥ وتبعه على ذلك جماعة ممن يروقهم إنكار أي فضيلة لأهل البيت عليه السلام وهي النقطة المركزية التي تدور عليها رحي هذا التبجح الغريب!^٦ وعداء ابن الزبير لأهل البيت مشهور!

وهكذا أصر سيد قطب على أنها مكية، مستشهداً بالسياق وقال: واحتمال أن هذه السورة مدنية - في نظرنا - هو احتمال ضعيف جداً، يمكن عدم اعتباره.^٧

قال الحافظ الحسكاني: اعترض بعض النواصب بأن هذه السورة مكية باتفاق المفسرين، وهذه القصة - إن كانت - فهي مدنية، فكيف كانت سبب نزول السورة؟! فقال - رداً على هذا القائل -: كيف يسوغ له دعوى الإجماع، مع قول الأكثر: أنها مدنية!... ثم ذكر نصوص الأئمة على ترتيب السور مصرحة بأنها نزلت في المدينة بعد سورة الرحمان وقبل سورة الطلاق، وفق ما قدمنا.^٨

وهكذا حقق العلامة الطبرسي في تفسيره وغيره من محققي المفسرين.

والعمدة: إطباق روايات الترتيب، لا تشذ منها في ذلك ولا رواية واحدة^٩ وعليه

١- المصدر، ص ٢٤. ٢- التغابن ٦٤: ١٣.

٣- مجمع البيان، ج ١٠، ص ٢٩٦. ٤- الإتيان، ج ١، ص ٣٤.

٥- الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٩٧؛ وتفسير شبر، ص ٥٤٢. ٦- راجع: شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٢٩٩.

٧- في ظلال القرآن، ج ٢٩، ص ٢٩١. ٨- شواهد التنزيل، ج ٢، ص ٣١٠ و ٣١٥.

٩- راجع: مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠٥.

فقضية السياق واهية، بعد أن لم تكن كلية دائمية.

قال السيّد شبّر: القول بأنها مكّية يكذّبه النقل الصحيح.^١

١٨ - سورة المطففين

قال اليعقوبي: أوّل سورة نزلت بالمدينة^٢ وقيل: نزلت عليه ﷺ وهو مهاجر في طريقه إلى المدينة.^٣ قال جلال الدين: أخرج النسائي وغيره بسند صحيح عن ابن عباس، قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله هذه السورة فأحسنوا الكيل.^٤

قلت: هذا يناقض روايات الترتيب المتّفقة على أنّها آخر السور المكيّة، كما أنّ لهجة السورة العنيفة لا تتناسب وبدء قدوم نبيّ الرحمة إلى المدينة في أوّل عهده بأهلها المستسلمين له، ولا سيّما مع هذا التكرار في لفظة «كلّا» التي تشي بعناد المخاطب وإنكاره الخبيث ممّا لا يلتئم مع جوّ الإيمان السليم الذي أبداه أهل المدينة آنذاك!! وقد سبق كلام الجعبري: كلّ سورة فيها «كلّا» فهي مكّية.^٥

١٩ - سورة الأعلى

قيل: إنّها مدنيّة، استناداً إلى قوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى»^٦ إشارة إلى صلاة العيد وزكاة الفطرة.^٧

قلت: الآية عامّة. والرواية - إن صحّت - جاءت لتطبّق هذا العموم على مصداق من مصاديقه، لأنّه هو المقصود الذاتي لا غير. ثمّ لو سلّمنا أنّ هاتين الآيتين نزلتا بالمدينة، فلا يدلّ ذلك على أنّ جميع السورة بكاملها مدنيّة.

فالصحيح أنّ السورة مكّية حتى ولو كانت بعض آيها مدنيّة. هذا فضلاً عن شهادة اللهجة بمكيّتها!

٢ - تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥.

١ - تفسير شبّر، ص ٥٤٢.

٤ - الإتيان، ج ١، ص ٣٤.

٣ - رسالة الناسخ والمنسوخ، ج ٢، ص ٢٠٢.

٥ - تقدّم ذلك في «اتجاهات في تعيين المكي والمدني».

٧ - الإتيان، ج ١، ص ٣٤.

٦ - الأعلى ٨٧: ١٤ - ١٥.

٢٠ - سورة الفجر

مكة بالاتفاق. والقائل بالخلاف غير معروف.^١

٢١ - سورة البلد

مكة بالإجماع، لأن البلد هي مكة المكرمة بالاتفاق، فكيف يقول القائل: إنها مدنية؟!^٢

٢٢ - سورة الليل

قيل: إنها مدنية، نظراً لما روي في سبب نزولها: كانت نخلة متدلّية في دار رجل فقير، وكان صبيانه يتناولون تمرها، أمّا صاحب النخلة - وهو رجل ثري - فكان يجفّوهم. فساومه النبي ﷺ على نخلة في الجنة فأبى، حتى ساومه أنصاريّ على أربعين نخلة، فاشتراها منه ووهبها للنبي ﷺ فوهبها النبي ﷺ إلى الرجل الفقير. قيل: فنزلت: «وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى»^٣ غير أن السند مقطوع غير موصول. على أن الآية لا تنطبق تماماً على فحوى القصّة.

فالصحيح: أن الآية عامّة في كلّ بخيل بحق الله سبحانه فلا يخشى عقابه، كما جاء في رواياتنا، وفي كثير من روايات غيرنا.^٤

٢٣ - سورة القدر

قال ابن حزم وأبو محمد: إنها مدنية^٥ لما رواه الحاكم عن الحسن بن عليّ ﷺ قال: رأى النبي ﷺ بني أمية ينزون على منبره نزو القردة. فساءه ذلك فنزلت تسليّة لخاطره الكريم.^٦

قال جلال الدين: قال المزي: وهو حديث منكر!^٧ لكنّه تعصّب مفضوح، لأنّ الحاكم

٢ - المصدر.

١ - المصدر، ص ٣٥.

٣ - النيل ٩٢: ٨-٩. راجع: الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٥٧؛ ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠١.

٤ - راجع: مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٠٢؛ وجامع البيان، ج ٣٠، ص ١٤٢؛ والصابي في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٨٢٥.

٥ - الكشف، ج ٢، ص ٣٨٥؛ ورسالة الناسخ والمنسوخ، ج ٢، ص ٢٠٣.

٦ - المستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ١٧١. ٧ - الإتيان، ج ١، ص ٣٦.

رواها بسند صحيح، قال: هذا إسناد صحيح. وقرّره على ذلك الحافظ الذهبي في التلخيص. وأضاف إليه طريقاً آخر ووثّقه أيضاً، ثمّ قال وما أدري آفته من أين؟^١

قلت: جاءت آفته من قبل نزعة أمويّة اشربت في قلوب تحكّمت فيها نزعات قوميّة جاهلية، ومن ثمّ يصعب عليها الرضوخ للحق مهما بلغ حدّ التواتر واليقين!^٢

وبعد فإنّ دلالة هذا الحديث على مدنيّة السورة، جاءت من قبل لفظ «المنبر» إذ لم يكن للنبي ﷺ وهو بمكة منبراً!

لكن هذا وحده لا يصلح دليلاً على ذلك، إذ يجوز - قريباً - أنّه ﷺ أرى ذلك بمكة قبل هجرته لتكون بشارة له باعتلاء ذكره، وإلمامة إلى الاغتصاب الذي يرتكبه شرار أمّته. فلا تتنافى هذه الرواية مع روايات الترتيب أصلاً.

وتأييداً لذلك نقول: الآية: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ»^٣ تشير إلى نفس الرؤيا المذكورة، والآية من سورة الإسراء المكيّة بالاتفاق، ولم يستثن أحد هذه الآية، وإن استثنوا غيرها، كما سيأتي.

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر أنّ النبي ﷺ قال: «رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القردة، وأنزل الله في ذلك: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ». قال: والشجرة الملعونة، يعني الحكم وولده».

وأخرج أيضاً عن يعلى بن مرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أريت بني أميّة على منابر الأرض، وسيتملكونكم فتجدونهم أرباب سوء، واهتمّ رسول الله ﷺ فنزلت الآية».

وأخرج ابن مردويه عن عائشة أنّها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك: «إنكم الشجرة الملعونة في القرآن».

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن سعيد بن المسيّب، قال:

١ - تلخيص المستدرک بالهامش، ج ٣، ص ١٧٠.

٢ - راجع: جامع البيان، ج ١٥، ص ٧٧ وج ٣٠، ص ١٦٧؛ والدر المنثور، ج ٤، ص ١٩١ وج ٦، ص ٣٧١؛ ومروج الذهب،

٣ - الإسراء ١٧: ٦٠.

ج ٣، ص ٢٥٠.

رأى رسول الله ﷺ بني أمية على المنابر فساءه ذلك، فأوحى الله إليه: إنما هي دنيا أعطوها. فقرت عينه، وهي قوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ». يعني بلاء للناس.^١

قال النيسابوري: واعترض بعضهم بأن أيام بني أمية كانت مذمومة فكيف تذكر في مقام تفخيم أمر ليلة القدر؟ فأجاب: إنه تفضيل لسعادة معنوية، وجلال حقيقي دائم، على سعادة ظاهرية، وجلال صوري زائل.^٢ وفي حديث ابن المسيب الآنف إشارة إلى هذا الجواب.

٢٤ - سورة البينة

قال مكّي بن أبي طالب: مكّة.^٣

لكن اتفاق روايات الترتيب ونصوصه على أنها مدنيّة، ويؤيدها ماورد أنها لما نزلت على النبي ﷺ دعا أبي بن كعب فقرأها عليه^٤ وأبي، أنصاري، أسلم على يدي رسول الله ﷺ بالمدينة.

٢٥ - سورة الزلزلة

قال ضحّاك وعطاء: مكّة. وهكذا قال مكّي بن أبي طالب، ووافقهم سيّد قطب، نظراً للهجتها المشيرة.^٥

لكن اتفقت كلمة الروايات على أنها مدنيّة^٦ وأيضاً فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري، قال: لما نزلت «فَنَنْعَمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ»^٧ قلت: يا رسول الله ﷺ إنني لراء عملي؟ قال: نعم. قلت: تلك الكبار الكبار؟ قال: نعم، قلت: الصغار الصغار؟ قال: نعم، قلت: واثكل أمي!...^٨ وأبوسعيد أنصاري، لم يبلغ إلا بعد وقعة أحد.^٩

١ - الدر المنثور، ج ٤، ص ١٩١.

٢ - تفسير النيسابوري: ج ٣٠، ص ١٣٦.

٣ - الكشف عن وجوه القراءات السبع، ج ٢، ص ٣٨٥. ٤ - الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٧٨.

٥ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٢٤؛ والكشف، ج ٢، ص ٣٨٦؛ وفي ظلال القرآن، ج ٣٠، ص ٦٣٩.

٦ - الفهرست، ص ٤٤؛ ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠٥؛ والإتقان، ج ١، ص ٢٧؛ والدر المنثور، ج ٦، ص ٣٧٩.

٧ - الزلزلة ٩٩: ٧. ٨ - الدر المنثور، ج ٦، ص ٣٨١.

٢٦- سورة العاديات

عن قتادة: أنها مدنيّة،^٩ الرواية منسوبة إلى ابن عباس، قال: نزلت في خيل بعثها رسول الله ﷺ في سرية فأبطأت، فشق ذلك عليه، فأخبره الله بما كان من أمرهم.^{١١}

لكن الرواية فيها تمحل وتهافت ظاهر، وفي نفس الوقت معارضة بما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري والحاكم - وصححه - وابن مردويه، عن ابن عباس أيضاً أن علياً عليه السلام نهره عن تفسير العاديات بالخيول تغير في سبيل الله. وأوضح له: أنها الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة... قال ابن عباس: فنزعت عن قولي ورجعت إلى قول علي عليه السلام.^{١٢}

٢٧- سورة التكاثر

اختار جلال الدين أنها مدنيّة، وتمسك باختياره بالأُمور التالية:

١ - حديث ابن بريده: أنها نزلت في قبيلتين من الأنصار تفاخروا.

٢ - وقال قتادة: إنها نزلت في اليهود.

٣ - وعن أبي بن كعب - وهو أنصاري - : كنّا نزعم أن «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى ثالثاً...» آية قرآنيّة، حتى نزلت «أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ...».

٤ - وعن علي عليه السلام: كنّا نشك في عذاب القبر، حتى نزلت. قال جلال الدين: وعذاب القبر لم يذكر إلا بالمدينة، كما في الصحيح في قصّة اليهوديّة.^{١٣}

قلت: جميع ما تمسك به باطل:

أولاً: هذه السورة لا تمسّ مسألة التفاخر، وإنما تعرّضت لناحية التكاثر!

وثانياً: كيف يبقى أبي بن كعب في شك من آية قرآنيّة، ولا يسأل رسول الله ﷺ وهو كاتبه الأول إلى أن يذهب شكّه بنزول سورة لاشأن لها ونفي قرآنيّة غيرها!

وثالثاً: كيف نجيز لأنفسنا تصديق رواية تنسب الشك إلى مثل أمير المؤمنين علي عليه السلام

٩ - الإتيان، ج ١، ص ٣٦؛ والمستدرك على الصحيحين، ج ٣، ص ٥٦٣.

١٠ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٢٧. ١١ - الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٢٨٢.

١٢ - المصدر، وجامع البيان، ج ٣٠، ص ١٧٧. ١٣ - الإتيان، ج ١، ص ٢٧.

في مسألة من مسائل الآخرة، وهو عليه السلام باب علم النبي صلى الله عليه وآله !
وأما اختصاص نزولها باليهود، فتضيق في فحوى السورة العام، إذ هي تعالج مسألة
عامّة تمسّ حياة البشريّة الطاعنة في مطالب سافلة!
والصحيح - كما جاء في روايات الترتيب المتّفقة - : أنّها من أوّليات السور المكيّة،
وقد نصّ على ذلك جلال الدين نفسه في الدر المنثور، ورواه عن ابن عباس.^١
هذا مضافاً إلى ما نلمسه من لهجة السورة العنيفة، التي تناسب أجواء مكة المسيطر
عليها النزعة الماديّة بشدّة، ويزيد العنف استعمال لفظة «كلاً» الخاصة بأهل مكة كما مرّ.

٢٨ - سورة الماعون

قال الضحّاك: إنّها مدنيّة.^٢

لكن روايات الترتيب ونصوصه المتّفقة عليه ترفض هذا القول، مضافاً إلى أنّ لهجة
السورة تقريع عنيف بأولئك المكذّبين بالدين، فهي بأوّلّيات السور المكيّة أشبه، فقد
كانت السابعة عشرة في الترتيب، نزلت بعد سورة التكاثر.^٣

٢٩ - سورة الكوثر

عن عكرمة والضحّاك: أنّها مدنيّة.^٤ ورجّحه جلال الدين، وكذا النووي في شرح
مسلم، لما رواه مسلم عن أنس، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءة فرفع
رأسه وقال: أنزلت عليّ آناً سورة، فقرأها.

لكنّا تكلمنا عن هذا الحديث^٥ وزيّفنا دلّالته على نزول قرآن عليه صلى الله عليه وآله تلك الحالة،
وذكرنا تأويل الرافعي للحديث إلى أنّها قد خطرت له في تلك الحالة فقرأها عليهم، لأنّها
نزلت عليه حينذاك. كما ويؤيّد ذلك: أنّ مسلم نفسه روى هذا الحديث بسند آخر ليس
فيه «أنزلت عليّ». قال: أغفى النبي صلى الله عليه وآله إغفاءة، ثمّ رفع رأسه فقرأها.^٦

١ - الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٨٦. ٢ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٤٦.

٣ - الفهرست، ص ٢٨؛ ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠٥؛ والإتقان، ج ١، ص ٢٧.

٤ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٤٨. ٥ - تقدم ذلك في «الرؤيا الصادقة».

٦ - الدر المنثور، ج ٦، ص ٤٠١.

وأخيراً فقد أطبق المفسرون على أنها مكّية، نزلت تسليّة لخاطر رسول الله ﷺ عندما شنّاه ذلك الأتر اللعين.^١ هذا مضافاً إلى اتفاق روايات الترتيب: أنها نزلت بمكة. إذن لا يصلح حديث مضطرب أن يقاوم ذلك الإجماع وهذا الاتفاق!

٣٠- سورة التوحيد

رجّح جلال الدين كونها مدنيّة، لأحاديث رواها بشأن نزولها. قال: نزلت في طائفة من يهود المدينة سألوا رسول الله ﷺ أن يصف لهم ربّه، فنزل جبرائيل بسورة التوحيد.^٢ لكن تجاه هذه الروايات روايات أخرى تذكر هذا السؤال للمشرّكين، قالوا: أنسب لنا ربّك يا محمد ﷺ فنزلت^٣ مضافاً إلى اتفاق روايات الترتيب.

ومن ثمّ قال بعض الباحثين: إنها نزلت مرّتين!

قلت: لا يبعد ذلك، ولكن معنى نزول السورة مرّتين: أن الثانية كانت تذكيراً للنبي ﷺ بمناسبة الحاضرة، فمن المحتمل - على هذا الفرض -: أن اليهود سألوا النبي ﷺ سؤالاً، كان المشركون قد سبقوهم إلى مثله، فتردّد النبي ﷺ في أن يقرأ عليهم السورة التي كانت إجابة على سؤال المشركين من ذي قبل، وذلك نظراً للفرق بين مستوى اليهود ومستوى المشركين، فعند ذلك نزل جبرائيل بكفاية نفس الإجابة الأولى، بعد أن لم تكن السور القرآنية خاصّة بقوم دون قوم، وبمستوى دون مستوى، إذ الناس على مختلف مستوياتهم يستفيدون من جميع آي القرآن، وإن كانت نوعيّة الاستفادة تختلف حسب مراتب الثقافات.

وعلى ذلك فالسورة مكّية وإن تكرّر نزولها بالمدينة أيضاً.

٣١ و ٣٢- المعوذتان

عدّهما اليعقوبي من أواخر المدنيّات.^٤ وقال جلال الدين: المختار أنّهما مدنيّتان،

١- لباب القول، ج ٢، ص ١٤٢؛ والدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤٠٤؛ ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٤٩.

٢- لباب القول، ج ٢، ص ١٤٧؛ والإتقان، ج ١، ص ٣٧. ٣- الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤١٠.

٤- تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥.

لأنهما نزلتا في قصة سحر لبید بن الأعصم.^١

والقصة - كما جاءت في الصحيحين -^٢ حدثت بها عائشة، قالت: «سحر رسول الله ﷺ رجل من يهود بني زريق، يقال له: لبید بن الأعصم. قالت: حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله - وفي لفظ آخر: سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتیهن. قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر -^٣ قالت: حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة، دعا رسول الله ﷺ ثم دعا ثم دعا. ثم قال: يا عائشة، أشعرت^٤ أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ جاءني رجلان^٥ ففعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب.^٦ قال: من طبه؟ قال: لبید بن الأعصم. قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومُشاطة، وجُفّ طلعة نخل ذكر.^٧ قال: فاين هو؟ قال: في بئر ذروان. قالت: فأتاها رسول الله ﷺ في أناس من أصحابه، رجع وقال: يا عائشة، والله لكان ماءها نقاعة الحنّاء^٨ ولكان نخلها رؤوس الشياطين. قالت: فقلت: هلا استخرجته؟ فقال ﷺ: لا، أمّا أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شراً. ثم أمر بالبئر فدفنت».

وفي لفظ: «قال: وأين؟ قال: في جفّ طلعة ذكر تحت راعوفة^٩ في بئر ذروان. قالت: فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه. فقال: هذا البئر التي أريتها، وكان ماءها نقاعة الحنّاء وكان نخلها رؤوس الشياطين. قالت: فقلت: أفلا، أي تنشرت؟ فقال: أمّا الله فقد شفاني،

١ - الإتيان، ج ١، ص ٢٧.

٢ - صحيح البخاري، ج ٤، ص ١٤٨ وج ٧، ص ١٧٦؛ وصحيح مسلم، ج ٧، ص ١٤.

٣ - صحيح البخاري، ج ٧، ص ١٧٧. ٤ - أي أعلمت - بصيغة استفهام خطاباً إليها -.

٥ - في رواية: جبرائيل وميكائيل، فسأل الأول الثاني. راجع: فتح الباري، ج ١٠، ص ١٩٤.

٦ - أي مسحور.

٧ - المشاطة: ما ينزع من الشعر عند المشط - بالفتح - وهو تسريح الشعر، وبالضم: آله. والجفّ: غشاء الطلع.

٨ - أي لون مائها لون تقيع الحنّاء.

٩ - الراعوفة: صخرة أو حجر صلد، توضع عند فم البئر، لا يستطاع قلعها، يقف عليها المستقي أو توضع في أسفلها ليجلس عليها الذي ينظف البئر.

وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً»^١.

هذه القصة كما هي مذكورة في الصحيحين ليس فيها شاهد بنزول السورتين. وقد تنبّه السيوطي لذلك، ومن ثمّ استدرك الأمر بما ورد من طرق أخرى لم تصحّ إسنادها. فقد أخرج البيهقي في الدلائل عن عائشة، قالت: «كان لرسول الله ﷺ غلام يهودي يخدمه، يقال له لبید بن أعصم. فلم تزل به اليهود حتى سحر النبي ﷺ فكان يذوب ولا يدري ما وجعه - وفي لفظ: فكان يدور ولا يدري ما وجعه -^٢ فبينما رسول الله ﷺ ذات ليلة نائم إذ أتاه ملكان، فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجله، فقال الأول للثاني: ما وجعه؟ قال: مطبوع. قال: من طبّه؟ قال: لبید بن أعصم. قال: بم طبّه؟ قال: بمشط ومُشاطة وجفّ طلعة ذكر بذي أروان، وهي تحت راعوفة البئر. فلما أصبح رسول الله ﷺ غدا ومعه أصحابه إلى البئر فنزل رجل فاستخرج الجفّ، فإذا فيها: مُشط رسول الله ﷺ ومن مُشاطة رأسه، وإذا تمثال من شمع، تمثال رسول الله ﷺ، وإذا فيها إير مغروزة، وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة. فأتاه جبرائيل بالمعوذتين، فقال: يا محمد، قل: أعوذ برب الفلق، وحلّ عقدة. من شرّ ما خلق، وحلّ عقدة. حتى فرغ منها، وحلّ العقد كلّها، وجعل لا ينزع إبرة إلّا يجد لها الماء، ثمّ يجد بعد ذلك راحة، فقل: يا رسول الله ﷺ لو قتلت اليهودي! فقال: قد عافاني الله، وما وراءه من عذاب الله أشدّ».

وفي رواية: «سحر النبي ﷺ يهودي، فاشتكى فأتاه جبرائيل بالمعوذتين، وقال: إنّ رجلاً من اليهود سحرك، والسحر في بئر فلان. فأرسل عليّاً عليه السلام وجاء به، فأمره أن يحلّ العقد ويقرأ آية، فجعل يقرأ ويحلّ حتى قام النبي ﷺ كأنما نشط من عقال»^٣.
وقيل: إنّ بنات لبید كنّ ساحرات فهنّ سحرن وأبوهنّ رسول الله ﷺ وعقدن له إحدى عشرة عقدة. فأنزل الله المعوذتين، إحدى عشرة آية بعدد العقد وشفى الله رسوله ﷺ^٤.

٢ - فتح الباري، ج ١٠، ص ١٩٣.

١ - صحيح البخاري، ج ٧، ص ١٧٨.

٤ - التسهيل لعلوم التنزيل، ج ٤، ص ٢٢٥.

٣ - الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤١٧.

وبعد... فهذه القصة - لو تسلمناها - فلا شاهد في رواية الصحيحين على أن المعوذتين نزلتا بشأنها. أمّا سائر الطرق فلا تصحّ مستنداً للثقة بها، فضلاً عن أخذها مستمسكاً للحكم في شأن من شؤون القرآن، الذي لا ينبغي لمسلم أن يتكلّم فيه بغير علم ولا عن مستند وثيق.

قال جلال الدين: أمّا أصل القصة فله شاهد في الصحيحين، دون نزول السورتين. ثمّ قال: ولكن له شاهد من غيرهما... وأراد بذلك ما أخرجه البيهقي عن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وفيه ذكر القصة ونزول السورتين.^١

لكن ذكر جلال الدين نفسه - في الإتيان - أن أوّلى الطرق إلى ابن عباس، هو طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.^٢ ثمّ ذكر شاهداً آخر فيما أخرجه أبو نعيم في كتاب الدلائل من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أنس بن مالك.^٣

هذا.. وابن حبان قال: إنّ أهل الحديث يتّقون من حديث الربيع بن أنس إذا كان من رواية أبي جعفر الرازي عنه، لأنّ في أحاديثه عنه اضطراباً كثيراً.^٤

إذن أفلا تعجب من رجل هو مضطلع بفنّ الحديث والتفسير، كيف يورّط بنفسه في تناقض الاختيار؟! ويضطرب في التماس الحجّة من غير وجهها الوجيه؟! ومن ثمّ يتكلّم في شأن جانب من كتاب الله العزيز من غير استناد وثيق؟!

أمّا نحن - الإمامية - فإنّ أصول معتقداتنا تنفي إمكان التأثير على قلب نبيّ كريم، هو مهبط وحي الله وعبية علمه الأمين! وبالأحرى فإنّ لبداً أعجز من أن يستطيع التصرّف في عقلية مثل رسول الله ﷺ أفضل خلق الله وأكرم أنبيائه!!

يقول تعالى: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً»^٥ فأجدر بليد عدم قدرته على الاستحواذ على قلب أكرم عباد الله، وقلبه ﷺ بيت الإله تعالى، لا يدع لخبث

١ - لباب النقول، ج ٢، ص ١٤٨.

٢ - الإتيان، ج ٤، ص ٢٠٩.

٣ - لباب النقول، ج ٢، ص ١٤٨.

٤ - تهذيب التهذيب، ج ٣، ص ٢٣٩.

٥ - الإسراء ١٧: ٦٥.

الاقتراب منه أبداً!

على أنا لوجوّزنا إمكان التأثير على شعور النبيّ الكريم بحيث يكاد يخيّل إليه أنّه يفعل ولا يفعل، فإنّ الثقة بما يقوله وحياً تزول، فلعلّه مفعول سحر ساحر خبيث، خيّل إليه أنّه وحي؟!^١

قال العلامة الطبرسي: هذا لا يجوز، لأنّ من وصفه بأنّه مسحور فكأنّه قد خبل عقله، وقد أبى الله سبحانه ذلك في قوله: «وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا. انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا».^١

ولكن يمكن أن يكون اليهوديّ أو بناته - على ما روي - اجتهدوا في ذلك فلم يقدرُوا عليه، واطلع الله نبيّه ﷺ على ما فعلوه من التمويه حتى استخرج، وكان ذلك دلالة على صدقه. وكيف يجوز أن يكون المرض من فعلهم؟! ولو قدرُوا على ذلك لقتلوه، وقتلوا كثيراً من المؤمنين، مع شدة عداوتهم لهم.^٢

وقال العلامة المجلسي: المشهور بين الإماميّة عدم تأثير السحر في الأنبياء والأئمة (صلوات الله عليهم) ومن ثمّ أولوا بعض الأخبار الواردة في ذلك، وطرحوا بعضها أي ما لا يقبل التأويل.^٣

وقال القطب الراوندي: روي أنّ امرأة يهوديّة عملت له ﷺ سحراً، فظنّت أنّه ينفذ فيه ﷺ كيدها والسحر باطل محال! إلّا أنّ الله دلّه عليه، فبعث من استخرجه. وكان على الصفة التي ذكروها، وعلى عدد العقد التي عقد فيها ووصف ما لو عاينه معاين لغفل عن بعض ذلك.^٤

وجاء في طبّ الأئمة: أنّ جبرائيل أتى النبيّ ﷺ وقال له: إنّ فلاناً اليهودي سحرَكَ، ووصف له السحر وموضعه. فبعث النبيّ ﷺ عليّاً عليه السلام حتى أتى القلب فبحث عنه فلم يجده، ثمّ اجتهد في طلبه حتّى وجده فأتى به إلى النبيّ ﷺ وإذا هو حقة فيها قطعة كرب

٢ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٦٨.

٤ - المصدر، ص ٥٧، ح ١١.

١ - الفرقان ٢٥: ٨ - ٩.

٣ - بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٧٠.

نخل في جوفه وتر عليها إحدى عشرة عقدة، وكان جبرائيل عليه السلام قد أنزل المعوذتين. فأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام أن يقرأهما على الوتر، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى فرغ منها، فكشف الله عن نبيه ما سحر به وعافاه.^١

وهذه الرواية - وإن لم يصح إسنادها - ليس فيها التأثير على عقلية الرسول صلى الله عليه وسلم نعم في رواية أخرى جاء التأثير على جسمه الشريف، فكان يحسّ بوجع شديد، وهذا معنى «كشف الله عن نبيه وعافاه» في رواية طب الأئمة. أي عافاه من الوجع الذي كان يحسّ به. وهذا أمر ممكن، غير أن الأصحّ عندنا هو ما ذكره القطب الراوندي: أن السحر لم ينفذ فيه صلى الله عليه وسلم فقد أرادوا به كيداً لكنهم أصبحوا هم الخاسرين.

آيات مستثنيات

تعرض الأوائل لاستثناء آيات من سور تخالفها في النزول، قرب سورة مكية فيها آيات مدنية أو بالعكس، واستقصى ذلك جلال الدين السيوطي في «الإتقان» مستوعباً، غير أنه اعتمد في الأكثر على روايات وتقول ضعيفة، ثم جاء المتأخرون ليأخذوا بذلك تقليداً من غير تحقيق^٢ في حين أن غالبية القائلين بهذه الاستثناءات قالوا بها عن حدس

١ - طب الأئمة، ص ١١٨.

٢ - جاءت في المصحف الأميري المطبوع بالقاهرة بإذن مشيخة الأزهر وبإشراف لجنة مراقبة البحوث الإسلامية، استثناءات بأرقام كبيرة، لكنه تقليد محض لا أصل لأكثريتها الساحقة. وهكذا سجلها من غير تحقيق الشيخ أبو عبد الله الزنجاني في تاريخ قرآنه.

أضف إلى ذلك تناقضات جاءت في هكذا اختيارات تقليدية:

مثلاً: جاء في المصحف الأميري أن سورة الم تنزل (السجدة) نزلت بعد سورة المؤمن وأن سورة حم تنزل (فصلت) نزلت بعد سورة غافر! في حين أن المؤمن وغافر اسمان لسورة واحدة!

وأثبت أبو عبد الله في تاريخ قرآنه قائمتين بشأن ترتيب نزول السور فذكر في القائمة الأولى: أن سورة الأنعام نزلت بعد الحجر. وفي الثانية: أنها نزلت بعد الكهف. كما ذكر في الأولى أن الأعراف نزلت بعد ص وفي الثانية نزلت بعد الأنفال! وذكر أن السور المكية: ٨٥. والسور المدنية: ٢٨. ولم يلتفت أنها تنقص مجموع سور القرآن بواحدة! وأظنه في ذلك قلد الإمام بدر الدين الزركشي!!

أو اجتهاد في الرأي، من غير أن يستندوا إلى نصّ صحيح مأثور. قال ابن الحصار: إنّ من الناس من اعتمد في الاستثناء على الاجتهاد دون النقل.^١

ونحن إذ نستطرق هذا الباب، نضرب عن كلّ ما قالوه بهذا الشأن صفحاً، إذ لم يكن مستنداً إلى دليل مقبول. إذ لا شكّ أنّ الآيات كانت تسجّل تباعاً في كلّ سورة بعد نزول بسملتها، واحدة تلو أخرى ترتيباً طبيعياً حسب النزول. أمّا أن تبقى آية مكّية غير مسجّلة في سورة، حتى تنزل سورة بالمدينة ثمّ تسجّل فيها، فهذا أمر غريب خارج عن طريقة الثّبت المعروف، كما أنّ آية مدنيّة تسجّل في سورة مكّية بحاجة إلى نصّ صريح خاص وليس بالأمر الذي يتدخل فيه الحدس أو الاجتهاد النظري!

قال ابن حجر: وأمّا نزول شيء من سورة بمكة، ثمّ يتأخّر نزول أصل السورة إلى المدينة، فلم أره إلا نادراً، فقد اتفقوا على أنّ الأنفال مدنيّة، لكن قيل: إنّ قوله تعالى: «وَأِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...»^٢ نزلت بمكة، ثمّ نزلت سورة الأنفال بالمدينة. وهذا غريب جداً.^٣ وسوف نذكر بطلان هذه المزعومة!

وإليك نماذج من النوعين مردفة بما نشير إليه من تحقيق الرأي إجمالاً:

استثناءات من سور مكّية:

١ - سورة الفاتحة: مكّية

حكى أبو الليث السمرقندي قولاً بأنّ نصفها نزلت بالمدينة.

قال جلال الدين: لا دليل لهذا القول.^٤ كما سبق: أنّها من أوائل ما نزلت بمكة كاملة، وكان المسلمون يقرأون بها في الصلاة.

→ كما جاء في مصحف مطبوع في إيران على عهد القاجاريّة قائمتان، الأولى تسجّل عام نزول كلّ سورة، والثانية تسجّل ترتيب النزول. فجاء في الأولى: نزلت الصافات في العام الخامس من البعثة، ونزلت الأنعام في العام الثالث عشر. ثمّ جاء في القائمة الثانية: أنّ الصافات نزلت بعد الأنعام!! وأمثال هذا التناقض كثير.

٢ - الأنفال ٨: ٣٠.

١ - الإتيان، ج ١، ص ٣٨.

٤ - الإتيان، ج ١، ص ٣٠ و ٣٨.

٣ - فتح الباري، ج ٩، ص ٣٨.

٢ - سورة الأنعام: مكية

«نزلت بمكة جملة واحدة، وشيئها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح والتحميد وقد طبّقوا ما بين السماء والأرض، وكانت ليلة جمعة، وكانت لنزولهم هيبة وعظمة، فجعل رسول الله ﷺ يقول: سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم، وخرّ ساجداً. ثم دعا الكتاب فكتبوها من ليلتهم».

هذا الحديث مستفيض رواه الفريقان بطرق يعضد بعضها بعضاً.^١ قال جلال الدين: فهذه شواهد يقوّي بعضها بعضاً.^٢ ومن ثم لا وقع لقول أبي عمرو بن الصلاح: أن الخبر المذكور جاء من حديث أبي بن كعب، وفي إسناده ضعف، ولم نر له إسناداً صحيحاً، وقد روي ما يخالفه.^٣

قلت: استفاضة الطرق إلى عدّة من الأصحاب غير أبي بن كعب أيضاً كافية للاستناد إليها.

هذا... وأمّا رواية المخالف فضيفة وغير ثابتة.

قال ابن الحصار: استثني منها تسع آيات، ولا يصحّ به نقل.^٤ وسنتكلم فيما زعموا صحتّها من روايات الاستثناء.^٥

وجاء في المصحف الأميري وفي بعض كتب المقلّدة استثناء تسع آيات من غير تحقيق، نبحت عن كلّ واحدة واحدة فيما يلي:

الأولى: قوله تعالى: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ».^٦

الثانية: قوله تعالى: «ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ».^٧

ولاشاهد للاستثناء في هاتين الآيتين إطلاقاً. ولعلّ السبب مجيء ذكر أهل الكتاب فيهما، على غموض في الثانية. ولادليل في ذلك، بعد أن جاء ذكر أهل الكتاب في كثير من

١ - تفسير العياشي، ج ١، ص ٣٥٣، ح ١؛ ومجمع البيان، ج ٤، ص ٢٧١؛ والدر المنثور، ج ٣، ص ٢.

٢ - الإتيان، ج ١، ص ١٠٨.

٣ - البرهان للزركشي، ج ١، ص ١٩٩.

٤ - الإتيان، ج ١، ص ٣٨.

٥ - عند استثناء الآيات رقم: ٧ و ٨ و ٩.

٦ - الأنعام ٦: ٢٣.

٧ - الأنعام ٦: ٢٠.

سور مكية. كقوله تعالى: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»^١ ولم يستثنها أحد. وكذلك قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ»^٢. وأمثال ذلك كثير.

الثالثة: قوله تعالى: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَبْذُوثَهَا وَتُخَفُّونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ»^٣.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً»^٤ قيل: نزلت في جماعة من اليهود، قالوا: يا محمد ﷺ أنزل الله عليك كتاباً؟ قال: نعم. قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً.

وقيل: نزلت في مالك بن الصيف، وكان حبراً من أحبار يهود قريظة، وكان سميناً، فقال له النبي ﷺ: أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أما تجد في التوراة: «إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الْحَبْرَ السَّمِينَ»؟ فغضب وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء وقيل: الذي خاصم النبي ﷺ في هذا المقال هو فنحاص بن عازوراء اليهودي.

وقيل: نزلت في مشرقي قريش، حيث أنكروا النبوات رأساً^٥. قال أبو جعفر الطبري: وأولى هذه الأقوال بالصواب، هو القول الأخير، إذ لم يجر لليهود ذكر قبل ذلك. وليس إنكار نزول الوحي على بشر ممّا تدين به اليهود، بل المعروف من دينهم الإقرار بصحف إبراهيم وموسى وزبور داود. ولم يكن الخبر بأنها نزلت في اليهود خبراً صحيحاً متصل السند، ولا أجمع المفسرون على ذلك. وكان سياق السورة من أولها إلى هنا جارياً في المشركين، فناسب أن تكون هذه الآية أيضاً موصولة بما قبلها لا مفصولة منه. فلم يجز لنا أن ندّعي فصلها إلا بحجة قاطعة من خبر أو عقل. ولعل الذي

١ - العنكبوت ٢٩: ٤٧.

٢ - العنكبوت ٢٩: ٤٦.

٣ - الكشف، ج ١، ص ٤٤٠.

٤ - الأنعام ٦: ٩١.

٥ - جامع البيان، ج ٧، ص ١٧٧؛ ومجمع البيان، ج ٤، ص ٣٣٣.

أوقع هذا القائل في الوهم المذكور ما وجدته في قوله تعالى: «تجعلونه...» على وجه الخطاب. ولكن الأصوب من القراءة أنها بياء الغيبة.^١

قلت: ونحن إذ نصادق أبا جعفر في هذا التحقيق، نضيف إليه: أن القصة التي ذكرها بشأن مالك بن الصيف في محاورته تلك مع النبي ﷺ تتنافى تماماً مع خلق رسول الله الكريم، النبي لا يجرح من عاطفة إنسان إطلاقاً، كما وتنزه كتاب الله العزيز عن التعرض لهكذا أمور تافهة لا قيمة لها، أو تنزل بشأنها آية!!

إذن فقوله: «وعُلمتم...» خطاب موجه إلى المشركين، بعد تلك الحكاية - بصورة الغيبة كما رجّحها أبو جعفر - عن أهل الكتاب.

وأما القراءة المشهورة بتاء الخطاب في الجميع، فلا تستدعي اختصاص الخطاب بأهل الكتاب، بل إلى البشرية باعتبار فعل بعضهم ممن نزل عليهم الكتاب. ولا سيما ومساس العرب المشركين مع اليهود ومخالطتهم معهم في الجزيرة، ومن ثمّ جاء الكلام عن بني إسرائيل في سور مكّية كثيراً، كما في سورة الأعراف.^٢

ويشهد بذلك قوله تعالى: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»^٣ خطاباً مع أهل مكة، وسورة الأنبياء المكيّة أيضاً.^٤ وقد كان للعرب صلة وثيقة وثقة بأهل الكتاب، ويعرفونهم أهل علم وثقافة، وكثيراً ما يسألونهم عن تاريخ الأمم والأنبياء ويعتمدون كلامهم، فجاز أن يخاطبوا بخطاب اليهود المجاورين لهم المخالطين معهم الموثوق بهم عندهم!

الرابعة: قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ».^٥

قالوا: نزل قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى...» في عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخي عثمان من الرضاعة. وكان أسلم وكتب الوحي لرسول الله ﷺ ولما نزلت: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا

١ - جامع البيان، ج ٧، ص ١٧٨. وهكذا وافقه سيد قطب في «في ظلال القرآن»، ج ٧، ص ٣٠٢ - ٣٠٣.

٢ - النحل ١٦: ٤٣.

٣ - الآية: ١٠٢ و ١٦٠.

٤ - الأنعام ٦: ٩٣.

٥ - الآية: ٧.

الإنسان من سُلالةٍ من طين»^١ دعاه النبي ﷺ فأَمَلَاها عليه. فلَمَّا انتهى إلى قوله: «ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ»^٢ عجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان، فقال: تبارك الله أحسن الخالقين. فقال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلت عليّ، فشك عبد الله حينئذ، وقال: لئن كان محمد ﷺ صادقاً لقد أُوحي إليّ كما أُوحي إليه. ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال. فارتدّ عن الإسلام، ولحق أهل مكة، فجعلوا يقولون له: كيف كنت تكتب لابن أبي كبشة القرآن؟ قال: كنت أكتب كيف شئت. وذلك أنه كان رسول الله ﷺ يملّي عليه «عَلِيماً حَكِيماً» فيكتب «غَفُوراً رَحِيماً» يزيد وينقص ويبدّل في كتاب الله، ولا يشعر به النبي ﷺ ومن ثمّ شك في رسالته، وكفر ولحق بقریش. فأهدر النبي ﷺ دمه! لكن عثمان أجاره يوم الفتح، وألحّ على رسول الله ﷺ حتى عفى عنه.^٣

وقالوا - أيضاً -: إنّ قوله: «أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ» نزل في مسيلمة والأسود العنسي، كانا قد تنبّأ في حياة الرسول ﷺ.^٤

لكن الحديث مكذوب من أصله. لأنّ سورة «المؤمنون» مكّيّة، ولم يستثن أحد تلك الآية. فكيف يكتبها ابن أبي سرح بالمدينة ثمّ يرتدّ إلى مكة؟! ثمّ أنّى لبشر أن يتقول على الله كذباً ويتحلّه وحياً، وقد ضمن الله لكتابه الكريم بالحفظ. ثمّ لا يشعر الرسول بدسّ كاذب مفتر على الله فيما أنزله الله عليه!! وهل تبقى - بعد هذا الاحتمال - ثقة بنصوص الكتاب العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟!

نعم هناك ثلاث آيات من ثلاث سور، قيل في كلّ واحدة منها: أنّها نزلت بشأن ابن أبي سرح. هذه إحداها!

والثانية قوله: تعالى: «وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً»^٥.

١ - المؤمنون ٢٣: ١٢. ٢ - المؤمنون ٢٣: ١٤.

٣ - راجع: مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٣٥؛ والدر المنثور، ج ٣، ص ٣٠؛ وجامع البيان، ج ٧، ص ١٨١؛ والتفسير الكبير، ج ١٣، ص ٨٤؛ وفي ظلال القرآن، ج ٧، ص ٣٠٦؛ والبرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٠٠.

٤ - نفس المصادر. ٥ - النحل ١٦: ١٠٦. راجع: جامع البيان، ج ٧، ص ١٨١.

والثالثة: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا».^١

وهذه الأخيرة أنسب وأولى بالقبول، كما روي ذلك عن الإمامين: محمد بن علي

الباقر، وجعفر بن محمد الصادق عليه السلام.^٢

إذن فالصحيح في الآية الأولى هو ما قاله أبو جعفر الطبري: هي عامّة، تصف موقف الإنسان عموماً تجاه رسالات الأنبياء عليهم السلام: فمن منكر معاند لا يصدق بأي رسالة جاءت من قبل الله. وآخر مسترسل ضعيف يؤمن بكلّ دعوى رساليّة، حتى ولو كانت نزغة شيطانيّة من غير تدبّر ولا تفكير صحيح. ومن ثمّ وبّخت الآية هذا النمط من الاسترسال الهابط، وتلك الجرأة الظالمة تجاه ربّ العزّة، فيفتري عليه تعالى ظلماً وعدواناً. ولا مساس للآية بقضية ابن أبي سرح بالخصوص.

على أنّ قوله تعالى: «سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ»^٣ لا ينطبق مع موقف ابن أبي سرح تجاه رسول الله صلى الله عليه وآله. نعم كان ينطبق عليه لو كانت الآية هكذا: «سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ مُحَمَّدٌ...!» وقد ناقض سيد قطب هنا بشأن الآية، ففي موضع رجّح كون السورة مكّيّة كلّها، وفي موضع آخر اعتمد على روايات الاستثناء.^٤

الخامسة قوله تعالى: «أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ».^٥

وليس في الآية ما يدعو إلى الظنّ بأنها مدنيّة إلّا ذكر أهل الكتاب فيها. وقد سبق أنّ هذا وحده ليس دليلاً، فقد ورد مثلها في آيات مكّيّة كثيراً. ويرجع السبب إلى ثقة العرب المشركين بمن جاور بلادهم من أهل الكتاب، فيرونهم أهل علم ودراية، ومن ثمّ قال

١- النساء ٤: ١٣٧.

٢- تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٨١، ح ٢٨٨. وأمّا الذي جاء في التفسير المنسوب إلى علي إبراهيم القمي، ج ١، ص ٢١٠ من نزول آية الأنعام (٩٣) بشأن ابن أبي سرح، ففيه من المناكير ما يرفض صدوره من المعصوم عليه السلام إذ فيه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقرّه على تبديله النصّ ويقول له: هو واحد...!!

٣- الأنعام ٦: ٩٣. ٤- في ضلال القرآن، ج ٧، ص ١٠٦ و ٣٠٦.

٥- الأنعام ٦: ١١٤.

تعالى: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ»^١ يعني أهل الكتاب ولاسيما اليهود. وهذه الآية مكيّة بالإجماع، ما خلا مانسب إلى جابر بن زيد، وقد ردّ عليه السيوطي من وجهين فراجع.^٢

السادسة: قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ... (إلى قوله:)

كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ».^٣

ولعلّ القائل بمدنيّتها فسّر الحقّ الواجب بالزكاة، والزكاة لم تقرّر بأنصبتها المحددة في الزروع والثمار إلّا في المدينة.

ولكن هذا المعنى ليس متعيّناً في الآية، لأنّها فسّرت بمطلق الصدقة من غير تحديد، وهي بهذا الإطلاق كانت واجبة في مكة، وجاءت الإشارة إليها في قوله: «وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ» الآية رقم ١٩ من سورة الذاريات المكيّة بإجماع. وجاء ذكر الإنفاق والصدقة في كثير من آيات مكيّة.

وجاءت روايات مأثورة، بأنّ الحقّ في هذه الآية: يعني الإنفاق وإعطاء اليتامى والمساكين - عن سعيد بن جبير وغيره - ثمّ نسخت بآية الزكاة فيما بعد^٤ وروي ذلك عن الإمام أبي عبد الله الصادق، عن آبائه عليهم السلام.^٥

السابعة: قوله تعالى: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...».^٦

الثامنة: قوله تعالى: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...».^٧

التاسعة: قوله تعالى: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ...».^٨

قال السيوطي: وقد صحّ النقل عن ابن عباس باستثناء هذه الآيات الثلاث^٩ والرواية

١ - النحل ١٦: ٤٣ - ٤٤؛ وفي سورة الأنبياء ٢١: ٧ بدون الذيل.

٢ - الإتيان، ج ١، ص ٣٩. ٣ - الأنعام ٦: ١٤١.

٤ - راجع: الدر المنثور، ج ٣، ص ٤٩؛ وجامع البيان، ج ٨، ص ٤٤.

٥ - مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٧٥. ٦ - الأنعام ٦: ١٥١.

٧ - الأنعام ٦: ١٥٢. ٨ - الأنعام ٦: ١٥٣.

٩ - الإتيان، ج ١، ص ٣٩.

هي: ما أخرجه أبو جعفر النحاس في كتابه «الناسخ والمنسوخ» عن طريق أبي عبيدة معمر بن المثنى، عن يونس عن أبي عمرو عن مجاهد عن ابن عباس...^١

وأبو عبيدة هذا كان رجلاً به شذوذ، كان يرى رأي الخوارج، وكان بذيء اللسان متهمكاً قليل العناية بالقرآن، وإذا قرأه قرأه نظراً،^٢ ومن ثم لا يعتمد على نقله فيما يخص الكتاب والسنة، اللهم إلا في رواية الشعر والأدب. ولا ندري بم صحح جلال الدين سند هذا النقل؟!

هذا وقد روى أبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لما أمر الله نبيّه أن يعرض نفسه على القبائل، خرج إلى منى وأنا معه وأبوبكر، وكان رجلاً نساباً، فوقف على مضاربهم بمنى وسلم عليهم فردّوا عليه السلام، فتكلّم معه القوم، حتى سألوه: إلى ما تدعوا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ (إلى قوله: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)» تمام الآيات الثلاث. فأعجبهم كلام الله، وقالوا: فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان لعرفناه...^٣ فالآيات كانت نازلة حينذاك بمكة.^٤ على أن لحن الآيات وأسلوب التعبير فيها - أيضاً - يشهد بمكيّتها.

وتلخص: أن سورة الأنعام كلّها مكّية، ليست منها آية مدنية إطلاقاً. ولم يثبت شيء مما قيل باستثنائه أصلاً، لانقلاً ولا عقلاً، على ما أسلفنا.

٣ - سورة الأعراف: مكّية

أخرج ابن ضريس والنحاس وابن مردويه من عدّة طرق عن ابن عباس: أنّها نزلت بمكة.^٥

قال قتادة: سوى آية واحدة: «وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ».^٦ قال: نزلت

١ - المصدر، ٢٤.

٢ - الفهرست، ص ٨٥؛ وتهذيب التهذيب، ج ١٠، ص ٢٤٧؛ وميزان الاعتدال، ج ٤، ص ١٥٥.

٣ - الدر المنثور، ج ٣، ص ٥٤.

٤ - جامع البيان، ج ٨، ص ٦٠.

٥ - الأعراف ٧: ١٦٣.

٦ - الدر المنثور، ج ٣، ص ٦٧.

بالمدينة.^١

وقال غيره: إلى نهاية الآية رقم ١٧١.^٢ وهي قوله: «وَإِذْ تَخْتَلُّ الْجِبَلُ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ...». قلت: ودليل قتادة هو الأمر بسؤال اليهود، وهو يناسب - كما زعم - أيام كونه ﷺ بالمدينة. وهذا ليس دليلاً، إذ لا مستند لعود الضمير إلى اليهود، فلعله يعود إلى المشركين أنفسهم، لمكان معرفتهم بقصة أصحاب السبت، والقرية - وهي أيلة - كانت على ساحل البحر الأحمر، مما يلي الشام. وهي آخر الحجاز وأول الشام، مدينة يهودية صغيرة كانت عامرة،^٣ وكانت قريش تمرّ عليها في رحلتها الصيفية التجارية، وكانت تتصل بهم أخبارها، ومن ثم كانوا على معرفة من أهلها اليهود الذين عتوا عن أمر ربهم.

وأما قول غيره فلامستند له إطلاقاً، ولا سند معروف. فالصحيح أن هذه الآيات متناسقة مع غيرها من قصص أمم الأنبياء نزلت على قريش ليعتبر أولوا البصائر منهم، إذن يكون الترجيح مع القول بأن جميعها مكية، لا استثناء فيها.

٤ - سورة يونس: مكية

استثنى بعضهم منها أربع آيات:

الأولى: قوله تعالى: «وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ».^٤ زعم بعضهم أنها نزلت في اليهود.^٥ لكن السياق يأباه.

الثانية: قوله تعالى: «فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ...».^٦

الثالثة: قوله تعالى: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا...».^٧

الرابعة: قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ...».^٨

زعموها - أيضاً - نزلت في اليهود. ولادليل لهم في ذلك، والسياق واحد متصل. ولعل

٢ - الإتيان، ج ١، ص ٣٩.

٤ - يونس ١٠: ٤٠.

٦ - يونس ١٠: ٩٤.

٨ - يونس ١٠: ٩٦.

١ - الكشف، ج ١، ص ٤٦٠.

٣ - معجم البلدان، ج ١، ص ٢٩٢.

٥ - الإتيان، ج ١، ص ٤٠.

٧ - يونس ١٠: ٩٥.

ذكر أهل الكتاب هو الذي أوقعهم في هذا الزعم! مع العلم بأن هذه الآيات ليست بأصرح من قوله: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ»^١ الآية المكية بالإجماع.

وقيل: من الآية رقم ٤٠ إلى نهاية السورة كلها نزلت بالمدينة^٢ ولا شاهد لهذا القول إطلاقاً. ولحن الآيات ولهجتها أيضاً تأباه.

والخلاصة: القائل بالاستثناء في هذه السورة، لا يملك دليلاً موثقاً به ولا سنداً يعتمد عليه. كما أن سياقها يناهض بمكيته بوضوح. ومن ثم ترجّح كونها مكية أجمع.

٥ - سورة هود: مكية

استثني منها ثلاث آيات:

الأولى: قوله تعالى: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ»^٣.

لكن السياق يشهد - صراحة - بأنها مكية. وقد روي في سبب نزولها ما يجعلها أيضاً مكية قطعياً^٤.

الثانية: قوله تعالى: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ»^٥. استشهد من قال بمدنيته بقوله: «كتاب موسى». وبقوله: «من الأحزاب».

لكن لا شاهد فيهما، بعد أن جرى ذكر موسى في كثير من آيات مكية. والأحزاب إشارة إلى قبائل عربية متحزبة ضد الرسول، وقد كانت تحزبت منذ أن شعر المشركون بخطر نفوذ الإسلام في الجزيرة وسرعة انتشار الدعوة^٦. ولا شاهد على إرادة وقعة الأحزاب.

الثالثة: قوله تعالى: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ

٢ - الإتيان، ج ١، ص ٤٠.

٤ - مجمع البيان، ج ٥، ص ١٤٦.

٦ - التبيان، ج ٥، ص ٤٦١.

١ - النحل ١٦: ٤٣.

٣ - هود ١١: ١٢.

٥ - هود ١١: ١٧.

السِّيَّات^١.

روى أبو جعفر الطبري بإسناده عن أبي ميسرة. قال: جاءتني امرأة تبتاع مني تمراً، فقلت لها: إن في البيت تمراً أجود، فأدخلتها البيت وأهويت إليها أقبلها وآتي منها ما يأتي الرجل من امرأته سوى الجماع، حتى مسست بيدي دبرها. ثم خرجت فذكرت ذلك لأبي بكر وعمر، فقالا: استر ذلك على نفسك ولا تخبرن أحداً. ثم ذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: هل جهّزت غازياً؟ قلت: لا. فقال: هل خلفت غازياً في أهله؟ قلت: لا. فقال: استغفر ربك وصل أربع ركعات. ثم تلا: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» ثم قال: إنها للناس عامّة، وفي رواية: نزل بها جبرائيل لساعته.^٢

وهذه الرواية بهذا السياق باطلة عندنا ألبتة. لأنها تجرئة على المعاصي، فليفعل أيّ إنسان ما يريد ثم يعمد إلى صلاة يصلّيها لتكون كفارة عن كلّ ذنب يقترفه. هذا فضلاً عن التهافت في نفس الرواية وعدم انسجامها مع الآية، وهو دليل آخر على وهنها. وأخيراً ففي أكثر الروايات: ثم تلا عليه الآية، وليس فيها أنها نزلت حينذاك. كما روي غير هذه الأقصوصة أيضاً.

والصحيح عندنا: أن سورة هود مكّية بأجمعها، نظراً لوحدة سياقها المنتظم على أسلوب تقرّيعي بديع يتناسب والدعوة في مكة.

٦ - سورة يوسف: مكّية

في المصحف الأميري: استثناء ثلاث آيات من أولها (١ - ٣) وقوله: «لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَوَكِّلِينَ».^٣ قال جلال الدين: وهو واه جداً، لا يلتفت إليه.^٤ قلت: ونحن نربأ بمثل العلامة أبي عبد الله الزنجاني أن يتابع ثبت المصحف المصري من غير تحقيق، فيسجّله في كتابه القيم.^٥ وفضح الأمر أوضح من أن يستره وهم.

٢ - جامع البيان، ج ١٢، ص ٨٢ - ٨٣.

١ - هود ١١: ١١٤.

٤ - الإتيان، ج ١، ص ٤٠.

٣ - يوسف ١٢: ٧.

٥ - تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني، ص ٢٨.

٧ - سورة إبراهيم: مكية

قال الزركشي: سوى آيتين نزلتا في قتلى بدر من المشركين وهما قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ».^١ والأصل في ذلك: ما روي عن سعد، عن عمر بن الخطاب قال: الذين بدلوا نعمة الله كفراً، هما: الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية. أما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر. أو قال: استأصلهم الله يوم بدر. وأما بنو أمية فمتّعوا إلى حين.^٢ وهكذا روي عن الإمام الصادق عليه السلام وزاد: بلى هي قريش قاطبة.^٣

لكن لادلالة في ذلك على أنهما نزلتا يوم بدر أو بعده. وإنما كانت وقعة بدر مصداقاً من مصاديق البوار الذي أُنذروا به. أما المصداق الأوفى فهي جهنم يصلونها وبئس القرار. فهذا الاستثناء كان نتيجة عدم التدبر في تأويل الآية بزعم أنه السبب الداعي للنزول!

٨ - سورة الحجر: مكية

قال جلال الدين: وينبغي استثناء قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُتَشَدِّمِينَ مِنْكُمْ رَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُتَشَاخِرِينَ».^٤ لما أخرجه الترمذي: أنها نزلت في صفوف الصلاة.^٥ وقال الحسن: إلا قوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي...»^٦ وقوله تعالى: «كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقَسِّمِينَ. الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ».^٧

قلت: سياق الآية الأولى يأبى حملها على صلاة الجماعة. بشاهد قوله تعالى قبل هذه الآية: «وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ»^٨ وكذا الآية بعدها: «وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَخْشَرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ»^٩ وإنما المعنى: ولقد علمنا بالأموات الماضين وبالأحياء الباقيين.^{١٠}

١ - إبراهيم ١٤: ٢٨ - ٢٩. راجع: البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٠٠.

٢ - جامع البيان، ج ١٣، ص ١٤٦.

٣ - تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٢٩، ح ٢٢؛ والصافي في تفسير القرآن، ج ١، ص ٨٨٧-٨٨٨.

٤ - الحجر ١٥: ٢٤.

٥ - الإتيقان، ج ١، ص ٤١.

٦ - الحجر ١٥: ٩٠ - ٩١. راجع: مجمع البيان، ج ١، ص ٣٢٦.

٧ - الحجر ١٥: ٢٥.

٨ - الحجر ١٥: ٢٣.

أما رواية الترمذي فهي مقطوعة وفي إسنادها ضعف مضافاً إلى عدم انسجامها مع الآية. وأما استثناء الآية الثانية فمستند إلى قول مجاهد: إنَّ سورة الفاتحة نزلت بالمدينة. وتقدّم أنها هفوة منه، والإجماع على خلاف قوله.^{١١}

وأما آية المقتسمين، فزعموها نزلت في اليهود والنصارى ممّن آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعض.^{١٢} لكنّه زعم باطل، لأنّ اليهود لم يؤمنوا بالقرآن إطلاقاً، ولم يكونوا هم المنزل عليهم. نعم كان إيمانهم بالكتب النازلة عليهم كذلك، يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.

والصحيح أنّ الآية المذكورة نزلت في المشركين الذين جعلوا من القرآن بعضه سحراً وبعضه أساطير الأولين وبعضه مفترى وغير ذلك، وكانوا يتفرّقون على أبواب مكّة يصدّون الناس عن القرآن ويقولون على الله الكذب.^{١٣} وقد روى العياشي عن الإمامين الباقر والصادق (عليه السلام): أنّها نزلت في قريش.^{١٤}

٩- سورة النحل: مكّة

قال قتادة: إلّا قوله: «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا...»^{١٥} وقيل: إلى آخر السورة نزلن بالمدينة.^{١٦}

وعن عطاء بن يسار: استثناء قوله: «وإن عاقبتُم فَعاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُم بِهِ...»^{١٧} إلى آخر السورة - وهنّ ثلاث آيات - نزلن في حادثة أحد، بعد مقتل حمزة (عليه السلام).^{١٨}

وفي رواية عن ابن عباس قوله: «وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...» (إلى قوله: بِأَحْسَنِ مَا

١٠ - راجع: تفسير الطبري، ج ١٤، ص ١٦ و ١٨.

١١ - راجع: الإتيقان، ج ١، ص ٣٠.

١٢ - راجع: الميزان، ج ١٢، ص ٢٠٥.

١٣ - جامع البيان، ج ١٤، ص ٤٢.

١٤ - تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٥١ - ٢٥٢، ح ٤٣ و ٤٤.

١٥ - النحل ١٦: ٤١.

١٦ - الإتيقان، ج ١، ص ٤١؛ وفي مجمع البيان، ج ٦، ص ٢٤٧ نسبه إلى الحسن وقتادة.

١٧ - الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٣٥.

١٨ - النحل ١٦: ١٢٦.

كَانُوا يَعْمَلُونَ»^١ نزلتا بالمدينة.^٢

قلت: أمّا الآية رقم ٤١ و ٤٢ فلا دلالة فيها على أن المراد هي الهجرة الثانية إلى المدينة، بل الظاهر منها أنّها: الهجرة الأولى إلى الحبشة، كما روي ذلك عن قتادة أيضاً.^٣ وأمّا القول بنزول ما بعد آية الأربعين إلى آخر السورة بالمدينة فلا مستند له وسياق الآيات أيضاً ينافيه.

وأمّا الآية رقم ٩٥ و ٩٦ فقليل: نزلت بشأن امرئ القيس الكندي، كان قد غصب أرضاً من عبدان الأشرع الحضرموتي. فشكاه إلى النبي ﷺ فأنكر امرؤ القيس، فاستحلفه فاستعظم أن يحلف كاذباً، فنزلت الآية.^٤ وهذه القصة وقعت بالمدينة!

لكن القصة لم تثبت، ولهجة الآية عامّة، وسياقها يشهد بانسجامها الوثيق مع آيات قبلها، تهدف تقريعاً عنيفاً بأولئك المشركين المعاندين. وملاحظة عابرة بالآية تجعلنا نطمئن بأنّها مرتبطة تمام الارتباط مع الآية رقم: ٩١ «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ» تأكيداً منها، وتثبيتاً بموقف المؤمنين آنذاك، فلا يشتروا بما عاهدوا الله عليه ثمناً بخساً؛ عرض هذه الحياة الدنيا، تجاه ما أعدّ لهم من عظيم الأجر والثواب وحسن الخاتمة.^٥

وأمّا آية «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ»^٦ فقد اختلف المفسّرون فيها على ثلاثة أقوال:

الأول: أنّها نزلت يوم أحد، عندما وقف النبي ﷺ على حمزة وقد مُثل به، فما كان أوجع لقلبه الكريم، فقال: أما والله لأمثلنّ بسبعين، أوقال: بثلاثين منهم مكانك! وهكذا لما سمع المسلمون ذلك، قالوا: لئن أمكننا الله منهم لنمثلنّ بالأحياء منهم فضلاً عن الأموات، وقال بعضهم: لنمثلنّ بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب! فنزل جبرائيل بالآية، فكفر النبي ﷺ عن يمينه وأمسك عن الذي أراد!

٢ - مجمع البيان، ج ٦، ص ٣٤٧.

٤ - مجمع البيان، ج ٦، ص ٣٨٤.

٦ - النحل ١٦: ١٢٦.

١ - النحل ١٦: ٩٥ - ٩٦.

٣ - الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١١٨.

٥ - راجع: الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٢٩.

الثاني: أنها نزلت يوم الفتح، فهم المسلمون أن يقعوا في المشركين، ويقتلوهم شرّ قتلة، تشفياً بما كانوا فعلوا بهم يوم أحد: كان قد أصيب من الأنصار يومذاك أربعة وستون. ومن المهاجرين ستة منهم حمزة بن عبدالمطلب، وقد مثل بهم المشركون! فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لربينّ عليهم، فلمّا كان يوم فتح مكة، وأمكن الله المسلمين من المشركين، نزلت الآية للأخذ من حدة المسلمين، وأن لا يتجاوزوا حدود ما أنزل الله! الثالث: أنها عامّة في كلّ ظلم، يحاول المظلوم الانتقام من الظالم، بعد ما يمكنه الله منه.

وهذه الآية جاءت مزيجاً بين الانتقام العادل والصفح الجميل، الأمر الذي يتناسب مع حالة المسلمين يوم كانوا بمكة. ومن ثمّ قالوا: إنها منسوخة بآية القتال. وهي نظيرة قوله تعالى: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» وقوله: «فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ»^١ نزلت أوائل عهد المسلمين بالمدينة. وهذا الرأي الأخير هو الصحيح، نظراً إلى سياق الآية نفسها، ومناسبتها الوثيقة مع آيات قبلها وبعدها:

قال تعالى: «أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...». «وَأِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ...». «وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ»^٢.

وهذه الآية جاءت تصبر النبي ﷺ على أذى المشركين وتسليه عن حزنه عليهم لاحتزاه منهم، وهو دليل على أنّ الآية نزلت يوم كان المشركون صموداً تجاه دعاء النبي ﷺ ومتعرّضين أذاه. وكانت نفوس مؤمنة تأبى تحمّل الضيم، وتحاول الانتقام منهم مهما كلف الأمر.^٣

١ - البقرة ٢: ١٩٠ و ١٩١.

٢ - النحل ١٦: ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧.

٣ - راجع: مجمع البيان، ج ٦، ص ٣٩٣؛ والدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٣٥.

١٠ - سورة الإسراء: مكية

قالوا: فيها سبع عشرة آية نزلن بالمدينة، وهنّ: ٢٦، ٣٢، ٣٣، ٥٧، ٦٠، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٥، ٨٨، ١٠٧.

وهذه مبالغة في القول، لا سند لأكثرها، وإليك بعض التفصيل:

الآية الأولى: قوله تعالى: «وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا»^١. قيل: نزلت بالمدينة بعدما فتح الله خير على رسول الله ﷺ فأعطى فاطمة فدكاً^٢. وأخرج أبو جعفر الطبري عن السدي عن أبي الديلم، قال: قال علي بن الحسين عليه السلام لرجل من أهل الشام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم! قال: أفما قرأت في بني إسرائيل: «وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ»؟ قال: وإنكم للقرابة التي أمر الله جل ثناؤه أن يؤتى حقّه؟ قال عليه السلام: نعم^٣. وأخرج الحافظ الحسكاني حديث نزول الآية بشأن إعطاء رسول الله ﷺ فاطمة عليها السلام فدكاً، بأسانيد وطرق عديدة^٤.

قلت: ولكن ظاهر الآية كونها شريعة عامّة، وظيفة لكلّ مسلم، وجاءت مجملّة بوجوب الإنفاق على ذوي القربى والمساكين، كما هو طابع التشريعات المكية، ثمّ فصلت حدودها بعد الهجرة بالمدينة.

والآية بعمومها شاملة للنبي ﷺ فهو أيضاً مأمور بمواصلة الأرحام والإنفاق عليهم وعلى الفقراء، كأحد المسلمين.

إذن فالآية - لعلّها - نزلت للمرّة الثانية بعد فتح خير، وبعد ما أفاء الله على رسوله والمؤمنين، نزل بها جبرائيل يذكره بها وجوب مواصلة قرباه. فدعى فاطمة عليها السلام وأعطاهها فدكاً، ولادليل على أنّ الآية نزلت - في أوّل نزولها - حينذاك.

أو لعلّ الآية التي نزلت بخير، بشأن مواصلة القربى، كانت غيرها: فقد ورد في

١ - الإسراء ١٧: ٢٦.

٢ - الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٧٧؛ ومجمع البيان، ج ٦، ص ٤١١.

٣ - جامع البيان، ج ١٥، ص ٥٣. ٤ - شواهد التنزيل، ج ١، ص ٣٣٨ - ٣٤١.

حديث «منها» بن عمرو» بالشام - أيضاً - عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في قوله تعالى: «مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ»^١.

وأهل القرى: هم بنو قريظة وبنو النضير. والقرى، هي: فداك وخيبر وعرينة وينبع، أصبحت غنائم في يد المسلمين. وقد نزلت الآية بشأنها حينذاك.^٢

فلو صحَّ أنَّ جبرائيل عليه السلام جاء بالآية الأولى أيضاً، فهو تذكير للنبي صلى الله عليه وآله بحكم سابق، وتأكيده لحكم حاضر. هذا إذا لم يكن الراوي قد اشتبهت عليه إحدى الآيتين بالأخرى!

الآية الثانية: قوله تعالى: «وَلَا تَقْرَبُوا الزُّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا»^٣.

الآية الثالثة: قوله تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ»^٤.

والقائل باستثناء هاتين الآيتين لم يعلل استثناءه بشيء^٥. ولعله نظر إلى ظاهر

تشريع حرمة الزنا وقتل النفس، حيث كان تشريع الأحكام بالمدينة!

لكن فاتته أنَّ تحديدات الحدود وتفاصيل الأحكام جاءت بالمدينة، أمَّا أسس الشريعة وكلّيات الأحكام في صورها الإجمالية فقد جاءت في سور مكّية وبمكة كثيراً. وهاتان الآيتان جاءتا بمكة على نفس النمط.

قال السدّي: آية: «وَلَا تَقْرَبُوا الزُّنَا» نزلت يوم لم تكن حدود. فجاءت بعد ذلك في

سورة النور - وهي مدنيّة -^٦ وقال الضحاك في آية القتل: كان هذا بمكة، والنبي صلى الله عليه وآله بها.

وهو أوّل شيء نزل من القرآن في شأن القتل، كان المشركون يغتالون أصحاب النبي صلى الله عليه وآله

يومذاك، فهم أصحابه صلى الله عليه وآله أن يفعلوا بهم مثل ذلك، فقال جلّ ثناؤه: من قتلكم فلا يحملنكم

عمله على أن تقتلوا أباه أو أخاه أو أحداً من المشركين، كما كانت العادة الجاهليّة جارية

١ - الحشر (المدنيّة) ٥٩: ٧.

٢ - مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٦٠ - ٢٦١؛ وجاء في الدرّ المنثور، ج ٦، ص ١٨٩ إشارة.

٣ - الإسراء ١٧: ٣٢.

٤ - الإسراء ١٧: ٣٢.

٥ - تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني، ص ٢٨.

٦ - الدرّ المنثور، ج ٤، ص ١٧٩.

على قتل الأخ بأخيه أو آخرين من أفراد قبيلته، فلا يقتلن أحدكم إلا القاتل نفسه.^١
 الآية الرابعة: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ».^٢
 والآية، بقرينة الآية قبلها تتناسب مع نزولها بمكة، ولم نعرف وجه هذا الاستثناء
 الذي جاء في المصحف الأميري وغيره!

الخامسة: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ».^٣
 جاء هذا الاستثناء في كلام جلال الدين، نظراً لأن الآية نزلت في رؤيا رسول الله ﷺ
 أهمته، رأى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك، ولم ير ضاحكاً حتى
 مات ﷺ.^٤

هذا... والنبي ﷺ لم يكن له منبر بمكة!
 وقد تقدم كلامنا في ذلك، وأنه ﷺ أرى اعتلاء دعوته المباركة، وأرى أيضاً تطاول
 أيدي الغاصبين لمنصبه الإلهي فساءه ذلك.^٥

السادسة والسابعة والثامنة: قوله تعالى: «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
 لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً. وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً. إِذَا
 لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً».^٦

لا شك أن الآيات مكيات، نزلن بشأن مشركي قريش عرضوا على النبي ﷺ
 مسالمة مع آلهم، فنهروهم نهراً، ونزلت الآيات تثبيتاً بموقف النبي ﷺ ذاك المشرف،
 وتأييماً للمشركين نهائياً، لئلا يطمعوا في رسول الله، وهو داعية إلى التوحيد الخالص ونبذ
 الإشراك كلياً، أن يجامل فيما يناقض دعوته إلى الله وحده لا شريك له!^٧

ولم نعرف وجهاً صحيحاً لاستثناء هذه الآيات الثلاث، كما جاء في كلام

٢ - الإسراء ١٧: ٥٧.

١ - المصدر، ص ١٨١.

٤ - الدر المنثور، ج ٤، ص ١٩١.

٣ - الإسراء ١٧: ٦٠.

٥ - تقدم ذلك في «سورة القدر» من «سور مختلف فيها». ٦ - الإسراء ١٧: ٧٣ - ٧٥.

٧ - راجع: مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٣١؛ والدر المنثور، ج ٤، ص ١٩٤.

جلال الدين^١ وفي المصحف الأميري وغيرهما!

التاسعة والعاشر: قوله تعالى: «وإن كادوا ليُستَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا. سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا»^٢.

وجه الاستثناء: ما قيل في سبب نزولهما: أن اليهود أتوا النبي ﷺ وقالوا له: إن كنت نبياً فأت الشام أرض الأنبياء، فصدّقهم على ذلك. وغزا غزوة تبوك، لا يريد إلا اللحاق بالشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه هاتين الآيتين، فأمره بالرجوع إلى المدينة، ففيها محياه ومماته ومبعثه يوم القيامة.^٣

لكنه معارض بما ورد: أنهما نزلتا بشأن مشركي مكة، همّوا بإخراج الرسول من مكة بنفس الأسلوب، قالوا له ﷺ: كانت الأنبياء ﷺ يسكنون الشام فما لك وسكنى هذه البلدة! أو همّوا بإخراجه عنفاً، لأن الاستفزاز هو الإزعاج بعنف، وظاهر الآية يرجح المعنى الثاني، كما أن المشركين لما فعلوا ذلك بعدئذ طبقت عليهم سنة الله في الخلق، بدأت بقتلى بدر، وانتهت بفتح مكة وإخراج المشركين منها نهائياً.^٤

الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة: قوله تعالى: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً. وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً. وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً. وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً»^٥.

زعم المستثني: أنها من تتمّة الآيتين السابقتين نزولاً بالمدينة.^٦ وهو زعم باطل، بعد أن لم يثبت الأصل فكيف بالفرع!

وقد أخرج أبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس أن قوله: «وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ...»

٢ - الإسراء ١٧: ٧٦ - ٧٧.

١ - الإتيان، ج ١، ص ٤١.

٣ - مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٣٢؛ والدر المنثور، ج ٤، ص ١٩٥.

٥ - الإسراء ١٧: ٧٨ - ٨١.

٤ - راجع: نفس المصادر.

٦ - الإتيان، ج ١، ص ٤١.

نزل بمكة قبيل هجرته ﷺ.^١

على أن الآيات في سياقها المتصل، سبقاً ولحقاً، بنفسها تشهد بنزولها بمكة، ولا تنسجم مع القول بنزولها في المدينة بشيء.

الخامسة عشرة: قوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا».^٢

أخرج جماعة من أهل الحديث: أن هذا السؤال كان من يهود المدينة، بعد الهجرة.^٣ لكنه معارض بما ورد أن هذا السؤال وقع من مشركي قريش، سألوه عن الروح الذي جاء ذكره في القرآن^٤ أو أن اليهود أوعزوا إلى المشركين توجيه هكذا سؤال إلى محمد ﷺ. قالوا: فإن أجابكم فليس بنبي وإن لم يجيبكم فهو نبي.^٥

هذا مضافاً إلى أن ذيل الآية تشهد بأنها خطاب مع المشركين، وعن عطاء بن يسار: أن قوله تعالى: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» نزلت بمكة.^٦

السادسة عشرة: قوله تعالى: «قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا».^٧

أخرج الطبري: أن الآية نزلت على رسول الله ﷺ بالمدينة، بسبب قوم من اليهود جادلوه في تناسق القرآن، فأنكروا تناسقه وزعموا أن التوراة أنسق منه.^٨

لكن رنة الآية الأخاذة تشي بنزولها بشأن مشركي قريش تحدياً معهم حينما سألوه مخاريق غريبة إلى جنب مطالب تافهة، تجاه نزول القرآن.

وهذه الآية نزلت تمهيداً للتشنيع المتجه إليهم في آيات بعدها: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ

١ - الدر المنثور، ج ٤، ص ١٩٨؛ وجامع البيان، ج ١٥، ص ١٠٠.

٢ - الإسراء ١٧: ٨٥.

٣ - الدر المنثور، ج ٤، ص ١٩٩؛ وجامع البيان، ج ١٥، ص ١٠٥.

٤ - راجع: مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٣٧؛ والدر المنثور، ج ٤، ص ١٩٩.

٥ - راجع: نفس المصادر.

٦ - جامع البيان، ج ١٥، ص ١٠٥-١٠٦.

٧ - جامع البيان، ج ١٥، ص ١٠٦.

٨ - الإسراء ١٧: ٨٨.

حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً»^١ إلى تمام الأربع آيات، والتي تستتبعها إلى الآية السابعة والتسعين. فراجع نفس الآيات.

الآية الأخيرة وهي السابعة عشرة: قوله تعالى: «قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا»^٢.

قال جلال الدين: نزلت بالمدينة، لما أخرجناه في أسباب النزول.^٣

لكنه لم يخرج شيئاً بهذا الشأن، لا في لباب النقول ولا في الدر المنثور!!

والآية بسياقها تشهد بأنها مكّية، نزلت توبيخاً لصمود المشركين تجاه نزول القرآن وإيائهم عن الإيمان به، وتلميحاً بأنّ هذا العناد هو أثر الجهل الأعمى والتوحّش الفادح الذي تمكّن من نفوسهم القاسية، أمّا أهل المدينة والثقافة فإنهم إذا لمسوا من حقيقة القرآن الواضحة يؤمنون به فوراً بلا ارتياب، كناية بأنّ هؤلاء المشركين بعيدون عن الحضارة والعلم، ومن ثمّ هذا التأنّف والشموخ الجاهل!

١١ - سورة الكهف: مكّية

استثنى بعضهم منها اثنتين وثلاثين آية، زعمها نزلت بالمدينة. وهذا إسراف في القول، لأنّ هذا يعني: أنّ ثلث السورة، ولا سيّما ثماني آيات من أولها مدنيّة، فكان جديراً ثبتها في المدنيّات!

قال جلال الدين: استثنى من أولها إلى قوله: «جُرُزاً» الآيات رقم ١ - ٨ نزلت بالمدينة.^٤

ولادليل لهذا الاستثناء إطلاقاً، مضافاً إلى استلزامه أن تكون السورة مدنيّة لامكّية! لأنّ الاعتبار في المكّية والمدنيّة إنّما هو بمفتاح السورة وشيء من آيات من أولها. هذا والإجماع منعقد على أنّ سورة الكهف مكّية لا اختلاف فيها.^٥

٢ - الإسراء ١٧: ١٠٧.

١ - الإسراء ١٧: ٩٠.

٣ - الإتيقان، ج ١، ص ٤١؛ وفي الدر المنثور، ج ٤، ص ٢٠٥: أخرج ابن جرير عن مجاهد: أنّ الذين أوتوا العلم من قبله هم ناس من أهل الكتاب حين سمعوا ما أنزل الله على محمد.. لكنّ ذلك لا يستدعي نزول الآية بالمدينة، كما لا يخفى.

٥ - راجع: الدر المنثور، ج ٤، ص ٢٠٨.

٤ - الإتيقان، ج ١، ص ٤١.

ولعلّ المستثني نظر إلى قوله تعالى: «وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا»^١. ولكن ذلك لا يستدعي نزولها بالمدينة لمناسبة وجود اليهود فيها، بل هي عامة تشمل النصارى والمشرّكين أيضاً، على أنّ نزول آية بشأن قصّة يهودية لا تستوجب مقارنة نزولها يوم كانوا ينابدون الإسلام، والآيات بهذا النمط كثيرة في سور مكية، وذلك لوجود الصلة القريبة بين اليهود والمشرّكين قبل مهاجرة النبي ﷺ إلى المدينة، كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك.

وقال أيضاً باستثناء قوله تعالى: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ... (إلى قوله: «فُرْطًا»^٢.

زعموها نزلت في عيينة بن حصن، عرض على رسول الله ﷺ وهو آنذاك بالمدينة، أن يتباعد مجلس فقراء المؤمنين، إن كان يريد إسلام عظماء البلد.^٣ لكن الصحيح أنّها نزلت في أميّة بن خلف، عرض عليه ﷺ ذلك وهو بمكة فدعى النبي ﷺ إلى طرد الفقراء وتقريب صناديد قريش.^٤ ولهجة الآية وسياقها أيضاً تشي بذلك.

وفي المصحف الأميري وتاريخ القرآن للزنجاني استثناء قوله تعالى: «وَسَأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ (إلى قوله: «لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا»^٥ تسع عشرة آية.

زعموا أنّ الذين وجّهوا هذا السؤال إلى النبي ﷺ كانوا هم اليهود أنفسهم، ومن ثمّ كان نزول الآيات - بصدد الإجابة - في المدينة.^٦

والصحيح أنّ المشرّكين هم الذين سألوا هذا السؤال، لكن بتعليم من اليهود، كان المشرّكون بعثوا من يسأل اليهود عن أوصاف رسول الله، فأجابوهم بأسئلة يوجّهونها إلى رسول الله ﷺ فإنّ أجاب فهو نبيّ حقاً.

١ - الكهف ١٨: ٤.

٢ - الكهف ١٨: ٢٨. راجع: 'الإتقان، ج ١، ص ٤١؛ وتاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني، ص ٢٩.

٣ - الدر المنثور، ج ٤، ص ٢٢٠.

٤ - لباب القول، ج ١، ص ٢٣٠؛ والدر المنثور، ج ٤، ص ٢٢٠.

٥ - الكهف ١٨: ٨٣ - ١٠١. ٦ - الدر المنثور، ج ٤، ص ٢٤٠.

روى أبو جعفر الطبري: أن قريشاً بعثت النضر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول - التوراة - وعندهم علم ما ليس عندنا، من علم الأنبياء. فخرجوا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالوا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فإنه نبي فاتبعوه... الخ. والحديث طويل وفي نفس الوقت طريف.^١

وفي الإتيان جاء استثناء قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا» إلى آخر السورة^٢ أربع آيات.^٣

هذا... ولم يبين سند هذا الاستثناء الغريب! ولعله سهو أو جزاف من الكلام، إذ لا شيء في الآيات يصلح دليلاً على مدنيته، ولا ورد في تفسيرها ما يتناسب ونزولها بالمدينة!!

نعم روي في الدر المنثور عن مجاهد قال: كان من المسلمين من يقاتل وهو يحب أن يرى مكانه، فأنزل الله «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ...»^٤ لكن لحن الآية وفحواها لا تلتم ذلك.. وروى الطبرسي عن ابن عباس: لما نزل قوله: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا»^٥ قالت اليهود: أوتينا التوراة وفيها علم كثير. فأنزل الله «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ...» ولذلك قال الحسن: أراد بالكلمات العلم^٦ لكن هذا لا يدل على كونها نزلت بالمدينة كما مرّ غير مرّة!

١ - جامع البيان، ج ١٥، ص ١٢٧ و ج ١٦، ص ٧؛ والدر المنثور، ج ٤، ص ٢١٠؛ ولباب القول، ج ١، ص ٢٢٨.

٢ - الكهف ١٨: ١٠٧ - ١١٠.

٣ - الإتيان، ج ١، ص ٤٢.

٤ - الكهف ١٨: ١١٠. راجع: الدر المنثور، ج ٤، ص ٢٥٥. ٥ - الإسراء ١٧: ٨٥.

٦ - مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٩٩.

١٢ - سورة مريم: مكية

قال جلال الدين: استثني منها آيتان.^١

١ - آية السجدة: «أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ (إلى قوله):

خَرُّوا سُجَّدًا وَكُتَيًّا».^٢

ويكذبه: أن هذه الآية نزلت تعقيباً على الآيات التي سبقتها من أول السورة إلى هنا، ذكرت أحوال الأنبياء وأمم سالفة بتفصيل، ثم جاء مدحهم جميعاً بصورة إجمالية في هذه الآية، كأنها تلخيص لتلك السمات والأوصاف، وكانت نتيجة عليها، فإما أن نقول بأن جميعها من أول السورة إلى هذه الآية مدنيّة أو كلّها مكية، ولا موقع لهذا الاستثناء الغريب، والذي لم يبيّن المستثني سنده في ذلك؟!

٢ - قوله تعالى: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا».^٣

وهذه كسابقتها مرتبطة تمام الارتباط بآيات اكتنفتها سبقاً ولحقاً، بما لا يدع مجالاً لاستثنائها وحدها.

١٣ - سورة طه: مكية

استثني منها آيتان: الأولى قوله تعالى: «فَاضْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ

طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا».^٤

لكن الآية تفريع على آيات سبقتها، مضافاً إلى لهجتها الخاصة بآيات مكية. وورد

في تفسيرها ما يؤكد نزولها بمكة.^٥

الثانية قوله تعالى: «وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ...».^٦

قال جلال الدين: لما أخرجه البزار عن أبي رافع، كان بعثه النبي ﷺ ليستسلف من

يهودي طعاماً، فأبى إلا برهن، فحزن رسول الله ﷺ على ذلك، فنزلت الآية.^٧

٢ - مريم ١٩: ٥٨.

١ - الإتيان، ج ١، ص ٤٢.

٤ - طه ٢٠: ١٣٠.

٣ - مريم ١٩: ٧١.

٦ - طه ٢٠: ١٣١.

٥ - جامع البيان، ج ١٦، ص ١٦٨.

٧ - الإتيان، ج ١، ص ٤٢؛ وراجع: جامع البيان، ج ١٦، ص ١٦٩.

لكن القصة - على فرض صحتها - لاتصلح داعية لنزول هذه الآية بشأنها ولا مناسبة بينها وبين فحوى الآية رأساً.

١٤ - سورة الأنبياء: مكية

استثني منها قوله تعالى: «أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا»^١ ولم يذكروا سند الاستثناء.

لكن السياق مكِّي بلا كلام. وجاءت نظيرتها في سورة الرعد، الآية رقم ٤١ أيضاً، ولهجتها مكّية، لولا اتفاق روايات الترتيب على مدنيّتها على ما سبق.

١٥ - سورة المؤمنون: مكية

استثني منها قوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمُ (إِلَىٰ قَوْلِهِ: «مُبْلِسُونَ» ثلاث عشرة آية.^٢

ولا شاهد لهذا الاستثناء بتاتا. ولعلّ المستثني نظر إلى روايات فسّرت العذاب بما أصيب المشركون يوم بدر أو يوم الفتح. لكنّه غفل عن أنّها تفسير لوعده سابق، لاحكاية عن أمر كان. راجع أبا جعفر الطبري وغيره.^٣

١٦ - سورة الفرقان: مكية

استثني منها ثلاث آيات: ٦٨ و ٦٩ و ٧٠.

لكن الآيات منسجمة مع قريناتها سبقاً ولحوقاً تمام الانسجام، بما يستحيل استثناءها لوحدها. وفي تفسير الطبري وغيره ما يؤكّد نزولها بمكة فراجع.^٤

١٧ - سورة الشعراء: مكية

استثني منها خمس آيات:

١ - قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ»^٥.

١ - الأنبياء ٢١: ٤٤. راجع: الإتيان، ج ١، ص ٤٢. ٢ - المؤمنون ٢٣: ٦٤ - ٧٧. راجع: الإتيان، ج ١، ص ٤٢.

٣ - جامع البيان، ج ١٨، ص ٢٨. ٤ - المصدر، ج ١٩، ص ٢٦.

٥ - الشعراء ٢٦: ١٩٧.

حكى ابن غرس: أنها مدنيّة^١ ولعلّه لما ورد في تفسيرها من أنّ المراد من علماء بني إسرائيل - هنا - هم: أسد وأسيد وابن يامين وثعلبة وعبدالله بن سلام.^٢

لكن وجه الآية بلاشكّ مع مشركي قريش، وتوبيخ لاذع بهم. أمّا التفسير الوارد فلا يعني نزول الآية بعد إيمان هؤلاء اليهود، وإنّما هو بيان مصداق من مصاديق الآية تحقّقت فيما بعد.

وقد تقدّم^٣ مراجعة المشركين إلى اليهود فيما يخصّ معرفة رسول الله ﷺ فكانوا يعرفونهم خصائص وسمات كانت موجودة فيه ﷺ والآية إنّما تعني ذلك، وإنّ هذا شيء كان يعرفه أهل الكتاب. كما اعترفوا هم قبل هجرته ﷺ وإنّما نكروه بعد ذلك طمعاً في حطام الدنيا ولم تعن الآية إيمانهم وإنّما عنت معرفتهم. وبذلك لا يصلح التفسير الوارد لتعيين نزول الآية بالمدينة.

٢ - قوله تعالى: «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ»^٤ إلى آخر السورة أربع آيات.

حكى استثناء ذلك عن ابن عباس^٥ وسند الاستثناء ماروي أنّها نزلت في رجلين تهاجيا على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من المهاجرين.^٦

لكنّه معارض بما هو أقوى سنداً وأكثر عدداً: أنّها نزلت في مشركي قريش، كان شعراؤهم يهجون رسول الله ﷺ ويقراها سفلتهم على ملأ من الناس امتهاناً بموقف رسول الله ﷺ فنزلت الآية تقرّياً بشأنهم وتنديداً بسلوكهم الشنيء. وقد جاء الطبرسي بأسماء هؤلاء المشركين في تفصيل عريض.^٧ وهكذا رجّحه أبو جعفر الطبري.^٨

١٨ - سورة القصص: مكية

استثني منها قوله تعالى: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (إلى قوله:) سَلَامٌ

١ - الإتيان، ج ١، ص ٤٢.

٢ - جامع البيان، ج ١٩، ص ٦٩؛ والدر المنثور، ج ٥، ص ٩٥.

٣ - تقدم ذلك في «سورة الكهف» من «آيات مستثنيات».

٤ - الشعراء ٢٦: ٢٢٤.

٥ - الإتيان، ج ١، ص ٢٤ و ٤٢.

٦ - الدر المنثور، ج ٥، ص ٩٩؛ وجامع البيان، ج ١٩، ص ٧٨.

٧ - مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٠٨.

٨ - جامع البيان، ج ١٩، ص ٧٨.

عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ^١ أربع آيات.

قيل: نزلت في جماعة من أهل الكتاب كانوا قد أسلموا، منهم: عبدالله بن سلام وتميم الداري والجارود العبدي وسلمان الفارسي^٢.

وقيل: نزلت في أصحاب النجاشي قدموا المدينة وشهدوا وقعة أحد^٣.

لكن لو صحّ تفسير الآية بالمذكورين فإنما عنت الأخبار عمّا سيكون لاعمّا كان! فضلا عن معارضة هذا التفسير بتفسيرها بجماعة من أهل الكتاب كانوا مسلمين بالنبي ﷺ قبل مبعثه، وهم أربعون رجلاً على ما جاء في تفسير الطبرسي وتفسير الطبري وغيرهما فراجع^٤.

ويؤكد ما ذكرنا قوله تعالى: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ...»^٥ هذه الآية مكّية وردت بشأن مجادلة أهل الكتاب.

وقوله تعالى: - أيضاً - : «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ...»^٦ وهي مكّية أيضاً بالاتفاق.

وهذه نظيرة الآية المبحوث عنها تماماً، إخبار عمّا سيكون.

واستثني منها - أيضاً - قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ...»^٧.

قيل: نزلت على رسول الله ﷺ وهو مهاجر إلى المدينة، عند وصوله إلى الجحفة^٨.

فالآية على الاصطلاح الثاني^٩ لامكّية ولامدنيّة.

لكن الاختيار المشهور هو المصطلح الأوّل. وعليه فالآية مكّية. وقد سبق ذلك.

٢ - مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٥٨.

١ - القصص ٢٨: ٥٢ - ٥٥.

٣ - الإتقان، ج ١، ص ٤٢.

٤ - مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٥٨؛ وجامع البيان، ج ٢٠، ص ٥٧؛ والدر المنثور، ج ٥، ص ١٣٣.

٦ - العنكبوت ٢٩: ٤٧.

٥ - العنكبوت ٢٩: ٤٦.

٨ - مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٦٨.

٧ - القصص ٢٨: ٨٥.

٩ - تقدم ذلك في «اتجاهات في تعيين المكّي والمدني».

١٩ - سورة العنكبوت: مكية

استثني من أولها إلى الآية الحادية عشرة، قالوا: نزلن بالمدينة.^١ قالوا: نزلت الآيات في أناس من المسلمين تخلّفوا عن الهجرة، ثم كتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ في ذلك، فعمدوا إلى المهاجرة فردّتهم قريش ووقع بينهم قتال وعنف.^٢

لكن الآية عامّة، نزلت في مؤمني مكة وقعوا تحت شدّة، وكانت ابتلاء لهم ليعلم الصادق من الكاذب. وهكذا فسّرها أبو جعفر الطبري^٣ وجاءت به الرواية عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام.^٤

هذا فضلا عن أنّ مفتح السورة لو صحّ نزولها بالمدينة لأصبحت السورة مدنيّة، وفق المصطلح المتقدّم^٥ هذا ولم يخالف أحد في مكيتها.

واستثني منها - أيضاً - قوله تعالى: «وَكَايُنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».^٦

استثناها جلال الدين، لما رواه ابن أبي حاتم - بسند ضعيف - عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، ثمّ قال ﷺ هذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ولم أجده... قال ابن عمر: فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت: «وَكَايُنْ مِنْ دَابَّةٍ...».^٧

والرواية مطعون في سندها، فضلا عن اضطراب متنها وعدم معقولية فحواها! هذا... وقد روي عن مقاتل والكلبي: أنّها نزلت في جماعة من المؤمنين المستضعفين، ضاق بهم المقام بمكة قبل هجرة الرسول ﷺ ووقعوا في عسر وشدّة، فأمرُوا بالهجرة إلى المدينة، قالوا: كيف نخرج إلى بلد ليس لنا به دار ولا عقار ولا معيشة! فنزلت الآية: «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (إلى قوله): وَكَايُنْ مِنْ

٢ - لباب النقول، ج ٢، ص ٣٢.

١ - الإتيان، ج ١، ص ٤٣.

٤ - مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٧٢.

٣ - جامع البيان، ج ٢٠، ص ٨٣.

٦ - العنكبوت ٢٩: ٦٠.

٥ - تقدم ذلك في «ترتيب النزول».

٧ - الإتيان، ج ١، ص ٤٣؛ والدرّ المثور، ج ٥، ص ١٤٩.

دأية...» الخ.^١

والرواية الثانية أوفق بنص الكتاب وأولى بالاعتبار، ومن ثمّ فهي الصحيحة المقبولة!
٢٠ - سورة الروم: مكية

جاء في المصحف الأميري وتاريخ القرآن لأبي عبدالله الزنجاني والمجمع: استثناء
قوله تعالى: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ».^٢

ولاسند لهذا الاستثناء، فضلاً عن ارتباطها الوثيق مع آيات سبقتها وآيات لحقتها
٢١ - سورة لقمان: مكية

روي عن ابن عباس: استثناء قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ
يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ (إلى قوله:) مَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ»^٣ ثلاث آيات.

وذلك لأنه ﷺ روى في سبب نزولها: أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة: إنا
قد أوتينا التوراة وفيها علم كثير، فقال ﷺ: إنها في جنب علم الله قليل، فنزلت الآيات.^٤
ولكن التعليل إن كان يتناسب مع الآية رقم ٢٧ فرضاً، فإنه لا يتناسب مع الآيتين
بعدها، ولا يصلح داعية لنزولهما ألبتة.

والصحيح أن الآيات الثلاث، هي كسوابقها ولواحقها منسجمة بعضها مع بعض وهي
جميعاً عرض لعظمة رب العالمين، لا يدانيه أحد، ولا يماثله شيء!... فلا سبب يفصلها عن
قريناتها، ومن ثم لا وجه لاستثنائها أصلاً.

ولو صحّت الرواية المذكورة عن ابن عباس، فلا بدّ أنه ﷺ قرأها عليهم حينما
عرضوا عليه ذلك التحديّ الغريب! لا أنها نزلت حينذاك.

٢٢ - سورة السجدة: مكية

استثني منها قوله تعالى: «تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا

١ - العنكبوت ٢٩: ٥٦ - ٦٠. راجع: مجمع البيان، ج ٨، ص ٢٩٠.

٢ - الروم ٣٠: ١٧. راجع: تاريخ القرآن لأبي عبدالله الزنجاني، ص ٣٠؛ ومجمع البيان، ج ٨، ص ٢٩٣.

٣ - لقمان ٣١: ٢٧ - ٢٩. ٤ - الدر المنثور، ج ٥، ص ١٦٧؛ والإتقان، ج ١، ص ٤٣.

رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ».^١

قال جلال الدين: لما أخرج به البزار وابن مردويه عن بلال، قال: كنا جلوساً وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلّون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت.^٢

قلت: الآية عامّة. وانسجامها مع قريناتها من آيات بادية الوضوح. فضلاً عن عدم التثامها مع فحوى الرواية في شيء.

وفي المصحف الأميري وتاريخ الزنجاني: استثناء قوله تعالى: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخِيَرَ لَهم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ».^٣

ولعل ذلك نظراً لأنها تتميم للآية السابقة. والأصح أنها كسابقتهما عامّة.

وروي عن ابن عباس: استثناء قوله تعالى: «أَفَنُكِّنْكَ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنَّ كَانَ فَاسِقًا» (إلى قوله): نَزَلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».^٤

وذلك لما روي بطرق وأسانيد كثيرة ومعتبرة: أنها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام والوليد بن عقبة بن أبي معيط، في مشاجرة جرت بينهما يوم بدر، قال له الوليد: اسكت فإنك صبي وأنا أبسط منك لساناً وأحدّ منك سناناً وأردّ منك للكتيبة! فقال له علي عليه السلام: على رسلك فإنك فاسق، وليس كما تقول.

أخرجها أبو الفرج الإصبهاني في كتاب الأغاني، والواحدي في أسباب النزول وابن مردويه والخطيب البغدادي وابن عساكر من طرق عن ابن عباس. وأخرجها ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار. وأخرجها ابن أبي حاتم عن السدي وعبد الرحمن بن أبي ليلى. فالؤمن الذي عنته الآية الكريمة هو علي بن أبي طالب والفاسق هو الوليد.^٥

وأخرجها الحافظ الحسكاني باثني عشر طريقاً، ربّما بلغت بذلك حدّ التواتر.^٦

١- السجدة ٢٢: ١٦. ٢- الإتقان، ج ١، ص ٤٣؛ والدر المنثور، ج ٥، ص ١٧٥.

٣- السجدة ٢٢: ١٨ - ١٩.

٤- راجع: الدر المنثور، ج ٥، ص ١٧٨؛ وجامع البيان، ج ٢١، ص ٦٨؛ وتفسير النيسابوري، ج ٢١، ص ٧٢؛ ومجمع البيان، ج ٨، ص ٣٣٢.

٥- شواهد التنزيل، ج ١، ص ٤٤٥ - ٤٥٣.

قلت: سياق الآية عام، وهي مرتبطة مع بقية الآيات، سابقة ولاحقة. يبدو ذلك لأدنى مراجعة إلى السورة.

نعم يجوز نزول آية مرة ثانية لمناسبة تستدعي ذلك، الأمر الذي حدث في كثير من آيات سوف ننبه عليها. ويحتمل أن المحاورة المذكورة بلغت النبي ﷺ فقرأ الآية الكريمة، تطبيقاً مع المورد، فقد فسق الوليد هذا في آيات أخرى، ونزلت: «إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا»^١ بشأنه الخاص، أخرجه جلال الدين بأسانيد رجالها ثقات.^٢

٢٣ - سورة سبأ: مكية

استثني منها قوله تعالى: «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ».^٣

هذه الآية إشارة إلى أن أهل العلم الواقعيين يؤمنون بهذا الكتاب إيماناً صادقاً عن علم و يقين، ولا شك أن الأمر كذلك، فالنابهون العقلاء وأرباب الفضيلة والكمال، لا يترددون في الإيمان بهذا الكتاب العزيز الذي لا ريب فيه، فور معرفتهم به. وهذا شأن كل حق صريح. وهكذا رجح هذا المعنى العلامة الطبرسي، قال: وهذا أولى، لعمومه... قال: لأنهم يتدبرونه و يتفكرون فيه، فيعلمون بالنظر والاستدلال أنه ليس من قبل البشر.^٤

لكن أبا جعفر الطبري فسر الآية - ابتداءً - بمسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ونظرائه.^٥ ومن ثم زعم بعضهم أن الآية مدنية نزلت بعد إسلام هؤلاء.^٦

هذا... وأبو جعفر لم يستند في تفسيره ذلك إلى نقل مأثور^٧ وإنما نقل عن قتادة: أنهم أصحاب محمد ﷺ السابقين الأولين ممن وجدوا الإسلام حقيقة ناصعة فاحتضنوها عن معرفة و يقين. فنقله يختلف عن رأيه هو!

١ - الحجرات ٤٩: ٦.

٢ - لباب القول، ج ٢، ص ٨٠ - ٨٢، وأخرجه أيضاً أصحاب مجاميع معتبرة فراجع.

٣ - سبأ ٣٤: ٦. ٤ - مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٧٨ - ٣٧٩.

٥ - جامع البيان، ج ٢٢، ص ٤٤. ٦ - الإتيان: ج ١، ص ١٦.

٧ - وفي مجمع البيان: ج ٨، ص ٣٧٨: أنه قول الضحّاك.

واستثني منها - أيضاً - قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ (إلى قوله: وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ)»^١ سبع آيات.

يروى عن فروة بن مسيك: أنه سأل رسول الله ﷺ أو سمع رجلاً يسأله ﷺ عن سبأ: جبل أم أرض، رجل أم امرأة؟ فنزلت الآيات، وكان هذا السؤال بعد مرجعه من غزو قبائل سبأ، أرجعه رسول الله ﷺ لأنه لم يؤمر بذلك.^٢

قال ابن الحصار: وهذا يدل على أن نزول الآيات كان بالمدينة، لأن مهاجرة فروة كانت بعد إسلام ثقيف سنة تسع من الهجرة.^٣

لكنه قال بعد ذلك: ويحتمل أن يكون قوله: «وأنزل في سبأ ما أنزل» حكاية عما تقدم نزوله قبل الهجرة بمكة، لانزوله حينذاك.

قلت: لو صدقت القصة لابد من حمل قوله في ذلك على الحكاية، اذ يبعد جداً نزول آية أو آيات لمجرد سؤال رجل كان جوابه ﷺ كافياً لإرضاء حس استطلاعهم - كما جاء في الرواية - ولم يستدع تفصيلاً تعرضت له الآيات.

على أن ملاحظة عبري بشأن قصة سبأ كما وردت في القرآن تكفي للدلالة على أن الهدف منها عام كسائر القصص الواردة في القرآن تروم توجيه البشرية إلى معالم السير الصحيح، تنبيهها لها على مواضع الخطأ في حياتها الغابرة لتأخذ منها درساً تسير عليه في حياتها الحاضرة.

والصحيح في قصة فروة بن مسيك: أنه سأل النبي ﷺ عن قصة سبأ بعد أن قرأها في القرآن، فسأله ﷺ عن سبأ أرجل هو أم امرأة، أم هو اسم أرض أم جبل؟ فشرح له النبي ﷺ أنه رجل من العرب كان له من الأولاد كذا وكذا.^٤ وهذا يدل على تأخر السؤال عن نزول الآيات.

١ - سبأ ٢٤: ١٥ - ٢١.

٢ - مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٨٦؛ وجامع البيان، ج ٢٢، ص ٥٣؛ والدر المنثور، ج ٥، ص ٢٣١.

٣ - الإتيان، ج ١، ص ٤٣. ٤ - مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٨٦.

وأخيراً فإن الرواية بهذا الشأن عن فروة مضطربة ومتناقضة بعضها مع بعض، بما يجعل الاستناد إليها في الحكم بنزول الآيات بشأنها مستحيلاً.

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن رباح قال: حدثني فلان -؟- أن فروة بن مسيك الغطفاني -؟- قدم على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله إن سبأ قوم كان لهم في الجاهلية غزو. وإنني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام، أفأقاتلهم؟ فقال: ما أمرت فيهم بشيء بعد، فأنزلت هذه الآية: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ...»^١

انظر إلى هذه الرواية المتفككة سنداً وامتناً وأسلوباً، وعدم أي مناسبة بين مضمونها ونزول هكذا آيات!! الأمر الذي يجعلنا نطمئن بأنها لم تكن من حياكة إنسان نابه يلتفت إلى ما يقوله من كلام!

وهكذا سائر الروايات الواردة بهذا الشأن، فراجع.^٢

فإن كانت هكذا مناسبات تستدعي نزول قرآن، فأجدر بنا أن نقول: إنه كان ينزل بلا مناسبة!!

٢٤- سورة فاطر (الملائكة): مكية

قال الحسن: إلا آيتين:

الأولى: قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ...»^٣

الثانية قوله: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...»^٤

ولعل الأولى لذكر الصلاة فيها...

والثانية من أجل تعقيبها بقوله: «فَنِهِمُ الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُ بِالْخَيْرَاتِ».

فقد روى عكرمة عن ابن عباس: أن الظالم هو المنافق...^٥

غير أن الصلاة فرضت بمكة... وكان تطبيق الظالم على المنافق لا يستدعي نزول

٢- جامع البيان والدرر المثور، وغيرهما.

٤- فاطر ٣٥: ٣٢.

١- ثباب النقول، ج ٢، ص ٥٥.

٣- فاطر ٣٥: ٢٩.

٥- مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٩٩ و ٤٠٩.

الآية بالمدينة حيث وفور المنافقين، لأنه تطبيق وبيان مصداق من ابن عباس، إن صحّ الحديث. واللفظ عام لا يتقيّد بموارد تطبيقه.

٢٥ - سورة يس: مكية

استثنت منها آيتان:

الأولى: قوله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ»^١.

أخرج الحاكم والترمذي عن أبي سعيد الخدري، قال: كانت بنو سلمة في ناحية من المدينة، فشكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد والصلاة معه، فنزلت الآية. فقال لهم رسول الله ﷺ: إن آثاركم تكتب، فلم ينتقلوا.^٢

لكن القصة لاتصلح سبباً لنزول جميع فقرات الآية، لعدم المناسبة! ولعلّ رسول الله ﷺ استشهد بفقرة منها بعد ما شكوا إليه بعد منازلهم، حيث أفضل الأعمال أحمرها.

الثانية: قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أطعمه إن أنتم إلا في ضلالٍ مبين»^٣ قال ابن عباس: نزلت بالمدينة بشأن المنافقين.^٤

نكّنها صريحة في خطابها مع الذين كفروا، وقد نصّ أبو جعفر نزولها بشأن المشركين^٥ وهكذا يشهد بذلك سياق الآية ذاتها.

وفي المصحف الأميري وتاريخ الزنجاني: استثناء الآية رقم ٤٥.

ولعله سهو جاء في اشتباه الرقم. وعلى القرض فسياقها نفس سياق الآية رقم ٤٧ والكلام فيها هو الكلام في تلك.

١ - يس: ٣٦: ١٢.

٢ - مجمع البيان، ج ٨، ص ٤١٨؛ والإتقان، ج ١، ص ٤٣؛ وجامع البيان، ج ٢٢، ص ١٠٠.

٣ - يس: ٣٦: ٤٧. ٤ - الإتقان، ج ١، ص ٤٤؛ ومجمع البيان، ج ٨، ص ٤١٢.

٥ - جامع البيان، ج ٢٢، ص ٩.

٢٦ - سورة الزمر: مكية

استثني منها قوله تعالى: «قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ»^١.

نقل السخاوي في «جمال القراء» عن بعضهم: أنها نزلت بالمدينة.^٢

لكن الآية بنفسها تشي بأنها مكية، نزلت تحرّض المؤمنين المستضعفين على المهاجرة. وهكذا روي عن ابن عباس.^٣

واستثني - أيضاً - قوله تعالى: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ...»^٤.

حكى ابن الجزري عن بعضهم - أيضاً - أنها نزلت بالمدينة.^٥

لكن لهجة الآية الرنّانة الأخاذة بمجامع القلوب، بذاتها شاهدة على أنها مكية، كما أن السياق أيضاً يشهد بذلك، ولا وجه لهذا الاستثناء بتاتاً.

وهكذا استثني منها قوله تعالى: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ (إِلَى قَوْلِهِ: وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)»^٦ ثلاث آيات.

قليل: نزلن في وحشي قاتل حمزة! روي ذلك عن ابن عباس بسند ضعيف.^٧

نعم أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس، قال: أنزلت هذه الآية في مشركي أهل مكة^٨ وهكذا فسرها أبو جعفر بعدّة طرق.^٩

قلت: لا يستحقّ وحشي - وهو وحش في صورة إنس - أن تنزل عليه بالخصوص آية هي ذات صدى عاطفي رقيق، وذات إشارات خفيّة لا يلمسها إلا ذوّوا أفهام ناضجة وقرائح متوقّدة!

٢ - الإيتقان، ج ١، ص ٤٤.

٤ - الزمر ٣٩: ٢٣.

٦ - الزمر ٣٩: ٥٣ - ٥٥.

٨ - المصدر.

١ - الزمر ٣٩: ١٠.

٣ - مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٩٢.

٥ - الإيتقان، ج ١، ص ٤٤.

٧ - لباب النقول، ج ٢، ص ٦٣.

٩ - جامع البيان، ج ٢٤، ص ١٠.

قال العلامة الطبرسي: ولا يصح نزولها بشأن «وحشي» لأن الآية نزلت بمكة، ووحشي أسلم بعدها بسنين كثيرة، ولكن يحتمل أن يكون قرئت عليه الآية فكانت سبب إسلامه.^١

٢٧ - سورة المؤمن (غافر): مكية

استثنت منها ثلاث آيات:

الأولى: قوله تعالى: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ».^٢

قال الحسن: لأنها تعني بذلك صلاة المغرب وصلاة الفجر، وقد ثبت أن فرض الصلاة نزل بالمدينة.^٣

قلت: وهذا غريب! لأن الصلاة أول ما فرضت فرضت بمكة، وكان المسلمون يصلون بها جماعة وفرادى. وتقدم: أن الصلاة هي أول شيء جاء به جبرائيل وعلم رسول الله ﷺ الوضوء والصلاة في بدء بعثته ﷺ.^٤

وأيضاً فإن صدر الآية: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ» دليل على مكيتها، فضلاً عن السياق المتناسب!

الثانية والثالثة: قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ» (إلى قوله: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»)^٥. قال جلال الدين: أخرج ابن حميد وابن أبي حاتم بسند صحيح -!- عن أبي العالية، قال: إن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: الدجال منا يخرج في آخر الزمان... وجعلوا يعظمون من شأنه، فأنزل الله هاتين الآيتين، وفيهما: «لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ».^٦

قلت: نعوذ بالله من سفساف الكلام، كيف تنزل آية قرآنية في رد مزعومة تافهة تبجح بها يهودي، لتجعل المقايضة بين دجل دجال وخلق السماوات والأرض؟!

١ - مجمع البيان، ج ٨، ص ٥٠٣.

٢ - المؤمن ٤٠: ٥٥.

٣ - مجمع البيان، ج ٨، ص ٥٢٨.

٤ - تقدم ذلك في «أول ما نزل» رقم ٣.

٥ - المؤمن ٤٠: ٥٦ - ٥٧.

٦ - الدر المنثور، ج ٥، ص ٣٥٣؛ ولباب القول، ج ٢، ص ٦٥.

ولقد أحسن أبو جعفر الطبري^١ فلم يذكر شيئاً من تلكم الأحاديث الفارغة التي ملأ بها جلال الدين السيوطي تفسيره، ونحن ننزه القرآن الكريم منها بتاتا!
ثم إن الآية قارنت بين خلق السماوات وخلق الناس، وجعلت الأولى أكبر، وهذا دليل على جحود وقع بشأن خلق الإنسان... الأمر الذي يتنافى مع تلك المزعومة السخيفة...

ومن العجيب أن مثل الطبرسي^٢ انخرط مع أمثال السيوطي في هذا الفراغ التافه!

٢٨ - سورة الشورى: مكية

استثني منها قوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً» (إلى قوله:) وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ^٣ ثلاث آيات.

قيل: نزلن في الأنصار. رواه الطبراني عن ابن عباس بسند ضعيف.^٤

وقوله: «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ» (إلى قوله:) خَيْرٌ بَصِيرٌ.^٥

قيل: نزلت في أصحاب الصفة، أخرجهم الحاكم وصححه.^٦

قلت: من المستبعد جداً نزول الآيات الأولى في الأنصار، إذ كيف يعقل نسبة هذا

الكلام إليهم: «افْتَرَى - يعني النبي - عَلَى اللَّهِ كَذِباً»؟!

ثم الرواية تذكر أن الأنصار أساءوا الظن برسول الله ﷺ فحسبوه يقاتل دون أهل بيته

خاصة، فنزلت الآية...؟!!

أمّا الآية الأخيرة فهي عامّة، ولو صحّت الرواية عن علي عليه السلام فإنما تعني شمولها لهم

بعمومها، لا أنها نزلت بشأنهم الخاص، إذ ذلك - على هذا الفرض - قدح لاذع بأهل الصفة،

وحاشا القرآن أن يجرح من عاطفة جماعة من المؤمنين لمكان فقرهم!!

وزاد الطبرسي قوله تعالى: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً، إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى».^٧ عن

٢ - مجمع البيان، ج ٨، ص ٥٢٨.

٤ - لباب النقول، ج ٢، ص ٦٨.

٦ - لباب النقول، ج ٢، ص ٦٨.

١ - جامع البيان، ج ٢٤، ص ٥٠.

٣ - الشورى ٤٢: ٢٤ - ٢٦.

٥ - الشورى ٤٢: ٢٧.

٧ - الشورى ٤٢: ٢٣.

ابن عباس: لما نزلت هذه الآية قال رجل: والله ما أنزل الله هذه الآية! فأنزل الله: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا».^١ ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ تَابَ وَنَدِمَ، فَنَزَلَ: «وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ (إِلَى قَوْلِهِ: هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)».^٢ قَالَ: أَرْبَعُ آيَاتٍ نَزَلْنَ بِالْمَدِينَةِ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ.^٣ وَلَعَلَّهُ نَظَرًا لَكُونَهَا (آيَةُ الْمَوَدَّةِ فِي الْقُرْبَى) نَازِلَةٌ بِشَأْنِ قُرْبَى الرَّسُولِ مِنْ آلِهِ الْأَطْهَارِ - كَمَا حَقَّقْنَاهُ -!^٤ لَكِنْ لَا يَنَافِي ذَلِكَ أَنْ يُجْعَلَ أَجْرُ رِسَالَتِهِ الْمَوَدَّةُ فِي قُرْبَاهُ وَهُوَ فِي بَدْءِ الدَّعْوَةِ تَسْجِيلًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، حَيْثُ كَانَ ذَلِكَ فِي صَالِحِهِمْ^٥ فَلْيَكُونُوا عَلَى وَعْيٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْذُ بَدَايَةِ حَيَاتِهِمُ الْإِسْلَامِيَّةِ!

وكذا الآية «وَأْمُرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ»^٦ حسبوها نزلت بعد أن ظهرت شاكلة الإسلام في المدينة، إذ لم تكن للمسلمين شاكلة وهم في خشية من المشركين في مكة! غير أن الآية تعني شاكلة جماعة المؤمنين على أية حالة كانوا، في ضعف أو قوة، وهم يدٌ واحدة أين حلّوا وأين ارتحلوا!

واستثني - أيضاً - قوله تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ» (إلى قوله: فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ).^٧

حكى ابن الغرس عن بعضهم: أنَّه نزلت بالمدينة.^٨ غير أن السياق مكّي لا غير، وآيات تقدّماتها وآيات تأخّرتها مرتبطة بها تمام الارتباط، ممّا يجعل التفكيك مستحيلاً، وكلّهن نزلن بشأن المؤمنين في مكة أيام كانوا مستضعفين، هذا لا يشكّ فيه من راجع الآيات.

٢٩ - سورة الزخرف: مكّية

استثني منها قوله تعالى: «وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ

٢ - الشورى ٤٢: ٢٥ - ٢٦.

١ - الشورى ٤٢: ٢٤.

٣ - مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٠.

٤ - راجع: التمهيد، الجزء الثامن، نظرة في الروايات، النوع السابع.

٥ - «قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَهَوَ لَكُمْ». سبأ ٣٤: ٤٧. ٦ - الشورى ٤٢: ٣٨. راجع: مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٠.

٨ - الإتيان، ج ١، ص ٤٤.

٧ - الشورى ٤٢: ٣٩ - ٤١.

آلِهَةٌ يُعْبَدُونَ»^١.

قال مقاتل: نزلت ببيت المقدس ليلة المعراج^٢ وقيل: نزلت بالمدينة.^٣ لكن الآية مرتبطة بقريناتها المكتنفة بها ارتباطاً وثيقاً. ونزلت بـ «إِيَّاكَ أَعْنِي واسمعي يا جارة» فهي مكّة بلا شك، نزلت بشأن المشركين، أمّا نزولها في السماء^٤ أو ببيت المقدس فلا تجعلها مدنيّة، وإنّما هي مكّة باعتبار نزولها قبل الهجرة، وفق الاصطلاح المتقدّم.^٥

وجاء في المصحف الأميري ومقلدته: استثناء آية رقم ٥٤. ولعلّه اشتباه في الرقم.

٣٠- سورة الجاثية: مكّة

استثني منها قوله تعالى: «قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ»^٦.

قال قتادة: نزلت بالمدينة.^٧

والصحيح: أنّها من آيات الصفح التي نزلت بمكة أيّام كان المؤمنون مستضعفين، ومن

ثمّ نسخت فيما بعد، عندما قويت شوكة الإسلام بالمدينة.^٨

٣١- سورة الأحقاف: مكّة

استثني منها قوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي

إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ»^٩.

أخرج الطبراني أنّها نزلت بالمدينة في قصة إسلام عبدالله بن سلام.^{١٠}

قلت: ما أغرب ولع المفسّرين بكلّ آية جاء فيها إلماح بإيمان أهل الكتاب فسرعان

ما أوّلوها بعبدالله بن سلام وأضرابه؟!

والصحيح: أنّها تشنّع بقريش تقاعست عن الإيمان بدين جاء على يد رجل منهم

٢- مجمع البيان، ج ٩، ص ٣٨؛ والدرّ المثور، ج ٦، ص ١٩.

١- الزخرف ٤٣: ٤٥.

٤- المصدر.

٣- الإتيقان، ج ١، ص ٤٤.

٥- تقدم ذلك في «اتجاهات في تعيين المكي والمدني».

٧- مجمع البيان، ج ٩، ص ٧٠؛ والإتيقان، ج ١، ص ٤٤.

٦- الجاثية ٤٥: ١٤.

٩- الأحقاف ٤٦: ١٠.

٨- راجع: تفسير الطبري، ج ٢٥، ص ٨٧.

١٠- لباب القول، ج ٢، ص ٧٢؛ وجامع البيان، ج ٢٦، ص ٨؛ والإتيقان، ج ١، ص ٤٤.

وعلى لغتهم، ثم يؤمن به غيرهم من بني إسرائيل وغيرهم. وإنما خصّ بنو إسرائيل بالذكر - هنا - لمزيد عناية العرب آنذاك بهم وثقتهم بعلمهم وثقافتهم.

هذا... وقد أخرج ابن أبي حاتم عن مسروق قال: أنزلت هذه الآية بمكة بشأن المشركين، وهكذا أخرج أبو جعفر الطبري بعدة أسناد.^١

واستثنى - أيضاً - قوله: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا (إلى قوله: وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)»^٢ خمس آيات. قيل: نزلت الآيات في أبي بكر حيث برّ بوالديه وفي ابنه عبدالرحمان عندما عاقّ والده، وهما يحاولان إسلامه.^٣

لكن الآيات في كلا الموضعين عامّة، بدليل صيغة الجمع تعقيباً على كلٍّ من الفقرتين، فالآيات تصوير تفصيلي عن الذي يبرّ بوالديه والذي يعقهما بصورة عامّة.^٤ وعلى تقدير نزولها بشأن أبي بكر وابن عبدالرحمان فلا موجب لعدّها مدنيّة بعد أن كانت تلك القصة بشأنهما - على فرض الصحة - بمكة.

وكذلك لا وجه لاستثناء قوله: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ».^٥ بعد أن كانت لهجتها مكّيّة، وسياق لحنها موجّه إلى مشركي قريش، نزلت أيام كان المسلمون على ضعف ومن ثمّ نسخت بعدئذ بآية القتال.

٣٢ - سورة ق: مكّيّة

أخرج الحاكم وغيره: أنّ قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ»^٦ نزلت بالمدينة، ردّاً على مزعومة يهوديّة، قالوا: إنّ الله استراح يوم السبت بعد أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام من يوم الأحد إلى يوم الجمعة.^٧ وزاد في المجمع عن الحسن إلى قوله: «وَقَبْلَ الْغُرُوبِ».^٨

١ - جامع البيان، ج ٢٦، ص ٧؛ الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٣٩.

٢ - الأحقاف ٤٦: ١٥ - ١٩. ٣ - الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤١؛ وجامع البيان، ج ٢٦، ص ١٣.

٤ - مجمع البيان، ج ٩، ص ٨٧. ٥ - الأحقاف ٤٦: ٣٥. راجع: الإتيان، ج ١، ص ٤٥.

٦ - ق ٥٠: ٣٨. ٧ - الدرّ المنثور، ج ٦، ص ١١٠؛ والإتيان، ج ١، ص ٤٥.

٨ - ق ٥٠: ٣٩.

قلت: أمّا نزولها ردّاً على تلك المزعومة الباطلة فنعم، وأمّا أنّها نزلت بالمدينة فلا! وذلك لأنّ العرب - كما سبق مراراً - كانوا على اتصال دائم بأهل الكتاب، وربّما كانوا يأخذون منهم تعاليم أو معارف ممّا يخصّ خلق السماوات والأرض، فكانت مشهورة بين العرب المشركين، فهذا الردّ - لو صحّ أنّه ردّ - لا يدلّ على أنّه نزل بالمدينة! فلعلّ الرواية القائلة بأنّها نزلت في اليهود، إنّما تعني ما ذكرنا، أي نزلت في تعاليم كانوا بثّوها بين العرب.

والشاهد على أنّ الآية مكّية: ما جاء تفريعاً عليها: «فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ...» التي هي من آيات الصفح المكيّة، والتي نسخت فيما بعد.

٣٣ - سورة النجم: مكّية

استثني منها قوله: «... هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ»^١.

أخرج الواحدي عن ثابت بن الحرث الأنصاري، قال: كانت اليهود تقول - إذا هلك لهم صبيّ صغير -: صدّيق. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: كذبوا، ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمّه إلّا أنّه شقيّ أو سعيد، فأنزل الله عند ذلك: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ...»^٢.

قلت: لو صحّت الرواية فلا دلالة فيها على نزول الآية بالمدينة، فلعلّ قولة اليهود - وهم يثّون تعاليمهم الفاسدة بين العرب - بلغت الرسول ﷺ وهو بمكة، فنزلت الآية بها! لكن الرواية المذكورة لامساس لها بفحوى الآية رأساً، لأنّ قوله: «هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ...» تعليل لقوله: «وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ».

يعني: إنّ هذا الإنسان مفطور على اقتراف مطالب أرضيّة سافلة وفقاً لفطرته البشريّة المتركّبة من نزعات ورغبات، والله أعلم بذلك، ومن ثمّ عهد على نفسه الغفران، رحمة بهذا الإنسان ورأفة بموقفه الخاصّ تجاه رغباته ونزعاته.

١ - النجم ٥٣: ٣٢.

٢ - لباب النقول، ج ٢، ص ٨٨-٨٩: والذرّ المنتور، ج ٦، ص ١٢٨.

واستثني - أيضاً - قوله: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى...» إلى تمام الآيات التسع.^١
 قيل: نزلت في رجل أتى النبي ﷺ عند خروجه إلى غزاة، يطلب مركباً وسلاحاً فلم يجد، فلقي صديقاً له فقال: أعطني شيئاً. فقال: أعطيك بكري هذا على أن تتحمل بذنوبي، فقال: نعم. فنزلت الآيات.^٢

لكن الآيات لا تنطبق على فحوى القصة في شيء وإنما نزلت في صناديد من صناديد قريش في تفصيل ذكره أبو جعفر الطبري، فراجع.^٣

٣٤ - سورة القمر: مكية

استثني منها ثلاث آيات:

الأولى: قوله تعالى: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ»^٤ زعموها نزلت يوم بدر.^٥
 والصحيح: أنها وعد بظفر المسلمين فيما يأتي، فتحقق يوم بدر.^٦
 الثانية والثالثة: قوله تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ».^٧
 ولم يذكر المستثني سبباً لاستثنائهما! كما لا وجه له بعد ملاحظة وحدة السياق، وذلك الانسجام الوثيق.

وجاء في المصحف الأميري: استثناء الآيات رقم ٤٤ و ٤٥ و ٤٦. ولعله اشتباه في الرقم اثبتوه من غير تحقيق.

٣٥ - سورة الواقعة: مكية

استثني منها قوله تعالى: «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ»^٨ ولعله لما رواه ابن مسعود من رؤيا رآها رسول الله ﷺ فقصّها على أصحابه ثم قرأ عليهم الآيتين^٩ وهذه

٢ - الدر المنثور، ج ٦، ص ١٢٨.

١ - النجم ٥٣: ٣٣ - ٤١.

٤ - القمر ٥٤: ٤٥.

٣ - جامع البيان، ج ٢٧، ص ٤١ - ٤٢.

٥ - لباب النقول، ج ٢، ص ٩٠.

٦ - مجمع البيان، ج ٩، ص ١٩٤؛ وراجع: الإتيان، ج ١، ص ٤٥ و ١٠٤؛ وجامع البيان، ج ٢٧، ص ٦٥.

٨ - الواقعة ٥٦: ٣٩ - ٤٠. راجع: الإتيان، ج ١، ص ٤٥.

٧ - القمر ٥٤: ٥٤ - ٥٥.

٩ - مجمع البيان، ج ٩، ص ٢١٩.

القصة كانت بالمدينة.

لكن قراءته ﷺ لا تدلّ على نزولهما حينذاك.

واستثني - أيضاً - قوله: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَغْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ. وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ»^١.

لما رواه مسلم والحاكم وغيرهما: أَنَّ أصحاب رسول الله ﷺ أُصِيبُوا بِجَدَبٍ أَوْ نَفَدَتْ مِيَاهُهُمْ فِي سَفَرٍ مِنَ الْأَسْفَارِ أَوْ فِي غَزْوَةٍ تَبُوكَ، فَشَكُوا إِلَيْهِ فَقَامَ ﷺ وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ دَعَا اللَّهَ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ سَحَابَةً فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ، فَجَعَلَ بَعْضُ الْمُنَاقِقِينَ يَسِرُّ إِلَى بَعْضِهِمْ: إِنَّمَا مَطَرُنَا بَنُو كَذَا، فَنَزَلَتْ الْآيَاتُ^٢.

غير أَنَّ الْآيَاتِ تَأْبَى الْأَنْطِبَاقَ عَلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَأَنَّهَا رَدٌّ عَلَى نَاكِرِي الْقُرْآنِ وَحِيًّا مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، وَلَا مَسَاسَ لَهَا بِقَضِيَّةِ الْأَنْوَاءِ، لَا فِي ظَاهِرِ الْآيَاتِ وَلَا فِي فُحْوَاهَا. كَمَا أَنَّ انْسِجَامَ الْآيَاتِ سَبْقًا وَلِحُوقًا ذَلِكَ الْانْسِجَامِ الْبَدِيعِ يَجْعَلُ مِنْ قَبُولِ الرِّوَايَةِ الْمَذْكُورَةِ مُسْتَحِيلًا.

٣٦ - سورة الملك: مكية

روي عن ابن عباس: أنزلت تبارك الملك في أهل مكة إلا ثلاث آيات^٣.

قلت: ليس معنى هذا الكلام (أنها نزلت بمكة غير ثلاث آيات) نزلن بغيرها! وذلك لأنه قال: في أهل مكة، ولم يقل: في مكة أو بمكة!

بل المعنى: أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ نَزَلَتْ تَقْرِيْعًا وَتَشْنِيْعًا بِأَهْلِ مَكَّةِ أَيِ الْمُشْرِكِينَ، فَكُلَّ آيَاتِهَا تَهْدِيدٌ وَتَوْعِيدٌ بِشَأْنِهِمْ، غَيْرَ ثَلَاثِ آيَاتٍ تَخْصُ الْمُؤْمِنِينَ: أَوَّلَاهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ

٢ - لباب النقول، ج ٢، ص ٩٢ - ٩٣.

١ - الواقعة ٥٦: ٧٥ - ٨٢.

٣ - الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٤٦.

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ...» والثانية قوله: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ...» والثالثة قوله: «قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ...»^١.

فالصحيح - كما في حديث ابن خديج - أنها نزلت جملة واحدة بمكة.^٢

٣٧ - سورة القلم: مكية

حكى السخاوي في جمال القراء: استثناء قوله: «إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ (إِلَى قَوْلِهِ: لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)»^٣ سبع عشرة آية. وقوله: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ (إِلَى قَوْلِهِ: فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)»^٤ ثلاث آيات. فهذه عشرون آية زعموها نزلت بالمدينة. وزاد في المجمع الآية رقم ٥١ والآية رقم ٥٢.^٥

أخرج ابن أبي حاتم وابن جريج: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ: خَذَوْهُمْ أَخْذاً فَارِيطَوْهُمْ فِي الْحِبَالِ وَلَا تَقْتُلُوا مِنْهُمْ أَحَدًا، فنزلت: «إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ...» الخ.^٦
ولكن لا مناسبة ظاهرة بين كلام أبي جهل هذا وفحوى الآيات المذكورة، ليكون الداعي لنزولها!

والصحيح: أنها نزلت بشأن المشركين عموماً، انسجماً مع بقية آيات السورة، وهكذا فسرها العلامة الطبرسي وأبوجعفر الطبري.^٧

وأما قوله: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ...» الخ فهي من آيات الصفح المكية بلالريب، وما ندري ماوجه هذا الاستثناء الغريب؟!

٣٨ - سورة المزمل: مكية

استثني منها قوله: «وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ (إِلَى قَوْلِهِ: وَمَهُلَّهُمْ قَلِيلًا)»^٨ حكاه

٢ - الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٤٦.

١ - الملك ٦٧: ١٢ و ١٥ و ٢٩.

٤ - القلم ٦٨: ٤٨ - ٥٠.

٣ - القلم ٦٨: ١٧ - ٣٣.

٥ - الإتيان، ج ١، ص ٤٦؛ ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٣٠.

٦ - الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٥٣.

٧ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٣٦؛ وجامع البيان، ج ٢٩، ص ١٩.

٨ - المزمل ٧٣: ١٠ - ١١.

الاصبهاني.^١ لكن الآيتين تصبير للنبي ﷺ تجاه أذى المشركين، وتوعيد بهم، فهما من آيات الصفح المكية، ولا وجه لعدّهما مدنيّتين.

وحكى ابن الغرس استثناء قوله: «إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ (إلى قوله): إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».^٢

قال جلال الدين: ويردّه ما أخرجه الحاكم: أنّه نزل بعد نزول صدر السورة بسنة، وذلك حين فرض قيام الليل في أوّل الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس^٣ وهكذا أخرج عبد بن حميد عن عكرمة، قال: لبث المسلمون بعد نزول: «يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ قُمْ اللَّيْلَ...» سنة فشقّ عليهم و تورّمت أقدامهم، حتى نسختها آخر السورة: «فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ».^٤

قلت: تمسّك القائل بمدنيّة الآية، بأنّ الصلاة والزكاة لم تفرضوا بمكة^٥ هو استدلال غريب، لأنّ الصلاة هي أولى فريضة فرضت بمكة^٦ أمّا الزكاة فليست هي الزكاة المفروضة بحدود وأنصبة مقرّرة، وإنّما هي مطلق التصدّق الذي كان واجباً حينذاك، كما في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ»^٧ وقوله: «الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ».^٨ نعم جاءت تفاصيل حدودها وأحكامها بالمدينة، أمّا أصلها فكانت واجبة بمكة بلا شك.

وليته تمسّك بقوله: «وَأَخْرُوجُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» والقتال لم يشرّع أصلاً إلا بالمدينة. لكنّه على تقدير أن يراد بالقتال: هو ما يقع فعلياً، لا ما سيفرض وسيقع بعد ذلك! والاحتمال الثاني أوجه، نظراً إلى أنّه تعالى - في هذه الآية - يذكر أسباب رفع ذلك التكليف الأوّل الشديد و تبديله إلى تكليف آخر خفيف. ومن تلك الأسباب تشريع القتال بعدئذ، من غير أن يكون هنا دليل صريح على إرادة فعليّته حينذاك.

٢ - المزمّل ٧٣: ٢٠.

١ - الإتيان، ج ١، ص ٤٦.

٤ - الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٨٠.

٣ - الإتيان، ج ١، ص ٤٦.

٦ - راجع: السيرة لابن هشام، ج ١، ص ٢٥٩.

٥ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٨٢.

٨ - فصلت ٤١: ٧.

٧ - المؤمنون ٢٣: ٤.

٣٩ - سورة المرسلات: مكية

قالوا باستثناء قوله: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ازْكُرُوا لَا يَزْكُرُونَ».^١

قال مقاتل: نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله ﷺ بالصلاة، فقالوا: لا نتحنى، فإن ذلك سبة علينا^٢ وثقيف أسلمت بالمدينة.

لكن وجه الآية وسياقها مع المكذبين، وهم مشركو العرب، ولا معنى لأن يكون هذا الموضع من السورة خلواً من هذه الآية إلى أواخر سني الهجرة ثم تكتمل. إذ ذلك يخل بفصاحة السورة ويخلخل من نظمها المنسجم.

على أن الركوع هنا بمعنى الخضوع لله والانتقياد التام لأوامره ونواهيه، لا الركوع المصطلح جزءاً من الصلاة. وهذا هو اختيار أبي جعفر الطبري.^٣ كما جاء بهذا المعنى قوله تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ»^٤ راجع: تفسير شبّر في هذا الموضع قال: أو أريد به الخضوع والانتقياد للحق. وقال - في سورة المرسلات - بصورة جزمية: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ازْكُرُوا»: سلّموا واخشعوا أو انقادوا.^٥ إذن فلا مساس للآية بقضية إسلام ثقيف، بل هي عامّة حكاية عن صمود المشركين أمام الحق الصراح.

٤٠ - سورة المطففين: مكية

قالوا: نزل صدرها في المدينة أول قدوم رسول الله ﷺ إليها فقد كان أهل المدينة من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله عز وجل «وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ»^٦ إلى تمام الست آيات. فأحسنوا الكيل بعد ذلك.^٧

وقد تقدّم: أنه من المستبعد جداً مواجهة الرسول ﷺ للأتصار بهكذا آيات ذوات لهجة عنيفة، في أول لقاءهم معهم في دارهم التي آووه إليها، وشمروا ساق الجد لمؤازرته ونصرته، عاهدوه على أنفسهم وأموالهم في سبيل إعلاء كلمة الإسلام.

٢ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤١٩.

١ - المرسلات ٧٧: ٤٨.

٤ - البقرة ٢: ٤٣.

٣ - راجع: جامع البيان، ج ٢٩، ص ١٥٠.

٦ - المطففين ٨٣: ١.

٥ - تفسير شبّر، ص ٤٦ و ٥٤٥.

٧ - الإتيان، ج ١، ص ٤٧؛ والدر المنثور، ج ٦، ص ٣٢٤؛ ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٥٢.

والصحيح: أنها بأجمعها مكّية.

وكانت هناك استثناءات من سور مكّية تركناها خوف الإطالة، ولعدم الاستناد إلى حجة مقبولة. كالاستثناء من سورتي الليل والماعون ذكرهما السيوطي في الإتيان.

استثناءات من سور مدنية

تقدّم استبعاد أن تبقى آية غير مسجّلة في سورة مكّية حتّى تنزل سورة مدنيّة بعد فترة طويلة أم قصيرة، فتسجّل فيها. وهكذا استبعده ابن حجر في شرح البخاري وغيره.^١ ولكن مع ذلك فقد قالوا في كثير من آيات مسجّلة في سور مدنيّة: أنهنّ مكّيات. ونحن نذكرهنّ تباعاً حسب ترتيب السور في المصحف الشريف، ونعقبها بما نرتأيه من رأي.

١ - سورة البقرة: مدنيّة

استثني منها ثلاث آيات:

الأولى: قوله تعالى: «فَاعْتَبُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ».^٢ زعموها نزلت بشأن المشركين أيام كان المسلمون بمكة ضعفاء.

لكن صدر الآية: «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...» شاهد نزولها بشأن أهل الكتاب، أوائل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، ولم تقو شوكة الإسلام بعد، ثمّ نسخت بقوله: «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (إلى قوله: مِنْ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ»^٣ راجع الطبرسي بشأن نزول الآية ونسخها بآية براءة.^٤

الثانية: قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ...».^٥ زعموها - أيضاً - نزلت بشأن صمود

١ - تقدم ذلك في «آيات مستثنيات».

٢ - البقرة ٢: ١٠٩.

٣ - التوبة ٩: ٢٩.

٤ - مجمع البيان، ج ١، ص ١٨٤ - ١٨٥؛ والدر المنثور، ج ١، ص ١٠٧.

٥ - البقرة ٢: ٢٧٢.

المشركين تجاه قبول الحق، نظيرة قوله: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ»^١.

لكن الآية نزلت بشأن إنفاق المسلمين عن الكفار، حيث امتنعوا من ذلك زعماً أنها محرمة عليهم وهم على غير دينهم، فنزلت.^٢

الثالثة: قوله تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...»^٣ قيل: هي آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ وهو بمنى في حجة الوداع.^٤ وعلى الفرض فهي مدنية على ما سلف.

٢ - سورة النساء: مدنية

قيل: إلا قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا...»^٥ وقوله: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ...»^٦ فإنهما نزلتا بمكة...! ذكر ذلك الطبرسي ولم يذكر حجة ولا القائل بذلك.^٧

ولعل الوجه في الآية الأولى ما قيل: إنها نزلت بعد الفتح بمكة، خطاباً مع النبي ﷺ برد مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة حين قبض منه المفتاح يوم الفتح وأراد أن يدفعه إلى العباس. عن ابن جريج.^٨

لكن العبرة بمكية الآية نزولها قبل الهجرة كما سبق. على أن الآية لا تنطبق على القصة المزعومة، لأن دفع المفتاح إلى النبي ﷺ لم يكن برسم أمانة واستيداع! وإلا فحاشى النبي ﷺ أن يخون الأمانات حتى ينبهه الله بنزول آية! والطبرسي أيضاً رفض هذا التنزيل...

وأما الآية الثانية فلم نعرف السبب ولا احتمالها. وقد ذكر الطبرسي في سبب نزولها

١ - القصص ٢٨: ٥٦.

٢ - مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٨٥؛ والدر المنثور، ج ١، ص ٢٥٧.

٣ - البقرة ٢: ٢٨١. ٤ - الدر المنثور، ج ١، ص ٣٧٠.

٥ - النساء ٤: ٥٨. ٦ - النساء ٤: ١٧٦.

٧ - مجمع البيان، ج ٢، ص ١. ٨ - المصدر، ص ٦٣.

وجوهاً لاتصلح سنداً لهذا الاستثناء.^١ ولهجة الآية تنادي بمدنيّتها، لأنّها من آيات الأحكام.

غير أنّ هذا الاستثناء ينظر إلى المصطلح الثاني المتقدّم. وأمّا على المصطلح الأوّل المشهور (مانزل بعد الهجرة فهو مدنيّ حتى ولو كان نزوله بمكة) فالآية مدنيّة.^٢

٣- سورة المائدة: مدنيّة

استثني منها قوله تعالى: «الْيَوْمَ يَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا».^٣

قيل: نزلت على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفات في حجة الوداع^٤ وهكذا زعمه أبو عبد الله الزنجاني في تاريخ قرآنه.^٥

لكن أبا عبد الله الصادق عليه السلام قال: نزلت الآية بعد أن نصب رسول الله ﷺ علياً عليه السلام علماً للأمة يوم غدير خم، عند منصرفه عن حجة الوداع، فأنزل الله يومئذ: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ».^٦ وهكذا سجّلها ابن واضح اليعقوبي، قال: وكان نزولها يوم النصّ على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بغدير خم. قال: وهي الرواية الصحيحة الثابتة الصريحة^٧ وقد ذكرها الحافظ الحسكاني بعدّة طرق.^٨

ثمّ إنّ نزول الآية بعرفات أو بغدير خم لا يجعلها مستثناة من المدنيّات، وفق المصطلح المشهور المتقدّم.

٤- سورة الأنفال: مدنيّة

استثني منها قوله: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ».^٩

٢- تقدم ذلك في «اتجاهات في تعيين المكي والمدني».

١- المصدر، ص ١٤٩.

٤- الدر المنثور، ج ٢، ص ٢٥٧.

٣- المائدة ٥: ٣.

٦- التبيان، ج ٣، ص ٤٣٥.

٥- تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني، ص ٢٧.

٨- شواهد التنزيل، ج ١، ص ١٥٦ - ١٦٠.

٧- تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٥.

٩- الأنفال ٨: ٣٠.

قالوا: إنها نزلت في قصّة دارالندوة اجتمعت فيها قريش للتآمر على رسول الله ﷺ وفشلت مؤامرتهم بهجرة الرسول ﷺ ومبيت علي عليه السلام على فراشه.^١

لكن نزول الآية بشأن تلك القصة لا يستدعي نزولها حينذاك، ولا سيّما بعد ملاحظة أداة ظرف الماضي (إذ) في صدر الآية حكاية عن أمر سابق!

وفي المصحف الأميري وتاريخ الزنجاني: استثناء الآيات: ٣١ إلى ٣٦. نظراً لأنها نزلت بشأن مشركي قريش، لكنها كالأية المذكورة حكاية لأمر سابق، ولادليل على نزولها حينذاك. وقوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ»^٢ أيضاً حكاية عن ماض وإخبار عن حال، أي لم يعذبهم الله فيما قبل، بسبب وجودك بين أظهرهم ولا يعذبهم الآن - بعد خروجك - لوجود جماعة من المؤمنين لم يستطيعوا الخروج وهم على عزم الهجرة، فرفع الله العذاب عن مشركي مكة لحرمة استغفار هؤلاء المؤمنين الباقين بين أظهرهم.^٣

هذا... وتقل جلال الدين عن قتادة أنه قال: نزلت الآية: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...» بمكة. ثم قال: ويردّه ماصحّ عن ابن عباس أن هذه الآية بعينها نزلت بالمدينة^٤ وقد أخرجه في أسباب النزول عن ابن عباس: أن الآية نزلت بعد مقدمه ﷺ المدينة.^٥

واستثني - أيضاً - قوله: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»^٦ وصحّ هذا الاستثناء ابن العربي وغيره^٧ وذلك لما أخرجه أبو محمد من طريق طارق عن عمر بن الخطاب، قال: أسلمت رابع أربعين فنزلت «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». وهكذا روي عن ابن عباس.^٨

لكن يعارضه ماروي عن الكلبي، قال: نزلت هذه الآية بالبيداء في غزوة بدر^٩ وقال

٢ - الأنفال ٨: ٣٣.

٤ - الإتيان، ج ١، ص ٣٩.

٦ - الأنفال ٨: ٦٤.

٨ - الدر المنثور، ج ٣، ص ٢٠٠.

١ - مجمع البيان، ج ٤، ص ٥٣٧.

٢ - مجمع البيان، ج ٤، ص ٥٣٩.

٥ - لباب القول، ج ١، ص ١٧٠.

٧ - الإتيان، ج ١، ص ٣٩.

٩ - مجمع البيان، ج ٤، ص ٥٣٧.

الواقدي: نزلت بالمدينة في بني قريظة وبني النضير.^١

هذا... وسياق الآية يشهد بمدنيّتها، نزلت في إيان تشريع القتال، سواء أَمَعَ المشركين أم مع أهل الكتاب. فالآية يسبقها قوله تعالى: «الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ...» «فِيمَا تَثَبَّتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ...». «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُغْزَوْنَ». «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ...» «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا...». «وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ...». «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ...». «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ...».^٢

انظر إلى هذا السياق المنسجم بعضه مع بعض انسجاماً يجعلنا على ثقة من وحدة مترابطة نزلت جملة واحدة.

وأيضاً: لا معنى لكفاية أربعين رجلاً أسلموا بمكة وهم على ضعف ماداموا فيها. الأمر الذي يؤكد من نزول الآية بالمدينة حيث جعلت تزداد شوكة المؤمنين وتقوى جانبهم مع الأيام والساعات، فكانت فيهم الكفاية والكفاءة.

وهكذا فسرها أبو جعفر الطبري، قال: يقول لهم جلّ ثناؤه: ناهضوا عدوكم فإن الله كافيكُم أمرهم ولا يهولتكم كثرة عددهم وقلة عددكم فإن الله مؤيدكم بنصره. وذكر لهذا المعنى روايات، ولم يتعرّض لشيء من روايات نزولها بشأن إسلام عمر بن الخطاب.^٣

٥ - سورة براءة: مدنيّة

استثني منها أربع آيات:

الأولى والثانية: قوله تعالى: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَىٰ (إلى قوله:) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ».^٤

قالوا: نزلت بشأن أبي طالب عندما حضرته الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده

٢ - الأنفال ٨: ٥٦ و ٥٧ و ٥٩ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ و ٦٤ و ٦٥.

١ - التبيان، ج ٥، ص ١٥٢.

٤ - براءة ٩: ١١٣ - ١١٤.

٣ - جامع البيان، ج ١٠، ص ٢٦.

أبوجهل وعبدالله بن أبي أمية. فقال النبي ﷺ: أي عم، قل: لا إله إلا الله، أحتاج لك بها عند الله. فقال القرشيان: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبدالمطلب؟! فكانا كلما عرض عليه النبي ﷺ كلمة الشهادة أعادا كلامهما، فكان آخر كلام أبي طالب: أنه على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال النبي ﷺ عند ذلك: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك. فنزلت الآية... كما ونزلت «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ».^١

وقالوا - أيضاً -: إنها نزلت بشأن والذي رسول الله ﷺ أراد أن يستغفر لأبيه، وهكذا استجاز ربه في زيارة قبر أمه فأجازه، فبداله أن يستغفر لها فنزلت الآية تنهاه! فما رُئي رسول الله ﷺ أكثر باكياً من يومه ذاك.^٢

أقول: قاتل الله العصبية الجاهلية: إنها نزعة أموية ممقوتة عمدت إلى الحط من كرامة بني هاشم وإلى تشويه جانب أقباء النبي ﷺ لتجعل من أبيه وأمّه مشركين، ويموت أبوطالب كافراً، وهو المحامي الأول والمدافع الوحيد في وقته عن رسول الله ﷺ وقد قال تعالى: «وَالَّذِينَ آوَا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا»^٣ ولا شك أن أبا طالب كان أول من آواه ونصره ووقف دونه بنفسه ونفيسه. والآية الكريمة شهادة عامة تشملته قطعياً.^٤

ويكفي دليلاً على إيمانه الصادق، قوله في قصيدته التي يحمي بها عن رسول الله ﷺ مهدداً قريش أجمع، قال فيها:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب	لدينا ولا يعني بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمد في أرومة	تقصر عنه سورة المتطاول
حدبت بنفسه دونه وحميته	ودافعت عنه بالذرا والكلاكل
فأيده رب العباد بنصره	وأظهر ديناً حقه غير باطل ^٥

هذا... وأما نحن الإمامية فإن أصول معتقداتنا تقضي بلزوم طهارة آباء النبي ﷺ

١ - القصص ٢٨: ٥٦. راجع: الدر المنثور، ج ٣، ص ٢٨٢؛ وصحيح البخاري، ج ٢، ص ١١٩ وج ٦، ص ٨٧.

٢ - الأتفال ٨: ٧٤.

٣ - جامع البيان، ج ١١، ص ٣١.

٤ - راجع: حق اليقين للسيد عبدالله شبر، ج ١، ص ١٠٠. ٥ - سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٩٩.

والأئمة عليهم السلام وأمهاتهم، لم يتلوّثوا بدنس شرك قط، فلم يزالوا ينحدرون من صلب شامخ إلى رحم طاهر. كما جاء في الزيارة السابعة للإمام أبي عبدالله الحسين عليه السلام: «أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها».

وفي حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله: لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً...^١

وإلى هذا المعنى جاء تأويل قوله تعالى: «وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ»^٢ أي لم تزل تنتقل من صلب مؤمن موحد إلى صلب مؤمن موحد. قال مجاهد: من نبي إلى نبي حتى أخرجت نبياً.^٣ قال العلامة الطبرسي: وقيل: معناه: وتقلّبك في أصلاب الموحدين من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً عن ابن عباس في رواية عطا وعكرمة. وهو المروي عن أبي جعفر الإمام محمد بن علي الباقر وأبي عبدالله الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قالوا: في أصلاب النبيين بعد نبي حتى أخرج من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام.^٤

والصحيح في سبب نزول الآية: ما ذكره أبو علي الطبرسي: أن المسلمين جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وآله يطلبون إليه الاستغفار لموتاهم الذين مضوا على الكفر أو النفاق، قالوا: ألا تستغفر لآبائنا الذين ماتوا في الجاهلية؟ فنزلت الآية.^٥

ومما يدلنا على صحة هذه الرواية وبطلان الرواية الأولى: أن الآية الكريمة جاءت بلفظ «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا...» فلو صحّت تلك الرواية لما كان هناك سبب معقول لإرداف غيره صلى الله عليه وآله من المؤمنين معه في هذا الإنكار الصارم.

وأخيراً فإن هذه الآية والآية رقم ٨٠ والآية رقم ٨٤ نزلن جميعاً على نمط واحد،

٢ - الشعراء ٢٦: ٢١٩.

١ - الدر المنثور، ج ٣، ص ٢٩٤.

٤ - مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٠٧.

٣ - الدر المنثور، ج ٥، ص ٩٨.

٥ - المصدر، ج ٥، ص ٧٦.

والسبب شيء واحد: هو ما كان المؤمنون على رجاء أن يترحم على آبائهم وأمهاتهم وأقربائهم الذين ماتوا على الكفر، ملتجئين من النبي ﷺ أن يساعدهم على هذه الأمنية، فنزلت الآية لتقطع أملهم في ذلك إذا كانوا علموا من آبائهم البقاء على الشرك حتى الموت: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»^١ ولتوضح أكثر راجع تفسير الآيتين^٢.

الثالثة والرابعة: قوله تعالى: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»^٣ وهما آخر سورة براءة.

قال ابن الغرس: إنهما مكّيتان. قال جلال الدين: وهذا غريب، كيف وقد ورد أنهما آخر ما نزل^٤.

قلت: لم يثبت نزول الآيتين بمكة، ولا ذكر قائله دليلاً أو سنداً لذلك. فثبت الآية في سورة مدنية - ولا سيما هي آخر السور المدنية - هو بذاته دليل على نزولها بالمدينة، حيث الأصل الأول في الآيات هو الثبوت الطبيعي تبعاً حسب النزول. مضافاً إلى ما ورد في سبب نزولهما: جاءت جهينة تسأل رسول الله ﷺ - أول قدومه المدينة - عهداً يأتمنون إليه، فنزلت الآيتان^٥. كما روي أنهما آخر الآيات القرآنية نزولاً بالمدينة^٦.

٦ - سورة الرعد: مدنية

أخرج أبو الشيخ عن قتادة، قال: سورة الرعد مدنية إلا قوله تعالى: «وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ...»^٧.

١ - النساء: ٤٨ و ١١٦.

٢ - جامع البيان، ج ١٠، ص ١٣٧ و ١٤١؛ ومجمع البيان، ج ٥ ص ٥٤ و ٥٦؛ والدر المنثور، ج ٣، ص ٢٦٤ و ٢٦٦.

٣ - براءة ٩: ١٢٨ - ١٢٩.

٤ - الإتيان، ج ١، ص ٢٩؛ والدر المنثور، ج ٣، ص ٢٩٦.

٥ - الدر المنثور، ج ٣، ص ٢٩٧.

٦ - المصدر؛ ومجمع البيان، ج ٥، ص ٨٦.

٧ - الرعد ١٣: ٣١. راجع: الإتيان، ج ١، ص ٤٠.

وذكر الطبرسي استثناء قوله: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ»^١ - إلى آخر الآية - والتي بعدها.^٢

لكن الآية تشنّع بموقف المشركين المتأرجح وإرعاب لهم، كما هي تبشير بفتح للمسلمين قريب، فهي لأن تكون من تتمة آيات سابقة نزلت في صلح الحديبية^٣ أرجح. وعن عكرمة: أنها نزلت بالمدينة في سرايا رسول الله ﷺ والقارعة هي السرية كانت تدوهم. والوعد هو الفتح.^٤

٧ - سورة الحج: مدنية

استثني منها قوله: «هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا...»^٥.

قال جلال الدين: إلى تمام الآيات الثلاث فإنهن نزلن بالمدينة.^٦

قلت: وعلى ذلك فينبغي الانتهاء إلى الآية رقم ٢٢. بل إلى الآية رقم ٢٤ ست آيات، نظراً للانسجام الوثيق بينهما بما لا يمكن التفكيك.

لكن لا سند لهذا الاستثناء، ومن ثم فالقول به غريب. مضافاً إلى ماورد متواتراً أنها نزلت بشأن ثلاثة من المؤمنين هم: حمزة بن عبدالمطلب وعبيدة بن الحارث، وعلي بن أبي طالب، تبارزوا ثلاثة من الكفار، هم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة. قال علي رضي الله عنه: أنا أول من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة.^٧ فالآية نزلت متأخرة عن وقعة بدر، أو نزلت بيدر.^٨

٢ - مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٧٣.

١ - الرعد ١٣: ٣١.

٤ - جامع البيان، ج ١٣، ص ١٠٥.

٣ - راجع: مجمع البيان، ج ٦، ص ٢٩٢.

٦ - الإتيان، ج ١، ص ٢٤.

٥ - الحج ٢٢: ١٩.

٧ - صحيح البخاري، ج ٦، ص ١٢٣ و ١٢٤؛ وصحيح مسلم، ج ٨، ص ٢٤٦.

٨ - الدر المنثور، ج ٤، ص ٣٤٨ - ٣٤٩؛ وجامع البيان، ج ١٧، ص ٩٩.

واستثني - أيضاً - قوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَّى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...» (إلى قوله: «عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ»^١ الآيات الأربع.

أخرج ابن المنذر عن قتادة: «أنهن مكيات»^٢ قالوا: نزلن بمكة بشأن قصة الغرانيق.^٣ وقد زيفنا حديث الغرانيق، وأنه حديث مفتعل وضعته الزنادقة للتشويه على سمعة القرآن ورسالة محمد ﷺ.^٤

والآية إشارة إلى البدع التي تنتاب شرائع الأنبياء على أيدي المحرّفين، لكنه تعالى يحفظ دينه على أيدي علماء ربّانيّين في كلّ عصر، ينفون بدع المبطلين كما في الحديث الشريف.^٥ وتلك البدع هي فتنة للذين في قلوبهم مرض. وفي المصحف الأميري وتاريخ الزنجاني أنّ الآيات نزلن بين مكة والمدينة! ولم يعرف لهذا القيد سبب معقول أو منقول!

٨ - سورة محمد ﷺ: مدنيّة

استثني منها قوله: «وَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلُكُنَّاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ»^٦.

قال السخاوي في جمال القراء: قيل إنّ النبي ﷺ لما توجه مهاجراً إلى المدينة وقف فنظر إلى مكة وبكى، فنزلت تسليّة لخاطره الشريف.^٧

لكن الآية في سياقها منسجمة مع آيات قبلها وبعدها انسجاماً وكيداً، بحيث لا يدع

١ - الحج ٢٢: ٥٢ - ٥٥.

٢ - الدر المنثور، ج ٤، ص ٣٤٢؛ وراجع: البرهان، ج ١، ص ٢٠٢.

٣ - مجمع البيان، ج ٧، ص ٩٠؛ وجامع البيان، ج ١٧، ص ١٣١؛ والدر المنثور، ج ٤، ص ٣٦٦.

٤ - تقدّم ذلك في «أسطورة الغرانيق».

٥ - سفينة البحار، ج ١، ص ٢٠٤، مادة «أول».

٦ - محمد ٤٧: ١٣.

٧ - الإتيقان، ج ١، ص ٥٥-٥٦؛ والدر المنثور، ج ٦، ص ٤٨.

مجالاً للقول بالتفكيك، فإمّا أنّ الجميع مكّية أو الجميع مدنيّة.

وبما أنّ السورة تقرّيع عنيف بالمشرّكين وإثارة عامّة بالمؤمنين، تمهيداً لتشريع القتال، فهي مدنيّة نزلت بهذا اللحن اللاذع، وجعلت تعدّد مساوئ ارتكبتها قريش، وتهدّد بها بقتل ذريع وفشل فطيع إزاء معاندتهم مع الحقّ. والآية المذكورة أيضاً على نفس النمط. لم تخرج على قريناتها.

٩ - سورة الحجرات: مدنيّة

نسب إلى ابن عباس استثناء قوله تعالى: «يا أيّها النّاس إنّنا خلّقناكم من ذكرٍ وأنثى...»^١ ولعلّه لمكان الخطاب مع «الناس»، على ما زعمه بعضهم أنّه من دلائل مكّية الخطاب! وقد أسبقنا أنّه لادليل في ذلك... بدليل وقوعه في سورة البقرة «يا أيّها النّاس اعبدوا ربّكم»^٢.

١٠ - سورة الرحمان: مدنيّة

استثني منها قوله: «يسأله من في السّموات والأرض...»^٣ ولم يعرف سبب هذا الاستثناء الغريب!

١١ - سورة المجادلة: مدنيّة

استثني منها قوله: «ما يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ...»^٤ ولم يعرف السبب أيضاً.

١ - الحجرات ٤٩: ١٣. راجع: مجمع البيان، ج ٩، ص ١٢٨.

٢ - البقرة ٢: ٢١. ٣ - الرحمان ٥٥: ٢٩. راجع: الإِتقان، ج ١، ص ٤٥.

٤ - المجادلة ٥٨: ٧. راجع: الإِتقان، ج ١، ص ٤٦.

١٢ - سورة التحريم: مدنيّة

قال قتادة: هي إلى رأس العشرة مدنيّة: والباقي مكّي.^١
ويردّه: أن الآيتين الأخيرتين هما من تنمّة المثل الذي ضربه الله، نصحاً لزوجات
الرسول ﷺ وقد تطاولن عليه. فلو أفصلناهما عن سائر آيات السورة لما بقي لهما موقع
بديع.

١٣ - سورة الإنسان: مدنيّة

استثني منها قوله: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ...».^٢ وقيل إلى آخر السورة.
قالوا: نزلت في أبي جهل.^٣
لكن الآية تفريع على آيات سبقت فلا يعقل انفكاكها عنها، على أن الأمر بالصبر
تجاه تعصّفات المعاندين أو الجاهلين، هي خصيصة الأنبياء في جميع أدوار حياتهم التي
ملؤها الكفاح والجهاد. ومن ثمّ قيل: الآية عامّة في كلّ عاص وفاسق وكافر.^٤
وهناك سور أخرى مدنيّة قالوا فيها باستثناءات غريبة تركناها، حيث طال بنا البحث
وفيما ذكرنا كفاية لإثبات أن لا وقع لتلك الاستثناءات إطلاقاً، سواء من سور مكّيّة أم
مدنيّة وكلّها مستندة إلى حدس أو نقل ضعيف لا مبرّر للاستناد إليها البتّة.
وبذلك نطوي سجلّ هذا البحث، والحمد لله أولاً وآخراً.

١ - المصدر.

٢ - الإنسان ٧٦: ٢٤.

٣ - الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٣٠٢؛ ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٠٢ و ٤١٣.

٤ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤١٣.

أسباب النزول

معرفة أسباب النزول

وإذا كان القرآن ينزل نجوماً، وفي فترات متفاصلة بعضها عن بعض، ولمناسبات شتى كانت تستدعي نزول آية أو آيات تعالج شأنها، فقد اصطَلَحُوا على تسمية تلك المناسبات بأسباب النزول أو شأن النزول - على فرق بينهما - وهو علم شريف، وفي نفس الوقت خطير يمسّ التنزيل في صميم معناه، ويهدي المفسّر المسترشد والفقيه المستنبط إلى حيث سواء السبيل.

واستيفاء هذا البحث يقتضي النظر في مسائل: قيمة هذه المعرفة وفائده في مجال الفقه والتفسير!... وكيف الاهتداء إلى معرفة أسباب النزول؟... وهل هناك فرق بين قولهم: سبب النزول، أو شأن النزول؟ والفرق بين التنزيل والتأويل، وكذا ظاهر الآية وبطنها في مصطلح السلف؟ وما معنى قولهم: نزلت الآية في كذا؟ وهل يجب في الناقل الأول للسبب أن يكون حاضر المشهد؟ وأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد؟ وأن القرآن نزل بإيّاك أعني واسمعي يا جارة.. وأنه يجري كما تجري الشمس والقمر؟ وكيف الاهتداء إلى معالم القرآن؟ وماهي الوسائل المستعملة في هذا السبيل؟ ونحو ذلك من أبحاث عامّة وشاملة.

قيمة هذه المعرفة

لمعرفة شأن النزول دورها الخطير في فهم معاني القرآن الكريم وحلّ معظلات التفسير في كلا مجالي الأصول والفروع.. إنها ترفع النقاب عن وجوه كثير من الآيات، نزلت لتعالج مشكلة في وقتها، لكنها في نفس الوقت ذات وجه عامّ تعالج مشاكل الأمة عبر الحياة.. وربما كان الوقوف على الحادثة الأولى والمناسبة الأولى التي استدعت نزولها، من خير الوسائل لكشف الإيهام عن وجه الآية، إذ فيها الإشارة لامحالة إلى تلك الواقعة بالذات.

قال الواحدي: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصّتها وبيان سبب نزولها. وجعل السيوطي من فوائد معرفة أسباب النزول، الوقوف على المعنى وإزاحة الإشكال عن وجه الآية،^١ الأمر الذي لامحيد عنه بعد أن كانت الآية مرتبطة بالحدث المستدعي للنزول وناظرة إليه.

قال القشيري: بيان سبب النزول طريق قويّ في فهم معاني الكتاب العزيز.^٢ ولذلك شواهد في التنزيل:

قال تعالى: «إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا...»^٣.

فقد أشكل على بعض المفسّرين هذا التعبير «لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ...» لأنّه لرفع الإثم وليس للإلزام، فالآية تكون دالّة على جواز السعي بين الصفا والمروة لا الوجوب، مع أنّه إجماعي.

لكن إذا ما عرفنا سبب نزولها، لم يبق مجال لهذا الإشكال. وذلك أنّ مراسيم الحج والاعتمار كانت معهودة منذ العهد الجاهلي غير أنّ العرب

٢- البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٢.

١- الإتيقان، ج ١، ص ٨٢.

٣- البقرة ٢: ١٥٨.

كانوا قد لوّثوا من هذه المشاعر ببدع أبدعوها، من ذلك أنّهم كانوا قد وضعوا على الصفا صنماً على صورة رجل يقال له «أساف»، وعلى المروة صنماً آخر على صورة امرأة يقال لها «نائلة»، زعموا أنّهما زنيا في الكعبة فمسخهما الله حجرين، فوضعا على الجبلين ليعتبر بهما.. فلمّا طالت المدّة عبدتهما العرب جهلاً وسفهاً. فكانوا إذا طافوا بينهما مسحوهما تبرّكاً.

ثمّ لما جاء الإسلام وكسرت الأصنام، تخرّج المسلمون عن الطواف بينهما، زعماً أنّه كان من بدع الجاهلية تقرباً إلى الصنمين. فنزلت الآية لترفع هذه الشبهة عن أذهان المسلمين.^١

قال الإمام الصادق عليه السلام: كان المسلمون يرون أنّ الصفا والمروة ممّا ابتدع أهل الجاهلية، فأنزل الله هذه الآية.^٢

وروي عنه أيضاً: أنّ ذلك كان في عمرة القضاء. وذلك أنّ رسول الله ﷺ كان قد شرط عليهم أن يرفعوا أصنامهم. فتشاغل رجل من أصحابه حتى أعيدت الأصنام، فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن ذلك، وقيل له أنّ فلاناً لم يطف تحرجاً لما قد أعيدت الأصنام.. فأنزل الله هذه الآية.^٣

وقال تعالى: «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».^٤

قد يزعم زاعم أن لا بأس بتناول الخمرة إذا قوي إيمان الرجل وصلاح عمله، فإنّه لا يضرّه شرب المسكر قليلاً. هكذا كان يزعم عمرو بن معدي كرب كما قيل.^٥ وقيل: هو قدامة بن مظعون.^٦

٢ - مجمع البيان، ج ١، ص ٢٤٠.

٤ - المائدة ٥: ٩٣.

٦ - التفسير والمفسرون للذهبي، ج ١، ص ٦٠.

١ - راجع: أسباب النزول للواحدي، ص ٢٥.

٣ - تفسير العياشي، ج ١، ص ٧٠، ح ١٣٣.

٥ - الإتيقان، ج ١، ص ٨٣.

سوى أن الآية نزلت فيمن سلفت منه هذه الشيعة المنكرة ثم تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، فقد عفى الله عما سلف.

وقال تعالى: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».^١

فقد خفي وجه ارتباطها مع صدر الآية: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ». كما خفي المقصود من هذا الاستتكار على صنيع يبدو غريباً!

أمّا إذا راجعنا سبب النزول: «أَنَّ الْخُمْسَ^٢ وَهِيَ الْقِبَائِلُ السَّتُّ الْعَرَبِيَّةُ كَانَتْ إِذَا أَحْرَمَتْ امْتَنَعَتْ مِنَ الدَّخُولِ إِلَى الْخَبَاءِ أَوْ الْبُيُوتِ إِلَّا مِنْ ظُهُورِهَا، فَيَنْقُبُونَ فِي مَوَاقِفِهَا تَقْباً يَدْخُلُونَ وَيَخْرُجُونَ مِنْهُ». وبذلك يرتفع الإيهام بكلا جانبيه.

وقال تعالى: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ...».^٣

كانت العرب تدين بحرمة الشهور الأربعة امتداداً لملة إبراهيم عليه السلام. لكنهم ربّما كان يشقّ عليهم المكث طول ثلاثة أشهر لا يغزون، أو ربّما كانت الحرب على ساق فيهلّ أحد الأشهر الحرم، وكان يصعب عليهم ترك القتال. ولذلك كانوا ينسئون ذلك الشهر إلى وقت آخر ليستمرّوا في النهب والغزو وسفك الدماء..

وهكذا كانوا ينسئون بمراسم الحج لتتوافق مع فصل الربيع كلّ عام، وكان قد وافق الحجّ قبل حجة الوداع ذالقعدة، فلما حجّ النبي ﷺ في القابل، قال في خطبته: «أَلَا وَإِنَّ الزَّمانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً مِنْهَا

١ - البقرة ٢: ١٨٩

٢ - الخمس - بالضم فسكون - جمع أحمس وحمساء، بمعنى المتصلّب في دينه ومذهبه، أطلق على ست قبائل معروفة: قريش وخزاعة وكنانة وثقيف وجشم وبني عامرين صعصة. مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٨٤.

٣ - التوبة ٩: ٣٧.

أربعة حرم، ثلاثة متواليات ذوالقعدة وذوالحجّة والمحرم، ورجب الذي بين جمادي وشعبان...» أراد ﷺ أن الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها وعاد الحجّ إلى ذي الحجّة، وبطل النسيء.^١

الطريق إلى معرفة أسباب النزول

لمعرفة الصحيح من أسباب النزول طرق معهودة تعارف عليها أهل الاصطلاح، من تصحيح الإسناد أو استفاضة النقل أو تواتره، ممّا يقطع معه من صحّة الحادثة. لكن هناك وسيلة أخرى لعلّها أدقّ وأوفق للاعتبار وأكثر أطراً مع ضوابط دراسة التاريخ: أن يكون المأثور من شأن النزول ممّا يرفع الإيهام عن وجه الآية تماماً ويحلّ مشكلة تفسيرها على الوجه الأتمّ. على قيد أن لا يكون مخالفاً لضرورة دين أو متنافراً مع بديهة العقل الرشيد. الأمر الذي يكفي بنفسه شاهد صدق على صحّة الحديث أيّاً كان الإسناد. وممّا يجدر التنبيه له في هذا الباب، أن الطابع الغالب على أحاديث شأن النزول، هو الضعف والجهالة والإرسال، فضلاً عن الوضع والدس والتزوير. هكذا جاء في وصف الأئمة:

قال الإمام بدر الدين الزركشي: يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع، فإنّه كثير. قال الميموني: سمعت الإمام أحمد بن حنبل يقول: «ثلاث ليس لها أصول - أو لا أصل لها -: المغازي والملاحم والتفسير». أي لا أصل لها معتمداً عليه. قال المحققون من أصحابه: يعني أن الغالب، أنّها ليس لها أسانيد صحاح متصلة الإسناد. وإلا فقد صحّ من ذلك كثير.^٢

قال جلال الدين السيوطي: الذي صحّ من ذلك قليل جداً، بل أصل المرفوع منه (أي

المتّصل الإسناد) في غاية القلّة. وقد ذكر السيوطي في نهاية الكتاب ما لا يبلغ على الثلاثمائة حديث مرفوع، ما بين ضعيف وسقيم ومعضل. والباقي مرسل لاحتجّة فيه إطلاقاً.^١

الأمر الذي يعود لومه على السلف تساهلهم بأمر ضبط الحوادث، ومن ثمّ فإنّ رصيدنا اليوم بهذا الشأن ضئيل للغاية، ولا يفي بحاجة التفسير في سوى القليل.

هذا الواحدي عمد إلى جمع الشوارد من أسباب النزول، فلم يمكنه التحرّز عن الضعاف والمجاهيل وما لاحتجّة فيه. مثلاً نراه يروي كثيراً عن ابن عباس عن طريق الكلبي عن أبي صالح. قال جلال الدين السيوطي: وأوهى طرق التفسير طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، فان انضمّ إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير، فهي سلسلة الكذب. وكثيراً ما يخرج منها الثعلبي والواحدي.^٢

وقال - عند قوله تعالى: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا...»^٣: أخرج الواحدي والثعلبي من طريق السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، قال: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه... ثمّ قال: هذا الإسناد واه جداً، فإنّ السدي الصغير كذاب وكذا الكلبي وأبو صالح ضعيف.^٤

وعند قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا...»^٥ قال: أخرج الواحدي من طريق عبد الغني بن سعيد الثقفى... وهو واه جداً.^٦

وفي المطبوعة من نسخ أسباب النزول للواحدى تصحيف، ذكر الرواية عن عبدالعزيز بن سعيد^٧ وليس له ذكر في كتب التراجم.

١ - الإتيان، ج ٤، ص ١٨١ و ٢١٤ - ٢٥٧.

٢ - الإتيان، ج ٤، ص ٢٠٩.

٣ - البقرة ٢: ١٤.

٤ - لباب النقول، ج ١، ص ٩.

٥ - البقرة ٢: ٢٦.

٦ - لباب النقول، ج ١، ص ١١ بالهامش.

٧ - أسباب النزول للواحدى، ص ١٣.

وقوله: «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ...»^١ نزلت ردّاً على اليهود في تعييرهم تحويل القبلة - كما تقدّم - قال السيوطي: ماورد من الروايات بهذا المعنى إسنادها قويّ والمعنى يساعده أيضاً فليعتمد.^٢ قال: وفي الآية روايات أخر ضعيفة... منها ما رواه الواحدي وغيره عن أشعث السّمان.^٣ قال: وأشعث يضعّف في الحديث.^٤ قال الذهبي: أشعث بن سعيد أبو الربيع السّمان من الضعفاء، وقد تركه الدارقطني وغيره.^٥ وهذا جلال الدين السيوطي الناقم على الواحدي اعتماده المراسيل والمجاهيل نراه قد تورّط المناكير وما خالف العقل والشرع في موارد من اختياراته في شأن النزول من كتابه «لباب النقول».

مثلاً يروي بشأن نزول قوله تعالى: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ».^٦ من طريق البيهقي عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ وقف على حمزة حين استشهد بأحد، وقد مُثِّلَ به، فقال لأمثَلَنِّ بسبعين منهم مكانك. فنزل جبرائيل بهذه الآيات.^٧

قال: وأخرج الترمذي عن أبي بن كعب، قال: أصيب في أحد من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزة، وقد مثّلوا بهم. فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربينّ عليهم.. فلمّا كان يوم فتح مكة أنزل الله هذه الآيات. هذا مع العلم أن سورة النحل مكّية، نزلت آياتها كلّها بمكة قبل الهجرة. وقد ذكرنا ذلك فيما سبق.

٢ - لباب النقول، ج ١، ص ٢٤.

٤ - لباب النقول، ج ١، ص ٢٥.

٦ - النحل ١٦: ١٢٦ - ١٢٨.

١ - البقرة ٢: ١١٥.

٣ - أسباب النزول للواحدي، ص ٢٠.

٥ - المغني للذهبي، ج ١، ص ٩١.

٧ - لباب النقول، ج ١، ص ٢١٣.

هذا.. وقد أحسّ السيوطي نفسه بالوهن المذكور، ومن ثمّ لجأ إلى افتراض نزول الآيات ثلاث مرّات: قبل الهجرة، وبعدها بأحد، ثمّ يوم الفتح بمكة.^١ ويزيد في الطين بلّة، وجود أمثال هذه الغرائب في المدوّنات الحديثية الكبرى أمثال البخاري ومسلم وغيرهما ممّا زعمه القوم أصحّ كتب الحديث، لكنّها رغم هذا الزعم مليئة بهكذا أساطير لا تلتئم مع قدسية الإسلام.

وقد أسبقنا الحديث عن أسطورة الغرائيق، وقصة ابن نوفل، ممّا صحّحه القوم، وهي تمسّ كرامة القرآن وقدسيّة مقام النبوة. وإليك نموذجاً آخر: قال السيوطي: وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة في مسنده والواحي وغيرهم بسند فيه من لا يعرف، عن حفص بن ميسرة القرشي عن أمّه عن أمّها خولة وقد كانت خادم رسول الله ﷺ أنّ جرواً دخل بيت النبي ﷺ فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: يا خولة، ما حدث في بيت رسول الله ﷺ جبرائيل ما يأتيني؟ فقلت في نفسي: نوهيأت البيت فكنسته. فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو. فجاء النبي ﷺ وترتعد لحياه، وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة، فأنزل الله: «والضحىٰ النبي ﷺ وترتعد لحياه، وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة، فأنزل الله: «والضحىٰ - إلى قوله - فترضىٰ».^٢

قال ابن حجر - في شرح البخاري -: قصّة إيطاء جبرائيل بسبب وجود جرو كلب تحت سريرته ﷺ ولم يشعر به مشهورة. لكن كونها سبب نزول الآية غريب، بل شاذّ مردود.^٣

قلت: هذه القصّة المزعومة مدنيّة، والسورة مكّيّة بلا خلاف! غير أنّ الكذب تخونه ذاكرته!!

١ - الإتيان، ج ١، ص ٩٦؛ ولباب القول، ج ١، ص ٢١٤.

٢ - الضحىٰ ٩٣: ١ - ٥. راجع: الإتيان، ج ١، ص ٩٢؛ ولباب القول، ج ٢، ص ١٣٥ - ١٣٦.

٣ - فتح الباري، ج ٨، ص ٥٤٥.

وأخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن المسيّب، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبي ﷺ: أي عمّ قل: لا إله إلا الله، أحاجّ لك بها عند الله. فقال: أبو جهل وعبد الله: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال النبي ﷺ: لأستغفرنّ لك ما لم أُنه عنك. فنزلت «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ».^١

ويفتد هذه المزعومة، بل المكذوبة المفتعلة، أنّ أبا طالب ﷺ مات قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان عضداً قوياً لرسول الله ﷺ أمّا آية براءة فإنّها نزلت في سنة التسع من الهجرة، أي بعد وفاة أبي طالب باثنتي عشرة سنة. هذا فضلاً عن الدلائل الوفيرة على إسلام أبي طالب، ذكرناها في مجالها المناسب. ولا يقول بكفره إلا ذوو الأحقاد على الإسلام والمسلمين أحقاد بدر وحنين!

وقد لجأ السيوطي إلى افتراض نزول الآية مرّتين.^٢

وأسبقنا الكلام عن هذه الآية فيما قيل من استثناء آيات مكّة من سورة براءة المدينة.

وأخرج البخاري عن عمر بن الخطاب، قال: لما توفي عبد الله بن أبي بن سلول، جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثمّ سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، قال عمر: فأخذت ثوبه وقلت: تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله ﷺ: إنّما خيرني الله فقال: «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ».^٣ وسأزيد على السبعين.. قال: إنّ

١ - براءة ٩: ١١٣. راجع: صحيح البخاري، ج ٦، ص ٨٧، وج ٢، ص ١١٩.

٢ - الإتيان، ج ١، ص ٩٥.

٣ - براءة ٩: ٨٠.

مناق. قال: فصلّى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله: «وَلَا تُصَلُّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ»^١.

قال عمر: فعجبت بعُد من جرأتي على رسول الله.^٢

قلت: «وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ»^٣.

كيف يظنون بنبي الإسلام جهله - والعياذ بالله - بأحكام الإسلام، فيحاولوا اختلاق منقبة لابن الخطاب، وإن كانت قد تستدعي الحط من قداسة رسول الله ﷺ والمنقصة من كرامته. بل سوّلت لهم أنفسهم أمراً، فصبر جميل، والله المستعان على ما يصفون.

أولاً: النبي ﷺ معصوم، وكل أفعاله وأقواله وحتى تقريره، سنّة متّبعة، ليس لأحد - على الإطلاق - أن يعارضه فيأمره أو ينهاه ممّا يرتبط بأمر الشريعة. إن هذا إلا فضول وخروج عن الطاعة والاستسلام ومعاكسة صريحة مع قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ»^٤.

ومن ثمّ حاول أئمة النقد والتمحيص إنكار هذه الرواية. وقالوا: هذا وهم من الرواة. وعلّلوا ذلك بأنّه يستلزم أن يكون عمر قد اجتهد مع وجود النصّ.^٥

وحاول ابن حجر تصحيح الخبر والردّ على هؤلاء، لكنّه أتى بما يزيد في الطين بلّة، وفي الطنبور نعمة. انظر إلى سفاسفه:

يقول: زعم غير هؤلاء أنّ عمر اطّلع على نهْي خاصّ في ذلك. وقال القرطبي: لعلّ ذلك وقع في خاطر عمر، فيكون من قبيل الإلهام. ويحتمل أن يكون فهم ذلك من نهْي الاستغفار.

قال ابن حجر: وما قاله القرطبي أقرب. لأنّه لم يتقدّم نهْي عن الصلاة على المنافقين.

٢ - صحيح البخاري، ج ٦، ص ٨٥-٨٦.

٤ - الأحزاب ٣٣: ٢١.

٥ - ذكره عنهم ابن حجر في فتح الباري، ج ٨، ص ٢٥٢-٢٥٣.

١ - براءة ٩: ٨٤.

٣ - سبأ ٣٤: ٢٠.

بدليل أنه قال في آخر الحديث: فأنزل الله «وَلَا تُصَلُّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا»؟!

وثانياً: كيف علم عمر أن الصلاة على المنافق محرمة في الشريعة، ولم تنزل بتحريمها آية بعد - كما نبه عليه ابن حجر - أفهل يجوز أن يلهم عمر بما لا يعرفه مبلغ الشريعة؟!

وقد حاول ابن حجر محاولة أخرى في حل هذه المشكلة الثانية بما زاد وهناً في وهن وابتعاداً عن الحقيقة أكثر.

فقد أخرج عن ابن مردويه أن عمر قال له ﷺ: أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه! فقال له النبي ﷺ: أين؟ قال: قال: «اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ...».

قال ابن حجر: فكان عمر قد فهم من هذه الآية ما هو الأكثر الأغلب من لسان العرب، من أن «أو» ليست للتخير، بل للتسوية، في عدم الوصف المذكور.

قال: وفهم عمر أيضاً من قوله تعالى: «سَبْعِينَ مَرَّةً» أنها للمبالغة، وأن العدد المعين لا مفهوم له، بل المراد نفي المغفرة لهم ولو كثرت الاستغفار، فيحصل من ذلك النهي عن الاستغفار، فأطلقه.

وفهم أيضاً أن المقصود الأعظم من الصلاة على الميت طلب المغفرة للميت والشفاعة له، فلذلك استلزم عنده النهي عن الاستغفار ترك الصلاة.. قال: ولهذه الأمور استنكر على النبي ﷺ إرادة الصلاة على عبدالله بن أبي.

قال: هذا تقرير ما صدر عن عمر، مع ما عرف من شدة صلابته في الدين...!

يا للعجب من عقلية ابن حجر، كيف يتصور من عمر عملاقاً في فهم قضايا الدين والوقوف على مزايا اللغة، ممّا غفل عنه مثل رسول الله ﷺ الذي هو مبلغ الشريعة وأفصح من نطق بالضاد؟!

أمثل من لا يعرف الأب من القت^١ ويجهل الكثير من الآداب والسنن^٢ يقوم بتأنيب
ناموس الشريعة وصميم العربية الفصحاء؟! إن هذا إلا وهم ناشئ عن عصبية عمياء أعاذنا
الله منها!

وبعد.. فإذا قد عرفت قيمة ما أسند من روايات أسباب النزول الواردة في أهم الكتب
الحديثية، فكيف بالمقطوع والمرسل والمجهول. الأمر الذي ينبؤك عن أصالة مالدينا من
صحاح الروايات في هذا الباب. وقد صحّ كلام الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها أصل معتمد:
المغازي والملاحم والتفسير.

هذا السيوطي يخرج لقوله تعالى: «فَأَيْنَا تَوَلَّوْا فَمَّ وَجْهُ اللَّهِ»^٣ خمسة أوجه: الأول: إنه
في تحويل القبلة وارتباب اليهود في ذلك. عن ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق علي بن
أبي طلحة عن ابن عباس.

الثاني: أن تصلي حيثما توجهت به راحلتك. أخرجه الحاكم وغيره عن ابن عمر.
الثالث: إنه كان في سفر ليلة ظلماء فصلّى كل رجل على حياله لا يدرون أين وجه
القبلة. أخرجه الترمذي من حديث عامر بن ربيعة. وكذا الدارقطني من حديث جابر.
الرابع: لما نزلت «أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»^٤ قالوا: إلى أين؟ فنزلت. أخرجه ابن جرير عن
مجاهد.

الخامس: عن قتادة أن النبي ﷺ قال: إِنَّ أَخَا لَكُمْ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ، فقالوا: إنه كان
لا يصلّي إلى القبلة.. فنزلت..

قال السيوطي - تعقيباً على ذلك -: فهذه خمسة أسباب مختلفة، وأضعفها الأخير

١ - أخرج الطبري في التفسير، ج ٣٠، ص ٣٨، عن أنس قال: قرأ عمر سورة عبس، فلما أتى على هذه الآية «وَفَاكِهَةً وَأَبْنَا»
قال: عرفنا الفاكهة فما الأب؟.. ثم قال: إن هذا لهو التكلف! وأورده ابن كثير في تفسيره: ج ٤، ص ٤٧٣، وصححه... ثم
تعجب من عدم فهم عمر معنى الأب، لأن الكل يعلم أنه من نبات الأرض مما يقتات به البهائم لقوله تعالى بعد ذلك
«مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَعْمَالِكُمْ» فالأب علف الدواب كالقت.

٢ - راجع: نوادر الأثر في علم عمر: (الغدير، ج ٦، ص ٨٣).

٣ - غافر ٤٠: ٦٠.

٤ - البقرة ٢: ١١٥.

لإعضاله. ثمّ ما قبله لإرساله. ثمّ الثالث لضعف روايته. والثاني صحيح لكنّه قال: قد أنزلت في كذا، ولم يصرّح بالسبب. والأوّل صحيح الإسناد وصرّح فيه بذكر السبب فهو المعتمد.^١

سبب النزول أو شأن النزول

ما هو الفارق بين قولهم: «سبب النزول» أو «شأن النزول»؟

إن كانت هناك مشكلة حاضرة، سواء أكانت حادثة أبهم أمرها، أم مسأله خفي وجه صوابها، أم واقعة ضلّ سبيل مخرجها، فنزلت الآية لتعالج شأنها وتضع حلّاً لمشكلتها، فتلك هي أسباب النزول، أي السبب الداعي والعلّة الموجبة لنزول قرآن بشأنها.

وهذا أخصّ من قولهم: «شأن النزول». لأنّ الشأن أعمّ مورداً من السبب - في مصطلحهم - بعد أن كان الشأن يعني: الأمر الذي نزل القرآن - آية أو سورة - لتعالج شأنه بياناً وشرحاً أو اعتباراً بمواضع اعتباره. كما في أكثرية قصص الماضين والإخبار عن أمم سالفين، أو عن مواقف أنبياء وقدّيسين، كانت مشوّهة وكادت تمسّ من كرامتهم أو تحطّ من قدسيّتهم، فنزل القرآن ليعالج هذا الجانب، ويبيّن الصحيح من حكاية حالهم والواقع من سيرتهم بما يرفع الإشكال والإيهام، وينزّه ساحة قدس أولياء الله الكرام.

وعليه فالفارق بين السبب والشأن - اصطلاحاً - أنّ الأول يعني مشكلة حاضرة لحادثة عارضة. والثاني مشكلة أمر واقع، سواء أكانت حاضرة أم غابرة. وهذا اصطلاح ولا مشاحة فيه.

وقولهم: نزلت في كذا. أعمّ، قد يراد السبب العارض، وقد يراد شأن أمر واقع في الغابر. وأحياناً يراد بيان حكم وتكليف شرعي دائم. قال الزركشي: وقد عرف من عادة

الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها.^١

إلا أن السيوطي خص أسباب النزول بالنوع الأول، ورفض أن يكون بيان قصة سالفه سبباً لنزول سورة أو آية قرآنية، ومن ثم اعترض على الواحدي - في أسباب النزول - قوله: نزلت سورة الفيل في قصة أصحاب أبرهة الذي جاء لهدم الكعبة.^٢

قال: والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه، ليخرج ما ذكره الواحدي في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصة قوم نوح و عاد و ثمود وبناء البيت ونحو ذلك.^٣ مع أن الواحدي لم يصرح بالسبب، بل ذكر أنها نزلت في قصة أصحاب الفيل.

ولأوجه لما تضايق السيوطي على نفسه وعلى الآخرين، بعد أن كان المصطلح على دواعي النزول هي المناسبات المقتضية لنزول قرآن، سواء أكانت حادثة واقعة، أم اختلافاً في مسألة شرعية فرعية أو عقائدية، أم قصة غابرة كانت ذات عبرة أو موضع اختلاف، فأراد الله تعالى تحريرها وتهذيبها وتطهير ساحة قدس أوليائه الكرام.

التنزيل والتأويل

سأل الفضيل بن يسار الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام عن الحديث المعروف «ما في القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن»؟ فقال عليه السلام: «ظهره تنزيله وبطنه تأويله. منه ما قد مضى ومنه ما لم يكن، يجري كما يجري الشمس والقمر...».^٤

٢ - أسباب النزول للواحدي، ص ٢٥٩.

١ - البرهان للزركشي، ج ١، ص ٣١ - ٣٢.

٤ - بصائر الدرجات، ص ١٩٦، ح ٧.

٢ - لباب القول، ج ١، ص ٥.

وقال عليه السلام: «ظهر القرآن الذين نزل فيهم، وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم...»^١.
ذلك أن للآية وجهاً مرتبطاً بالحادثة الواقعة - التي استدعت نزولها - ووجهاً آخر
عاماً تكون الآية بذلك دستوراً كلياً يجري عليه المسلمون أبدياً، وكما أن الآية عالجت
- بوجهها الخاص - مشكلة حاضرة، فإنها - بوجهها العام - سوف تعالج مشاكل الأمة على
مرّ الأيام.

قال الإمام أبو جعفر عليه السلام: «ولو أن الآية نزلت في قوم ثمّ مات أولئك القوم ماتت الآية
لما بقي من القرآن شيء ولكن القرآن يجري أوّله على آخره مادامت السماوات والأرض.
ولكلّ قوم يتلونّها، هم منها من خير أو شرّ»^٢.

نعم، إنّ الحكمة في نزول آية أو سورة، ليست بالتي تقتصر على معالجة مشاكل
حاضرة، وليست دواءً وقتياً لداءٍ عارضٍ وقتي. إذن تنتفي فائدتها بتبدّل الأحوال
والأوضاع. بل القرآن، في جميع آيه وسوره، نزل علاجاً لمشاكل أمة بكاملها في طول
الزمان وعرضه. وإلى ذلك يشير قولهم عليه السلام: «نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي يا جارة»^٣.
وهذا الوجه العام للآية، هو ناموسها الأكبر، الكامن وراء ذلك الوجه الخاص، وإنّما
يلقي بأضوائه على الآفاق من وراء ذلك الستار الظاهري، وتتبعث أنواره من ذلك البطن
الكامن وراء هذا الظهر.

وهذا من اختصاص القرآن في بيان مقاصده من الوجهين الخاص والعام، ومن ثمّ
فإنّ له تنزيلاً (الذين نزل فيهم) وتأويلاً (الذين عملوا بمثل أعمالهم) وذلك ظهره وهذا
بطنه.

غير أنّ الوقوف على تأويل القرآن وفهم بطون الآيات، إنّما هو من اختصاص
الراسخين في العلم، ممّن ثبتوا على الطريقة فسقاهم ربّهم ماءً غدقاً^٤.

١ - تفسير العياشي، ج ١، ص ١١، ح ٤.

٢ - المصدر، ص ١٠، ح ٧.

٣ - المصدر، ح ٤.

٤ - من الآية رقم ١٦ من سورة الجن.

ومن ثمّ قال الإمام أبو جعفر - بعد أن تلا الآية -: «نحن نعلمه» أي التأويل^١ وفي رواية أخرى: «تعرفه الأئمة»^٢.

قال تعالى: «وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَا تُولَوْنَا فَمَنْ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»^٣.
هذه الآية نموذج من الآيات ذوات الوجهين، لها تنزيل ولها تأويل، ظهر وبطن، وإنما يعلم سرّها الكامن العامّ أولوا البصائر في الدين الأئمة المعصومون عليهم السلام.
هذه الآية تبدو - في ظاهرها - متعارضة مع آيات توجب التوجّه في الصلاة شطر المسجد الحرام^٤ ولكن مع ملاحظة سبب النزول، وإنّه دفع لشبهة اليهود ورفع لارتياهم في تحويل القبلة، يتبيّن أن لامعارضة، ويرتفع الإيهام عن وجه الآية. ذلك أن الاستقبال في الصلاة والعبادات أمر اعتباري محض، ينوط باعتبار صاحب الشريعة في مصالح يراها مقتضية حسب الأحوال والأوضاع، وليس وجه الله محصوراً في زاوية القدس الشريف أو الكعبة المكرّمة.

وبذلك تنحلّ مشكلة الآية وترتفع إيهامها، وأن ليس ترخيصاً في الاتجاه بسائر الجهات.

هذا.. وقد فهم الأئمة عليهم السلام أمراً آخر أيضاً، استخرجوه من باطن الآية، حيث تأويلها المستمرّ. وأنها تعني جواز التطوّع بالتوافل إلى حيث توجّهت به راحلتك، أو اشتبهت القبلة، فتصلي إلى أيّ الجهات شئت. هكذا وجدنا صراحة الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام^٥.

قال سيّدنا الطباطبائي رحمته الله: إنك إذا تصفّحت كلمات الأئمة عليهم السلام في عموم القرآن وخصوصه، ومطلقه ومقيّده، لوجدت كثيراً ما، استفادة حكم من عموم الآية، ثمّ استفادة

٢ - المصدر، ح ٨.

١ - بصائر الدرجات، ص ١٩٦، ح ٧.

٤ - البقرة ٢: ١٤٤ و ١٤٩ و ١٥٠.

٢ - البقرة ٢: ١١٥.

٥ - راجع: وسائل الشيعة، باب ٨ و ١٥ من أبواب القبلة، ج ٣، ص ٢٢٥ و ٢٣٩؛ وتفسير العياشي، ج ١، ص ٥٦ - ٥٧.

حكم آخر مع ملاحظة خصوصها. فقد يستفاد «الاستحباب» من الآية من وجه عمومها، و«الوجوب» من وجهها الخاص، وهكذا «الحرمة» و«الكراهة» من الوجهين للآية بذاتها. قال: وعلى هذا المقياس تجد أصولاً هي مفاتيح لكثير من مغالق الآيات. وإنما تجدها في كلماتهم ﷺ لا غيرهم. قال: ومن هنا يمكنك أن تستخرج من لباب كلامهم في المعارف القرآنية قاعدتين أساسيتين:

الأولى: أن كل عبارة من عبارات الآية الواحدة، فإنها لو حدها تفيد معنى و تلقي ضوءاً على حكم من أحكام الشريعة.. ثم هي مع العبارة التالية لها، تفيد حكماً آخر، ومع الثالثة حكماً ثالثاً. وهكذا دواليك.

مثلاً قوله تعالى: «قُلِ اللَّهُ تُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ»^١ فقوله: «قُلِ اللَّهُ» جملة تامة الإفادة. وهي مع قوله: «تُمَّ ذَرَهُمْ» أيضاً كلام آخر هو تام. ومع «فِي خَوْضِهِمْ». وكذا مع «يَلْعَبُونَ» كلاً كلام ذو فائدة تامة.

واعتبر نظير ذلك في كل آية شئت من آيات القرآن.

الثانية: أن القصتين أو المعنيين إذا اشتركا في جملة أو نحوها، فهما راجعان إلى مرجع واحد.

قال: وهاذان سران، تحتها أسرار. والله الهادي.^٢

وقوله تعالى: «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا».^٣

قيل: نزلت بشأن الجن استأذنوا رسول الله ﷺ أن يشهدوا مسجده. وقد كان صعباً عليهم وهم منتشرون في فجاج الأرض. فنزلت: إن كل موضع من الأرض فهو مسجد لله يجوز التعبد فيه. سوى أنه يجب الإخلاص في العبادة في أي مكان كانت.^٤ وهكذا روي

٢ - تفسير الميزان، ج ١، ص ٢٦٢.

٤ - لباب القول، ج ٢، ص ١٢١.

١ - الأنعام ٩١: ٦.

٣ - الجن ٧٢: ١٨.

عن سعيد بن جبير.

هذا إذا أخذت «المساجد» بمعنى «المعابد»: أمكنة العبادة.

وربما فسرت بمعنى المصدر، وأنّ العبادات بأسرها خاصّة بالله تعالى لا يجوز السجود لغيره. روي ذلك عن الحسن.

وقال جمع من المفسرين كسعيد بن جبير والزجاج والفراء: إنّها المواضع السبعة حالة السجود، وهي لله، إذ هو خالقها والذي أنعم بها على الإنسان. فلا ينبغي أن يسجد بها لأحد سوى الله تعالى.^١

وبهذا المعنى الأخير أخذ الإمام أبو جعفر محمد بن علي الجواد عليه السلام حينما سأله المعتصم العباسي عن هذه الآية، فقال: هي الأعضاء السبعة التي يُسجد عليها.^٢

وكان هذا الحادث في قصّة سارق جيء به إلى مجلس المعتصم، فاختلف الفقهاء الحضور في موضع القطع من يده. فكان من رأي الإمام عليه السلام أن يقطع من مفصل الأصابع. ولمّا سأله المعتصم عن السبب، أجاب بأنّ راحة الكفّ، هي إحدى مواضع السجود السبعة، وأنّ المساجد لله، فلا تقطع.^٣

وهكذا، وبهذا الأسلوب البديع استنبط عليه السلام من تعبير القرآن دليلاً على حكم شرعيّ كان حلاً قاطعاً لمشكلة الفقهاء حلاً أبدياً.

وهذا من بطن القرآن وتأويله الساري مع كلّ زمان. تعرفه الأئمة، إمام كلّ عصر حسب حاجة ذلك العصر. قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ للقرآن تأويلاً، فمنه ما قد جاء ومنه

١ - وهكذا فسرها الأئمة من أهل البيت فيما ورد من التفسير المأثور ومجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٧٢؛ وتفسير البرهان، ج

٤، ص ٣٩٤ - ٣٩٥. ٢ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٧٢.

٣ - وسائل الشيعة، باب ٤ من أبواب حدّ السرقة، ج ١٨، ص ٤٩٠، ح ٥.

مالم يجيء، فإذا وقع التأويل في زمان إمام من الأئمة عرفه إمام ذلك الزمان»^١.
 قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «ما يستطيع أحد أن يدعي أن عنده جميع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء»^٢.
 وقال الصادق عليه السلام: «والله، إنني لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره كأنه في كفي. فيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر ما كان وخبر ما هو كائن. فيه تبيان كل شيء - كما قال تعالى»^٣.

هل يجب حضور ناقل السبب؟

ذكر الواحدي أنه لا يحل القول في أسباب النزول، إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها^٤.
 وهذا الاشتراط إنما هو من أجل الاستيثاق بأن ما ينقله حكاية عن حس مشهود، لا أنه من اجتهاد أو تخرص بالغيب. ومن ثم من عرفناه صادقاً في لهجته، ثقةً في إخباره، حذراً واعياً يتجنب الحدس والتخمين، ولا يخبر إلا عن علم، ولا يروي إلا عن يقين. فإن مثله مصدق ولو كان غائب المشهد. ومن ثم نعتد قول خيار الصحابة. ولولم يصرح بحضوره المشهد، وكذا إخبار التابعين لهم بإحسان، ومن بعدهم من أئمة صادقين.
 ولنفس السبب نعتد أقوال أئمتنا المعصومين بشأن تفسير القرآن، تنزيله وتأويله، لأنهم أعرف الخلق بعلوم القرآن ظاهره وباطنه، سوى أن المهم هو العلم بصحة الإسناد إليهم أو تواتر النقل وقليل ما هو.

١ - بصائر الدرجات، ص ١٩٥، ح ٥.

٢ - الكافي، ج ١، ص ٢٢٨، ح ٢.

٣ - الكافي، ج ١، ص ٢٢٩، ح ٤؛ والآية من سورة النحل: ٨٩ «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ».

٤ - أسباب النزول للواحدي، ص ٤.

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد

هذه قاعدة أصولية مطّردة في جميع أحكام الشريعة المقدّسة، فما يصدر من منابع الوحي والرسالة بشأن بيان أحكام الله وتكاليفه للعباد، ليس يخصّ مورداً دون مورد، ولم يأت الشرع لمعالجة حوادث معاصرة، وإنّما هو شرع للجميع. الأمر الذي دعا بالفقهاء إلى إلغاء الخصوصيات المورديّة والأخذ بإطلاق الحكم، إن لفظياً أو مقامياً، حسب المصطلح.

هذا بالنسبة إلى كافّة أحكام الشريعة، سنّة وكتاباً، وإن كان في الكتاب آكد. وقد عرفت صريح الروايات بهذا العموم في آيات القرآن. فكلّ ما في القرآن من أحكام وتكاليف واردة في الآيات الكريمة، فإنّما ينظر إليها الفقهاء من الوجه العامّ، ولا يابهون بخصوص المورد إطلاقاً.

نعم هناك بعض الخطابات مع فئات معهودة، صدرت على نحو القضية الخارجية^١، فإنّها لا تعمّ بلفظها، وإن كانت قد تعمّ بملاكها، إذا كان قد أحرز يقيناً. وفي القرآن منه كثير. قال تعالى: «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقْبَلُوا الْحَدِيثَ مِنَ الرُّسُلِ وَأَقْبَلُوا الرِّسَالَاتِ مِنْ رَبِّهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»^٢. «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقْبَلُوا الْحَدِيثَ مِنَ الرُّسُلِ وَأَقْبَلُوا الرِّسَالَاتِ مِنْ رَبِّهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»^٣.

نزلت الآية بشأن المؤمنين بعد منصرفهم من وقعة «أحُد» وقد أصابهم القرع الشديد. وكان أبوسفیان حاول الكرّة وتندّم على انصرافه عن القتال. وبلغ الخبر للمسلمين، وكان الذي أشاع الخبر هو نعيم بن مسعود الأشجعي، كما في الحديث عن الإمامين الباقر والصادق (عليه السلام).^٣ وقيل: الركب الذي دسّه أبوسفیان للإرجاف بالمؤمنين. وقيل: هم المنافقون بالمدينة.

١ - من مصطلح علم الميزان (المنطق) وهو عبارة عن معهوديّة الموضوع في القضية، كقولك: أكرم من في المسجد أو في المدرسة، تريد من هو في مسجد البلد أو مدرسته في الحال الحاضر. وليس في كلّ الأزمان وكلّ المساجد والمدارس على الإطلاق.

٢ - آل عمران ٣: ١٧٢ - ١٧٣.

٣ - مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٤١.

لكن المؤمنين الصادقين صمدوا على الثبات والإيمان وعزموا على مجابهة العدو بكل مجهودهم، وانتدبهم رسول الله ﷺ قصداً لإرهاب المشركين، وفي مقدمة المنتدبين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

والشاهد في قوله تعالى: «قَالَ لَهُمُ النَّاسُ» إشارة إلى أناس معهودين أو فرد معهود. والمقصود من «الناس» الذين جمعوا لهم، هم أصحاب أبي سفيان.

نعم مجموعة هذه الحادثة تفيدنا مسألة الثبات على الإيمان وأن لا نهاب عدواً ولا تجمع الناس ضد الحق مادام الله ناصرنا وكافلنا، نعم المولى ونعم النصير.

وقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. حَتَّىٰ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»^١.

إنما يعني الذين كفروا على عهده ﷺ وعاندوا وأصرّوا على اللجاج، بعد وضوح الحق وسطوع البرهان. وليس مطلق الكفار على مر الزمان. وهذا تئيس للنبي ﷺ فلا تذهب نفسه عليهم حسرات.

قال العلامة الطباطبائي رحمه الله: ولا يبعد أن يكون المراد هم الكفار من صناديد قريش وكبراء مكة الذين عاندوا ولجّوا في أمر الدين ولم يألوا جهداً في ذلك. إذ لا يمكن استطراد هذا التعبير في حق جميع الكفار، وإلاّ لانسدّ باب الهداية. فالأشبه أن يكون المراد من «الَّذِينَ كَفَرُوا» هاهنا وفي سائر الموارد من كلامه تعالى هم كفار مكة في أول البعثة، إلاّ أن تقوم قرينة على خلافه. نظير ما سيأتي أن المراد من قوله: «الَّذِينَ آمَنُوا» فيما أطلق في القرآن من غير قرينة على إرادة الإطلاق، هم السابقون الأولون من المؤمنين. خصّوا بهذا الخطاب تشريفاً^٢.

وهكذا قال الله في تفسير سورة الكافرون: هؤلاء قوم معهودون لا كلّ كافر. ويدلّ عليه أمره ﷺ أن يخاطبهم ببراءته من دينهم وامتناعهم من دينه^٣.

١- البقرة ٢: ٦-٧.

٢- تفسير الميزان، ج ١، ص ٥٠.

٣- المصدر، ج ٢٠، ص ٥٢٦.

وبذلك تنحل مشكلة كثير من الآيات جاءت بهذا التعبير وأشباهه.
نعم هذا الحكم يسري فيمن شابه أولئك في العناد واللجاج مع الحق بعد الوضوح.

نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي يا جارة

هكذا روى أبو النضر محمد بن مسعود العياشي بإسناده عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام فيما رواه عنه عبد الله بن بكير قال: «نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي يا جارة»^١ وهذا مثل يضرب لمن يخاطب شخصاً أو يتكلم عن أمر، وهو يريد غيره، على سبيل الكناية أو التعريض.

وروى بإسناده عن ابن أبي عمير عن حدّثه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما عاتب الله نبيّه فهو يعني به من قد مضى في القرآن. مثل قوله: «وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً»^٢ عني بذلك غيره عليه السلام^٣.

قوله: «من قد مضى في القرآن» أي مضى ذكره إشارة أو تلويحاً وربّما نصّاً. والأكثر أن يراد أمته عليه السلام بالعتاب، ولا سيّما المؤمنون صدر الإسلام، كانوا على قلق واضطراب في مواضعهم مع الكفار.

وبهذا المعنى ورد قولهم عليه السلام فيما رواه محمد بن مسلم عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: يا محمّد إذا سمعت الله ذكر أحداً من هذه الأمّة بخير فنحن هم. وإذا سمعت الله ذكر قوماً بسوء ممّن مضى فهم عدوّنا^٤.

لأن القرآن يجري أوّله على آخره مادامت السماوات والأرض. ولكل قوم آية يتلونّها هم منها من خير أو شرّ^٥. قال عليه السلام: «ظهر القرآن الذين نزل فيهم، وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم»^٦.

١ - تفسير العياشي، ج ١، ص ١٠، ح ٤.

٢ - الإسراء ١٧: ٧٤.

٣ - تفسير العياشي، ج ١، ص ١٠، ح ٥.

٤ - المصدر، ص ١٣، ح ٣.

٥ - المصدر، ص ١٠، ح ٧.

٦ - المصدر، ص ١١، ح ٤.

تاريخ القرآن

تأليف القرآن

تأليف القرآن في شكله الحاضر، في نظم آياته وترتيب سورته، وكذلك في تشكيله وتنقيطه وتفصيله إلى أجزاء ومقاطع، لم يكن وليد عامل واحد، ولم يكتمل في فترة الوحي الأولى. فقد مرّت عليه أدوار وأطوار، ابتدأت بالعهد الرسالي، وانتهت بدور توحيد المصاحف على عهد عثمان، ثم إلى عهد الخليل بن أحمد النحويّ الذي أكمل تشكيله بالوضع الموجود.

وهو بحث أشبه بمعالجة قضيّة تاريخية مزيّلة، عن أحوال وأوضاع مرّت على هذا الكتاب السماوي الخالد. غير أنّ مهمّتنا الآن هي العناية بدراسة القرآن من زاوية جمعه وتأليفه مصحفاً بين دفتين، والبحث عن الفترة التي حصل فيها هذا الجمع والتأليف، وعن العوامل التي لعبت هذا الدور الخطير. ومن ثمّ سنفصّل الكلام عن القرآن في عهده الأوّل الذي لم يتجاوز نصف قرن، ثمّ نوجز الكلام في أحوال مرّت عليه في أدوار متأخرة. والبحث الحاضر يكتمل في ثلاث مراحل أساسيّة:

أولاً: نضد الكلمات في صياغتها الحاضرة هي صنيع الوحي لاغيره إطلاقاً على ما

أسلفنا البحث عنه.^١ كما لم تتبدّل ولم تتغيّر صياغتها بزيادة أو نقيصه أو بتغيير موضعي من تقديم أو تأخير، حسب ما بيّناه في دلائلنا على صيانة القرآن من التحريف: ^٢ «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».^٣

ثانياً: نظم الآيات وترتيبها القائم ضمن السور وفي أعدادها الخاصّة، شيء حصل على عهد الرسالة توقيفياً وبنصّ صاحب الشريعة لم تمسه يد إطلاقاً: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».^٤

ثالثاً: ترتيب السور بين دفتين في صورة مصحف كما هو الآن. هذا أمر بقي مؤجّلاً إلى ما بعد وفاته ﷺ حيث ترقّب الوحي ونزول آيات وسور، مادام ﷺ على قيد الحياة. وإليك التفصيل:

نضد كلماته

لا شك أنّ العامل في نظم كلمات القرآن وصياغتها جملاً وتراكيب كلاميّة بديعة، هو الوحي السماويّ المعجز، لم يتدخل فيه أيّ يد بشريّة إطلاقاً. كما ولم يحدث في هذا النظم الكلامي أي تغيير أو تحريف عبر العصور: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^٥ إذ في ذلك يتجسّد سرّ ذلك الإعجاز الخالد الذي لا يزال يتحدّى به القرآن الكريم. ولمزيد التوضيح نعرض ما يلي:

أولاً: إسناد الكلام إلى متكلّم خاصّ يستدعي أن يكون هو العامل في تنظيم كلماته وتنسيق أسلوبه التعبيري الخاصّ. أمّا إذا كان هو منتقياً كلمات مفردة وجاء آخر فنظّمها في أسلوب كلاميّ خاصّ، فإنّ هذا الكلام ينسب إلى الثاني لا الأوّل. وهكذا القرآن المجيد هو كلام الله العزيز الحميد، فلا بدّ أن يكون الوحي هو العامل الوحيد في تنظيم كلماته جملاً وتراكيب كلاميّة بديعة، أمّا نفس الكلمات من غير اعتبار التركيب والتأليف

١ - «صياغة القرآن صناعة الوحي».

٢ - صيانة القرآن من التحريف، ص ٣٦-٥٧.

٣ - فصلت ٤١: ٤٢.

٤ - الحجر ١٥: ٩.

٥ - الحجر ١٥: ٩.

فكان العرب يتداولونها ليل نهار، إنما الإعجاز في نظمها، جاء من قبل وحي السماء. ثانياً: كان القسط الأوفر من إعجاز القرآن كامناً وراء هذا النظم البديع وفي أسلوبه هذا التعبيري الرائع، من تناسب نغمي مُرنّ، وتناسق شعريّ عجيب، وقد تحدّى القرآن فصحاء العرب وأرباب البيان - بصورة عامّة - : لو يأتون بمثل هذا القرآن، ولا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.^١ فلو جوّزنا - محالاً - إمكان تدخل يد بشرية في نظم القرآن، كان بمعنى إبطال ذاك التحديّ الصارخ. ومن ثمّ كان ما ينسب إلى ابن مسعود: جواز تبديل العهن بالصوف في الآية الكريمة^٢ أو قراءة أبي بكر: «وجاءت سكرة الحقّ بالموت»^٣ مكذوباً أو هو اعتبار شخصي لا يتّسم بالقرآنية في شيء.

ثالثاً: اتفاق كلمة الأمة في جميع أدوار التاريخ على أنّ النظم الموجود والأسلوب القائم في جمل وتراكيب الآيات الكريمة هو من صنع الوحي السماوي لا غيره. الأمر الذي التزم به جميع الطوائف الإسلامية، على مختلف نزعاتهم وآرائهم في سائر المواضع. ومن ثمّ لم يتردّد أحد من علماء الأدب والبيان في آية قرآنية جاءت مخالفة لقواعد رسموها، في أخذ الآية حجة قاطعة على تلك القاعدة وتأويلها إلى ما يلتئم و تركيب الآية. وذلك علماً منهم بأنّ النظم الموجود في الآية وحي لا يتسرّب إليه خطأ ألبتة، وإنما الخطأ في فهمهم هم وفيما استنبطوه من قواعد مرسومة.

مثال ذلك قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ»^٤ فزعموا أنّ الحال لا تتقدّم على صاحبها المجرور بحرف، والآية جاءت مخالفة لهذه القاعدة. ومن ثمّ وقع بينهم جدال عريض ودار بينهم كلام في صحّة تلك القاعدة وسقمها^٥ ولجأ ابن مالك أخيراً إلى نبذ القاعدة بحجة أنّها مخالفة للآية، قال:

وسبق حال ما بحرف جرٍ قد أبوا ولا أمنعه فقد ورد

١ - الإسراء: من الآية ٨٨.

٢ - القارعة ١٠١: ٥. راجع: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ص ٢٤.

٣ - ق ٥٠: ١٩. راجع: جامع البيان، ج ٢٦، ص ١٠٠. ٤ - سبأ ٣٤: ٢٨.

٥ - راجع: شرح التوضيح، لخالد الأزهرى، باب الحال، فصل: وللحال المؤسسة مع صاحبها ثلاث حالات. والكشاف للزمخشري.

نظم آياته

وأما تأليف الآيات ضمن كل سورة، على الترتيب الموجود، فهذا قد تحقق في الأكثر الساحق.. وفق ترتيب نزولها: كانت السورة تبتدأ بسم الله الرحمن الرحيم فتسجل الآيات التي تنزل بعدها من نفس هذه السورة، واحدة تلو أخرى تدريجياً حسب النزول، حتى تنزل بسملة أخرى، فيعرف أن السورة قد انتهت وابتدأت سورة أخرى.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «كان يعرف انقضاء السورة بنزول بسم الله الرحمن الرحيم ابتداء لأخرى»^١.

قال ابن عباس: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف فصل سورة بنزول بسم الله الرحمن الرحيم، فيعرف أن السورة قد ختمت وابتدأت سورة أخرى»^٢.

كان كتبة الوحي يعرفون بوجوب تسجيل الآيات ضمن السورة التي نزلت بسملتها، حسب ترتيب نزوله واحدة تلو أخرى كما تنزل، من غير حاجة إلى تصريح خاص بشأن كل آية آية.

هكذا ترتبت آيات السور وفق ترتيب نزولها على عهد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وهذا ما نسميه «الترتيب الطبيعي» وهو العامل الأول الأساس للترتيب الموجود بين الآيات في الأكثرية الغالبة، سوى ما شذ على خلاف هذا الترتيب.

والمعروف أن مصحف علي عليه السلام وضع على دقة كاملة من هذا الترتيب الطبيعي للنزول. الأمر الذي تخلّفت عنه مصاحف سائر الصحابة، على ما سنشير.

روى جابر عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «إذا قام قائم آل محمد عليه السلام ضرب فساطيط لمن يعلم الناس القرآن، على ما أنزل الله جلّ جلاله فأصعب ما يكون على من حفظه اليوم، لأنه يخالف فيه التأليف»^٣ أي التأليف الحاضر في ترتيب سورته وبعض آية،

١ - تفسير العياشي، ج ١، ص ١٩، ح ٥.

٢ - المستدرک على الصحيحين، ج ١، ص ٢٣١؛ وتاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٢٧.

٣ - بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٣٣٩، ح ٨٥؛ والإرشاد للمفيد، ج ٢، ص ٢٨٦.

كما ننبّه.

وهناك عامل آخر عمل في نظم قسم من الآيات على خلاف ترتيب نزولها، وذلك بنصّ من رسول الله ﷺ وتعيينه الخاصّ: كان يأمر - أحياناً - بثبت آية في موضع خاصّ من سورة سابقة كانت قد ختمت من قبل. ولا شكّ أنّه ﷺ كان يرى المناسبة القرينة بين هذه الآية النازلة والآيات التي سبق نزولها، فيأمر بثبتها معها بإذن الله تعالى.

وهذا جانب استثنائي للخروج عن ترتيب النزول، كان بحاجة إلى تصريح خاصّ: روى أحمد في مسنده عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شخّص ببصره، ثمّ صوّبه. ثمّ قال: أتاني جبرائيل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ...»^١ فجعلت في سورة النحل بين آيات الاستشهاد وآيات العهد. وروى أن آخر آية نزلت قوله تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ»^٢ فأشار جبرائيل أن توضع بين آيتي الربا والدّين من سورة البقرة.^٣ وعن ابن عباس والسدي: أنّها آخر ما نزلت من القرآن. قال جبرائيل: ضعها في رأس الثمانين والمائتين،^٤ ولا تخفى المناسبة القرينة بينها وبين آيتي الربا والدّين. وكذا الآية السابقة في سورة النحل! وعن ابن عباس أيضاً: قال: كان رسول الله ﷺ يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا.^٥

هذا ممّا لا خلاف فيه، كما صرّح بذلك أبو جعفر بن الزبير، قال: «ترتيب الآيات في سُورِها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين».^٦ وربما كانت تنزل السورة وقبل أن تكتمل، تفتتح سورة أخرى وتكتمل هذه الأخيرة قبل أن تكتمل الأولى. وذلك أيضاً كان بأمر النبي ﷺ وبإشارته. كما في سورة البقرة هي

٢ - البقرة ٢: ٢٨١.

١ - النحل ١٦: ٩٠.

٤ - مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٩٤.

٣ - الإتيان، ج ١، ص ١٧٣ و ٧٨.

٥ - أخرجه الترمذي بطريق حسن، والحاكم بطريق صحيح. راجع: البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٤١؛ وتاريخ يعقوبي، ج

٦ - الإتيان، ج ١، ص ١٧٢.

٢، ص ٣٦.

أولى سورة ابتداء نزولها بالمدينة بعد الهجرة. لكنّها استمرّ نزولها سنوات حتى إلى ما بعد سنة الست. إذ فيها الكثير من آيات نزلن في هذه الفترات المتأخّرة، منها آية «إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا»^١. أنّها نزلت عندما تحرّج المسلمون من السعي بين الصفا والمروة لمكان أساف ونائلة عليهما، وكان المشركون وضعوهما على الجبلين يطوفون بهما ويلمسونهما.. فنزلت الآية دفعاً لتوهم الحظر. الأمر الذي يستدعي نزولها بعد صلح الحديبية في عمرة القضاء^٢ وهو عام الست من الهجرة. أو لعلّ النبي ﷺ أمر بوضع الآية في هذا الموضع من السورة. والله العالم.

وهكذا نزلت آيات الحج في نفس العام وثبتت في هذه السورة بالذات! كما نجد آيات ثبتت في مواضع من السور، لاتلتئم وتاريخ نزولها، فهل كان ذلك بأمر النبي ﷺ الخاص، أو لسبب آخر لا نعرفه؟ الأمر الذي نجهله حتى الآن.

* من ذلك ما نجده في سورة الممتحنة: تبتدىء هذه السورة بآيات (١ - ٩) نزلت في العام الثامن بعد الهجرة، بشأن حاطب بن أبي بلتعة. كان قد كاتب قريشاً يخبرهم بتأهب النبي ﷺ لغزو مكة، وكان النبي ﷺ يحاول الإخفاء.

وتتعبّ هذه الآيات آيتان نزلتا بشأن سبيعة الأسلمية عام الست من الهجرة، كانت قد أتت النبي ﷺ مسلمة مهاجرة، تاركة زوجها الكافر، فجاء في طلبها، فاستعصمت بالنبي ﷺ. وصادف مجيؤه صلح الحديبية، كان النبي ﷺ عاهد قريشاً أن يردّ عليهم كلّ من يأتيه من مكة، فأخذ الزوج في محاججة النبي ﷺ قائلاً: أرددُ عليّ امرأتني على ما شرطت لنا وهذه طينة الكتاب لم تجف، فتحرّج النبي ﷺ في أمرها، فنزلت الآيتان.

وبعد هاتين الآيتين آيات نزلت بشأن مبايعة النساء عام الفتح وهي سنة التسع من

الهجرة!

١ - البقرة ٢: ١٥٨.

٢ - روي ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام راجع: تفسير العياشي، ج ١، ص ٧٠، ح ١٣٣؛ وراجع أيضاً: جامع البيان، ج ٢، ص

وأما الآية الأخيرة من السورة فإنها ترتبط مع آيات الصدر تماماً. ومن ثم قالوا: إن دراسة هذه السورة تعطينا خروجاً على النظم الطبيعي للآيات، من غير ما سبب معروف.^١ * ومن ذلك أيضاً ما نجده في سورة البقرة فيما يخص آيات الإمتاع والاعتداد، كان التشريع الأول في المرأة المتوفى عنها زوجها أن تعتدّ حولاً كاملاً ولا تخرج من بيت زوجها وكان ميراثها هو الإنفاق عليها ذلك الحول فقط، والآية التي نزلت بهذا الشأن هي قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ».^٢ ثم نسخ هذا التشريع بآية الاعتداد: أربعة أشهر وعشراً من نفس السورة.^٣ وبآية المواريث.^٤

قال الإمام الصادق عليه السلام: نسختها - أي آية الامتاع - آية «يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا»^٥ ونسختها آية المواريث^٦ هذا وطبيعة النسخ تستدعي تأخر الناسخ عن المنسوخ، في حين تقدّمه عليه بست آيات.

* وكذلك قوله تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...»^٧ قيل: إنها آخر آية نزلت على رسول صلّى الله عليه وآله ولم يعيش بعدها سوى بضعة أيام أو بضعة أسابيع. والآية مثبتة في سورة البقرة في حين أنها أول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة، ونزلت بعدها نيف وعشرون سورة، وروي أن جبرائيل عليه السلام هو الذي أشار على النبي صلّى الله عليه وآله بأن يضعها موضعها من البقرة. وقد تقدّم ذلك.

* وآية الإكمال: «الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا».^٨ قال ابن عباس: لم ينزل بعدها

٢ - البقرة ٢: ٢٤٠.

١ - بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٦٧.

٤ - النساء ٤: ١٢.

٣ - البقرة ٢: ٢٣٤.

٥ - البقرة ٢: ٢٣٤.

٦ - تفسير البرهان، ج ١، ص ٢٣٢، ح ١؛ ومستدرك الوسائل، ج ٣، ص ٢١.

٨ - المائدة ٥: ٣.

٧ - البقرة ٢: ٢٨١.

فريضة. وكذا قال السدي والجبائي والبلخي^١ وروي عن الإمامين الصادقين عليهما السلام أيضاً^٢. قال ابن عساكر والخطيب: إنها نزلت في غدير خم عند منصرفه صلى الله عليه وآله من حجة الوداع بعد ما نصب علياً عليه السلام بالولاية. فنزل بها جبرائيل عليه السلام. وفي عبارة السدي لم ينزل بعدها حلال ولا حرام^٣.

هذا وهي مثبتة في سورة المائدة برقم ٣. وآيات الأحكام بعدها كثيرة، كآية تحليل الطيبات والصيد برقم ٤. وآية طعام أهل الكتاب برقم ٥. وآية الوضوء برقم ٦. وآية السارق برقم ٣٨. وآية الإيمان برقم ٨٩. وآية الخمر برقم ٩٠. وآية تحريم الصيد برقم ٩٥. وآية تحريم ما حلله المشركون برقم ١٠٣. وآية الإشهاد على الوصي برقم ١٠٧. كل ذلك أحكام تشريعية سجلت بعد آية الإكمال في حين أنها نزلت قبلها قطعاً. فلا بدّ هناك من مناسبة لإقحام مثل هذه الآيات بين آيات تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وإن كنا نجهلها في ظاهر الأمر.

وينبغي أن لا نتغافل جانب «أصالة السياق» في الآيات فإنّها محفوظة حسب طبيعتها الأولى، بمعنى أن الأصل الأوّل هو البناء على أن الترتيب القائم هو ترتيب النزول، إلا إذا ثبت خلافه بدليل، ولم يثبت إلا نادراً. ولأن ما ثبت قليلاً خلاف موضعه الأصلي، فإنما كان بأمر النبي صلى الله عليه وآله وإرشاده الخاص، فلا بدّ من مناسبة ملحوظة في ذلك، وكفى بذلك في حكمة السياق، والحكم بتوقيفية النظم القائم بين الآيات ولا يجوز الخلاف!

وسوف نتعرّض لهذا الجانب بتفصيل عند الكلام عن سياق الآيات (رابطها ضمن كلّ

سورة) في فصل «الإعجاز البياني»^٤ إن شاء الله.

١ - الدرّ المنتور، ج ٢، ص ٢٥٧ - ٢٥٩؛ ومجمع البيان، ج ٣، ص ١٥٩.

٢ - الدرّ المنتور، ج ٢، ص ٢٥٩.

٣ - مجمع البيان، ج ٣، ص ١٥٩.

٤ - في الجزء الخامس من التمهيد.

ترتيب السور

وأما جمع السور وترتيبها بصورة مصحف مؤلف بين دفتين، فهذا قد حصل بعد وفاة النبي ﷺ: انقضى العهد النبوي والقرآن منشور على العصب واللخاف^١ والرقاع وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع وبعض الحرير والقراطيس وفي صدور الرجال.

كانت السور مكتملة على عهده ﷺ مرتبة آياتها وأسمائها، غير أن جمعها بين دفتين لم يكن حصل بعد. نظراً لترقب نزول قرآن على عهده ﷺ فما دام لم ينقطع الوحي لم يصح تأليف السور مصحفاً إلا بعد الاكتمال وانقطاع الوحي، الأمر الذي لم يكن يتحقق إلا بانقضاء عهد النبوة واكتمال الوحي.

قال أبو الحسين ابن فارس في «المسائل الخمس»: «جمع القرآن على ضربين: أحدهما تأليف السور، كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين، فهذا الضرب هو الذي تولته الصحابة. وأما الجمع الآخر - وهو جمع الآيات في السور - فهو توقيفي تولاه النبي ﷺ»^٢. وقال جلال الدين السيوطي: «كان القرآن كتب كله في عهد رسول الله ﷺ لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور»^٣.

وهكذا ذهب سيدنا العلامة الطباطبائي إلى أن القرآن لم يكن مؤلفاً على عهد رسول الله ﷺ. قال: «تأليف القرآن وجمعه مصحفاً واحداً إنما كان بعدما قبض النبي ﷺ بلا إشكال». وأكد على أن ترتيب السور على ما هو عليه الآن شيء حصل بفعل الصحابة وعن اجتهاد منهم وردّ على من زعم التوقيف في ترتيب السور»^٤.

وأول من قام بجمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة، وبوصية منه ﷺ هو الإمام علي بن أبي طالب (صلوات الله عليه). قال الإمام الصادق عليه السلام: قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: يا علي! القرآن خلف فراشي في الصحف والحرير والقراطيس، فخذوه واجمعوه

١ - العسيب: جريدة النخل إذا كشط خوصها. واللخف: حجارة بيض رقاق. والأديم: الجلد المدبوغ.

٢ - البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٣٧. ٣ - الإتيان، ج ١، ص ١٦٤.

٤ - راجع: تفسير الميزان، ج ١٢، ص ١٢٤ و ١٣١؛ وج ٢، ص ٧٨ - ٧٩.

ولا تضيّعه.^١ ثمّ قام بجمعه زيد بن ثابت بأمر من أبي بكر. كما قام بجمعه كلّ من ابن مسعود وأبيّ بن كعب وأبي موسى الأشعري وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم، حتى انتهى الأمر إلى دور عثمان، فقام بتوحيد المصاحف وإرسال نسخ موحّدة إلى أطراف البلاد، وحمل الناس على قراءتها وترك ما سواها. على ما سنذكر.

كان جمع علي عليه السلام وفق ترتيب النزول: المكيّ مقدّم على المدنيّ. والمنسوخ مقدّم على الناسخ. مع الإشارة إلى مواقع نزولها ومناسبات النزول. قال الكلبي: لمّا توفي رسول الله ﷺ قعد علي بن أبي طالب عليه السلام في بيته فجمعه على ترتيب نزوله. ولو وجد مصحفه لكان فيه علم كبير.^٢ وقال عكرمة: لواجتمعت الإنس والجنّ على أن يألّفوه كتأليف علي بن أبي طالب عليه السلام ما استطاعوا.^٣

وأما جمع غيره من الصحابة فكان على ترتيب آخر: قدّموا السور الطوال على القصار، فقد أثبتوا السبع الطوال (البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، يونس) قبل المئين (الأنفال،^٤ براءة، النحل، هود، يوسف، الكهف، الإسراء، الأنبياء، طه، المؤمنون، الشعراء، الصافات) ثمّ المثاني (هي التي تقلّ آياتها عن المائة وهي عشرون سورة تقريباً) ثمّ الحواميم (السور التي افتتحت بحم) ثمّ المفصّلات (ذوات الآيات القصار) لكثرة فواصلها. وهي السور الأخيرة في القرآن.

وهذا يقرب نوعاً ما من الترتيب الموجود الآن على ما سيأتي.

نعم لم يكن جمع زيد مرتّباً ولا منتظماً كمصحف، وإنّما كان الاهتمام في ذلك الوقت على جمع القرآن عن الضياع وضبط آياته وسوره حذراً عن التلف بموت حامله، فدوّنت في صحف وجعلت في ملفّة، وأودعت عند أبي بكر مدّة حياته، ثمّ عند عمر بن الخطاب حتى توفّاه الله، فصارت عند ابنته حفصة، وهي النسخة التي أخذها عثمان

١ - بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٤٨، ح ٧؛ تفسير القمّي، ج ٢، ص ٤٥١.

٢ - التسهيل لعلوم التنزيل، ج ١، ص ٤. ٣ - الإتيان، ج ١، ص ١٦٦.

٤ - هذا في مصحف أبيّ بن كعب. لكنّها في مصحف ابن مسعود من المثاني، لأنّها تقلّ من المائة، آياتها: ٧٥. راجع: القائمة الآتية.

لمقابلة المصاحف عليها، ثم رده عليها، وكانت عندها إلى أن ماتت، فاستلبها مروان من ورثتها حينما كان والياً على المدينة من قبل معاوية، فأمر بها فشقت.
وسنذكر كل ذلك بتفصيل.

تمحيص الرأي المعارض

ما قدّمناه هو المعروف عن رواة الآثار، وعند الباحثين عن شؤون القرآن، منذ الصدر الأول فإلى يومنا هذا، ويوشك أن يتفق عليه كلمة أرباب السير والتواريخ. ولكن مع ذلك نجد من ينكر ذاك التفصيل في جمع القرآن، ويرى أن القرآن بنظمه القائم وترتيبه الحاضر كان قد حصل في حياة الرسول ﷺ.

وقد ذهب إلى هذا الرأي جماعة من علماء السلف كالقاضي أبي بكر بن الطيّب و أبو بكر ابن الأنباري والكرماني والطبي،^١ ووافقهم علم الهدى السيد المرتضى رحمته الله قال: كان القرآن على عهد ﷺ مجموعاً مؤلفاً على ما هو عليه الآن. واستدل على ذلك بأن القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه في ذلك الزمان حتى عيّن جماعة من الصحابة في حفظهم له، وأنه كان يعرض على النبي ﷺ ويتلى عليه.

وإن جماعة من الصحابة مثل عبدالله بن مسعود وأبي بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي ﷺ عدّة ختمات. وكل ذلك يدلّ بأدنى تأمل على أنه كان مجموعاً مرتّباً غير مبتور ولا مبثوث.^٢

١ - راجع: الإتيان، ج ١، ص ١٧٦.

وحاول الإمام بدر الدين الزركشي الوفاق بين الفريقين وأنّ الخلاف لفظي، نظراً لأنّ القائل بالتوقيف في ترتيب السور، يعني: أنّه رُمز إليهم بذلك لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته. ولهذا قال الإمام مالك: إنّما ألقوه على ما وعوه عن النبي ﷺ. مع قوله بأنّ ترتيب السور اجتهاد منهم. قال الخلاف إلى أنّه: هل ذلك بتوقيف قولي أم بمجرد استناد فعلي وبحيث بقي لهم فيه مجال للنظر. راجع: البرهان، ج ١، ص ٢٥٧.

قلت: ويمكن حمل كلام السيّد أيضاً على إرادة اكتمال السور من غير أن تكون أيها متفرقة مبثوثة!

٢ - مجمع البيان، ج ١، ص ١٥.

لكن حفظ القرآن هو بمعنى حفظ جميع سورته التي اكتملت آياتها، سواء أكان بين السور ترتيب أم لا. وهكذا ختم القرآن هو بمعنى قراءة جميع سورته من غير لحاظ ترتيب خاصّ بينها. أو الحفظ كان بمعنى الاحتفاظ على جميع القرآن النازل لحدّ ذاك والتحفّظ عليه دون الضياع والتفرقة، الأمر الذي لا يدلّ على وجود ترتيب خاصّ كان بين سورته كما هو الآن.

هذا وقد ذهب إلى ترجيح هذا الرأي أيضاً، سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي رحمته الله نظراً إلى الأمور التالية:

أولاً: أحاديث جمع القرآن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله بنفسها متناقضة، تتضارب مع بعضها البعض، ففي بعضها تحديد زمن الجمع بعهد أبي بكر، وفي آخر بعهد عمر وفي ثالث بعهد عثمان. كما أنّ البعض ينصّ على أنّ أول من جمع القرآن هو زيد بن ثابت. وآخر ينصّ على أنّه أبو بكر، وفي ثالث أنّه عمر إلى أمثال ذلك من تناقضات ظاهرة.

ثانياً: معارضتها بأحاديث دلّت على أنّ القرآن كان قد جمع على عهد صلى الله عليه وآله منها حديث الشعبي، قال: جمع القرآن على عهد صلى الله عليه وآله ستة: أبي بن كعب وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء وسعد بن عبيد وأبو زيد. وفي حديث أنس أنّهم أربعة: أبي ومعاذ وزيد وأبو زيد وأمثال ذلك.

ثالثاً: منافاتها مع آيات التحدّي، التي هي دالّة على اكتمال سور القرآن وتمايز بعضها عن بعض. ومتنافية أيضاً مع إطلاق لفظ الكتاب على القرآن في لسانه صلى الله عليه وآله الظاهر في كونه مؤلفاً كتاباً مجموعاً بين دفتين.

رابعاً: مخالفة ذلك مع حكم العقل بوجوب اهتمام النبي صلى الله عليه وآله بجمعه وضبطه عن الضياع والإهمال.

خامساً: مخالفته مع إجماع المسلمين، حيث يعتبرون النصّ القرآني متواتراً عن النبي نفسه صلى الله عليه وآله في حين أنّ بعض هذه الروايات تشير إلى اكتفاء الجامعين بعد الرسول صلى الله عليه وآله بشهادة رجلين أو رجل واحد!

سادساً: استلزام ذلك تحريفاً في نصوص الكتاب العزيز حيث طبيعة الجمع المتأخر تستدعي وقوع نقص أو زيادة في القرآن. وهذا مخالف لضرورة الدين.^١
وزاد بعضهم: أن في المناسبة الموجودة بين كل سورة مع سابقتها ولاحقتها لدليلاً على أن نظمها وترتيبها كان بأمر الرسول ﷺ إذ لا يعرف المناسبة بهذا الشكل المبدع البالغ حد الإعجاز غيره ﷺ.

لكن يجب أن يُعلم أن قضية جمع القرآن حدث من أحداث التاريخ،^٢ وليست مسألة عقلانية قابلة للبحث والجدل فيها. وعليه فيجب مراجعة النصوص التاريخية المستندة، من غير أن يكون مجال لتجوال الفكر فيها على أية حال!

وقد سبق اتفاق كلمة المؤرخين ونصوص أرباب السير وأخبار الأمم، ووافقهم أصحاب الحديث طراً، على أن ترتيب السور شيء حصل بعد وفاة الرسول ﷺ ولم يكن بالترتيب الذي نزلت عليه السور.

وبعد.. فلا نرى أي مناقضة بين روايات جمع القرآن، إذ لا شك أن عمر هو الذي أشار على أبي بكر بجمع القرآن، وهذا الأخير أمر زيداً أن يتصدى القضية من قبله، فيصح إسناد الجمع الأول إلى كل من الثلاثة بهذا الاعتبار.

نعم نسبة الجمع إلى عثمان كانت باعتبار توحيد المصاحف ونسخها في صورة موحدة. وأما نسبة توحيد المصاحف إلى عمر فهو من اشتباه الراوي قطعاً، لأن الذي فعل ذلك هو عثمان بإجماع المؤرخين.

١ - راجع: البيان في تفسير القرآن، ص ٢٥٧ - ٢٧٨.

٢ - ولا بد أن يكون ثبوتاً في التاريخ ولا سيما في مثل هذا الحدث الخطير ولم يثبت (لو كان لبان). وللحدث التاريخي ثلاثة أركان أساسية: بطن الحادثة، زمن الحادثة ومحلها. ولا بد لمن يزعم أن جمع القرآن بين دفتين وقع في زمن النبي ﷺ ويأمر منه، أن يضع يده أولاً على الشخص أو الأشخاص الذين كلفهم النبي بالقيام بمثل هذه المهمة: من كانوا؟ ثم في أي زمان: قبل الهجرة أو بعدها وفي أي عام وقعت هذه الحادثة؟ وأخيراً: أفي مكة أم في المدينة، في المسجد أو في غيره من سائر البقاع؟ وإذا كانت هذه الأركان مجهولة في مثل هذا الحادث الخطير، فترك التعرض له أولى!

إذن، لا مستند لهذه الدعوى تاريخياً!

وحديث ستة أو أربعة جمعوا القرآن على عهد ﷺ فمعناه: الحفظ عن ظهر القلب، حفظوا جميع الآيات النازلة لحدّ ذلك الوقت، أمّا الدلالة على وجود نظم كان بين سُوره فلا.

وأما حديث التحدي فكان بنفس الآيات والسور، وكلّ آية أو سورة قرآن، ولم يكن التحدي يوماً ما بالترتيب القائم بين السور، كي يتوجّه الاستدلال المذكور! على أنّ التحدي وقع في سور مكّية أيضاً،^١ ولم يجمع القرآن قبل الهجرة قطعياً. واهتمام النبي ﷺ بشأن القرآن، شيء لا ينكر، ومن ثمّ كان حريصاً على تثبيت الآيات ضمن سورها فور نزولها، وقد حصل النظم بين آيات كلّ سورة في حياته ﷺ. أمّا جمع السور بين دفتين وترتيبها كمصحف موحد، فلم يحصل حينذاك، نظراً لترقب نزول قرآن عليه، فماله ينقطع الوحي لا يصحّ جمع القرآن بين دفتين ككتاب. ومن ثمّ لمّا أيقن بانقطاع الوحي بوفاة ﷺ، أوصى إلى علي عليه السلام بجمعه.

ومعنى تواتر النصّ القرآني: هو القطع بكونه قرآناً، الأمر الذي كان يحصل بإخبار جماعة وشهادة آخرين بأنّه قرآن ولاسيّما من الصحابة الأوّلين، الأمر الذي كان قد التزمه زيد في الجمع الأوّل كما يأتي. وليس التواتر - هنا - بمعناه المصطلح عند المتأخرين. وأمّا استلزام تأخر الجمع تحريفاً في كتاب الله، فهو احتمال مجرّد لاسند له بعد معرفتنا بضبط الجامعين وقرب عهدهم بنزول الآيات وشدة احتياطهم على الوحي بما لا يدع مجالاً لتسرّب احتمال زيادة أو نقصان.

وأخيراً فإنّ قولة البعض الأخيرة، فهي لاتعدو خيالاً فارغاً، إذ لا مناسبة ذاتية بين كلّ سورة وسابقتها أو تاليتها، سوى ما زعمه بعض المفسّرين المتكلّفين، وهو تمحّل باطل بعد إجماع الأمة على أنّ ترتيب السور كان على خلاف ترتيب النزول بلاشك. وقد تقدّم حديث الفساطيط المضروبة لتعليم القرآن على خلاف الترتيب المألوف.^٢

١ - يونس ١٠: ٣٨؛ وهود ١١: ١٣؛ والإسراء ١٧: ٨٨. وهنّ مكّيات.

٢ - الإرشاد للمفيد: ص ٣٨٦؛ وبحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٣٣٩، ح ٨٥.

وقد يتراءى لبعض الباحثين الجدّد، أن التعبير بلفظ «المصحف» الوارد في أحاديث الرسول وعلى لسانه ﷺ ليصلح شاهداً على وقوع الجمع وتنسيق السور مع بعضها، في ذلك العهد، إذ لو لم يكن هناك تدوين وجمع بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن، لما صحّ هذا التعبير ولا كان ثمة مبرّر لإطلاق لفظ «مصحف» أو «مصحف» على القرآن.^١

لكن لا موضع لهذا الاستشهاد، بعد أن كان «المصحف» اسماً لمجموعة صحائف مكتوبة انضم بعضها إلى بعض، وربما ربطت بخيط ونحوه، أو وضعت في ملفّة أو محفظة وما شاكل، حفظاً لها عن التفرّق والضياع، سواء أكان بينها تنسيق ونظم، ليصح إطلاق التدوين عليها، أم لم يكن.

قال ابن دريد: والصُّحف، واحدتها صحيفة، وهي القطعة من آدم أبيض أو رَقّ يكتب فيه. وتجمع صحائف، وربما جمعوا الصحيفة صحافاً... والمصحف - بكسر الميم - لغة تميمية، لأنّه صحفٌ جُمعت، فأخرجوه مخرج مفعّل ممّا يتعاطى باليد. وأهل نجد يقولون: المصحف - بضم الميم - لغة علوية كأنّهم قالوا: أصحف فهو مصحف إذا جمع بعضه إلى بعض.^٢

وقال الخليل: وسُمّي المصحف مصحفاً، لأنّه أصحف، أي جعل جامعاً للصحف المكتوبة بين الدفتين.^٣

وكانت السورة القرآنية تكتمل وتكتب آياتها منظّمة ومرتبّة حسب النزول، حتى تنزل سورة أخرى بنزول بسمليتها. وكانت تكتب في ورقة من قرطاس أو قطعة من أديم أو رق، و تحفظ برأسها. وهكذا كلّ سورة سورة. ومن طبيعة الحال أنّ هذه السور المكتملة كانت تحتفظ وتجمع في مكان. في نحو صندوق أو كيس ونحو ذلك. ولكن من غير أن يجعل لها ترتيب أو تنظيم بتقديم الطوال على القصار على غرار تنظيمها الحاضر. وذلك لأنّ القرآن لمّا ينته نزوله. وكان يترتّب نزول سور وآيات، مادام الوحي انقراّني لم ينقطع،

١ - حقائق هامة، ص ٨٢.

٢ - جمهرة اللغة، ج ٢، ص ١٦٢.

٣ - العين، ج ٢، ص ١٢٠.

والرسول ﷺ على قيد الحياة.

إذن فمجموعة السور النازلة في كل عام ولحدّ ذاك الحين وكانت مكتوبة على صحائف، كانت تُحتفظ في وعاء، وربما كانت متعدّدة لدى الصحابة، كلُّ له مجموعة منها في بيته. وبذلك صحّ إطلاق لفظ «المصحف» على كلِّ من تلك المجموعات، بهذا الاعتبار لا غير.

وبذلك تعرف ترادف لفظي القرآن والمصحف، غير أنّ الأوّل كان باعتبار اللفظ المقروء، وكان الثاني باعتبار اللفظ المكتوب على صحيفة. فكما أنّ القرآن يطلق على قليله وكثيره، ومن غير دلالة على تنسيق سورته ذلك الحين، فكذلك لفظ المصحف من غير فرق.

ومن ثمّ نجد تبديل لفظ المصحف بالقرآن في نفس الروايات التي استشهد بها المستدلّ. وقد اعترف بذلك.^١

هذا على فرض صحة إسناد الروايات التي جاء فيها لفظ «المصحف» مسنداً له إلى النبي ﷺ ولم يكن من تعبير الراوي، نقلاً بالمعنى حسب متفاهم عهده المتأخر، والأرجح أنّه كذلك نقل بالمعنى لا بالنص!

إذاً لا يملك معارضونا دليلاً يُثبِّتُنا عن الذي عزمنا عليه من تفصيل حديث الجمع، وإليك:

جمع علي بن أبي طالب عليه السلام

أول من تصدّى لجمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة، وبوصيّة منه هو علي بن أبي طالب عليه السلام^٢ قعد في بيته مشغلاً بجمع القرآن وترتيبه على ما نزل، مع شروح وتفسير لمواضع مبهمّة من الآيات، وبيان أسباب النزول ومواقع النزول بتفصيل حتى أكمله على

١ - حقائق هامة، ص ٨٥.

٢ - تفسير القمي، ج ٢، ص ٤٥١؛ وبحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٤٨، ح ٥، ص ٥٢، ح ١٨.

هذا النمط البديع.

قال ابن النديم - بسند يذكره -: إنَّ علياً عليه السلام رأى من الناس طيرة عند وفاة النبي صلى الله عليه وآله فأقسم أن لا يضع رداءه حتى يجمع القرآن. فجلس في بيته ثلاثة أيام^١ حتى جمع القرآن. فهو أول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه^٢ وكان هذا المصحف عند آل جعفر.

قال: ورأيت أنا في زماننا عند أبي يعلى حمزة الحسني عليه السلام مصحفاً قد سقط منه أوراق بخط علي بن أبي طالب، يتوارثه بنو حسن^٣.

وهكذا روى أحمد بن فارس عن السدي عن عبد خير عن علي عليه السلام^٤.

وروى محمد بن سيرين عن عكرمة، قال: لما كان بدء خلافة أبي بكر قعد علي بن أبي طالب في بيته يجمع القرآن. قال: قلت لعكرمة: هل كان تأليف غيره كما أنزل الأول فالأول؟ قال: لو اجتمعت الإنس والجنّ على أن يألّفوه هذا التأليف ما استطاعوه.

قال ابن سيرين: فطلبت ذلك الكتاب وكتبت فيه إلى المدينة فلم أقدر عليه^٥.

قال ابن جزى الكلبي: كان القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مفرّقاً في الصحف وفي صدور الرجال فلما توفي، جمعه علي بن أبي طالب على ترتيب نزوله. ولو وجد مصحفه لكان فيه علم كبير ولكنه لم يوجد^٦.

قال الإمام الباقر عليه السلام: ما من أحد من الناس يقول أنه جمع القرآن كله كما أنزل الله إلاّ كذب. وما جمعه وما حفظه كما أنزل الله إلاّ علي بن أبي طالب^٧.

قال الشيخ المفيد - في المسائل السروية -: وقد جمع أمير المؤمنين عليه السلام القرآن المنزل

١ - ولعله سهو من الراوي، لأنّ الصحيح أنه عليه السلام أكمل جمع القرآن لمدة ستة أشهر، كان لا يرتدي خلالها إلاّ للصلاة. المناقب، ج ٢، ص ٤٠.

٢ - قال ابن عباس: فجمع الله القرآن في قلب علي، وجمعه علي بعد موت رسول الله بستة أشهر. المصدر.

٣ - الفهرست، ص ٤٧ - ٤٨.

٤ - في كتابه «الصاحبي» ص ٢٠٠؛ وهامش تأويل مشكل القرآن، ص ٢٧٥.

٥ - الإتقان، ج ١، ص ١٦٦؛ وراجع: الطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ١٠١؛ والاستيعاب بهامش الاصابة، ج ٢، ص ٢٥٢.

٦ - التسهيل لعلوم التنزيل، ج ١، ص ٤. - بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٨٨، ح ٢٧.

من أوله إلى آخره، وألفه بحسب ماوجب تأليفه، فقدّم المكيّ على المدنيّ والمنسوخ على الناسخ، ووضع كلّ شيء منه في حقه.^١

وقال العلامة البلاغي: من المعلوم عند الشيعة أنّ علياً أمير المؤمنين بعد وفاة رسول الله ﷺ لم يرتدّ برداء إلا للصلاة حتى جمع القرآن على ترتيب نزوله وتقدّم منسوخه على ناسخه. وأخرج ابن سعد وابن عبد البر في الاستيعاب عن محمد بن سيرين، قال: نبئت أنّ علياً أبطأ عن بيعة أبي بكر، فقال: أكرهت إمارتي؟ فقال: آليت يميني أن لا أرتدي برداء إلا للصلاة حتى أجمع القرآن. قال: فزعموا أنّه كتبه على تنزيله. قال محمد: فلو أصبت ذلك الكتاب كان فيه علم.^٢

قال ابن حجر: وقد ورد أنّ علياً جمع القرآن على ترتيب النزول عقب موت النبي ﷺ أخرجه ابن أبي داود.^٣

قال ابن شهر آشوب: ومن عجب أمره في هذا الباب أنّه لا شيء من العلوم إلا وأهله يجعلون علياً قدوة، فصار قوله قبلة في الشريعة. فمنه سمع القرآن. ذكر الشيرازي في نزول القرآن عن ابن عباس قال: ضمّن الله محمداً أن يجمع القرآن بعده علي بن أبي طالب عليه السلام قال: فجمع الله القرآن في قلب عليّ، وجمعه عليّ بعد موت رسول الله بستة أشهر...

قال: وفي أخبار أبي رافع: أنّ النبي ﷺ قال في مرضه الذي توفي فيه - لعلي -: يا عليّ هذا كتاب الله خذه إليك، فجمعه علي في ثوب ومضى إلى منزله، فلمّا قبض النبي ﷺ جلس عليّ فألفه كما أنزل الله، وكان به عالماً.

قال: وحدّثني أبو العلاء العطار، والموفق خطيب خوارزم في كتابيهما بالإسناد عن علي بن رباح: أنّ النبي ﷺ أمر علياً بتأليف القرآن فألفه وكتبه.

١- المصدر، ص ٧٤.

٢- آلاء الرحمن، ج ١، ص ١٨ بالهامش؛ وراجع: الطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ١٠١؛ والاستيعاب بهامش الاصابة، ج ٢، ص

٣- الإقنان، ج ١، ص ٢٠٢.

وروى أبو نعيم في الحلية والخطيب في الأربعين بإسناد عن السدي، عن عبد خير، عن علي عليه السلام: قال: لما قبض رسول الله ﷺ أقسمت أن لا أضع ردائي على ظهري حتى أجمع ما بين اللوحين، فما وضعت ردائي حتى جمعت القرآن.

قال: وفي أخبار أهل البيت عليه السلام: أنه عليه السلام آلى على نفسه أن لا يضع رداءه على عاتقه إلا للصلاة حتى يؤلف القرآن ويجمعه، فانتقطع عنهم مدة إلى أن جمعه، ثم خرج إليهم به في إزار يحمله وهم مجتمعون في المسجد، فأنكروا مصيره بعد انقطاع مع الإلبة. فقالوا: لأمر ما جاء أبو الحسن، فلما توسطهم وضع الكتاب بينهم، ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: إنني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي. وهذا الكتاب، وأنا العترة. فقام إليه الثاني وقال له: إن يكن عندك قرآن فعندنا مثله، فلا حاجة لنا فيكما. فحمل عليه الكتاب وعاد به بعد أن ألزمهم الحجة.

وفي خبر طويل عن الإمام الصادق عليه السلام: أنه حمله وولّى راجعاً نحو حجرته، وهو يقول: «فَبَذَلُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ»^١.

وصف مصحف علي عليه السلام

امتاز مصحفه عليه السلام أولاً: بترتيبه الموضوع على ترتيب النزول، الأول فالأول في دقة فائقة.

ثانياً: إثبات نصوص الكتاب كما هي من غير تحوير أو تغيير أو أن تشذ منه كلمة أو آية.

ثالثاً: إثبات قراءته كما قرأه رسول الله ﷺ حرفاً بحرف.

رابعاً: اشتماله على توضيحات - على الهامش طبعاً - وبيان المناسبة التي استدعت نزول الآية، والمكان الذي نزلت فيه، والساعة التي نزلت فيها، والأشخاص الذين نزلت فيهم.

١ - آل عمران ٣: ١٨٧. راجع: المناقب، ج ٢، ص ٤٠ - ٤١؛ وبحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٥١ - ٥٢، ح ١٨.

خامساً: اشتماله على الجوانب العامة من الآيات بحيث لا تخص زماناً ولا مكاناً ولا شخصاً خاصاً. فهي تجري كما تجري الشمس والقمر. وهذا هو المقصود من التأويل في قوله عليه السلام: «ولقد جئتهم بالكتاب مشتملاً على التنزيل والتأويل».^١

فالتنزيل هي المناسبة الوقتية التي استدعت النزول. والتأويل هو بيان المجرى العام. كان مصحف علي عليه السلام مشتملاً على كل هذه الدقائق التي أخذها عن رسول الله صلى الله عليه وآله من غير أن ينسى منها شيئاً أو يشتبه عليه شيء.

قال عليه السلام: «ما نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أقرأنيها وأملاها عليّ، فأكتبها بخطي. وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها. ودعا الله لي أن يعلمني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله، ولا علماً أملاه عليّ. فكتبته منذ دعا لي مادعاً».^٢

وعن الأصبع بن نباته، قال: قدم أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة، صلى بهم أربعين صباحاً يقرأ بهم سبّح اسم ربك الأعلى، فقال المنافقون: لا والله ما يحسن ابن أبي طالب أن يقرأ القرآن، ولو أحسن أن يقرأ القرآن لقرأ بنا غير هذه السورة! قال: فبلغ ذلك علياً عليه السلام فقال: ويل لهم إنني لأعرف ناسخه من منسوخه ومحكمه من متشابهه وفصله من فصاله وحروفه من معانيه، والله ما من حرف نزل على محمد صلى الله عليه وآله إلا أني أعرف فيمن أنزل وفي أي يوم وفي أي موضع. ويل لهم أما يقرأون: «إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى»^٣ والله عندي ورثتهما من رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أنهى رسول الله صلى الله عليه وآله من إبراهيم وموسى عليهما السلام ويل لهم والله أنا الذي أنزل الله في: «وَتَعْيَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ»^٤ فإنما كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله فيخبرنا بالوحي فأعياه أنا ومن يعيه، فإذا خرجنا قالوا: ماذا قال آنفاً؟^٥

هذا... ولليعقوبي وصف غريب عن مصحف علي عليه السلام: يجرّئه سبعة أجزاء كل جزء

٢ - تفسير البرهان، ج ١، ص ١٦، ح ١٤.

١ - آلاء الرحمن، ج ١، ص ٢٥٧.

٤ - الحاقة ٦٩: ١٢.

٣ - الأعلى ٨٧: ١٨ - ١٩.

٥ - تفسير العياشي، ج ١، ص ١٤، ح ١.

يحتوي على ستّ عشرة أو خمس عشرة سورة، لتكون مجموع السور مائة وإحدى عشرة سورة!! وكلّ جزء لابدّ أن تبلغ آياته ثمانمائة وستاً وثمانين آية، فيكون مجموع آيات المصحف ستة آلاف واثنين ومائتي آية!

ويجعل مبدأ الجزء الأول: سورة البقرة ثمّ سورة يوسف ثمّ العنكبوت، وينتهي إلى سورة الأعلى والبيّنة. ويسمّيه جزء البقرة.

ويجعل مبدأ الجزء الثاني: آل عمران ثمّ هود والحج، وينتهي إلى سورة الفيل وقريش. ويسمّيه جزء آل عمران.

ويجعل مبدأ الجزء الثالث: سورة النساء وآخره النمل. ويسمّيه جزء النساء.

ومبدأ الجزء الرابع: المائدة وآخره الكافرون. ومبدأ الجزء الخامس: الأنعام، ومنتهاه التكاثر. ومبدأ الجزء السادس: الأعراف، ومنتهاه النصر. ومبدأ الجزء السابع: الأنفال وآخره الناس.

وهكذا يوزّع السور الطوال على مبادئ الأجزاء السبع ويتدرّج إلى القصار ويسمي كلّ جزء باسم السورة التي بدأ بها.^١

وهذا الوصف يخالف تماماً وصف الآخرين: إنّه كان مرتّباً حسب النزول. قال جلال الدين: كان أوّل مصحف عليّ عليه السلام سورة اقرأ ثمّ سورة المدّثر ثمّ نون ثمّ المزمل ثمّ تبتّ ثمّ التكوير... وهكذا إلى آخر ترتيب السور حسب نزولها^٢ ومن ثمّ فهذا الوصف مخالف لإجماع أرباب السير والتأريخ.

ومن الغريب أنّه جعل الم تنزيل والسجدة سورتين. وحم والمؤمن سورتين. وطس والنحل سورتين. وطسم والشعراء سورتين. في حين أنّ كلّاً منهما سورة واحدة. وعبر عن سورة الأنبياء بسورة اقتربت، في حين أنّها تبتدئ بقوله تعالى: «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ».

وهذه الغفلة من مثل أحمد بن الواضح الكاتب الإخباري غريبة جداً!

أمد مصحف علي عليه السلام

روى سليم بن قيس الهلالي عن سلمان الفارسي (رضوان الله عليه) قال: لما رأى أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) غدر الناس به لزم بيته وأقبل على القرآن يؤلفه ويجمعه، فلم يخرج من بيته حتى جمعه. وكان في الصحف والشظاظ والأشار والرقاع.^١

وبعث القوم إليه ليباع فاعتذر باشتغاله بجمع القرآن، فسكتوا عنه أياماً حتى جمعه في ثوب واحد وختمه ثم خرج إلى الناس - وفي رواية اليعقوبي: حمله على جمل وأتى به إلى القوم -^٢ وهم مجتمعون حول أبي بكر في المسجد، وخاطبهم قائلاً: إنني لم أزل منذ قبض رسول الله ﷺ مشغولاً بغسله وتجهيزه، ثم بالقرآن حتى جمعته كله في هذا الثوب الواحد ولم ينزل الله على نبيه آية من القرآن إلا وقد جمعتها، وليس منه آية وقد أقرأنيها رسول الله ﷺ وعلمني تأويلها. لئلا تقولوا غداً إننا كنا عن هذا غافلين!

فقام إليه رجل من كبار القوم - وفي رواية أبي ذر: فنظر فيه فلان وإذا فيه أشياء -^٣ فقال: يا علي، اردده فلا حاجة لنا فيه، ما أغنانا بما معنا من القرآن، عما تدعوننا إليه، فدخل علي عليه السلام بيته.^٤

وفي رواية: قال علي عليه السلام: أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبداً، إنما كان علي أن أخبركم حين جمعته لتقرأوه.^٥

وقد تقدم كلام ابن النديم: كان مصحف علي يتوارثه بنو الحسن^٦ والصحيح عندنا: أن مصحفه عليه السلام يتوارثه أو صياؤه الأئمة من بعده، واحداً بعد واحد لا يرونه لأحد.^٧ وفي عهد عثمان حيث اختلفت المصاحف وأثارت ضجة بين المسلمين، سأل طلحة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لو يخرج للناس مصحفه الذي جمعه بعد وفاة رسول الله ﷺ

١ - الصحف: جمع صحيفة، وهي الورقة من كتاب أوقراطس. والشظاظ: خشبة محددة، يجمع على أشظة. والأشار خشبة

أو صفحة أو عظمة مرققة مصقولة. والرقاع: جمع رقعة، وهي القطعة من الورق يكتب عليها.

٢ - تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٢٥. ٣ - الاحتجاج للطبرسي، ج ١، ص ٢٢٥-٢٢٨.

٤ - كتاب سليم بن قيس، ص ٨١-٨٢. ٥ - الصافي في تفسير القرآن، ج ١، ص ٢٥.

٦ - الفهرست، ص ٤٨. ٧ - بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٤٢، ح ١.

وأتى به إلى القوم فرفضوه. قال: وما يمنعك - يرحمك الله - أن تخرج كتاب الله إلى الناس؟! فكفَّ عليه السلام عن الجواب أولاً، فكرر طلحة السؤال، فقال: لا أراك يا أبا الحسن أجبتني عمّا سألتك من أمر القرآن ألا تظهره للناس؟

قال عليه السلام: يا طلحة عمداً كففت عن جوابك. فأخبرني عمّا كتبه القوم أقرآن كله أم فيه ما ليس بقرآن؟ قال طلحة: بل قرآن كله. قال عليه السلام: إن أخذتم بما فيه نجوت من النار ودخلتم الجنة.. قال طلحة: حسبي أمّا إذا كان قرآناً فحسبي.^١

هكذا حرص الإمام وأوصياؤه عليهم السلام على حفظ وحدة الأمة فلا تختلف بعد اجتماعها على ما هو قرآن كله.

جمع زيد بن ثابت

كان ذاك الرفض القاسي لمصحف علي عليه السلام يستدعي التفكير في القيام بمهمة جمع القرآن مهما كلف الأمر، بعد أن أحسّ الناس بضرورة جمع القرآن في مكان، ولاسيما كانت وصية نبيهم صلى الله عليه وآله بجمعه لئلا يضيع، كما ضيعت اليهود توراتهم.^٢

هذا والقرآن هو المرجع الأوّل للتشريع الإسلامي، والأساس الركين لبناية صرح الحياة الاجتماعية في كافة شؤونها المختلفة آنذاك، ولا يصحّ أن يبقى مفترقاً على العسب والخاف أوفي صدور الرجال، ولاسيما وقد استحرّ القتل بكثير من حامله، ويوشك أن يذهب القرآن بذهاب حامله، فقد قتل منهم سبعون في واقعة اليمامة، وفي رواية: أربعمائة.^٣

وهذه الفكرة أبداهها عمر بن الخطاب، واقترح على أبي بكر - وهو وليّ المسلمين يوم

١ - سليم بن قيس، ص ١٢٤: ويحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٤٢، ح ١.

٢ - تفسير القمي، ج ٢، ص ٤٥١: ويحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٤٨، ح ٧.

٣ - فتح الباري، ج ٧، ص ٤٤٧: وفي تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٢٩٦: قتل من المهاجرين والأنصار من قصبة المدينة يومئذ ثلثمائة وستون ومن المهاجرين من غير أهل المدينة ثلثمائة ومن التابعين ثلثمائة، وفي كتاب أبي بكر إلى خالد (ص ٣٠٠): دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجفّف بعد...

ذاك - أن ينتدب لذلك من تتوفّر فيه شرائط القيام بهذه المهمة الخطيرة، فوقع اختيارهم على زيد بن ثابت، وهو شابّ حدث فيه مرونة حدّاثة السنّ، وله سابقة كتابة الوحي أيضاً. فقد ملك الجدارة الذاتية من غير أن يخشى منه على جوانب الخلافة الفتيّة في شيء، كما كان يخشى من غيره من كبار الصحابة، وفيهم شيء من المناعة والجموح وعدم الانقياد التامّ لميول السلطة واتجاهاتها آنذاك.

قال زيد: أرسل إليّ أبوبكر بعد مقتل أهل اليمامة، وعمر جالس عنده. قال: إنّ هذا - وأشار إلى عمر - أتاني وقال: إنّ القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وأخاف أن يستحرّ بهم القتل في سائر المواطن فيذهب كثير من القرآن وأشار عليّ بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال: هو والله خير. فلم يزل يراجعني عمر حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت الذي رأى عمر!

قال زيد: قال لي أبوبكر: إنّك شابّ عاقل لانتّهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن واجمعه.

قال زيد: فوالله لو كلفوني نقل جبل من مكانه لم يكن أثقل عليّ ممّا كلفوني به. قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فلم يزل أبوبكر وعمر يلحّان عليّ حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر.

قال زيد: ففقت أتتبع القرآن أجمعه من العصب واللخاف وصدور الرجال.^١

منهج زيد

قام زيد بتنفيذ الفكرة، فجمع القرآن من العصب واللخاف والأدم والقراطيس، وكانت متفرقة على أيدي الصحابة أو في صدورهم، وعاونه على ذلك جماعة.

وأوّل عمل قام به: أن وجّه نداء عاماً إلى ملأ الناس: «من كان تلقى من رسول الله ﷺ

١ - صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٥؛ والمصاحف، ص ٦؛ والكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٦ وج ٢، ص ٢٤٧؛ والبرهان

للزركشي، ج ١، ص ٢٣٣.

شيئاً من القرآن فليأت به».

وَأَلَّفَ لَجْنَةً مِنْ خَمْسَةِ وَعَشْرِينَ عَضْواً - كما جاء في رواية اليعقوبي -^١ وكان عمر يشرف عليهم بنفسه.

وكان اجتماعهم على باب المسجد يومياً، والناس يأتونهم بأي القرآن وسوره كل حسب ما عنده من القرآن.

وكانوا لا يقبلون من أحد شيئاً حتى يأتي بشاهدين يشهدان بصحة ما عنده من قرآن. سوى خزيمة بن ثابت، أتى بالآيتين آخر سورة براءة، فقبلوهما منه من غير استشهاد، لأن رسول الله ﷺ اعتبر شهادته وحده شهادتين.^٢

قال زيد: ووجدت آخر سورة براءة مع [أبي] خزيمة الأنصاري لم أجده مع أحد غيره.^٣ وسنتكلم عما جاء بين المعقوفتين.

ومن غريب الأمر: أن عمر جاء بآية الرجم وزعمها من القرآن: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبة نكالا من الله» لكنه واجه بالرفض، ولم تقبل منه، لأنه لم يستطع أن يقيم على ذلك شاهدين^٤ وبقي أثر ذلك في نفس عمر، فكان يقول - أيام خلافته -: لولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي - يعني آية الرجم.^٥

ثم أن زيدا لم ينظم سور القرآن ولم يرتبهن كمصحف، وإنما جمع القرآن في صحف، أي أودع الآيات والسور في صحف وجعلها في ملف، فكان جمعاً عن التفرقة والضياع، ومن ثم لم يسمّ جمعه مصحفاً.

قال المحاسبي: كان القرآن مفرّقا في الرقاع والأكتاف والعصب وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعا، وكان ذلك بمنزلة أوراق فيها القرآن منتشرا، فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء.^٦

١ - تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٢٥.

٢ - صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٦.

٣ - الإتيقان، ج ١، ص ١٦٧-١٦٨.

٤ - تفسير ابن كثير، ج ٣، ص ٢٦١؛ والبرهان للزركشي، ج ٢، ص ٣٥؛ والإتيقان، ج ٢، ص ٢٦.

٥ - الإتيقان، ج ١، ص ١٦٨.

وقال ابن حجر: والفرق بين الصحف (التي جاءت في رواية جمع زيد) والمصحف: أنَّ المصحف هي الأوراق المجردة التي جمع فيها القرآن في عهد أبي بكر، وكانت سوراً مفرقة، كلُّ سورة مرتبة بآياتها على حدة، لكن لم يرتب بعضها إثر بعض، فلما نسخت ورتب بعضها إثر بعض صارت مصحفاً.^١

وقال أحمد أمين: وفي عهد أبي بكر أمر بجمع القرآن، لكن لا في مصحف واحد، بل جمعت الصحف المختلفة التي فيها آيات القرآن وسوره، وأودعت الصحف الكثيرة التي فيها القرآن عند أبي بكر.^٢

وقال الزرقاني: صحف أبي بكر كانت مرتبة الآيات دون السور.^٣ وهذه الصحف أودعت عند أبي بكر، فكانت عنده مدّة حياته، ثمّ صارت عند عمر، وبعده كانت عند ابنته حفصة، وفي أيام توحيد المصاحف استعارها عثمان منها ليقابل بها النسخ، ثمّ ردّها إليها، فلما توفيت أخذها مروان - يوم كان والياً على المدينة من قبل معاوية - من ورثتها وأمر بها فشقت.^٤

جاء في نصّ البخاري: ووجدت آخر سورة براءة مع أبي خزيمة... ومن ثمّ يتساءل البعض: من هو أبو خزيمة؟

قال القسطلاني: هو ابن أوس بن يزيد بن حزام، المشهور بكنيته من غير أن يعرف اسمه.^٥

واحتمل ابن حجر: أنّه الحرث بن خزيمة، كما جاء في رواية أبي داود.^٦ والصحيح أنّه من زيادة الرواي أو الناسخ خطأ، وإنّما هو خزيمة من غير إضافة الأب إليه. بدليل أنّ زيداً قبل شهادته مكان شهادتين. وليس في الصحابة من يتّسم بهذه السمة الخاصّة سواه^٧ وهكذا جزم الإمام بدر الدين الزركشي أنّه خزيمة الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين^٨ ومن ثمّ أدرجه في النصّ هكذا بلا إضافة الأب.^٩

٢ - فجر الإسلام، ص ١٩٥.

٤ - إرشاد الساري، ج ٧، ص ٤٤٩.

٦ - المصدر، ج ٩، ص ١٢.

٨ - البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٣٤.

١ - فتح الباري، ج ٩، ص ١٦.

٣ - مناهل العرفان، ج ١، ص ٢٦٢.

٥ - فتح الباري، ج ٧، ص ٤٤٧.

٧ - الطبقات، ج ٤، ق ٢، ص ٩٠.

أو يقال: إنّ أبا خزيمة هو خزيمة بن ثابت، كان يقال له: أبو خزيمة أيضاً، كما جاء في نصّ ابن أشتة: أبو خزيمة بن ثابت.^{١٠}

وفي سائر الروايات - غير رواية البخاري - خزيمة بن ثابت، بلا إضافة الأب،^{١١} ومن ثمّ رجّحنا خطأ النسخة.

وسؤال آخر: ماذا كان يعني بالشاهدين في جعلهما شرط قبول النصّ القرآني؟ كما جاء في نصّ ابن داود بإسناد معتبر، وتلقّته أئمة الفنّ بالقبول.^{١٢} قال ابن حجر: وكان المراد بالشاهدين: الحفظ والكتابة.^{١٣}

وقال السخاوي: شاهدان يشهدان على أنّ ذلك المكتوب كُتب بين يدي رسول الله ﷺ أو المراد: أنّهما يشهدان بصحّة قراءتها، وأنّها من الوجوه التي نزل بها القرآن. قال أبو شامة: وكان الغرض من ذلك أن لا يكتب إلّا من عين ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ لا من مجرد الحفظ.

قال جلال الدين: أو المراد أنّهما يشهدان على أنّ ذلك ممّا عرض على النبي ﷺ عام وفاته، وكانت هي القراءة الأخيرة التي اتفق عليها الصحابة ويقرؤها الناس اليوم.^{١٤} قلت: المراد: أنّ شاهدين عدلين - أحدهما الذي أتى بالآية وعدل آخر (من يشهد له من الصحابة واحداً أو أكثر) - يشهدان بسماعهما قرآناً من النبي ﷺ بدليل قبول شهادة خزيمة بن ثابت الذي جاء بآخر سورة براءة، مكان شهادة رجلين. وهكذا جاء في نصّ ابن أشتة، أخرجه في المصاحف عن الليث بن سعد، قال: وكان الناس يأتون زيد بن ثابت، فكان لا يكتب آية إلّا بشاهدي عدل وأنّ آخر سورة براءة لم يجدها إلّا مع [أبي] خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين، فقال: اكتبوها، فإنّ رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين فكتب. وإنّ عمر أتى بآية الرجم فلم يكتبها، لأنّه كان وحده.^{١٥}

١٠ - الإتيان، ج ١، ص ٥٨، الطبعة الثالثة، مصر، ١٣٧٠.

١٢ - الإتيان، ج ١، ص ١٦٨.

١٤ - الإتيان، ج ١، ص ١٤٢ و ١٦٧.

٩ - المصدر، ص ٢٣٩.

١١ - الدر المنثور، ج ٣، ص ٢٩٦.

١٣ - فتح الباري، ج ٩، ص ١٢.

١٥ - المصدر، ص ١٦٨.

شكوك واعتراضات

يقول بلاشير: لماذا اختار أبوبكر لهذه المهمة الخطيرة مثل زيد وهو شاب حدث لم يتجاوز العشرين، في حين وجود ذوي الكفاءات من كبار الصحابة؟ ولنفرض عكورة المورد حالت دون اللجوء إلى شخصية كبيرة مثل علي بن أبي طالب فلماذا أغفلوا سائر فضلاء الصحابة ممن لهم سابقة وعهد قديم بنزول القرآن وصحبة الرسول؟ وهل أن واقعة اليمامة أطاحت بجميع قرّاء الصحابة القدامى، ولم يبق سوى زيد وهو حديث العهد بالقراءة وبالقرآن؟ الأمر الذي يشير شكوكنا في القضية ولانكاد نصدّق بأن زيدا هو الذي جمع القرآن.

أضف إلى ذلك أن التاريخ لم يحدّد بالضبط بدء قيامه بهذا العمل، ومتى انتهى منها؟ فلو صحّ أنه قام بجمع القرآن بعد واقعة اليمامة، لكان بقي من عمر أبي بكر خمسة عشر شهراً، وهذه فترة تضيق بإنجاز هكذا عمل خطير، الذي يتطلب جهوداً واسعة لجمع المصادر والالتقاء مع رجال كانت عندهم آيات أو سور وكانوا قد انتشروا في البلاد، فإنّ هذا وذاك يتطلبان وقتاً أوسع وأعواناً كثيرين، ممّا لا يمكن إنجازهما في تلك المدة القصيرة. هذا والرواية تقول: إن زيدا جمع القرآن في صحف وأودعها عند أبي بكر، ثمّ صارت عند عمر ثمّ ورثتها ابنته حفصة!

فإذا كانت الغاية من جمع القرآن هي ملاحظة المصلحة العامة كما ينبّه على ذلك أنّ ورثة أبي بكر لم يختصّوا بتلك الصحف، وإنّما انتقلت إلى عمر، الخليفة بعده، فلماذا خصّصها عمر بابنته حفصة ولم يجعلها في متناول المسلمين عامّاً؟ كما أنّه لمّ صارت الصحف وديعة اختصاصيّة عند أبي بكر من غير أن تجعل في مكان هو معرض عام؟ وهكذا اعترض المستشرق شفالي على قضية جمع زيد للقرآن.

والذي يستنتجه بلاشير من شكوكه هذه: أن كبار الصحابة هم الذين قاموا بجمع القرآن بعد وفاة الرسول ﷺ ورتّبوه ورتّبوا سوره، الأمر الذي كانت وظيفة الخلافة الإسلاميّة أن تقوم به ولكنها غفلت عنه. وربّما أدّت هذه الغفلة إلى الطعن في القائمين

بأعضادها. ومن ثمّ أوعزت إلى شابّ حدث لا يتهموه أن ينسخ عن بعض مصاحف الصحابة مصحفاً يمتاز به الخليفة أيضاً أمّا أصل القيام بجمع القرآن فلا.^١

قلت: إذا كانت شرائط إنجاز عمل - مهما كان ضخماً - متوفرة، وفي المتناول القريب، فإنّ إنجازَه يتحقّق في أقرب وقت ممكن. ولا سيّما إذا كان العمل فوتيّاً يحاول المتصدّون إنجازَه في أقرب فرصة ممكنة. وهكذا كانت قضية جمع القرآن في الصدر الأوّل..

أمّا المصادر الأوّلية فكانت متوفرة في نفس المدينة، محفوظة على أيدي الصحابة الأئمّة، وكان حملة القرآن وحفظته موجودين لا يفارقون مسجد سيّدهم الذي ارتحل من بينهم في عهد قريب - ليل نهار - والاتصال بهم سهل التناول. لا سيّما وسور القرآن كانت مكتملة، وبقي جمعها في مكان، لا أكثر. إذن فقد كانت الأسباب مؤاتية والظروف مساعدة. أضف إليها: أنّ السلطة - ويدها القدرة - إذا حاولت إنجاز هكذا عمل متهيّء الأسباب، فإنّه لا يستدعي طويلاً في مدّة العمل بعد توفّر هذه الشروط.

هذا وزيد لم يعمل سوى جمع القرآن في مكان وحفظه عن الضياع والانبثاق ولم يعمل فيه نظاماً ولا ترتيباً ولا أيّ عمل فكريّ آخر، فإنّ هكذا عملاً بسيطاً لا يتطلب جهوداً طويلة ولا فراغاً واسعاً.

نعم كانت الغاية من ذلك هي مراعاة المصلحة العامّة: حفظ القرآن عن الضياع، الأمر الذي تحقّق بإيداع الصحف المشتملة على تمام القرآن في مكان أمين ولم تكن يومذاك حاجة إلى مراجعة تلك الصحف بعد أن كان حفظ القرآن وحاملوه منتشرين بين أظهر الناس بكثرة، والناس يومذاك حافظون لجلّ آيات ترتبط والحياة المعيشيّة والسياسيّة وما أشبه.

هذا.. وفي أواخر عهد عمر أصبحت نسخ المصاحف المحتوية على جميع آي القرآن وسوره كثيرة، ومجموعة على أيدي كبار الصحابة الموثوق بهم رأى أنّ الحاجة العامّة إلى

١ - مترجم وملخص عن مجلة «خواندنيها» الفارسية في سنتها الثامنة. العدد: ٤٤ بتاريخ ١٣ بهمن ١٣٢٦ هـ ش طهران.

تلك الصحف المودعة عنده هبطت إلى درجة نازلة جداً، ومن ثمّ تملّكها هو، ولم تعد حاجة إليها سوى في دور توحيد المصاحف على عهد عثمان.

جدارة زيد

وأما قضية اختيار مثل زيد لهكذا عمل خطير..

فقال الزرقاني: إنّ أبابكر رأى بنور الله أن يندب لتحقيق هذا العمل رجلاً من خيرة رجالات الصحابة، هو زيد بن ثابت، لأنّه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر في جمع القرآن ما لم يجتمع في غيره من الرجال، إذ كان من حفاظ القرآن ومن كتّاب الوحي لرسول الله ﷺ وشهد العرضة الأخيرة للقرآن وكان فوق ذلك معروفاً بخصوبة عقله وشدة ورعه وعظم أمانته وكمال خلقه واستقامة دينه.^١

تلك نعوت ثمانية عدّها الزرقاني، زعمها متوفرة في زيد وحده، لم تجتمع جميعاً في غيره من صحابة الرسول ﷺ الموجودين آنذاك..!

وهذا ما لا نكاد نصدّقه بتاتا، لأنّا نعلم أنّ الذين جمعوا القرآن كلّهم وحفظوه على عهد رسول الله ﷺ وقد كان أمر الناس بالرجوع إليهم واستقراء القرآن منهم - على ما جاء في صحيح البخاري وغيره - أربعة، ليس فيهم زيد، هم: عبدالله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة.^٢ وكانوا على وفرة من سائر النعوت التي ذكرها الزرقاني، فلماذا لم يختار أبوبكر أحد هؤلاء؟!

أما الذي شهد العرضة الأخيرة فهو ابن مسعود، ولم يكن زيدا..! قال ابن عباس: كان

١ - مناهل العرفان، ج ١، ص ٢٥٠.

٢ - صحيح البخاري، ج ٥، ص ٣٤ وج ٦، ص ٢٢٩؛ والطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ١١٠.

وجاء في حديث أنس: لم يجمع القرآن على عهد ﷺ غير أربعة: أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد.. صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٣٠، لكنّه زعم زعمه أنس ومن ثمّ ردّ عليه أئمة النقد والتمحيص. راجع: فتح الباري، ج ٩، ص ٤٣؛ والإتقان، ج ١، ص ١٩٩-٢٠٠.

وإذا كان زيد ممّن جمع القرآن على عهد ﷺ فلماذا استعظم ذلك عند ما اقترح عليه أبوبكر أن يقوم بجمع القرآن؟!

القرآن يعرض على رسول الله ﷺ في كل رمضان مرة إلا العام الذي قبض فيه، فإنه عرض عليه مرتين، وقد حضره عبدالله بن مسعود، فشهد ما نُسَخَ وبُدِّل. ^١

هذا وسابقة ابن مسعود بالقرآن وبغاية الرسول ﷺ الذي كان يعلمه القرآن من فيه معروفة. ^٢

وكان أبي بن كعب أقرأ أصحاب النبي ﷺ وقد أمره الله أن يعرض القرآن كله على أبي ^٣ وكان معروفاً بسيد القراء. ^٤

وكذلك معاذ بن جبل الذي قال الرسول ﷺ في حقّه: هو إمام العلماء رتوة - أي اعتلاء - وخلفه في أهل مكة يفقههم ويقريهم القرآن. ^٥

الأمر الذي يجعل من زيد مُعوزاً كفاءة سائر الصحابة الكبار! كما أن قضية كتابته للوحي كانت عند فقد الآخرين. قال ابن عبدالبر: كان النبي ﷺ إذا لم يكن أبي بن كعب حاضراً دعى زيدا ليكتب له. ^٦ هذا... ولم يأت الزرقاني لما ذكره من نعوت خاصة بمستند!

نعم، كان الذي يختص به زيد دون سائر رجالات الأصحاب هو امتيازاه بصفة جاءت الإشارة إليها في نصّ البخاري: «إنك شاب عاقل -!- لا نتهمك».! كان ذا نزعة متلائمة مع أهداف السلطة القائمة، وقد أبدى ذلك يوم السقيفة، وقف موقف المدافع الحادّ دون المهاجرين، وهو أنصاريّ قائلًا: إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين وكنا أنصاره وإنما يكون الإمام من المهاجرين ونحن أنصاره... فانبسط وجه أبي بكر لهذا الكلام المبتكر وجزّاه خيراً: قال: جزاكم الله خيراً من حيّ يا معشر الأنصار، وثبتّ قائلكم

١ - الطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ١٠٤.

٢ - راجع: صحيح البخاري، ج ٥، ص ٣٥ و ج ٦، ص ٢٢٩ و ٢٣٠؛ والطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ١٠٥؛ والمستدرک علی الصحیحین، ج ٢، ص ٢٢٠.

٣ - صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٣٠؛ والطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ١٠٣.

٤ - تهذيب التهذيب، ج ١، ص ١٨٧. ٥ - الطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ١٠٧-١٠٨.

٦ - الاستيعاب بهامش الاصابة، ج ١، ص ٥١؛ وأسد الغابة، ج ١، ص ٥٠.

- يعنى زيداً - والله لو قلتم غير هذا ما صالحناكم... وقال له يوماً: أنت عندنا كلنا أمين.^١
ولم ينس له ابوبكر هذا الموقف الخطير، ومن ثم انتدبه لجمع القرآن، معتمداً عليه كل الاعتماد، من غير أن يتهمه في عقله الذي كان يعرف من أين يؤكل الكتف؟!
نعم كان على وفرة من الذكاء، وكان عند مقدم النبي ﷺ المدينة ابن أحد عشرة سنة فاستخدمه النبي لكتابة رسائله بالعبرية وقراءتها بعد أن كلفه تعلم العبرية والخط في مدارس «ماسلة» اليهودية آنذاك.^٢
وتولى كتابة المصاحف على عهد عثمان أيضاً في نفر من أغلمة قريش، سعيد بن العاص وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمان بن الحارث.^٣

مصاحف أخرى

في الفترة بعد وفاة النبي ﷺ قامت جماعة من كبار الصحابة بتأليف القرآن وجمع سوره بين دفتين، كل بنظم وترتيب خاص، وكان يسمى مصحفاً.
يقال: أول من جمع القرآن في مصحف، أي رتب سوره ككتاب منظم، هو سالم مولى أبي حذيفة. فائتمروا فيما يسمونه؟ فقال بعضهم: سموه السفر. فقال سالم: ذلك تسمية اليهود، فكرهوه. فقال: رأيت مثله في الحبشة يسمى المصحف. فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف. أخرجه ابن أشتة في كتاب المصاحف.^٤
وهكذا قام بجمع القرآن ابن مسعود. وأبي بن كعب. وأبوموسى الأشعري، وكان سمي مصحفه: لباب القلوب.^٥ والمقداد بن الأسود. ومعاذ بن جبل.
ويبدو من حديث العراقي الذي جاء إلى عائشة يطلب إليها أن تريه مصحفها أن لها أيضاً مصحف كان يخصها. روى البخاري عن ابن مالهك، قال: إني عند عائشة إذ جاءها

١ - تهذيب ابن عساكر، ج ٥، ص ٢٤٤ و ٤٤٦ وج ٦، ص ١٢٢؛ راجع: المصاحف، ص ٥-١٠، باب جمع القرآن.

٢ - الطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ١١٥ - ١١٧. ٣ - صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٦.

٤ - الإتيان، ج ١، ص ١٦٦؛ والمصاحف، ص ١١ - ١٤. ٥ - الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٥.

عراقي فسألها عن مسائل: منها: أنه طلب أن تريه مصحفها، قال: يا أم المؤمنين أريني مصحفك. قالت: لم؟ قال: لعلي أولف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف - أي غير مرتب ولا منظم، أو لاختلاف الناس في نظم آيه وعددها -^١ قالت: وما يضرّك أيّه قرأت... إلى أن قال: فأخرجت له مصحفاً وأملت عليه آي السور^٢ أي عدد آيها.

وحاز بعض هذه المصاحف مقاماً رفيعاً في المجتمع الإسلامي آنذاك، فكان أهل الكوفة يقرأون على مصحف عبدالله بن مسعود وأهل البصرة يقرأون على مصحف أبي موسى الأشعري. وأهل الشام على مصحف أبي بن كعب. وأهل دمشق خاصّة على مصحف المقداد بن الأسود. وفي رواية الكامل: أن أهل حمص كانوا على قراءة المقداد.^٣

أمد هذه المصاحف

كان أمد هذه المصاحف قصيراً جداً انتهى بدور توحيد المصاحف على عهد عثمان، فذهبت مصاحف الصحابة عرضة التمزيق والحرق.

قال أنس بن مالك: أرسل عثمان إلى كل أفق بمصحف ممّا نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.^٤

نعم حظيت بعض هذه المصاحف عمراً أطول، كالصحف التي كانت عند حفصة، طلبها عثمان ليقابل بها نسخ المصاحف فأبت أن تدفعها إليه حتى عاهدها ليردّها عليها^٥ ومن ثمّ ردّها وبقيت عندها حتى توقّيت، فأمر بها مروان فشقت.

ويبدو من رواية أبي بكر بن أبي داود: أن ولد أبي بن كعب كانوا قد احتفظوا بنسخة من مصحف أبيهم بعيداً عن آخرين. قال: قدم أناس من العراق يريدون محمد بن أبي، فطلبوا إليه أن يخرج لهم مصحف أبيه! فقال: قد قبضه عثمان، فالحّوا عليه ولكن من غير جدوى،

١ - احتمله ابن حجر في فتح الباري، ج ٩، ص ٣٦. ٢ - صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٨.

٣ - الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٥؛ صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٥؛ والمصاحف، ص ١١ - ١٤؛ والبرهان للزركشي،

ج ١، ص ٢٣٩ - ٢٤٣. ٤ - صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٦.

٥ - المصاحف، ص ٩.

الأمر الذي كان يدلّ على مبلغ خوفه من الحكم القائم، فلم يخرجه للعراقيين.^١
وفي رواية الطبري: أنّ ابن عباس دفع مصحفاً إلى أبي ثابت، ووصفه بأنّه على قراءة أبي بن كعب. وبقي إلى أن انتقل إلى نصير بن أبي الأشعث الأسدي الكوفي فأتاه يحيى بن عيسى الفاخوري يوماً وقرأ فيه: «فما استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسمى»^٢ الأمر الذي يدلّ على أنّ هذا المصحف عاش حتى أواخر القرن الثاني، لأنّ يحيى بن عيسى توفي عام ٢٠١.^٣

قال الفضل بن شاذان: أخبرنا الثقة من أصحابنا، قال: كان تأليف السور في قراءة أبي بن كعب بالبصرة في قرية يقال لها «قرية الأنصار» على رأس فرسخين عند محمد بن عبد الملك الأنصاري (توفي ١٥٠). أخرج إلينا مصحفاً قال: هو مصحف أبي. رويناه عن آبائنا، فنظرت فيه فاستخرجت أوائل السور وخواتيم الرسل وعدد الآي.^٤
وجاء في روايات أهل البيت عليهم السلام قول الصادق عليه السلام: أمّا نحن فنقرأ على قراءة أبي - أي ابن كعب.^٥

أمّا ابن مسعود فامتنع أن يدفع مصحفه إلى رسول الخليفة، وظلّ محتفظاً به في صرامة بالغة أدّت إلى مشاجرة عنيفة جرت بينه وبين عثمان، كان فيها إبعاده عن عمله وأخيراً حتفه.

عند ما جاء رسول الخليفة إلى الكوفة لأخذ المصاحف، قام ابن مسعود خطيباً قائلاً: أيّها الناس إنّي غالّ مصحفي، ومن استطاع أن يغلّ مصحفاً فليغلل، فإنّه من غلّ يأت يوم القيامة بما غلّ ونعم الغلّ المصحف.^٦

وهكذا كان يحرض الناس على مخالفة الحكم القائم، الأمر الذي جرّ عليه الويلات، فأشخصه الخليفة إلى المدينة وجرى بينهما كلام عنيف انتهى إلى ضربه وكسر أضلاعه

١ - المصدر، ص ٢٥.

٢ - جامع البيان، ج ٥، ص ٩.

٣ - تهذيب التهذيب، ج ١١، ص ٢٦٣.

٤ - الفهرست لابن النديم، ص ٤٦.

٥ - وسائل الشيعة، باب ٧٤ من أبواب القراءة في الصلاة، ج ٤، ص ٨٢١، ح ٤.

٦ - المصاحف، ص ١٥.

وإخراجه من المسجد بصورة مزرية.

روى الواقدي بإسناده وغيره: أن ابن مسعود لما استقدم المدينة دخلها ليلاً، وكانت ليلة جمعة، فلما علم عثمان بدخوله، قال: أيها الناس إنه قد طرركم الليلة دويبة، من يمشي على طعامه يقى ويسلح.

قال ابن مسعود: لست كذلك ولكنني صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر، وصاحبه يوم أحد، وصاحبه يوم بيعة الرضوان، وصاحبه يوم الخندق، وصاحبه يوم حنين... وصاحت عائشة: يا عثمان! أتقول هذا لصاحب رسول الله ﷺ؟! فقال عثمان: اسكتي.

ثم قال لعبدالله بن زمعة بن الأسود: أخرجه إخراجاً عنيفاً! فأخذه ابن زمعة، فاحتمله حتى جاء به باب المسجد، فضرب به الأرض، فكسر ضلعاً من أضلاعه. فقال ابن مسعود: قتلني ابن زمعة الكافر بأمر عثمان.

قال الراوي: فكأنني أنظر إلى حموشة ساقى عبدالله بن مسعود، ورجلاه تختلفان على عنق مولى عثمان، حتى أُخرج من المسجد، وهو يقول: أنشدك الله ألا تخرجني من مسجد خليلي رسول الله ﷺ.^١

قيل: واعتل ابن مسعود فأتاه عثمان يعوده، فقال له: ما كلام بلغني عنك؟ قال: ذكرت الذي فعلته بي، إنك أمرت بي فوطئ جوفي فلم أعقل صلاة الظهر ولا العصر، ومنعتني عطائي، قال عثمان: فإنني أقيدك من نفسي، فافعل بي مثل الذي فعل بك... وهذا عطاؤك فخذ. قال ابن مسعود: منعته وأنا محتاج إليه، وتعطيني وأنا غني عنه! لا حاجة لي به... فأقام ابن مسعود مغاضباً لعثمان حتى توفي، وصلى عليه عمار بن ياسر في ستر من عثمان. وهكذا لما مات المقداد صلى عليه عمار بوصية منه، فاشتد غضب عثمان على عمار. وقال: ويلى على ابن السوداء أما لقد كنت به عليماً!^٢

١ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٤٢ - ٤٤.

٢ - تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٦٠.

هذا... ورغم ذلك كله فقد بقي مصحفه متداولاً إلى أيام متأخرة: يقول ابن النديم (٢٩٧ - ٣٨٥): رأيت عدة مصاحف ذكر نسخها أنها مصحف عبدالله بن مسعود، وقد كتب بعضها منذ مائتي سنة.^١

وهكذا يبدو من الزمخشري: أن هذا المصحف كان معروفاً حتى القرن السادس، لأنه يقول: وفي مصحف ابن مسعود كذا... وظاهر هذه العبارة أنه هو وجدها في نفس المصحف، لأنه منقول إليه.^٢

وصف عام عن مصاحف الصحابة

كان الطابع العام الذي كانت المصاحف آنذاك تتسم به هو تقديم السور الطوال على القصار نوعاً ما في ترتيب منهجي خاص:

١ - ابتداء من السبع الطوال: البقرة، آل عمران، النساء، الأعراف، الأنعام، المائدة، يونس.^٣

٢ - ثم المئين، وهي السور تربو آياتها على المائة، وهي ما تقرب من اثنتي عشرة سورة.

٣ - ثم المثاني، وهي السور لا تبلغ آياتها المائة، وهي ما تقرب من عشرين سورة. وسميت مثاني لأنها تثنى أي تكرر قراءتها أكثر مما تقرأ غيرها من الطوال والمئين.

٤ - ثم الحواميم، وهي السور بدأت بـ«حم»: سبع سور.

٥ - ثم الممتحنات، وهي تقرب من عشرين سورة.

٦ - ثم المفصلات، تبتدئ من سورة الرحمان إلى آخر القرآن. وسميت بذلك لقرب

فواصلها وكثرة فصولها.

١ - الكشف، ج ٢، ص ٤١٠ وج ٤، ص ٤٩٠.

٢ - الفهرست، ص ٤٦.

٣ - تلك السبع الطوال في مصاحف الصحابة، غير أن عثمان عمداً إلى تقديم سورة الأنفال فزعمها مع سورة براءة سورة واحدة جعلهما من السبع الطوال. وسيأتي الكلام في ذلك. راجع: الإتيان، ج ١، ص ١٧٢-١٧٣؛ والمستدرك على

الصحيحين، ج ٢، ص ٢٢١.

هذا هو الطابع العام لمصاحف الصحابة، والنظر في الأكثر إلى مصحف ابن مسعود. وإن كانت المصاحف تختلف مع بعضها في تقديم بعض السور على بعض وتأخيرها عنها، أو يزيد عدد سور بعضها على بعض. على تفصيل يأتي.

وصف مصحف ابن مسعود

كان تأليف مصحف عبدالله بن مسعود وفق الترتيب التالي:^١

- ١ - السبع الطوال: البقرة، النساء، آل عمران، الأعراف، الأنعام، المائدة، يونس.
- ٢ - المئين: براءة، النحل، هود، يوسف، الكهف، الإسراء، الأنبياء، طه، المؤمنون، الشعراء، الصافات.
- ٣ - المثاني: الأحزاب، الحج، القصص، النمل، النور، الأنفال، مريم، العنكبوت، الروم، يس، الفرقان، الحجر، الرعد، سبأ، فاطر، إبراهيم، ص، محمد ﷺ، لقمان، الزمر.
- ٤ - الحواميم: المؤمن، الزخرف، فصلت، الشورى، الأحقاف، الجاثية، الدخان.
- ٥ - الممتحنات: الفتح، الحديد (ن)، الحشر، السجدة، ق (ن)، الطلاق، القلم، الحجرات، الملك، التغابن، المنافقون، الجمعة، الصف، الجن، نوح، المجادلة، الممتحنة، التحريم.
- ٦ - المفصلات: الرحمان، النجم، الطور، الذاريات، القمر، الحاقة (ن)، الواقعة، النازعات، المعارج، المدثر، المزمل، المطففين، عبس، الإنسان، المرسلات، القيامة، النبأ، التكويد، الانفطار، الغاشية، الأعلى، الليل، الفجر، البروج، الانشقاق، العلق، البلد، الضحى، الطارق، العاديات، الماعون، القارعة، البيّنة، الشمس، التين، الهمزة، الفيل، قريش، التكاثر، القدر، الزلزال، العصر، النصر، الكوثر، الكافرون، المسد، التوحيد، الانشراح.

١ - على ما جاء في نص ابن أسنة (الإتيان، ج ١، ص ١٨١) وأكملنا ما سقط منه على نص ابن النديم (الفهرست: ص ٤٥) وأرمرنا له بعلامة (ن).

تلك مائة واحدة عشرة سورة. بإسقاط سورة الفاتحة وسورتَي المعوذتين. على ما سنذكر.

جهة أخرى - اختصَّ بها مصحف ابن مسعود - إسقاطه سورة الفاتحة، لا اعتقاداً أنَّها ليست من القرآن، بل لأنَّ الثبوت في المصحف كان قيداً للسور دون الضياع، وهذه السورة (الفاتحة) مأمونة عن الضياع بذاتها، لا يزال المسلمون يقرأونها كلَّ يوم عشر مرَّات أو أكثر. ذكره ابن قتيبة فيما يأتي.

أو لعلَّه رآها عدلاً للقرآن في قونه تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ»^١. والسبع المثاني هي سورة الفاتحة.

وعلى أي تقدير فقد اتفق أئمة الفن على خلوِّ مصحفه من سورة الحمد، نقل ذلك ابن النديم عن الفضل بن شاذان، وقال: إنه أحد الأئمة في القرآن والروايات. ومن ثمَّ يرجَّح ما ذكره الفضل على ما شهد به نفسه.^٢

وقال جلال الدين السيوطي: وأمَّا إسقاطه الفاتحة فقد أخرجه أبو عبيد بسند صحيح^٣ وكان قد ذكر الرواية قبل ذلك.^٤

وقال ابن قتيبة: وأمَّا إسقاطه الفاتحة من مصحفه فليس لجهله بأنَّها من القرآن، كيف وهو أشدُّ الصحابة عناية بالقرآن. ولم يزل يسمع رسول الله ﷺ يؤمُّ بها، ويقول: لا صلاة إلا بسورة الحمد، وهي السبع المثاني وأمَّ الكتاب. لكنَّه ذهب فيما يظنُّ أهل النظر (المحققون) إلى أنَّ القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين (الدفتين) مخافة الشكِّ والنسيان والزيادة والنقصان، ورأى أنَّ ذلك مأمون على سورة الحمد، لقصرها ولأنَّها تنثني في كلِّ صلاة، ولوجوب تعلُّمها على كلِّ مسلم. فلمَّا أمن عليها العلة التي من أجلها كتب المصحف، ترك كتابتها، وهو يعلم أنَّها من القرآن.^٥

٢ - الفهرست، ص ٤٦.

١ - الحجر: ١٥، ٨٧.

٤ - المصدر، ص ١٨٤.

٣ - الإتيان، ج ١، ص ٢٢٢.

٥ - تأويل مشكل القرآن، ص ٤٧ - ٤٩.

جهة ثالثة: إسقاطه سورتي المعوذتين (الفلق والناس)، اعتقاداً منه أنّهما عوذة يتعوّذ بهما لدفع العين أو السحر، كما ورد أنّ النبي ﷺ تعوّذ بهما من سحر اليهود، وقال: ما تعوّذ متعوّذ بأفضل من «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ...» و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ...»^١.

وقد صحّ الإسناد إلى ابن مسعود: أنّه كان يحكّ المعوذتين من المصاحف، ويقول: لا تخلطوا بالقرآن ما ليس منه، إنّهما ليستا من كتاب الله، إنّما أمر النبي ﷺ أن يتعوّذ بهما. وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما في صلاته.^٢

هذا.. وقد أنكر بعضهم صحّة هذه النسبة إلى ابن مسعود، كالرازي وابن حزم - فيما نقل عنهما ابن حجر - وردّ عليهما بصحّة إسناد الرواية قال: والطعن في الروايات الصحيحة بغير مستند لا يقبل. بل الرواية صحيحة والتأويل محتمل.^٣

وأخذ الباقلاني في بيان هذا التأويل، قال: لم ينكر ابن مسعود كونهما من القرآن، وإنّما أنكر إثباتهما في المصحف، فإنّه كان يرى أن لا يكتب في المصحف شيئاً إلا أن كان النبي ﷺ أذن في كتابته فيه. وكأنّه لم يبلغه الإذن في ذلك، فهذا تأويل منه وليس جحداً لكونهما قرآناً.

قال ابن حجر: وهذا تأويل حسن، إلا أن الرواية الصحيحة الصريحة التي ذكرتها تدفع ذلك، حيث جاء فيها: ويقول إنّهما ليستا من كتاب الله. نعم يمكن حمل لفظ كتاب الله على المصحف، فيتمشّى التأويل المذكور.^٤

قلت: هذا التأويل الأخير أيضاً لا يلتئم مع قوله: «لا تخلطوا بالقرآن ما ليس منه».^٥ (ملحوظة): قد يزعم البعض أنّ ما نسب إلى ابن مسعود يناقض القول بتواتر النصّ القرآني!

لكن غير خفي: أنّ ابن مسعود لم ينكر كونهما وحياً - بمعنى العام - وإنّما أنكر كونهما

١ - الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤١٦ - ٤١٧.

٢ - فتح الباري، ج ٨، ص ٥٧١؛ والدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤١٦.

٣ - المصدر.

٤ - فتح الباري، ج ٨، ص ٥٧١.

٥ - الدرّ المنثور، ج ٦، ص ٤١٦.

وحيّاً قرآنيّاً - بسمّة كونهما من كتاب الله - فالإتفاق على أنّ المعوذتين وحي من الله حاصل من الجميع، وإنّما الاختلاف جاء في وصفهما الخاصّ: هل هما من كتاب الله (القرآن) أم لا؟. وهذا لا يضرّ بعد الاتفاق المذكور.

جهة رابعة: قال صاحب الإقناع: كانت البسملة ثابتة لبراءة في مصحف ابن مسعود. قال: ولا يؤخذ بهذا.^١

ويعني بكلامه الأخير: أنّ ابن مسعود كانت له مخالفات شاذّة، نبذها الصحابة والتابعون. ولعلّها كانت اجتهادات شخصيّة خطّأه الآخرون عليها. كمذهبه في التطبيق.^٢ قال ابن حزم: والتطبيق في الصلاة لا يجوز، لأنّه منسوخ. وكان ابن مسعود يفعله، وكان يضرب الأيدي على تركه. وكذلك كان أصحابه يفعلونه. وفي ذلك قال ابن مسعود - فيما روينا عنه -: علّمنا رسول الله ﷺ الصلاة فكبر. فلمّا أراد أن يركع طبّق يديه بين ركبتيه وركع. فبلغ ذلك سعد بن أبي وقاص، فقال: صدّق أخي، قد كنّا نفعل هذا، ثمّ أمرنا بهذا، أي الإمساك بالركب.^٣

قال الإمام الرازي - بشأن مخالفات ابن مسعود -: يجب علينا إحسان الظنّ به، وأن نقول: إنّ رجوع عن هذه المذاهب.^٤

جهة خامسة: اختلاف قراءته مع النصّ المشهور في كثير من الآي. وهذا الاختلاف كان يرجع إلى تبديل كلمة إلى مرادفتها في النصّ وكان ذلك غالباً لغرض الإيضاح والإفهام.

والمعروف من مذهب ابن مسعود: توسيعه في قراءة ألفاظ القرآن، فكان يجوز أن تبدّل كلمة إلى أخرى مرادفتها، إذا كانت الثانية أوضح ولا تغيّر شيئاً من المعنى الأصلي. قال: لقد سمعت القراء ووجدت أنّهم متقاربون، فاقرأوا كما علّمتكم - أي كيفما علّمكم

١ - الإتقان، ج ١، ص ١٨٤.

٢ - هو: تطبيق بطن الكفّين إحداهما على الأخرى وجعلهما بين الركبتين حالة الركوع.

٣ - المحلى، ج ٣، ص ٢٧٤؛ وراجع: لسان العرب، مادة طبق.

٤ - التفسير الكبير، ج ١، ص ٢١٣.

القارئ الأستاذ - فهو كقولكم: هلمّ وتعال.^١

وكان يعلم رجلاً أعجمياً القرآن، فقال: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ».^٢ فكان يقول الرجل: طعام اليتيم، ولم يستطع أن يقول: الأثيم. فقال له ابن مسعود: قل: طعام الفاجر. ثم قال ابن مسعود: إنه ليس من الخطأ في القرآن أن يقرأ مكان «العليم» «الحكيم». بل أن يضع آية الرحمة مكان آية العذاب.^٣

ومن هذا القبيل ما رواه الطبري: كان ابن مسعود يقول: إلياس هو إدريس، فقرأ: وإن إدريس لمن المرسلين. وقرأ: سلام على إدراسين.^٤

وذكر ابن قتيبة: أن ابن مسعود كان يقرأ: «وتكون الجبال كالصوف المنفوش» بدل «العِهْنِ الْمُنْفُوشِ»^٥ لأنّ العهن هو الصوف، وهذا أوضح وأنس للإفهام.

هذا.. ومن ثمّ تعود بعض المفسرين القدامى، إذا أشكل عليهم فهم كلمة غريبة في النصّ القرآني، أن يراجعوا قراءة ابن مسعود في ذلك، فلا بدّ أنّه أبدلها بكلمة أخرى مرادفة لها أوضح وأبين للمقصود الأصلي.

قال مجاهد: كنّا لاندري ما الزخرف، حتى رأينا في قراءة ابن مسعود: أو يكون لك بيت من ذهب.^٦

وفسر الزمخشري اليمين في قوله تعالى: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا» باليمينين، لأنّ ابن مسعود قرأ: فاقطعوا أيماهم.^٧

وذكر الغزالي من آداب البيع: إقامة لسان الميزان، فإنّ النقصان والرجحان يظهر

١ - معجم الأدباء لياقوت الحموي، ج ٤، ص ١٩٣، رقم ٣٣، ط دار المأمون، في ترجمة أحمد بن محمد بن يزيد بن رستم. وفي طبعة مرجليوث، رقم ٢٤، ج ٢، ص ٦٠ وطبعة بيروت، ج ١، ص ٥٩٨، رقم ١٥٠؛ وراجع - أيضاً -: النشر في القراءات العشر، ج ١، ص ٢١؛ والإتقان، ج ١ ص ١٢٤.

٢ - الدخان ٤٤: ٤٣-٤٤. ٣ - التفسير الكبير، ج ١، ص ٢١٣.

٤ - الصافات: ١٢٣ و ١٣٠. راجع: جامع البيان، ج ٢٣، ص ٦٢.

٥ - القارعة ١٠١: ٥. راجع: تأويل مشكل القرآن، ص ٢٤.

٦ - الإسراء ١٧: ٩٣. راجع: جامع البيان، ج ١٥، ص ١٠٩.

٧ - المائدة ٥: ٣٨. راجع: الكشف، ج ١، ص ٦٣٢.

يميله، واستشهد بقراءة ابن مسعود: وأقيموا الوزن باللسان ولا تخسروا الميزان، قال: لأنَّ القسط - في القراءة المشهورة - إنما يقوم بلسان الميزان.^١

وفي بعض طبقات إحياء العلوم صحَّحوه وفق النصَّ المشهور، ففاتهم غرض استشهاد المؤلف.

وهكذا قرأ: «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ - صمتا - فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْشِيَاءً»^٢ بدل «صَوْماً» لأنَّ الصوم المنذور كان صوم صمت.

وقرأ: «فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ جَلَابِيهِنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ»^٣ بدل «ثِيَابِهِنَّ». إذا كان المقصود من وضع الثياب هي الجلابيب لا غيرها.^٤

وقرأ: «إِنِّي أَرَانِي أُعْصِرُ عَنَباً» بدل «أُعْصِرُ خَمراً»^٥. لأنَّ المعصور هو العنب.^٦

وقرأ: «وِثْمُهَا» بدل «وَفُومُهَا»^٧. لأنَّهما بمعنى.^٨

وقرأ: «يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا - أَهْلُونَا - نَقْتَسِمُ مِنْ نُورِكُمْ»^٩ بدل «انْظُرُونَا» لأنَّ المقصود هو الإمهال.

وقرأ: «إِنْ كَانَتْ إِلَّا - زقية - وَاحِدَةً»^{١٠} بدل «صَيِّحَةً وَاحِدَةً».

قال العلامة الطبرسي: هو من زقى الطير: إذا صاح. وكان ابن مسعود استعمل هنا صياح الديك تنبيهاً على أنَّ البعث بما فيه من عظيم القدرة واستثارة الموتى من القبور، سهل على الله تعالى كزقية زقاها طائر. فهو كقوله تعالى: «مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ»^{١١}.

١ - الرحمان ٥٥: ٩. راجع: إحياء العلوم، ج ٢، ص ٧٩.

٢ - مريم ١٩: ٢٦. راجع: الكشاف، ج ٣، ص ١٤. و تفسير البحر المحيط، ج ٦، ص ١٨٥.

٣ - التور ٢٤: ٦٠. ٤ - الدر المنثور، ج ٦، ص ٢٢٢.

٥ - يوسف ١٢: ٣٦. ٦ - المحتسب لابن جنِّي، ج ٢، ص ١٥.

٧ - البقرة ٢: ٦١.

٨ - المحتسب، ج ١، ص ١٧١. ومعاني القرآن للفراء، ج ١، ص ٤١.

٩ - الحديد ٥٧: ١٣. راجع: الإتيقان، ج ١، ص ١٢٤. ١٠ - يس ٣٦: ٢٩ و ٥٣.

١١ - لقمان ٣١: ٢٨. راجع: مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٢١.

(ملحوظة): قد يأخذ البعض من هذا الاختلاف في قراءة النصّ القرآني ذريعة للطعن عليه، كما جاء في كلام المستشرق الألماني العلامة «جولد تسيهر» في كتابه: مذاهب التفسير الإسلامي، الذي وضعه لهذا الغرض.

لكنّها محاولة فاشلة بعد أن علمنا أن الاختلاف كان في مجرد القراءة خارج النصّ الثابت في المصحف. فالنصّ القرآني شيء لم يختلف فيه اثنان، وهو المثبت في المصحف الشريف منذ العهد الأوّل الإسلامي حتى العصر الحاضر، ومن ثمّ لم يمسّوه حتى لإصلاح أخطائه الإملائية. تحفظاً على نصّ الوحي يبغي بلا تحوير.

نعم جاءت قضية مراعاة جانب التسهيل على الأمة، من بعض السلف، لتجاوز القراءة بأيّ نحو كانت، مادامت تؤدّي نفس المعنى الأصلي من غير تحريف فيه. الأمر الذي يكون خارج النصّ المثبت قطعياً.

ومن ثمّ أجاز ابن مسعود أن ينطق ذلك الأعجمي بدل طعام الأثيم بطعام الفاجر.^١ فاستبدل من النصّ الصعب التلقّظ بالنسبة إليه، لفظاً أسهل... لكنّه لم يثبت في المصحف كنصّ قرآني. ولم يكن ذلك منه تجويز التبديل في نصّ الوحي.. حاشاه!

وهكذا كان تجويز عائشة لذلك العراقي: وما يضرّك أيّه قرأت.^٢ توسعة في مقام القراءة فقط، لا توسعة في ثبت النصّ القرآني الذي هو وحي السماء، في المصحف، ولا شكّ أن مصحفها كان ذا ثبت واحد قطعاً.

جهة سادسة: ربّما كان ابن مسعود يزيد في لفظ النصّ زيادات تفسيرية كانت أشبه بتعليقات إيضاحية أدرجت ضمن النصّ الأصلي.

وهذا أيضاً كان مبنياً على مذهبه: التوسعة في اللفظ، لغرض الإيضاح، مع التحفظ على نفس المعنى الأصيل.

وهكذا اعتبر أئمة الفنّ هذه الزيادات في قراءة ابن مسعود تفسيرات. ولم يعتبروها نصّاً قرآنياً منسوباً إلى ابن مسعود، ليكون اختلاف بين السلف في نصّ الوحي..!

١ - تقدم ذلك في «وصف مصحف ابن مسعود، الجهة الخامسة».

٢ - راجع: صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٨.

نعم كانت هذه التوسعة من ابن مسعود محاباة غير مستحسنة بالنص القرآني، ربّما كانت تؤدّي بالنص الأصلي وتجعله عرضة للتحريف والتغيير، الأمر الذي كان يتنافى تماماً مع تلك الحيلة والحذر على نصّ القرآن النازل من السماء. وقد تمسّك بعض الأغبياء بذلك وجعله دليلاً على جواز إدخال ما ليس من القرآن في القرآن إذا كان الغرض هو التفسير والإيضاح^١ لكنّه تفريع على أصل باطل.

وعلى أي تقدير فقد نسب إلى ابن مسعود زيادات جاءت في قراءته، نذكر منها ما يلي، والزيادة هي التي بين معقوفتين:

قرأ: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً [فاختلفوا] فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ»^٢.

وهذه الزيادة ترفع إيهاماً كان في وجه الآية: هل كانت بعثة الأنبياء سبباً للاختلاف، أم كان العكس؟ وذيل الآية يعيّن هذا الأخير. وجاءت الزيادة توضّح هذا الجانب أكثر. وقرأ: «الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ [وهو أب لهم] وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ»^٣ فجاءت الزيادة انسجماً مع ذي الآية، وتوضيحاً لسبب ولايته ﷺ على المؤمنين.

وقرأ: «وَجِئْتُكُمْ [بآيات - والنص] بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ [لما جئتمكم به من الآيات] وَأَطِيعُوا [فيما أدعوكم إليه]»^٤.

وقرأ: «وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ [وهو قاعد] فَضَحِكَتْ»^٥.

وقرأ: «مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ [إلا الله - والنص] إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ [ولا أربعة إلا الله خامسهم] وَلَا خَمْسَةٍ [إلا الله - والنص] إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ [ولا أقل - والنص] وَلَا أَذْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ [إلا الله - والنص] إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ [إذا انتجوا]»^٦.

وقرأ: «إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً [أنثى] وَلِي نَعَجَةٌ [أنثى]»^٧.

١ - راجع: الزرقاني على الموطأ، ج ١، ص ٢٥٥. ٢ - البقرة ٢: ٢١٣. راجع: الكشاف، ج ١، ص ٢٥٥.

٣ - الأحزاب ٣٣: ٦. راجع: الكشاف، ج ٢، ص ٥٢٣. ٤ - آل عمران ٣: ٥٠. راجع: الكشاف، ج ١، ص ٣٦٥.

٥ - هود ١١: ٧١. راجع: الكشاف، ج ٢، ص ٤١٠. ٦ - المجادلة ٥٨: ٧. راجع: الكشاف، ج ٤، ص ٤٩٠.

٧ - ص ٣٨: ٢٣. راجع: الكشاف، ج ٤، ص ٨٥. وتأويل مشكل القرآن، ص ٣٨.

وقرأ: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [ورحطك منهم المخلصين]»^١.

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال: كنّا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ [أَنْ عَلِيّاً مولى المؤمنين] وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ»^٢.

والظاهر: أنه أراد تفسير الآية، وأنها كانت على عهده ﷺ هكذا تفسّر.

وقرأ: «بَلَّ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ» - بضمّ التاء -^٣ والقراءة المشهورة هي بالفتح.

وأنكر ذلك شريح وقال: إنّ الله لا يعجب، إنّما يعجب من لا علم له. قال الأعمش: فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال: إنّ شريحا كان معجبا برأيه، إنّ عبد الله قرأ «بَلَّ عَجِبْتُ» بالضمّ، وعبد الله أعلم من شريح. وإضافة العجب إلى الله وردّ الخبر به كقوله: عجب ربكم من شاب ليس له صبوة. وعجب ربكم من إلكم وقنوطكم. ويكون ذلك على وجهين: عجب ممّا يرضى. ومعناه: الاستحسان والخبر عن تمام الرضا. وعجب ممّا يكره، ومعناه: الإنكار له والذمّ.^٤ والإلّ - بكسر الهمزة وتشديد اللام: شدة اليأس أو رفع الصوت بالبكاء على أثره. وصحّحنا الحديث على نهاية ابن الأثير.

وقال الزمخشري: فإن قلت: كيف يجوز العجب على الله وإنّما هو روعة تعري الإنسان عند استعظام الشيء والله تعالى لا يجوز عليه الروعة؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يجرد العجب لمعنى الاستعظام. والثاني: أن يتخيّل العجب ويفرض. وقد جاء في الحديث: «عجب ربكم من إلكم وقنوطكم وسرعة إجابته إياكم»^٥.

وقد أوردنا هذا البحث هنا كنموذج هو دليل على مبلغ اهتمام المفسّرين واعتناء الأئمة بقراءات ابن مسعود الرجل العظيم.

١ - الشعراء ٢٦: ٢١٤. راجع: مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٠٦؛ وبحار الأنوار، ج ١٨، ص ١٦٤.

٢ - المائدة ٥: ٦٧. راجع: الدرّ المثثور، ج ٢، ص ٢٩٨ و ج ٣، ص ١١٧ (دار الفكر).

٣ - الصافات ٣٧: ١٢. راجع: الكشف، ج ٤، ص ٣٨؛ وجامع البيان، ج ٢٣، ص ٢٩.

٤ - الكشف، ج ٤، ص ٣٧.

٥ - مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٤٠.

ومن غريب قراءته النقص أيضاً قرأ: «والذكر والأنثى» بدل «وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى».^١
 روى البخاري في صحيحه: قال: قدم أصحاب عبدالله إلى الشام، وفيهم علقمة.
 فجاءهم أبو الدرداء وقال: أيكم يقرأ على قراءة عبدالله؟ قالوا: كلنا. قال: فأأيكم يحفظ؟
 فأشاروا إلى علقمة. قال: كيف سمعته يقرأ «وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى...»؟ قال علقمة: «والذكر
 والأنثى» قال أبو الدرداء: أشهد أنني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هكذا، وهؤلاء يريدوني
 على أن أقرأ «وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى» والله لا أتابعهم.^٢
 وأسند الزمخشري هذه القراءة إلى النبي ﷺ.^٣
 وفي رواية الأعمش عن ابن مسعود: أنه قرأ: «حم سق» بلا عين. وهكذا قرأ ابن
 عباس أيضاً.^٤

وصف مصحف أبي بن كعب

كان ترتيب مصحف أبي قريباً من مصحف ابن مسعود، غير أنه قدّم سورة الأنفال،
 وجعلها بعد سورة يونس وقبل سورة براءة. وقدّم سورة مريم والشعراء والحج على سورة
 يوسف. وهكذا ممّا سيتبيّن في الجدول الآتي.
 وقد اشتمل مصحفه على مائة وخمس عشرة سورة. جعل سورتي الفيل وقريش
 سورة واحدة. وزاد سورتي الخلع والحقد، وسنذكرهما.
 وكان مصحفه مفتتحاً بسورة الحمد، ومختتماً بالمعوذتين، كمصحفنا اليوم.^٥
 جهة أخرى: اشتمال مصحفه على دعاءي القنوت، باعتبارهما سورتين فيما زعم.
 أمّا الخلع فهي: «بسم الله الرحمن الرحيم. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَعِينُكَ وَنَسْتَغْفِرُكَ وَنُثْنِي عَلَيْكَ

٢ - صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢١١ وج ٥، ص ٣٥.

٤ - مجمع البيان، ج ٩، ص ٢١.

١ - الليل ٩٢: ٣.

٣ - الكشف، ج ٤، ص ٧٦١.

٥ - الإتيان، ج ١، ص ١٨١ و ١٨٤.

الخير. ولا تكفرك. ونخلع ونترك من يفجرك». وأما الحفد فهي: «بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد. وإليك نسعى ونحفد. نخشى عذابك ونرجو رحمتك. إنَّ عذابك بالكفار ملحق»^١.

جهة ثالثة: كان قد ترك البسملة بين سورتي الفيل وقريش، باعتبارهما سورة واحدة^٢ وقد ورد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام أيضاً أنهما سورة واحدة، ولكن مع فصل البسملة بينهما. فإذا قرأ المصلي «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ» يجب أن يقرأ معها «لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ». فهما سورة واحدة قراءة ولكنهما سورتان ثبتاً، على عكس ما في مصحف أبي.

روى العياشي عن أبي العباس عن أحدهما (الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام) قال: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ، وَلَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ، سورة واحدة.^٣

وهكذا روينا بشأن سورتي الضحى والانشراح أنهما سورة واحدة.^٤ وقد أفتى بذلك علماءونا الأعلام. قال المحقق الحلبي رحمته الله: روى أصحابنا أن الضحى وألم نشرح سورة واحدة، وكذا الفيل ولا يلا ف. ولا يجوز إفراد إحداهما عن صاحبتهما في كل ركعة.^٥

وفي مجمع البيان: روي أن أبي بن كعب لم يفصل بينهما في مصحفه.^٦ جهة رابعة: كان افتتح سورة الزمر في مصحفه بـ«حم». فيكون عدد الحواميم عنده ثمانية. أخرجه ابن أشتة في كتاب المصاحف، قال: ثم الزمر أولها حم.^٧ جهة خامسة: اختلاف قراءته مع النص المشهور على نحو اختلاف قراءة ابن مسعود، وإليك نماذج من قراءاته الشاذة:

٢ - المصدر، ص ١٨٦.

١ - المصدر، ج ١، ص ١٨٥.

٣ - وسائل الشيعة، باب ١٠ من أبواب القراءة في الصلاة، ج ٤، ص ٧٤٤، ح ٦.

٥ - جواهر الكلام، ج ١٠، ص ٢٠.

٤ - المصدر، ح ٤.

٧ - الإتيان، ج ١، ص ١٨١.

٦ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥٤٤.

قرأ: «قَالُوا يَا وَيْلَنَا [مَنْ هَذَا - وَالنَّصْرَ] مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا»^١.
 وقرأ: «كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ [مَرَّوَا فِيهِ. وقرأ - أيضاً - : سَعَوْا فِيهِ بَدَل] مَشَوْا فِيهِ»^٢.
 وقرأ: «فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ [مُتَتَابِعَاتٍ] فِي الْحَجِّ»^٣. نظراً لأنه يجب التتابع فيها، فأوضحها
 بهذه الزيادة!

وقرأ: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ [إِلَى أَجْلِ مَسْمَى] فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً»^٤ للتنصيص
 على أنها متعة النكاح.
 وقرأ: «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا [مَنْ نَفْسِي فَكَيْفَ أَظْهَرُكُمْ عَلَيْهَا]»^٥. شرح وتفسير
 للآية.

وقرأ: «إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ [وَلَوْ حَمِيَّتُمْ كَمَا حَمَوْا لَفَسَدَ
 الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ] فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ»^٦.
 وفيما يلي جدول يقارن بين مصاحف السلف وترتيب مصحفنا اليوم. أخذناه من
 نصّ ابن أشته^٧ وأكملنا سقطاته على نصّ ابن النديم. وأرمزنا له بعلامة (ن) واعتمد هذا
 الأخير على رواية الفضل بن شاذان، اعتماداً يرجّحه على ما شاهدته بنفسه. قال: رأيت
 عدّة مصاحف ذكر نسّاخها أنها مصحف عبد الله بن مسعود، ليس فيها مصحفان متفقان.
 وأكثرها في رقّ كثير النسخ. وقد رأيت مصحفاً قد كتب منذ نحو مائتي سنة فيه فاتحة
 الكتاب. والفضل بن شاذان أحد الأئمة في القرآن والروايات، فلذلك ذكرنا ما قاله دون ما
 شهدناه^٨.

١ - يس ٣٦: ٥٢. راجع: مجمع البيان، ج ٨، ص ٤٢٨. ٢ - البقرة ٢: ٢٠. راجع: الإتيقان، ج ١، ص ١٣٤.

٣ - البقرة ٢: ١٩٦. راجع: الكشف، ج ١، ص ٢٤٢. ٤ - النساء ٤: ٢٤. راجع: جامع البيان، ج ٥، ص ٩.

٥ - طه ٢٠: ١٥. راجع: تأويل مشكل القرآن، ص ٢٥.

٦ - الفتح ٤٨: ٢٦. راجع: عبقات الأنوار، مجلد حديث مدينة العلم، ص ٥١٨.

٧ - الإتيقان، ج ١، ص ١٨١. ٨ - الفهرست، ص ٤٦.

جدول يقارن بين ثلاثة مصاحف

رقم السورة	مصحف ابن مسعود	مصحف أبي	المصحف الحاضر
١	...	الفاحة	الفاحة
٢	البقرة	البقرة	البقرة
٣	النساء	النساء	آل عمران
٤	آل عمران	آل عمران	النساء
٥	الأعراف	الأنعام	المائدة
٦	الأنعام	الأعراف	الأنعام
٧	المائدة	المائدة	الأعراف
٨	يونس	يونس	الأنفال
٩	براءة	الأنفال	التوبة
١٠	النحل	براءة	يونس
١١	هود	هود	هود
١٢	يوسف	مريم	يوسف
١٣	الكهف	الشعراء	الرعد
١٤	الإسراء	الحج	إبراهيم
١٥	الأنبياء	يوسف	الحجر
١٦	طه	الكهف	النحل
١٧	المؤمنون	النحل	الإسراء

رقم السورة	مصحف ابن مسعود	مصحف أبي	المصحف الحاضر
١٨	الشعراء	الأحزاب	الكهف
١٩	الصافات	الإسراء	مريم
٢٠	الأحزاب	الزمر (أولها حم)	طه
٢١	الحج	طه	الأنبياء
٢٢	القصص	الأنبياء	الحج
٢٣	النمل	النور	المؤمنون
٢٤	النور	المؤمنون	النور
٢٥	الأنفال	سبأ	الفرقان
٢٦	مريم	العنكبوت	الشعراء
٢٧	العنكبوت	المؤمن (غافر)	النمل
٢٨	الروم	الرعد	القصص
٢٩	يس	القصص	العنكبوت
٣٠	الفرقان	النمل	الروم
٣١	الحجر	الصافات	لقمان
٣٢	الرعد	ص	السجدة
٣٣	سبأ	يس	الأحزاب
٣٤	فاطر	الحجر	سبأ
٣٥	إبراهيم	الشورى	فاطر
٣٦	ص	الروم	يس
٣٧	محمد	الزخرف (ن)	الصافات
٣٨	لقمان	فصلت (ن)	ص
٣٩	الزمر	إبراهيم (ن)	الزمر

رقم السورة	مصحف ابن مسعود	مصحف أبي	المصحف الحاضر
٤٠	المؤمن	فاطر (ن)	غافر
٤١	الزخرف	الحديد ^١	فصلت
٤٢	فصلت	الفتح	الشورى
٤٣	الشورى	محمد	الزخرف
٤٤	الأحقاف	المجادلة	الدخان
٤٥	الجاثية	الملك	الجاثية
٤٦	الدخان	الفرقان (ن)	الأحقاف
٤٧	الفتح	السجدة	محمد
٤٨	الحديد (ن)	نوح	الفتح
٤٩	الحشر	الأحقاف	الحجرات
٥٠	السجدة	ق	ق
٥١	ق (ن)	الرحمن	الذاريات
٥٢	الطلاق	الواقعة	الطور
٥٣	القلم ^٢	الجن	النجم
٥٤	الحجرات	النجم	القمر
٥٥	الملك	المعارج	الرحمن
٥٦	التغابن	المزمل	الواقعة
٥٧	المنافقون	المدثر	الحديد
٥٨	الجمعة	القمر	المجادلة
٥٩	الصف	الدخان	الحشر
٦٠	الجن	لقمان	المتحنة

١ - جعلها ابن التديم بعد سورة محمد ﷺ .

٢ - جعلها ابن التديم بعد سورة الواقعة.

رقم السورة	مصحف ابن مسعود	مصحف أبي	المصحف الحاضر
٦١	نوح	الجاثية	الصف
٦٢	المجادلة	الطور	الجمعة
٦٣	المتحنة	الذاريات	المنافقون
٦٤	التحريم	القلم	التغابن
٦٥	الرحمن	الحاقة	الطلاق
٦٦	النجم	الحشر	التحريم
٦٧	الطور ^١	المتحنة	الملك
٦٨	الذاريات	المرسلات	القلم
٦٩	القمر	النبأ	الحاقة
٧٠	الحاقة (ن)	الدهر (ن)	المعارج
٧١	الواقعة	القيامة	نوح
٧٢	النازعات	التكوير	الجن
٧٣	المعارج	الطلاق	المزمل
٧٤	المدثر	النازعات	المدثر
٧٥	المزمل	التغابن	القيامة
٧٦	المطففين	عبس ^٢	الإنسان
٧٧	عبس	المطففين	المرسلات
٧٨	الدهر	الانشقاق	النبأ
٧٩	المرسلات ^٣	التين	النازعات
٨٠	القيامة	العلق	عبس

١ - جعلها ابن النديم بعد سورة الذاريات.

٢ - جعلها ابن النديم بعد سورة الغاشية.

٣ - جعلها ابن النديم بعد سورة القيامة.

رقم السورة	مصحف ابن مسعود	مصحف أبي	المصحف الحاضر
٨١	النبأ	الحجرات	التكوير
٨٢	التكوير	المنافقون	الانفطار
٨٣	الانفطار	الجمعة	المطففين
٨٤	الغاشية	التحریم	الانشقاق
٨٥	الأعلى	الفجر	البروج
٨٦	الليل	البلد	الطارق
٨٧	الفجر	الليل	الأعلى
٨٨	البروج	الانفطار	الغاشية
٨٩	الانشقاق	الشمس	الفجر
٩٠	العلق	البروج (ن)	البلد
٩١	البلد	الطارق	الشمس
٩٢	الضحى	الأعلى	الليل
٩٣	الطارق	الغاشية	الضحى
٩٤	العاديات	الصف ^١	الشرح
٩٥	الماعون	البيّنة	التين
٩٦	القارعة	الضحى	العلق
٩٧	البيّنة	الانشراح	القدر
٩٨	الشمس	القارعة	البيّنة
٩٩	التين	التكاثر	الزلزلة
١٠٠	الهمزة	العصر	العاديات
١٠١	الفيل	الخلع	القارعة

رقم السورة	مصحف ابن مسعود	مصحف أبي	المصحف الحاضر
١٠٢	قريش	الحفد	التكاثر
١٠٣	التكاثر	الهمزة	العصر
١٠٤	القدر	الزلزلة	الهمزة
١٠٥	الزلزلة	العاديات	الفيل
١٠٦	العصر	الفيل	قريش
١٠٧	النصر	قريش ^١	الماعون
١٠٨	الكوثر	الماعون	الكوثر
١٠٩	الكافرون	الكوثر	الكافرون
١١٠	المسد	القدر	النصر
١١١	التوحيد	الكافرون	المسد
١١٢	الانشراح ^٢	النصر	الإخلاص
١١٣	...	المسد	الفلق
١١٤	...	التوحيد	الناس
١١٥	...	الفلق	...
١١٦	...	الناس ^٣	...

١ - جعلها ابن النديم بعد سورة الضحى.

٢ - جعلها ابن النديم بعد سورة المسد.

٣ - تلك مائة وست عشرة سورة. لكن بما أن سورتي الفيل وقريش في مصحف أبي واحدة، فمجموع سورته ١١٥ سورة.

توحيد المصاحف

سبق أن الفترة بعد وفاة النبي ﷺ كانت فترة جمع القرآن، فقد اهتم كبار الصحابة بتأليف سور القرآن وجمع آياته، حسب ما أوتوا من علم وكفاءة، كل في مصحف يخصه. وآخرون أعوزتهم الكفاءة فلجأوا إلى غيرهم ليستنسخوا لهم مصاحف أو يجمعوا لهم آيات وسوراً في صحف. وهكذا أخذت نسخ المصاحف تتزايد، اطراداً مع اتساع رقعة الإسلام. كان المسلمون وهم في كثرة مطردة، ومنتشرون في أطراف البلاد المترامية، قد أحسوا بحاجتهم القريبة إلى نسخ من كتاب الله، حيث كان الدستور السماوي الوحيد الذي كان المسلمون ينظمون عليه معالم حياتهم العامة في جميع جوانبها، فهو مصدرهم في الأحكام والتشريعات والتنظيمات.

وقد أحرز بعض هذه المصاحف في العالم الإسلامي آنذاك مقاماً رفيعاً حسب انتسابه إلى جامعته. كمصحف عبدالله بن مسعود الصحابي الجليل كان مرجع أهل الكوفة وهو بلد العلم ومعهد الدراسات الإسلامية العليا. ومصحف أبي بن كعب في الأقطار الشامية. ومصحف أبي موسى الأشعري في البصرة. ومصحف المقداد بن الأسود في دمشق... وهكذا.

اختلاف المصاحف

ولما كان جامعوا المصاحف متعددين ومتباعدين، ومختلفين بحسب الكفاءة والمقدرة والاستعداد، وكانت كل نسخة منها تشتمل على ما جمعه صاحبها، وما جمعه واحد لا يتفق تماماً مع ما جمعه آخرون. كانت طبيعة الحال تقضي باختلاف في تأليف تلکم المصاحف، أسلوباً وترتيباً وقراءة وغيرها. وقد تقدّم حديث ما بين مصاحف

السلف من اختلاف.

وهذا الاختلاف في المصاحف وفي القراءات، كان بلا شك يستدعي اختلافاً بين الناس، عندما تجمعهم ندوة أو مناسبة، على مختلف نزعاتهم واتجاهاتهم يومذاك. فربما كان المسلمون يجتمعون في غزوة أو احتفال، وهم من أقطار متباعدة، فيقع بينهم نزاع وجدل، وإنكار أحدهم على الآخر، فيما يتعصبون له من مذهب أو عقيدة أو رأي.

نماذج من اختلاف العامة

وفيما يلي عرض موجز عن نماذج من اختلاف العامة على المصاحف فيما تعصبوا له من قراءات أصحابها:

١ - في غزو مرج أرمينية: بعدما قفل حذيفة راجعاً من غزو الباب (مرج أرمينية - آذربيجان) قال لسعيد بن العاص، وكان بصحبته: لقد رأيت في سفري هذا أمراً، لئن ترك ليختلفن في القرآن، ثم لا يقومون عليه أبداً! قال سعيد: وما ذاك؟ قال: رأيت أناساً من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد، ورأيت أهل دمشق يقولون: إن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك، وإنهم قرأوا على ابن مسعود. وأهل البصرة يقولون مثل ذلك، وإنهم قرأوا على أبي موسى الأشعري، ويسمّون مصحفه «لباب القلوب».

فلما وصل ركب حذيفة وسعيد إلى الكوفة، أخبر حذيفة الناس بذلك، وحذّرهم ما يخاف. فوافقهم أصحاب رسول الله ﷺ وكثير من التابعين.

وقال له أصحاب ابن مسعود: ما تنكر، ألسنا نقرأه على قراءة ابن مسعود؟! فغضب حذيفة ومن وافقه، وقالوا: إنما أنتم أعراب فاسكتوا، فإنكم على خطأ. وقال

حذيفة: والله لئن عشت لآتين أمير المؤمنين - يعني عثمان - ولأشيرن عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك.

فأغلظ له ابن مسعود، فغضب سعيد وقام، وتفرق الناس. وغضب حذيفة وسار إلى عثمان...^١

٢ - في مسجد الكوفة: عن يزيد النخعي، قال: إني لفي المسجد - مسجد الكوفة - زمن الوليد بن عقبة - وكان والياً على الكوفة من قبل عثمان - في حلقة فيها حذيفة بن اليمان. وليس إذ ذاك حجة ولا جلاوزة - أي لم يكن للمسجد آنذاك سدة وحفظة - إذ هتف هاتف: من كان يقرأ على قراءة أبي موسى، فليات الزاوية التي عند باب كندة. ومن كان يقرأ على قراءة عبدالله بن مسعود، فليات الزاوية التي عند دار عبدالله. واختلفا في آية من سورة البقرة، قرأ هذا: «وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ»!^٢

فغضب حذيفة واحمرت عيناه، ثم قام ففرز قميصه في حجزته وهو في المسجد، فقال: أما أن يركب إلى أمير المؤمنين وأما أن أركب. فهكذا كان من قبلكم... وفي رواية أبي الشعثاء: فقال حذيفة: قراءة ابن أمّ عبد! وقراءة أبي موسى الأشعري! والله إن بقيت حتى آتي أمير المؤمنين، لأمرنه بجعلها قراءة واحدة. فغضب عبدالله، فقال كلمة شديدة فسكت حذيفة...

وفي رواية ثالثة: قال حذيفة: يقول أهل الكوفة: قراءة عبدالله! ويقول أهل البصرة: قراءة أبي موسى! والله لئن قدمت على أمير المؤمنين، لأمرنه بغرق هذه المصاحف! فقال له عبدالله: أما والله لئن فعلت ليغرقنك الله في غير ماء يعني سقر.^٣ وروى ابن حجر: أن

٢ - البقرة ٢: ١٩٦.

١ - الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٥.

٣ - المصاحف، ص ١١ - ١٤.

ابن مسعود قال لحذيفة: بلغني عنك كذا، قال: نعم، كرهت أن يقال قراءة فلان وقراءة فلان، فيختلفون كما اختلف أهل الكتاب.^١

٣- في نفس المدينة: أخرج ابن أشتة عن أنس بن مالك، قال: اختلفوا في القرآن على عهد عثمان، جعل المعلم يعلم قراءة الرجل - أحد أصحاب المصاحف - والمعلم يعلم قراءة الرجل - آخر من أصحاب المصاحف - فكان الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين، فجعل يكفر بعضهم بقراءة بعض، فبلغ ذلك عثمان بن عفان، فقال: عندي تكذبون به وتلحنون فيه، فمن نأى عني كان أشدّ تكذيباً ولحناً...^٢

وعن محمد بن سيرين، قال: كان الرجل يقرأ حتى يقول الرجل لصاحبه: كفرت بما تقول! فرفع ذلك إلى عثمان فتعاضم في نفسه، فجمع اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار...^٣

وعن بكير الأشجّ قال: إن أناساً بالعراق كان يسأل أحدهم عن الآية، فإذا قرأها، قال - أي السائل -: ألا أني أكفر بهذه القراءة. ففشا ذلك في الناس، فتكلم بعضهم مع عثمان في ذلك.^٤

وهكذا وقعت حوادث حول اختلاف قراءة القرآن كانت تنذر بسوء ووقوع فتن ربّما لا تحمد عقباها، لولا تداركها من قبل رجال نابهين أمثال حذيفة بن اليمان وأضرابه، رضوان الله عليهم.

قدوم حذيفة المدينة

عندما رجع حذيفة من غزو أرمينية، ناقماً اختلاف الناس في القرآن، استشار من كان بالكوفة من صحابة الرسول ﷺ بشأن معالجة القضية قبل تفاقم الأمر. فكان رأيه

٢ - الإتيان، ج ١، ص ١٧٠؛ والمصاحف، ص ٢١.

١ - فتح الباري، ج ٩، ص ١٥.

٣ - الطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ٦٢؛ والمصاحف، ص ٢٥. ٤ - فتح الباري، ج ٩، ص ١٦.

حمل عثمان على أن يقوم بتوحيد نسخ المصاحف، وإلجاء الناس على قراءة واحدة، فاتفقت كلمة الصحابة على صواب هذا الرأي،^١ سوى عبدالله بن مسعود. ومن ثم أزمع في الأمر وسار إلى المدينة يستحث عثمان على إدراك أمة محمد ﷺ قبل تفرقها، قال: يا أمير المؤمنين، أنا النذير العريان أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في اليهود والنصارى! قال عثمان: وما ذاك؟ قال: غزوت مرج أرمينية فإذا أهل الشام يقرأون بقراءة أبي بن كعب ويأتون بما لم يسمع أهل العراق. وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة ابن مسعود. ويأتون بما لم يسمع أهل الشام، فيكفر بعضهم بعضاً!^٢

عثمان يأتمر الصحابة

تلك حوادث وأضرابها كانت وخيمة المآل، دعت بعثمان أن يهتم بالأمر ويقوم بساعد الجد، لولا أن تهيّيته القضية وهي فاجئة مباغتة، لم يسبقه إليها غيره ممن تقدّمه. مضافاً إلى ما كان يراه من صعوبة العمل في مرحلة تنفيذه، حيث انتشار نسخ المصاحف في البلاد، ومن ورائها رجال من كبار الصحابة لا يستهان بشأنهم في المجتمع الإسلامي آنذاك، فربّما يقومون بحمايتها والدفاع عنها فيشكلون عرقلة عويصة تسدّ وجه الطريق! ومن ثمّ جمع أصحاب الرسول ﷺ من كان حاضراً بالمدينة، واستشارهم في الأمر. فلم يكن منهم سوى اتفاقهم على ضرورة القيام به مهما كلف الأمر. قال ابن الأثير: فجمع عثمان الصحابة وأخبرهم الخبر، فأعظموه ورأوا جيمعاً ما رأى حذيفة.^٣

١ - الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٥٥.

٢ - صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٦؛ والمصاحف، ص ١٩ - ٢٠؛ والكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٥٦.

٣ - الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٥٦.

لجنة توحيد المصاحف

وأخيراً أزمع عثمان على تنفيذ الفكرة، فوجّه -أولاً- نداءه إلى عامّة الصحابة: يا أصحاب محمد ﷺ اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً.^١ ثمّ ندب نفرأ يخصّونه، وهم أربعة: زيد بن ثابت، وهو أنصاري وسعيد بن العاص وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمان بن الحارث بن هشام، وهم قرشيون... وهؤلاء الأربعة أعضاء أوليّة، انعقدت بهم لجنة توحيد المصاحف.^٢ وكانت لزيد سمة رئاسة على الآخرين. كما يظهر من تذمّر ابن مسعود واستنكاره استثمار زيد لهذا المنصب. قال: يامعشر المسلمين، أأعزل عن نسخ المصاحف ويتولّاها رجل. والله لقد أسلمت وإنّه لفي صلب رجل كافر. يريد زيد بن ثابت.^٣

وكان عثمان هو يتعهدهم بنفسه.^٤

لكن هؤلاء الأربعة لم يستطيعوا القيام بصميم الأمر، وكانت تعوزهم الكفاءة لهكذا عمل خطير. ومن ثمّ استعانوا بأبيّ بن كعب ومالك بن أبي عامر وكثير بن أفلج وأنس بن مالك وعبدالله بن عباس ومصعب بن سعد^٥ وعبدالله بن فطيمة^٦ إلى تمام الاثني عشر على ما جاء في رواية ابن سيرين وابن سعد وغيرهما.^٧

وفي هذا الدور كانت الرئاسة مع أبيّ بن كعب، فكان هو يملّي عليهم ويكتب الآخرون. قال أبو العالية: إنهم جمعوا القرآن من مصحف أبيّ بن كعب. فكان رجال يكتبون يملّي عليهم أبيّ بن كعب.^٨

قال ابن حجر: وكان ابتداء الأمر كان لزيد وسعيد، حيث سأل عثمان: من أكتب

١ - الإتيان، ج ١، ص ٥٩ عن مصاحف ابن اشته؛ والمصاحف، ص ٢١.

٢ - صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٦. ٣ - فتح الباري، ج ٩، ص ١٧؛ والمصاحف، ص ١٧.

٤ - المصاحف، ص ٢٥. ٥ - إرشاد الساري، ج ٧، ص ٤٤٩.

٦ - المصاحف، ص ٢٣. ٧ - المصدر، ص ٢٥؛ والطبقات، ج ٣، ق ٢، ص ٦٢.

٨ - المصاحف، ص ٣٠.

الناس؟ قالوا: زيد. ثم قال: فأَيُّ الناس أفصح؟ قالوا: سعيد. فقال: فليمل سعيد وليكتب زيد.^١

قال: ثم احتاجوا إلى من يساعدهم في الكتابة بحسب الحاجة إلى عدد المصاحف التي ترسل إلى الآفاق. فأضافوا إلى زيد من ذكر، ثم استظهروا بأبي بن كعب في الإملاء.^٢

موقف الصحابة تجاه المشروع المصاحفي

سبق أن حذيفة بن اليمان كان أول من فكر في توحيد المصاحف وحلف ليأتين الخليفة وليأمره بجعلها قراءة واحدة^٣ كما استشار هو من كان بالكوفة من صحابة الرسول ﷺ فوافقوه على ما عزم، سوى ابن مسعود.^٤

وجمع عثمان من كان بالمدينة من الصحابة فأتمرهم في ذلك فهبوا جميعاً يوافقون فكرة توحيد المصاحف، قال ابن الأثير: فجمع الصحابة وأخبرهم الخبر فأعظموه ورأوا جميعاً ما رأى حذيفة.^٥

وهكذا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أبدى رأيه موافقاً للمشروع ذاتياً. أخرج ابن أبي داود عن سويد بن غفلة، قال: قال علي عليه السلام: فوالله ما فعل عثمان الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منّا. استشارنا في أمر القراءات، وقال: بلغني أن بعضهم يقول: قراءة تي خير من قراءة تك، وهذا يكاد يكون كفراً. قلنا: فماذا رأيت؟ قال: أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت.^٦

١ - فتح الباري، ج ٩، ص ١٦. جاء ذلك في رواية مصعب بن سعد. لكن في صحة ما تضمنته الرواية من فحوى، كلام وتقاش!

٢ - المصدر: والطبقات، ج ٢، ق ٢، ص ٦٢؛ وتهذيب التهذيب، ج ١، ص ١٨٧.

٣ - فتح الباري، ج ٩، ص ١٥. ٤ - الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٥.

٥ - المصدر.

٦ - المصاحف، ص ٢٢. قال جلال الدين: والسند صحيح؛ والإتقان، ج ١، ص ٥٩؛ ونقل السيد ابن طاووس في

وفي رواية أخرى قال: لو وُلِّيت في المصاحف ما وُلِّي عثمان لفعلت كما فعل.^١
وأخرج ابن أبي داود - أيضاً - عن سويد بن غفلة، قال: قال عليّ عليه السلام - حين حرق عثمان
المصاحف -: لولم يصنعه هو لصنعتة.^٢

وكان عليه السلام - بعدما تولى الخلافة - أحرص الناس على الالتزام بالمرسوم المصحفي
- حتى ولو كانت فيه أخطاء إملائية - حفظاً على كتاب الله من أن تمسّه يد التحريف فيما
بعد باسم الإصلاح. قال عليه السلام بهذا الصدد: لا يُهاج القرآن بعد اليوم.

ذكروا: أنّه قرأ رجل بسمع الإمام: «وَطَلَحَ مَضُودٌ».^٣ فجعل الإمام يترنّم في نفسه:
ما شأن الطلح! إنّما هو طلع - كما في قوله تعالى: «لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ» -^٤ ولم يكن ذلك اعتراضاً
من الإمام على القارئ، ولا دعوة إلى تغيير الكلمة، بل كان مجرد حديث نفس ترنّم به
الإمام عليه السلام.

ولكن أناساً سمعوا كلامه فهبّوا يقترحون عليه: أولاً نحوه؟ فأنبرى الإمام عليه السلام
متسغرباً هذا الاقتراح، وقال كلمته الحاسمة الخالدة، «إنّ القرآن لا يُهاج اليوم
ولا يحوّل».^٥

وهكذا سار على منهجه عليه السلام الأئمة من ولده:

قرأ رجل عند الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام حروفاً من القرآن ليس على ما يقرؤه

→ سعد السعدي، ص ٢٧٨، من كتاب اختلاف المصاحف لأبي جعفر محمد بن منصور، رواية محمد بن زيد بن مروان: أنّ
القرآن جمعه زيد بن ثابت على عهد أبي بكر، ثمّ عاد عثمان، فجمع المصحف برأي مولانا علي بن أبي طالب عليه السلام.
ونقله أبو عبد الله الزنجاني أيضاً في تاريخ القرآن، ص ٤٥؛ ونقل في ص ٤٦ ما يقرب ذلك من مقدمة تفسير
الشهرستاني (ج ١، ص ١١٨) أيضاً.
١ - النشر، ج ١، ص ٨؛ والمصاحف، ص ٢٣.

٢ - المصاحف، ص ١٢.

٣ - الواقعة ٥٦: ٢٩. اختلفوا في تفسير الطلح. قيل: هو الموز. ومن الغريب ما ذكره ابن خالويه في الشواذ، ص ١٥١، إنّ أول
من غرس شجر الموز بمدينة الرسول ﷺ هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام!

٤ - ق ٥٠: ١٠.

٥ - جامع البيان، ج ٢٧، ص ١٠٤؛ ومجمع البيان، ج ٩، ص ٢١٨.

الناس! فقال له الإمام: مه مه، كفّ عن هذه القراءة واقراً كما يقرأ الناس.

وقال عليه السلام في جواب من سأله عن الترتيل في القرآن: اقرأوا كما علّمتكم.^١

ومن ثمّ وقع إجماع أصحابنا الإمامية على أنّ ما بأيدينا هو قرآن كلّهُ^٢ لم تمسّه يد تحريف أصلاً. وأنّ القراءة المشهورة (والتي قرأها حفص) هي القراءة الصحيحة، التي تجوز القراءة بها في الصلاة. وغيرها من أحكام أجروها على النصّ الموجود، واعتبروه هو القرآن الذي أوحى إلى النبيّ ﷺ ولم يعتبروا شيئاً سواه.

وأما ابن مسعود فلا أظنّ مخالفته كانت جوهرية، وإنّما أغضبه انتداب أشخاص غير أكفاء لهكذا مشروع جليل كان أمثاله جديرين بالانتداب له. كان يقول بأنّ رجالاً لم يؤذن لهم قد تصرّفوا في القرآن من تلقاء أنفسهم.^٣ ومن ثمّ أبى إياء شديداً أن يدفع مصحفه إلى رسول الخليفة. قال أبو ميسرة: أتاني رجل وأنا أصلي فقال: أراك تصلي وقد أمر بكتاب الله أن يمزق كل ممزق! فتجوّزت في صلاتي وكنت أجلس. فدخلت الدار ولم أجلس. ورقيت فلم أجلس. فإذا أنا بالأشعري، وحذيفة وابن مسعود يتقاولان. وحذيفة يقول لابن مسعود: ادفع إليهم المصحف. قال: والله لا أدفعه إليهم. أقراني رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة ثمّ أدفعه إليهم؟! والله لا أدفعه إليهم.^٤

عام تأسيس المشروع

قال ابن حجر: كانت هذه القصة في سنة خمس وعشرين، في السنة الثالثة أو الثانية^٥ من خلافة عثمان. قال: وغفل بعض من أدركناه فزعم أنّ ذلك كان في حدود سنة

١ - وسائل الشيعة، باب ٧٤ من أبواب القراءة في الصلاة، ج ٤، ص ٨٢١، ح ٣.

٢ - راجع: حديث طلحة مع الإمام. بحار الأنوار: ج ٩٢، ص ٤١ - ٤٢، ح ١.

٣ - المصاحف للسجستاني، ص ١٧. ٤ - المستدرک علی الصحیحین، ج ٢، ص ٢٢٨.

٥ - هذا التردد ينظر إلى الاختلاف في اليوم الذي يبيع فيه لعثمان، فقيل: في العشر الأخير من ذي الحجة عام ٢٣. وعليه فعام تأسيس اللجنة يقع في صدر السنة الثالثة من خلافته. وقيل: في العشر الأول من محرم عام ٢٤. وعليه فيكون تأسيس اللجنة واقعاً في مؤخّرة السنة الثانية. راجع: تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٠٤ طبعة الاستقامة، أوج ٤، ص ٢٤٢ طبعة دارالمعارف.

ثلاثين، ولم يذكر لذلك مستنداً.^١

وعدها ابن الأثير - وتبعه بعض من تأخر عنه من غير تحقيق - من حوادث سنة ثلاثين قال: وفي هذه السنة غزا حذيفة الباب مدداً لعبد الرحمان بن ربيعة وفيها رأى حذيفة اختلافاً كثيراً بين الناس في القرآن، فلما رجع أشار على عثمان بجمع القرآن ففعل.^٢

وأظن ابن الأثير متوهماً في هذا التحديد:

أولاً: كانت غزوة آذربيجان وأرمينية سنة ٢٤ في رواية أبي مخنف، ذكرها الطبري. غزاها الوليد بن عقبة، لأنهم حبسوا ما صالحوا عليه حذيفة اليمان عندما غزاهم سنة ٢٢ أيام عمر بن الخطاب.^٣

وقال ابن حجر: أرمينية فتحت في خلافة عثمان، وكان أمير العسكر من أهل العراق: سلمان بن ربيعة الباهلي. وكان عثمان قد أمر أهل الشام وأهل العراق أن يجتمعوا على ذلك، وكان أمير أهل الشام في ذلك العسكر: حبيب بن مسلمة الفهري وكان حذيفة من جملة من غزا معهم، وكان هو على أهل المدائن، وهي من جملة أعمال العراق...

ثم قال: سنة خمس وعشرين هو الوقت الذي ذكر أهل التاريخ أن أرمينية فتحت فيه، أول ولاية الوليد بن عقبة بن أبي معيط، على الكوفة من قبل عثمان.^٤ ثانياً: كانت الغزوة التي غزاها عبد الرحمان بن ربيعة، هي في سنة اثنتين وعشرين. وكان الذي بصحبته حذيفة بن أسيد الغفاري، لاحذيفة بن اليمان العنسي.^٥

١ - فتح الباري، ج ٩، ص ١٥.

٢ - الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ٥٥؛ والفتوحات الإسلامية لزيني دحلان، ج ١، ص ١٧٥.

٣ - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٤٦ - ٢٤٧. ٤ - فتح الباري، ج ٩، ص ١٣ - ١٤.

٥ - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ١٥٥.

ثالثاً: في سنة ثلاثين عيّن سعيد حاكماً على الكوفة مكان الوليد، وفي نفس الوقت تهيّأ لغزو طبرستان. وصحبه في الغزو ابن الزبير وابن عباس والحذيفة.^١ ولم يرجع سعيد إلى المدينة حتى سنة ٣٤ وفي السنة التالية كان مقتل عثمان.^٢

كلّ ذلك لا يلتئم وكون سعيد عضواً ثانياً للجنة إذا كانت تأسست عام ٣٠ وهكذا ابن الزبير وابن عباس على ما تقدّم.

رابعاً: ذكر الذهبي فيمن توفي عام ثلاثين «أبي بن كعب». قال: وقال الواقدي: هو أثبت الأقاويل عندنا^٣ مع العلم أنّ أياً كان مملياً على الأعضاء، وكان مرجعهم الأعلى في النسخ والمقابلة.

خامساً: في حديث يزيد النخعي الآنف: إنّني لفي المسجد زمن الوليد... الخ.^٤ الأمر الذي يدلّ على وقوع القصة قبل سنة ثلاثين. وفي لفظ ابن حجر: أنّه كان في بدء ولاية الوليد على الكوفة^٥ ولا بدّ أنّه كذلك، إذ كان تعيّن الوليد على الكوفة في مفتتح سنة ٢٦. وفي رواية سيف: أنّها كانت سنة ٢٥.^٦

سادساً: وربّما هو أقوى دليل: روى ابن أبي داود، عن مصعب بن سعد، قال: خطب عثمان - بدء قيامه بجمع القرآن - فقال: إنّما قبض نبيّكم منذ خمس عشرة سنة، وقد اختلفتم في القرآن! عزمت على من عنده شيء من القرآن سمعه من رسول الله ﷺ لمّا أتاني به...^٧

هذه الخطبة تحدّد بالضبط بدء تأسيس المشروع المصاحفي، وأنّه كان عام ٢٥ بعد

١ - المصدر، ص ٢٦٩ - ٢٧١. ٢ - المصدر، ص ٢٣٠ و ٣٦٥.

٣ - ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ٨٤؛ وراجع: الطبقات، ج ٣، ص ٦٢.

٤ - تقدّم ذلك في «نماذج من اختلاف العائمة» رقم ٢. ٥ - فتح الباري: ج ٩، ص ١٣ - ١٤.

٦ - تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٥١. ٧ - المصاحف، ص ٢٤.

الهجرة.

وأخيراً فابن الأثير متفرّد عن الطبري في سرد قضيّة حذيفة، ضمن حوادث سنة ثلاثين. ولا سيّما والتفصيل الذي أتى عليه في تأريخه، جاء في صورة لانكاد نصّدّقها مأخوذة عن مستند تاريخي، وأغلب الظنّ أنّها مجموعة روايات منضّمة بعضها إلى بعض زعمها مقترنة، فأوردها ضمن حوادث تلك السنة!!

ملحوظة: لا يعتمد الطبري نفسه على التحديدات الزمنية التي يذكرها هو قيّداً للحوادث، فهو يتردّد أحياناً في حادثة بين وقوعها سنة ١٨ أو سنة ٢١، كواقعة نهاوند^١ - مثلاً - فلا بدّ إذن لمعرفة تأريخ كلّ حادثة من البحث عن ملابساتها والتحقيق عن مناسبتها وأسبابها، دون الاعتماد السريع على ما يذكره المؤرّخون من توقّيت.

منجزات المشروع

اجتازت اللجنة المصاحفيّة في عملها ثلاث مراحل أساسيّة:

١ - جمع المصاحف أو الصحف التي فيها قرآن، من أطراف البلاد الإسلاميّة وإمحاءها.

٢ - البحث عن مستندات ووثائق صحيحة لغرض النسخ عليها مصاحف متحدة وبنّها بين المسلمون.

٣ - مقابلة هذه المصاحف الموحّدة، لغرض التأكد من صحتها أوّلاً، وعدم وجود اختلاف بينها ثانياً.

وأخيراً إلزام المسلمين كافّة على قراءتها ومنع غيرها من قراءات. واللجنة - وإن

١ - يصرّح الطبري بترديده بشأن واقعة نهاوند، ج ٤، ص ١١٤، حوادث سنة ٢١.

اجتازت هذه المراحل - ولكنها في شيء من التساهل وإهمال جانب الدقة الكاملة، ولا سيما في المرحلة الثالثة التي كانت بحاجة شديدة إلى اهتمام أكثر.

ففي مرحلة جمع المصاحف وإمحاءها فقد أرسل عثمان إلى كل أفق من يجمع المصاحف أو الصحف التي فيها قرآن وأمر بها أن تحرق.^١

قال اليعقوبي: وكتب في جمع المصاحف من الآفاق حتى جمعت، ثم سلقها بالماء الحار والخل. وقيل: أحرقها. فلم يبق مصحف إلا فعل به ذلك، خلا مصحف ابن مسعود، فامتنع أن يدفع مصحفه إلى عبدالله بن عامر. فكتب إليه عثمان أن أشخصه. فدخل ابن مسعود المسجد وعثمان يخطب، فقال عثمان: إنه قد قدمت عليكم دابة سوء. فكلّم ابن مسعود بكلام غليظ. فأمر به عثمان فجزّ برجله حتى كسر له ضلعان، فتكلّمت عائشة وقالت قولاً كثيراً.^٢

وفي المرحلة الثانية، كان عثمان في بدء الأمر زعمها هيئة، ومن ثم اختار لها جماعة غير أكفاء، ثم لجأ أخيراً إلى جماعة آخرين وفيهم الأكفاء مثل سيّد القراء^٣ الصحابي الكبير أبي بن كعب. كما وأرسل إلى الربعة التي كانت في بيت حفصة، وهي الصحف التي جمع فيها القرآن أيام أبي بكر. فطلبها لتكون سنداً وثيقاً للمقابلة عليها والاستنساخ منها. فأبت حفصة لأوّل أمرها أن تدفعها إليه، ولعلّها خافت أن تأخذ مصيره إلى الحرق والتمزيق كسائر المصاحف! حتى عاهدتها عثمان ليردّها فبعثت بها إليه.^٤

وهكذا وجّه نداءً عاماً إلى كافة المسلمين: عزمت على من عنده شيء من القرآن

سمعه من رسول الله ﷺ لما أتاني به.^٥

١ - صحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٦. ٢ - تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥٩ - ١٦٠.

٣ - تهذيب التهذيب: ج ١، ص ١٨٧؛ والطبقات: ج ٣، ص ٦٢.

٤ - المصاحف، ص ٩؛ وصحيح البخاري، ج ٦، ص ٢٢٦. ٥ - المصاحف، ص ٢٤.

فجعل الرجل يأتيه باللوح والكتف والعسيب فيه القرآن. وربما كانوا ينتظرون أناساً كانوا أحدثهم بالعرضة الأخيرة، حتى يأتوهم بالقرآن. قال ابن سيرين: كانوا إذا تدارؤا في شيء - أي اختلفوا في آية - أخروه. قال بعضهم: ولعلهم كانوا يؤخرونه لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة. فيكتبونها على قوله.^١

وقال أنس بن مالك: كنت فيمن أُملي عليهم، فربما اختلفوا في الآية فيذكرون الرجل قد تلقاها من رسول الله ﷺ ولعله يكون غائباً أو في بعض البوادي، فيكتبون ما قبل الآية وما بعدها، ويدعون موضعها حتى يجيء الرجل أو يرسل إليه.^٢ هذا... وربما كان أبي بن كعب يملئ عليهم القرآن فيكتبونه، أو يرسلون إليه فيصحح لهم ما اشتبهت عليهم قراءتها.

جاء في حديث أبي العالية: أنهم جمعوا القرآن من مصحف أبي. فكان رجال يكتبون يملئ عليهم أبي بن كعب.^٣

وقال عبدالله بن هانئ البربري - مولى عثمان -: كنت عند عثمان، وهم يعرضون المصاحف - أي يقابلون النسخ مع بعضها البعض - فأرسلني بكتف شاة إلى أبي بن كعب فيها: «لم يتسنَّ» وفيها: «لا تبديل للخلق الله»، وفيها: «فأمهل الكافرين» فدعا أبي بدواة فمحي اللامين وكتب «لخلق الله». ومحي «فأمهل». وكتب «فمهل» وكتب «لم يتسنَّ» فألحق فيها الهاء.^٤

أمّا المرحلة الثالثة فكان التساهل فيها أوضح، حسب ما أودعت في المصحف العثماني من أخطاء ومناقضات إملائية بما لا يستهان بها، كما ولم تتحد نسخ المصاحف مع

١ - المصدر، ص ٢٥.

٢ - المصدر، ص ٢١.

٣ - المصدر، ص ٣٠.

٤ - الإتيان، ج ٢، ص ٢٧١.

بعضها البعض، فكان بين المصاحف المرسلة إلى الآفاق اختلاف. الأمر الذي يؤخذ على أعضاء اللجنة، ولاسيّما عثمان نفسه، الذي عثر على تلك الأخطاء وأهمّلتها تساهلاً بالأمر!

يحدّثنا ابن أبي داود عن بعض أهل الشام، كان يقول: مصحفنا ومصحف أهل البصرة أحفظ من مصحف أهل الكوفة. لأنّ عثمان لمّا كتب المصاحف بلغه قراءة أهل الكوفة على حرف عبدالله. فبعث إليهم بالمصحف قبل أن يعرض - أي قبل مقابلته على سائر النسخ - وعرض مصحفنا ومصحف أهل البصرة قبل أن يبعث بهما.^١ وهو تسريع في إرسال المصحف إلى قطر كبير قبل مقابلته بدقة.

كما وأنّ وجود اختلاف بين مصاحف الأمصار - على ما يحدّثنا ابن أبي داود أيضاً -^٢ لدليل على مدى الإهمال الذي سمحوا به في ناحية المقابلة والإتقان من صحّة النسخ.

وجانب أفضح من هذا التساهل الغريب: ما روى ابن أبي داود - أيضاً -: أنّهم عندما فرغوا من نسخ المصاحف أتوا به عثمان، فنظر فيه فقال: قد أحسنتم وأجملتم. أرى فيه شيئاً من لحن! - لكن - ستقيمه العرب بالسنتها؟ ثمّ قال: لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا!^٣

قلت: ما هذا الإيتكال الغريب، والفرصة في قدرته؟! ألم يكن كتاب الله العزيز الحميد جديراً بالاهتمام به ليكون خلواً من كلّ خطأ أو لحن؟! ثمّ ما هذا التمنيّ الكاذب، وفي استطاعته بدء الأمر أن يختار مملياً من هذيل وكتبة من ثقيف، وهو يعلم أنّ فيهم الجدارة والكفاءة، الأمر الذي كان يعوزه من انتدبهم من بطانته حينذاك!!

٢ - المصدر، ص ٣٩ - ٤٩. وسنذكره في فصل قادم.

١ - المصاحف، ص ٣٥.

٣ - المصدر، ص ٣٢ - ٣٣.

نعم كانت مغتبة هذا التساهل أن حصلت اختلافات في القراءة فيما بعد، وكان كراً على ما فرّوا منه. وسنفصل كل ذلك في فصول قادمة.

عدد المصاحف العثمانية

اختلف المؤرخون في عدد المصاحف الموحدة التي أرسلت إلى الآفاق. قال ابن أبي داود: كانت ستة حسب الأمصار المهمة ذوات المركزية الخاصة: مكة والكوفة والبصرة والشام والبحرين واليمن. وحسب السابعة - وكانت تسمى الأم أو الإمام - بالمدينة^١ وزاد اليعقوبي: مصر والجزيرة^٢.

إذاً فعدد المصاحف التي نسختها لجنة توحيد المصاحف هي تسعة، واحدة هي الأم أو الإمام، كانت بالمدينة والبقية أرسلت إلى مراكز البلاد الإسلامية آنذاك.

وكان المصحف المبعوث إلى كل قطر يحتفظ عليه في مركز القطر، يستنسخ عليه ويرجع إليه عند اختلاف القراءة. ويكون هو حجة، والقراءة التي توافقها تكون هي الرسمية، وكل نسخة أو قراءة تخالفها تعدّ غير رسمية وممنوعة يعاقب عليها.

أمّا مصحف المدينة (الإمام) فكان مرجعاً للجميع بصورة عامة، حتى إذا كان اختلاف بين مصاحف الأمصار، فإنّ الحجة هو المصحف الإمام بالمدينة، فيجب أن يصحّح عليه.

وروي: أنّ عثمان بعث مع كل مصحف قارئاً يُقرئ الناس على قراءة ذلك المصحف. فبعث مع المصحف المكي - مثلاً - عبدالله بن السائب. ومع المصحف الشامي المغيرة بن شهاب. ومع المصحف الكوفي أبا عبد الرحمن السلمي. ومع المصحف البصري

٢ - تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٦٠.

١ - المصدر، ص ٣٤.

عامر بن عبد القيس.. وهكذا. وكان قارئ المدينة والمقرئ من قبل الخليفة هو زيد بن ثابت.^١

هذا.. وكانت شدة الاهتمام بهذه المصاحف والتحفظ عليها من قبل السلطات، وشدة حرص الناس على محافظتها ودراستها، تستدعي بقاءها مع الخلود. غير أن تطورات حصلت عليها فيما بعد: تنقيط وتشكيل وتحزيب وأخيراً تغيير الخط من الكوفي البدائي الذي كتبت به المصاحف على عهد عثمان، إلى الكوفي المعروف، وبعده إلى خط النسخ العربي الجميل وخطوط أخرى تداولت فيما بعد. كل ذلك جعل من المصاحف العثمانية الأولى على مدرج النسيان، فأمست مهجورة ولم يعد لها أثر في الوجود.

هذا... وذكر ياقوت الحموي (ت ٦٢٦) أن في جامع دمشق مصحف عثمان بن عفان. قالوا: إنه خطه بيده.^٢

وهذا المصحف رآه ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩) قال: وإلى الجانب الأيسر من جامع دمشق المصحف العثماني بخط عثمان بن عفان.^٣

ولم يحفظ لعثمان أنه خط مصحفاً بيده، فلعله مصحف الشام بقي لذلك العهد.

وهذا المصحف يذكره ابن كثير (ت ٧٧٤) من غير أن ينسبه إلى خط عثمان. قال:

وأما المصاحف العثمانية فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة. وقد كان قديماً بمدينة طبرية ثم نقل منها إلى دمشق في حدود سنة ٥١٨ وقد رأيت كتاباً ضخماً بخط حسن مبين قوي، بحبر محكم، في رق أظنه من جلود الإبل.^٤

وقال الرحالة ابن بطوطة (ت ٧٧٩): وفي الركن الشرقي من المسجد إزاء المحراب

١ - مناهل العرفان، ج ١، ص ٤٠٣-٤٠٤. ٢ - معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٦٩.

٣ - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج ١، ص ١٩٥. ٤ - فضائل القرآن لابن كثير، ص ١٥.

خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجهه عثمان بن عفان إلى الشام، و تفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم. وهناك يحلف الناس غرماءهم ومن ادّعوا عليه شيئاً^١.

ويقال، إنّ هذا المصحف بقي في مسجد دمشق حتى احترق فيه سنة ١٣١٠^٢. قال الدكتور صبحي صالح: وقد ذكر لي زميلي الأستاذ الدكتور يوسف العش: إنّ القاضي عبدالمحسن الاسطواني أخبره بأنّه قد رأى المصحف الشامي قبل احتراقه، وكان محفوظاً بالمقصورة وله بيت خشب^٣.

قال الأستاذ الزرقاني: ليس بين أيدينا دليل قاطع على وجود المصاحف العثمانية الآن فضلاً عن تعيين أمكنتها.

أمّا المصاحف الأثرية التي تحتويها خزائن الكتب المصرية ويقال عنها: إنّها مصاحف عثمانية، فإنّنا نشكّ كثيراً في صحّة هذه النسبة، لأنّ بها زركشة وتقوشاً موضوعة كعلامات للفصل بين السور، ولبیان أعشار القرآن. ومعلوم أنّ المصاحف العثمانية كانت خالية من كلّ هذا ومن النقط والشكل.

نعم في خزانة المشهد الحسيني مصحف منسوب إلى عثمان، مكتوب بالخطّ الكوفيّ القديم، مع تجويف حروفه وسعة حجمه جداً. ورسمه يوافق رسم المصحف المدنيّ أو الشاميّ، حيث رسم فيه كلمة «من يرتدد» من سورة المائدة بدالين مع الفك، فأكبر الظنّ أنّ هذا المصحف منقول من المصاحف العثمانية على رسم بعضها^٤.

وهكذا نسب إلى خطّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مصحف بعض أوراقه محفوظة بالخزانة العلوية في النجف الأشرف. بخطّ كوفيّ قديم، كتب على آخره: كتبه علي بن

١- رحلة ابن بطوطة، ج ١، ص ٥٤.

٢- خطط الشام، ج ٥، ص ٢٧٩.

٣- مباحث في علوم القرآن، ص ٨٩ بالهامش.

٤- مناهل العرفان، ج ١، ص ٤٠٤-٤٠٥.

أبو طالب في سنة أربعين من الهجرة. قال الأستاذ أبو عبد الله الزنجاني: ورأيت في شهر ذي الحجة سنة ١٣٥٣ في دار الكتب العلوية في النجف مصحفاً بالخط الكوفي كتب على آخره: كتبه علي بن أبي طالب في سنة أربعين من الهجرة ولتشابه «أبي» و«أبو» في رسم الخط الكوفي قد يظن من لا خبرة له أنه كتب علي بن أبو طالب بالنواو.^١

وفي خزانة الآثار بالمسجد الحسيني بالقاهرة أيضاً مصحف يقال: أن علي بن أبي طالب كتبه بخطه، وهو مكتوب بخط كوفي قديم. قال الأستاذ الزرقاني: من الجائز أن يكون كاتبه علياً، أو يكون قد أمر بكتابه في الكوفة.^٢

ويذكر ابن بطوطة: أن في مسجد أمير المؤمنين علي عليه السلام بالبصرة، المصحف الكريم الذي كان عثمان يقرأ فيه لما قتل. وأثر تغييره الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى: «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».^٣ وهو غريب!

وروى السهودي عن محرر بن ثابت، قال: «بلغني أن مصحف عثمان صار إلى خالد بن عمرو بن عثمان، فلما استخلف المهدي (العباسي) بعث بمصحف إلى المدينة، فهو الذي يقرأ فيه اليوم، وعزل مصحف الحجاج، فهو في الصندوق الذي دون المنبر.

وقال ابن زبالة: حدثني مالك بن أنس أن الحجاج أرسل إلى أمهات القرى بمصاحف، فأرسل إلى المدينة بمصحف كبير، وكان هذا المصحف في صندوق، عن يمين الأسطوانة التي عملت علماً لمقام النبي ﷺ وكان يفتح في يوم الجمعة والخميس فبعث المهدي بمصاحف لها أثمان فجعلت في صندوق ونحى عنها مصحف الحجاج».

قال السهودي: «ولا ذكر لهذا المصحف الموجود اليوم بالقبة التي بوسط المسجد المنسوب لعثمان في كلام أحد من متقدمي المؤرخين.

١ - تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني، ص ٤٦. ٢ - مناهل العرفان، ج ١، ص ٤٠٥.

٣ - البقرة ٢: ١٣٧. راجع: رحلة ابن بطوطة، ج ١، ص ١١٦.

وفي كلام ابن النجار - وهو أول من ترجم مصاحف المساجد -: أن المصاحف الأولية قد دثرت على طول الزمان وتفرقت أوراقها فلم تبق لها باقية بعد ذلك»^١.

تعريف عام بالمصاحف العثمانية

كانت المصاحف العثمانية - بصورة عامة - ذات ترتيب خاص يقرب من ترتيب مصاحف الصحابة في أصل المنهج الذي سارت عليه بتقديم الطوال على القصار، مع اختلاف يسير.

وكانت خالية عن كل علامة تشير إلى إعجام الحرف أو تشكيله. أو إلى تجزئته من أحزاب وأعشار وأخماس..

وكانت مليئة بأخطاء إملائية ومناقضات في رسم الخط، ويرجع السبب إلى بداءة الخط الذي كان يعرفه الصحابة آنذاك.

تلك أوصاف عامة جرت عليها تلك المصاحف نفصلها فيما يلي:

١ - الترتيب

تقدم الكلام عن ترتيب المصحف العثماني، هو الترتيب الحاضر في المصحف الكريم، وهو الترتيب الذي جرت عليه مصاحف الصحابة حينذاك، ولا سيما مصحف أبي بن كعب. لكنه خالفها في موارد يسيرة.

من ذلك: أن الصحابة كانوا يعدّون سورة يونس من السبع الطوال، فكانت هي السورة السابعة^٢ أو الثامنة^٣ في ترتيب مصاحفهم.

لكن عثمان عمد إلى سورة الأنفال فجعلها هي وسورة براءة سابعة السبع الطوال،

١ - راجع: وفاء الوفاء، ج ٢، ص ٦٦٧ - ٦٦٨.

٢ - في مصحف ابن مسعود.

٣ - في مصحف أبي بن كعب.

زعمهما سورة واحدة وأخر سورة يونس إلى سور المئين.

الأمر الذي أثار ابن عباس^١ ليعترض على عثمان، قائلاً: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من المثاني^٢ وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم^٣ ووضعتموهما في السبع الطوال؟!

قال عثمان: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا. وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً. وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتهما في السبع الطوال.

قال الحاكم: والحديث صحيح على شرط الشيخين.^٤

وهذا يدل على اجتهاد الصحابة في ترتيب المصحف. فكان عثمان يعرف أن آيات من سور ربما كان يتأخر نزولها، فيأمر النبي ﷺ أن توضع موضعها من السورة المتقدمة. فزعم عثمان أن سورة براءة هي من تنمة سورة الأنفال^٥ لتشابه ما بينهما في السياق العام: تعنيف بمناوئي الإسلام من كافرين ومنافقين، وتحريض بالمؤمنين على

١ - سبق أن عضويته في لجنة توحيد المصاحف كانت متأخرة.

٢ - لعله ينظر إلى مصحف ابن مسعود الذي جعلها من المثاني. أما في مصحف أبي بن كعب فهي من المئين.

٣ - أيضاً ينظر إلى مصحف ابن مسعود الذي أثبت فيه البسمة لسورة براءة.

٤ - المستدرک على الصحيحين، ج ٢، ص ٢٢١ و ٣٣٠.

٥ - وهكذا روى العياشي، ج ٢، ص ٧٣، ح ٣ بسنده عن أحدهما عليه السلام قال: الأنفال وسورة براءة واحدة.

وهناك اختلاف بين العلماء في أنهما سورة واحدة أم اثنتان؟ راجع: مجمع البيان، ج ٥، ص ٢. وربما كان يرجح القول بأنهما سورة واحدة ماورد: إنما كان يعرف انقضاء السورة بنزول بسم الله الرحمن الرحيم ابتداءً للآخرى. تفسير العياشي، ج ١، ص ١٩، ح ٥.

الثبات والكفاح لتثبيت كلمة الله في الأرض. وحيث لم يرد نقل بشأنهما فقرن بينهما وجعلهما سورة واحدة هي سابعة الطوال.

ولعلّه لم يتنبّه أنّ سورة براءة نزلت نقمة بالكافرين، ومن ثمّ لم تنزل معها التسمية التي هي رحمة، حيث لا يتناسب بدء نقمة برحمة. قال أمير المؤمنين عليه السلام: البسمة أمان، وبراءة نزلت بالسيف.^١

وهكذا اختلافات يسيرة جاءت في المصحف العثمانيّ مع بقيّة المصاحف، لا في أصول منهج الترتيب العامّ، بل في سور كلّ نوع من التوزيع، المتقدّم. وكان الجدول السابق كفل بيان هذا الاختلاف.

٢ - النقط والتشكيل

كانت المصاحف العثمانية خلواً عن كلّ علامة مائزة بين الحروف المعجمة والحروف المهملة، وفق طبيعة الخطّ الذي كان دارجاً عند العرب آنذاك. فلا تمييز بين الباء والتاء ولا بين الياء والثاء ولا بين الجيم والحاء والحاء. وهكذا كان مجرداً عن الحركة والإعراب... وكان على القارئ بنفسه أن يميّز بينهما عند القراءة حسب ما يبدو له من قرائن. كما كان عليه أن يعرف هو بنفسه وزن الكلمة وكيفية إعرابها أيضاً.

ومن ثمّ كانت قراءة القرآن في الصدر الأوّل موقوفة على مجرد السماع والنقل فحسب. ولولا الإسماع والإقراء كانت القراءة في نفس المصحف الشريف ممتعة تقريباً. مثلاً: لم تكن كلمة «تبلو» تفرق في المصحف عن كلمة «نبلو» أو «نتلو» أو «تتلو» أو «يتلو»... وكذا كلمة «يعلمه» لم تكن تتميز عن كلمة «تعلمه» أو «نعلمه» أو

١ - المستدرك على الصحيحين، ج ٢، ص ٣٣٠؛ والإتقان، ج ١، ص ١٨٤؛ ومجمع البيان، ج ٥، ص ٢.

«بعلمه».

وهكذا قوله: «لتكون لمن خلفك آية» ربّما قرأه بعضهم: «لمن خلقك». وفيما يلي

أمثلة واقعيّة، اختلفت القراءة فيها، مغبّة خلوّ المصاحف من النقط:

«نُنَشِّرُهَا» «نُنَشِّرُهَا» «نُنَشِّرُهَا».^١

«يُعَلِّمُهُ» «نُعَلِّمُهُ».^٢

«تَتَلَوُ» «تَتَلَوُ».^٣

«نُنَجِّيكَ» «نُنَجِّيكَ» «نُنَجِّيكَ».^٤

«لَنُبَوِّئَنَّهُمْ» «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ» «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ».^٥

«يُجَازِي» «يُجَازِي» «يُجَازِي».^٦

«فَتَثْبِتُوا» «فَتَثْبِتُوا» «فَتَثْبِتُوا».^٧

إلى غيرها من أمثلة وهي كثيرة.

هذا... وخلوّ المصاحف الأولى من علائم فارقة، كان عمدة السبب في اختلاف

القراءات فيما بعد. إذ كان الاعتماد على الحفظ والسماع، وبطول الزمان ربّما كان يحصل

اشتباه في النقل أو خلط في السماع، مادام الإنسان هو عرضة للنسيان، والاشتباه حليفه

مهما دقّق في الحفظ، لولم يقيّده بالكتابة. ومن ثمّ قيل: ما حُفِظَ فَرَّ وما كتبَ قَرَّ.

أضف إلى ذلك تدخل الأمم غير العربيّة في الجزيرة وتضخم جانبهم مطرداً مع

التوسعة في القطر الإسلامي العريض. فكان على أعضاء المشروع المصاحفي في وقته أن

١ - البقرة ٢: ٢٥٩. راجع: مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٦٨. ٢ - آل عمران ٣: ٤٨. راجع: مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٤٤.

٣ - يونس ١٠: ٣٠. راجع: مجمع البيان، ج ٥، ص ١٠٥. ٤ - يونس ١٠: ٩٢. راجع: مجمع البيان، ج ٥، ص ١٣٠.

٥ - العنكبوت ٢٩: ٥٨. راجع: مجمع البيان، ج ٨، ص ٢٩٠.

٦ - سبأ ٣٤: ١٧. راجع: مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٨٤.

٧ - الحجرات ٤٩: ٦. راجع: مجمع البيان، ج ٣، ص ٩٤ وج ٩، ص ١٣١.

يفكروا في مستقبل الأمة الإسلامية، ويضعوا علاجاً لما يحتمل الخلل في قراءة القرآن قبل وقوعه. ولكن أنى وروح الإهمال والتساهل كان مسيطراً تماماً على المسؤولين آنذاك.

هذا.. وقد أغرب ابن الجزري، فزعم أن المسؤولين آنذاك تركوا وضع العلام عن عمد وعن قصد، لحكمة! قال: وذلك ليحتمل الخطّ ما صحّ نقله وثبتت تلاوته عن النبي ﷺ إذ كان الاعتماد على الحفظ والسماع لا على مجرد الخطّ.^١

ووافقه الزرقاني على هذا التبرير المفضوح، قال: كانوا يرسمونه بصورة واحدة خالية من النقط والشكل، تحقيقاً لهذا الاحتمال.^٢

لكن لا مجال لهذا التبرير بعد أن نعلم أن الخطّ عند العرب حينذاك كان بذاته خالياً عن كلّ علامة مائزة. وكان العرب هم في بداءة معرفتهم بالخطّ والكتابة، فلم يكونوا يعرفون من شؤون الإعجام والتشكيل وسائر العلام شيئاً لحدّ ذاك الوقت.

نشأة الخطّ العربيّ

ليس في آثار العرب بالحجاز ما يدلّ على معرفتهم بالكتابة، إلّا قبيل الإسلام. والسبب في ذلك أن العرب كان قد غلب على طباعهم البداوة، فكانوا في ترحال وارتحال أو حروب وغارات، وكانت تصرفهم عن التفكير في شؤون الصناعات، والكتابة من الصناعات الحضريّة.

لكن بعض العرب ممّن رحلوا إلى الشام والعراق في تجارة أو سفارة، جعلوا يتخلّقون بأخلاق تلكم الأمم المتحضّرة. فاقتبسوا منهم الكتابة والخطّ على سبيل

٢- مناهل العرفان، ج ١، ص ٢٥٨.

١- النشر في القراءات العشر، ج ١، ص ٧.

الاستعارة، فعادوا وبعضهم يكتب بالخط النبطي أو الخط السرياني. وظل الخطان معروفين عند العرب إلى ما بعد الفتح الإسلامي.

وقد تخلّف عن الخط النبطي الخط النسخي - وهو المعروف اليوم - وتخلّف عن الخط السرياني الخط الكوفي. وكان يسمّى الخط الحيري، نسبة إلى الحيرة - مدينة عربية قديمة بجوار الكوفة اليوم - لأنّ هذا التحوّل حصل فيها. ثمّ بعد بناء الكوفة وانتقال الحضارة العربيّة إليها، تحوّل اسم هذا الخط إلى الخط الكوفي. وظلّ هذا الخط هو المعروف والمتداول بين العرب في فترة طويلة.

والخط النبطي - المتحوّل إلى الخط النسخي - تعلّمته العرب من حوران، أثناء تجارتهم إلى الشام. أمّا الخط الحيري أو الكوفي فقد تعلّموه من العراق. فكانوا يستخدمون القلمين جميعاً: الأوّل في المراسلات والكتابات الاعتيادية والثاني للكتابات ذوات الشأن كالقرآن والحديث.

ودليلاً على تخلّف الخط الكوفي عن السريانيّة: أنّهم كتبوا في القرآن «الكتب» بدل «الكتاب». و«الرحمن» بدل «الرحمان». وتلك قاعدة مطّردة في الخط السرياني، يحذفون الألفات الممدودة في أثناء الكلمة.

جاء الإسلام والخط غير معروف عند العرب الحجازيين، فلم يكن يعرف الكتابة إلّا بضعة عشر رجلاً، واستخدمهم النبي ﷺ لكتابة الوحي. لكنّه جعل يحرض المسلمين على تعلّم الخط حتى نموا وكثروا.

وقد بقي الخطان: النسخ والكوفي، هما المعروفين بين المسلمين، يعملون في تطويرهما وتحسينهما، حتى نبغ ابن مقلة في مفتتح القرن الرابع الهجري، وأدخل في خطّ النسخ تحسينات فائقة. وهكذا بلغ الخط النسخي العربيّ ذروته في الكمال على نحو ما هو

عليه الآن.

وظلّ الخطّ الكوفي، على عكس ازدهار الخطّ النسخيّ وتقدّمه، يتدهور إلى أن هجر تماماً، وكتبت المصاحف بعدئذ بالخطّ النسخي الجميل. وقد كانت تكتب بالخطّ الكوفي نحو قرنين أو أكثر.^١

أول من نقطّ المصحف

كان الخطّ عندما اقتبسته العرب من السريان والأنباط، خالياً من النقط، ولا تزال الخطوط السريانية بلا نقط إلى اليوم. وهكذا جرت عليه العرب يكتبون بلا نقط حتى منتصف القرن الأوّل، وبعده بقليل جعل الخطّ العربي ينتقل إلى دوره الجديد، دور تشكيل الخطّ وتنقيطه، وسيأتي الكلام عن التشكيل.

وفي ولاية الحجّاج بن يوسف الثقفيّ على العراق من قبل عبد الملك بن مروان (٧٥-٨٦) تعرّف الناس على نقط الحروف المعجمة وامتيازها عن الحروف المهملة. وذلك على يد يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم، تلميذيّ أبي الأسود الدؤلي.^٢

والسبب في ذلك: أنّ الموالي في هذا العهد قد كثروا، وازدحم القطر الإسلاميّ بأجانب عن اللغة العربيّة، وكان منهم العلماء والقراء، والعربيّة ليست لغتهم، فكان لا بدّ أن يقع في تلفّظهم لحن، ومن ثمّ كثرت التصحييف في القراءات، وهال المسلمين ذلك.

١ - راجع: دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي، ج ٣، ص ٦٢١؛ وتاريخ التمدّن الإسلاميّ لجرجي زيدان، ج ٣، ص ٥٨-٦٠؛ والمقدمة لابن خلدون: ص ٤١٧-٤٢١؛ وأصل الخطّ العربيّ لخليل يحيى نامي، المجلد الثالث؛ والخطّ العربيّ الإسلاميّ لتركي عطية، ص ٢٢؛ وانتشار الخطّ العربيّ لعبد الفتاح عبادة، ص ١٣-١٥؛ ومصور الخطّ العربيّ لناجي المصرف، ص ٣٣٨؛ وتاريخ الخطّ العربيّ لمحمد طاهر الكرديّ، ص ٥٤.

٢ - دائرة معارف القرن العشرين، ج ٣، ص ٧٢٢؛ ومناهل العرفان، ج ١، ص ٣٩٩-٤٠٠؛ وتاريخ القرآن، ص ٦٨.

حكى أبو أحمد العسكري^١ أنَّ الناس غبروا يقرأون في مصحف عثمان نيفاً وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان، ثمَّ كثر التصحيف وانتشر بالعراق، ففزع الحجاج بن يوسف إلى كتّابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات. فيقال: إنَّ نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفراداً وأزواجاً وخالف بين أماكنها...^٢
وقال الأستاذ الزرقاني: أول من نَقَّط المصحف هو يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم تلميذا أبي الأسود الدؤلي.^٣

أول من شكّل المصحف

وهكذا كان الخطّ العربي آنذاك مجرداً عن التشكيل (علائم حركة الكلمة وإعرابها) وبطبيعة الحال كان المصحف الشريف خلواً عن كلّ علامة تشير إلى حركة الكلمة أو إعرابها.

بيد أنَّ القرآن في الصدر الأوّل كان محفوظاً في صدور الرجال ومأمونا عليه من الخطأ واللحن، بسبب أنَّ العرب كانت تقرأه صحيحاً حسب سليقتها الفطريّة التي كانت محفوظة لحدّ ذاك الوقت. أضف إلى ذلك شدّة عنايتهم بالأخذ والتلقّي عن مشايخ كانوا قريبي العهد بعصر النبوة. فقد توقّرت الدواعي على حفظه وضبطه صحيحاً حينذاك.
أمّا وبعد منتصف القرن الأوّل حيث كثر الدخلاء وهم أجانب عن اللغة فإنّ السليقة كانت تعوزهم، فكانوا بأمسّ حاجة إلى وضع علائم ودلالات تؤمّن عليهم الخطأ واللحن. مثلاً: لفظة «كتب» كانت العرب تعرف بسليقتها الذاتية، أنّها في قوله تعالى: «كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ»^٤ تقرأ مبنياً للفاعل، وفي قوله تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ»^٥ مبنياً

١ - في كتاب التصحيف، ص ١٣.

٢ - وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٢ في ترجمة الحجاج.

٣ - مناهل العرفان، ج ١، ص ٤٠٦.

٤ - الأنعام ٦: ٥٤.

للمفعول. أمّا الرجل الأعجمي فكان يشتبه عليه قراءتها معلومة أو مجهولة.

كما أن أبا أسود سمع قارئاً يقرأ: «أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ»^٦ - بكسر اللام - فقال: ما ظننت أن أمر الناس آل إلى هذا، فرجع إلى زياد بن أبيه - وكان والياً على الكوفة (٥٠-٥٣) وكان قد طلب إليه أن يصنع شيئاً يكون للناس إماماً، ويعرف به كتاب الله، فاستغفاه أبو الأسود، حتى سمع بنفسه هذا اللحن - في كلام الله - فعند ذلك عزم على إنجاز ما طلبه زياد^٧ فقال: أفعل ما أمر به الأمير، فليغ لي كاتباً مجيداً يفعل ما أقول. فأتوه بكاتب من عبد قيس فلم يرضه، فأتوه بآخر وكان واعياً فاستحسنه.

قال أبو الأسود للكاتب: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه من أعلاه. وإن ضمنت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف^٨ وفي لفظ ابن عياض: زيادة قوله: فإذا أتبت ذلك غنة فاجعل النقطة نقطتين ففعل^٩.

وظلّ الناس بعد ذلك يستعملون هذه النقط علائم للحركات، غير أنهم - في الأغلب - كانوا يكتبونها بلون غير لون خطّ المصحف. والأكثر يكتبونها بلون أحمر. والظاهر أنّ تبديل النقط السود إلى نقط ملوّنة حدث بعد وضع الإعجام على يد نصر بن عاصم الأنف، للفرق بين النقطة التي هي علامة الحركة، والتي هي علامة الإعجام. قال جرجي زيدان: وقد شاهدنا في دار الكتب المصريّة مصحفاً كوفياً منقّطاً على هذه الكيفيّة، وجدوه في جامع عمرو بن العاص بجوار القاهرة، وهو من أقدم مصاحف

٦ - التوبة ٩: ٣.

٥ - البقرة ٢: ١٨٣.

٧ - يقال: إن زياداً هو الذي دبر هذه الطريقة ليحبر بها أبو الأسود على قبول ما طلبه منه. فأوعز إلى رجل من أتباعه أن يقعد في طريق أبي الأسود ويتعمّد اللحن في القراءة. راجع: الخطّ العربيّ الإسلاميّ، ص ٢٦؛ والخطّ الكوفيّ، ص ٢٣.

٨ - الفهرست لابن النديم، ص ٦٦ الفن الأول من المقالة الثانية.

٩ - تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، للسيد حسن الصدر، ص ٥٢.

العالم، ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد أسود وفيه نقط حمراء اللون، فالنقطة من فوق الحرف فتحة وتحتها كسرة وبين يديها ضمة، كما وصفها أبو الأسود.^١

وقد جرى بالأندلس استعمال أربعة ألوان للمصاحف هي: اللون الأسود، للحروف. واللون الأحمر، للشكل بطريقة النقط. واللون الأصفر، للهمزات. واللون الأخضر، لألفات الوصل.^٢

تحسينات متأخرة

قال جلال الدين: كان الشكل في الصدر الأوّل نقطاً، فالفتحة نقطة على أوّل الحرف، والضمة على آخره والكسرة تحت أوّله. وعليه مشى الداني. والذي اشتهر الآن الضبط بالحركات المأخوذة من الحروف، وهو الذي أخرج الخليل بن أحمد الفراهيدي^٣ فالفتح شكلة مستطيلة فوق الحرف، والكسر كذلك تحته، والضمّ واو صغيرة فوقه، والتتوين زيادة مثلها... قال: وأوّل من وضع الهمز والتشديد والروم والإشمام الخليل أيضاً.^٤

وهكذا كلّما امتدّ الزمان بالناس ازدادت عنايتهم بالقرآن وتيسير رسمه من طور إلى طور، حتى إذا كانت نهاية القرن الثالث الهجري، بلغ الرسم ذروته في الجودة والحسن، وأصبح الناس يتنافسون في اختيار الخطوط الجميلة وابتكار العلامات المميّزة، حتى جعلوا لسكون الحرف رأس خاء، ومعناها: أنّ الحرف المسكّن أخفّ من

١ - تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٣، ص ٦١.

٢ - الخطّ العربيّ الإسلاميّ، ص ٢٧؛ وتاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني، ص ٦٨ نقلاً عن عثمان بن سعيد الداني في كتابه «المقنع».

٣ - هو أوّل من صنّف النقط ورسمه في كتاب وذكر علله (المحكم: ٩).

٤ - الإيقان، ج ٤، ص ١٦٢؛ وكتاب النقط لأبي عمرو الداني، ص ١٣٣.

الحرف المتحرّك. أو برأس ميم، ومعناه: أن الحرف مسكّن فلا تحرّكه. وعلامة التشديد ثلاث سنايات، ومعناها: شدّ الحرف شديداً ووضعوا لألفات الوصل رأس صاد، ومعناه: صل هذا الحرف.. وهكذا لطفت صناعة رسم الخطّ لطفاً، ورقت حاشيته تهذيباً حسناً وظرفاً.^١

وأما وضع الأعشار والأخماس وغيرهما من علائم التحزيب والتجزئة، فقليل: إنّ المأمون العباسي هو الذي أمر بذلك.

وقيل: إن الحجاج فعل ذلك، قال أحمد بن الحسين: بعث الحجاج إلى قرّاء البصرة فجمعهم واختار منهم جماعة. وقال: عدّوا حروف القرآن، فجعلوا يعدّونها أربعة أشهر، وإذا هي: ٧٧٤٣٩ كلمة. و ١٥ ٣٢٣٠ حرفاً. وفي رواية: ٣٤٠٧٤٠ حرفاً. وينتصف القرآن على الفاء من قوله: «وَلَيْسَ لَطْفٌ».^٢ وعدد آياته في رواية البصريين - وهي الأصح - (٦٢٣٦) آية.

وقد اشتهر تحزيب القرآن إلى مائة وعشرين حزباً وتجزئته إلى ثلاثين جزءاً تسهيلاً لقراءته في المدارس وغيرها. وذكر أبو الحسن علي بن محمد السخاوي (ت ٦٤٣) في كتابه «جمال القراء» أنّه عمل أبي عثمان عمرو بن عبّيد (ت ١٤٤) بطلب من المنصور العباسي (ت ١٥٨): طلب منه أن يجزّي القرآن على حسب أيام السنة (٣٦٠) ليسهل حفظه يومياً. فقام أبو عثمان بهذه المهمّة وجزّأ القرآن إلى ثلاثين جزءاً، كلّ جزءٍ إلى اثني عشر حزباً، ليتمّ ثلاثمائة وستون حزباً، كما أراد.^٣

وأطول سورة في القرآن هي البقرة، وأقصرها الكوثر.

١ - المصباح لسلامة بن عياض (تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، ص ٥٢).

٢ - الكهف ١٨: ١٩.

٣ - راجع: جمال القراء وكمال الإقراء للسخاوي، ج ١، ص ٣٧٩-٣٨٠.

وأطول آية في القرآن آية الدين^١ تحتوي على ١٢٨ كلمة وهي ٥٤٠ حرفاً.

وأقصر آية «وَالضُّحَى» ثم «وَالْفَجْرِ». حروفها: ٥ لفظاً و٦ رسماً.

وأطول كلمة في القرآن: «فَأَشَقَيْنَاكُمُوهُ»^٢ أحد عشر حرفاً لفظاً ورسماً.^٣

وأخرج أحمد في مسنده عن أوس بن حذيفة، قال: كنت في الوفد الذين أتوا رسول الله ﷺ كانوا أسلموا من ثقيف من بني مالك فأنزلنا في قبة له، فكان يختلف إلينا بين بيوته وبين المسجد، فإذا صلى العشاء الآخرة انصرف إلينا يحدثنا ما لقي من قومه بمكة وبعد المهاجرة إلى المدينة. فمكث عنّا ليلة لم يأتنا حتى طال ذلك علينا بعد العشاء قال: قلنا: ما أمكثك عنّا يا رسول الله ﷺ؟ قال: طرأ عني حزب من القرآن، فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه، فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ست سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة سورة وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من سورة ق حتى تختتم.^٤

والظاهر أن الجملة الأخيرة هي من كلام أوس نفسه، تفريعاً على ما ذكره أصحاب رسول الله ﷺ لأن القرآن لم يؤلف حينذاك مصحفاً بين دفتين. وإتّما كانت السور مكتملة، فكانوا يقسمون السور إلى أعداد متساوية لتسهيل قراءتها حسب تقسيم الأيام أو الأوقات.

مخالفات في رسم الخطّ

لا شك أن الخطّ وضع ليعبر عن المعنى بنفس اللفظ الذي ينطق به، فالكتابة في الحقيقة قيد للفظ المعبر عن المعنى المقصود. وعليه فيجب أن تكون الكتابة مطابقة للفظ

١ - البقرة ٢: ٢٨٢.

٢ - الحجر ١٥: ٢٢.

٣ - راجع: البرهان للزركشي، ج ١، ص ٢٤٩-٢٥٢. ٤ - مسند أحمد، ج ٤، ص ٣٤٣.

المنطوق به تماماً، ليكون الخطّ مقياساً للفظ من غير زيادة عليه أو نقصان.
غير أنّ أساليب الإنشاء والكتابة تختلف عن هذه القاعدة بكثير. ولكن لا بأس
بذلك مادام الاصطلاح العامّ جارياً عليه، فلا يسبّب اشتباهاً أو التباساً في المراد.
هذا... ورسم الخطّ في المصحف الشريف تخلف حتى عن المصطلح العامّ. ففيه
الكثير من الأخطاء الإملائية وتناقضات في رسم الكلمات، بحيث إذا لم يكن سماع
وتواتر في قراءة القرآن، ولا يزال المسلمون يتوارثونها جيلاً بعد جيل في دقّة وعناية
بالغة، لأصبح قراءة كثير من كلمات القرآن، قراءة صحيحة، مستحيلة.
ويرجع السبب - كما تقدّم - إلى عدم اضطلاع العرب بفنون الخطّ وأساليب الكتابة
ذلك العهد. بل ولم يكونوا يعرفون الكتابة غير عدد قليل، خطأ بدائياً رديئاً للغاية. كما يبدو
على خطوط باقية من الصدر الأوّل.^١

كما ويبدو أنّ الذين انتدبهم عثمان لكتابة المصحف كانوا غاية في رداءة الخطّ
وجهلاء بأساليب الكتابة، حتى ولو كانت بدائية آنذاك.
يحدثنا ابن أبي داود - كما سبق - : أنّهم بعد ما أكملوا نسخ المصاحف، رفعوا إلى
عثمان مصحفاً فنظر فيه فقال: قد أحسنتم وأجملتم، أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه العرب
بالسنّتها. ثمّ قال: أما لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا.^٢
يبدو من هذه الرواية أنّ عثمان كان يعلم من هذيل معرفتها بأسلوب الإنشاء ذلك
الوقت، ومن ثقيف حسن كتابتها وجودة خطّها. الأمر الذي فقدّه في المصحف الذي رفع
إليه. ومن ثمّ يؤخذ عليه انتدابه الأوّل الذي تمّ من غير دقّة ولا عناية!
وروى الثعلبي في تفسيره - عند قوله تعالى: «إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ»^٣ - أنّ عثمان قال:

١ - راجع: مقدّمة ابن خلدون، ص ٤١٩ و ٤٢٨.

٢ - المصاحف، ص ٣٢-٣٣.

٣ - طه ٢٠: ٦٣.

إنّ في المصحف لحنا ستقيمه العرب بألسنتها. فقليل له: ألا تغيّره؟ - أي ألا تصحّحه؟ - فقال (عن تكاسل أو تساهل): دعوه فإنّه لا يحلّل حراماً ولا يحرمّ حلالاً.^١

هذا... ولا بن رويّهان - هنا - محاولة فاشلة. قال: وأمّا عدم تصحيح لفظ القرآن، لأنّه كان يجب عليه (على عثمان) متابعة صورة الخط، وهكذا كان مكتوباً في المصاحف، ولم يكن له التغيير جائزاً، فتركه لأنّه لغة بعض العرب.^٢

ماندري ماذا يعني بقوله: كان مكتوباً في المصاحف، أيّ مصاحف؟ وكيف يجمع بين قوله هذا وقوله أخيراً: لأنّه لغة بعض العرب؟!

وعلى أيّ تقدير فإنّ تساهل المسؤولين، ذلك العهد، أعقب على الأُمَّة - مع الأبد - مكابدة أخطاء ومناقضات جاءت في المصحف الشريف، من غير أن تجرّ العرب أو غيرهم على إقامتها عبر العصور.

نعم لم يمسّوا القرآن بيد إصلاح بعد ذلك قط لحكمة، هي خشية أن يقع القرآن عرضة تحريف أهل الباطل بعدئذ بحجّة إصلاح خطئه أو إقامة أودّه، فيصبح كتاب الله معرضاً خصباً لتلاعب أيدي المغرضين من أهل الأهواء.

وقد قال عليّ عليه السلام كلمته الخائفة: «إنّ القرآن لا يُهاج اليوم ولا يحوّل».^٣ فأصبحت مرسوماً قانونياً التزم به المسلمون مع الأبد.

(ملحوظة): ليس وجود أخطاء إملائية في رسم المصحف الشريف بالذي يمسّ كرامة القرآن:

أولاً: القرآن - في واقعه - هو الذي يقرأ، لا الذي يكتب. فلتكن الكتابة بأيّ أسلوب، فإنّها لا تضرّ شيئاً مادامت القراءة باقية على سلامتها الأولى التي كانت تقرأ على

٢ - المصدر، ص ١٩٧.

١ - دلائل الصدق للمظفر، ج ٣، ص ١٩٦.

٣ - جامع البيان، ج ٢٧، ص ١٠٤.

عهد الرسول ﷺ وصحابته الأكرمين.

ولاشك أن المسلمين احتفظوا على نص القرآن بلفظه المقروء صحيحاً، منذ الصدر

الأول فإلى الآن، وسيبقى مع الخلود في تواتر قطعي.

ثانياً: تخطئة الكتابة هي استتكار على الكتبة الأوائل: جهلهم أو تساهلهم،

وليست قدحاً في نفس الكتاب، الذي «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ

حَكِيمٍ حَمِيدٍ»^١.

ثالثاً: إن وجود أخطاء ظلت باقية لم تتبدل، يفيد المسلمين في ناحية احتجاجهم

بها على سلامة كتابهم من التحريف عبر القرون. إذ أن أخطاء إملائية لاشأن لها، وكان

جديراً أن تمدد إليها يد الإصلاح، ومع ذلك بقيت سليمة عن التغيير، تكريماً بمقام السلف

فيما كتبوه، فأجدر بنص الكتاب العزيز أن يبقى بعيداً عن احتمال التحريف والتبديل

رأساً. وقلنا - آنفاً -: إن الحكمة في الإبقاء على تلكم الأخطاء كانت هي الحذر على نفس

الكتاب: أن لا تمسه يد سوء بحجة الإصلاح، ومن ثم أصبحت سداً منيعاً دون أطماع

المغرضين، وبذلك بقي كتاب الله يشق طريقه إلى الأبدية بسلام.

(ملحوظة أخرى): بأيدينا آثار - رويت بأسانيد، حكم أرباب النقد والتمحيص

بصححتها - تنسب إلى كثير من الصحابة والتابعين اعتقادهم بخطأ رسم المصحف العثماني،

وعدم ثقتهم بالكتبة الأولى، فيما كانوا يتشككون في ثبت آية أو كلمة هل كانت كما نزلت

على رسول الله ﷺ؟ وهذا يبدو غريباً للغاية!

نعم إن دلت فإنما تدل على أن الثقة بالرسم القائم من قبل الكتاب الذين انتدبهم

عثمان، كانت قد زالت عند الصحابة والتابعين، إذ وجدوهم غير أكفاء لهكذا مشروع

جلل. وقد أخذوا من لحن المرسوم دليلاً على قصورهم في الأمر، ومن ثم لم يثقوا بالرسم الموجود.

هذا غاية ماتدلّ عليه تلكم الآثار، أمّا المحتوى فلانكاد نصدّقه على أي تقدير. وفيما يلي نماذج من ذلك:

١ - روى ابن أبي داود وأبو عبيد بسندهما إلى عروة بن الزبير، قال: سألت عائشة عن لحن القرآن في ثلاث آيات: «إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ»^١ و«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ»^٢ و«لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ»^٣!

فقلت: يا ابن أختي، هذا عمل الكتاب، أخطأوا في الكتابة.^٤

قال جلال الدين السيوطي: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين.^٥

٢ - روى أحمد بن حنبل بسنده إلى أبي خلف مولى بني جمح: أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة في سقيفة زمزم، ليس في المسجد ظلّ غيرها، فرحبت بعبيد بن عمير، وقالت: ما جاء بك؟ قال: جئت أن أسألك عن آية في كتاب الله، كيف كان رسول الله ﷺ يقرأها؟ فقالت: آية آية؟ فقال: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا [-أو- يَأْتُونَ مَا أُتُوا]»^٦!

فقلت: أيّتهما أحبّ إليك؟ قال: والذي نفسي بيده لإحدهما أحبّ إليّ من الدنيا جميعاً! قالت: أيّتها؟ قال: «يَأْتُونَ مَا أُتُوا»!

١ - طه ٢٠: ٦٣. والقاعدة تقتضي نصب اسم إن. وعن أبي عمرو: إني لأستحي أن أقرأ «إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ»! التفسير الكبير، ج ٢٢، ص ٧٤.

٢ - المائدة ٥: ٦٩. ومقتضى القاعدة هو النصب لأنه عطف على اسم إن.

٣ - النساء ٤: ١٦٢. ويجب الرفع، لأنه عطف على مرفوع.

٤ - المصاحف، ص ٣٤؛ وفضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام، ص ١٦١؛ والانتصار للباقلاني، ص ١٨٤؛ وتأويل مشكل القرآن، ص ٢٥-٢٦.

٥ - الإتيان، ج ٢، ص ٢٦٩.

٦ - المؤمنون ٢٣: ٦٠. أي ممدوداً مزيداً فيه أو مقصوراً مجرداً؟

قالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرأها، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء

حرف. ١

٣ - روى أبو جعفر الطبري والحاكم النيسابوري - وصححه - ٢ عن ابن عباس، قال

في قوله تعالى «لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا»: ٢ هي من خطأ الكاتب. وإنما هي: حتى تستأذنوا وتسلموا... ٤

٤ - وأخرج أبو عبيد عن ابن عباس، قال: أنزل الله هذا الحرف على لسان نبيكم

«[ووصى] رَبُّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» ٥ فالتصقت إحدى الواوين بالصاد، فقرأ الناس

«وَقَضَى رَبُّكَ» - ولم يكن المصحف منقوطة آنذاك - قال: ولو نزلت على القضاء ما أشرك به

أحد. ٦

وفي لفظ ابن أشتة: استمد الكاتب مداداً كثيراً فالتزقت الواو بالصاد. ٧

٥ - وأخرج ابن المنذر وسعيد بن منصور عن ابن عباس: أنه كان يقرأ: «وَلَقَدْ آتَيْنَا

مُوسَى وَهَارُونَ الْقُرْآنَ [ضياءً - والقراءة المشهورة: وَضِيَاءً] ٨ ثُمَّ قَالَ: خذوا - أو انزعوا -

هذه الواو من هنا، واجعلوها هاهنا: في أول قوله تعالى: «[و] الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ

قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ» ٩ لآله زعمها عطفاً على الموصول قبلها! ١٠ قال ابن حجر: هو إسناد جيد. ١١

١ - مسند أحمد، ج ٦، ص ٩٥. والثابت في المصحف هو المد، ماضياً مزيداً فيه. والمعنى يختلف على القراءةتين: فعلى

المد: يعطون الشيء وهم يخشون أن لا يقبل منهم عند الله. وعلى القصر: يعملون العمل وهم يخافون الله. راجع: مجمع

البيان، ج ٧، ص ١١٠. ٢ - الإتيان، ج ٢، ص ٢٧٥-٢٧٦.

٣ - النور ٢٤: ٢٧. ٤ - جامع البيان، ج ١٨، ص ٨٧.

٥ - الاسراء ١٧: ٢٣. ٦ - الدر المنثور، ج ٤، ص ١٧٠.

٧ - الإتيان، ج ٢، ص ٢٧٥. ٨ - الأنبياء ٢١: ٤٨.

٩ - آل عمران ٣: ١٧٣. والآية غير مصدرة بالواو في القراءة المشهورة.

١٠ - الإتيان، ج ٢، ص ٢٧٦؛ والدر المنثور، ج ٤، ص ٣٢٠.

١١ - فتح الباري، ج ٨، ص ٢٨٣.

٦- أخرج أبو جعفر الطبري وابن الأثير عن ابن عباس، كان يقرأ: «أَقْلَمُ [يَتَبَيَّنُ] الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً». فقليل له: إنها في المصحف «أَقْلَمُ يَنَاسٍ»^١ فقال: الكاتب كتبها وهو ناعس.

وفي لفظ الطبري: كتب الكاتب، الأخرى - أي القراءة المشهورة - وهو ناعس. قال ذلك بصورة جزم.^٢

قال ابن حجر: هذا حديث رواه الطبري وعبد بن حميد بإسناد صحيح، كلهم من رجال البخاري عن ابن عباس.^٣

وقد بالغ الزمخشري في الإنكار على صحة الأثر.^٤ فقال ابن حجر في ردّه: هذا إنكار من لا علم به بالرجال.. وتكذيب المنقول بعد صحته ليس من دأب أهل التحصيل، فليُنظر في تأويله بما يليق به.

٧- وعن الضحاك أنه قال: كيف تقرأ هذا الحرف...؟ قال: «وَقَضَى رَبُّكَ»؟ قال: ليس كذلك نقرأها نحن ولا ابن عباس، إنما هي: وَوَصَّى رَبُّكَ، وكذلك كانت تقرأ وتكتب. فاستمدّ كاتبكم فاحتمل القلم مداداً كثيراً فالتزقت الواو بالصاد ثم قرأ: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ». ولو كانت قضى من الرب لم يستطع أحد ردّ قضائه. ولكنه وصية أوصى بها العباد.^٥

٨- أخرج ابن أبي داود عن سعيد بن جبیر، قال: في القرآن أربعة أحرف لحن: «الصَّابِثُونَ».^٦ «وَالْمُتَّقِينَ».^٧ «فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ».^٨ «إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ».^٩

١- الرعد ١٣: ٣١.

٢- جامع البيان، ج ١٣، ص ١٠٤؛ والإيتقان، ج ٢، ص ٢٧٥.

٣- الكشاف، ج ٢، ص ٥٣٠-٥٣١.

٤- الإيتقان، ج ٢، ص ٢٧٦.

٥- النساء ٤: ١٦٢، والقاعدة: الرفع.

٦- طه ٢٠: ٦٣، والقياس: النصب. راجع: المصاحف، ص ٣٣.

٧- فتح الباري، ج ٨، ص ٢٨٢.

٨- النساء ٤: ١٣١.

٩- المائدة ٥: ٦٩، والقاعدة: النصب.

١٠- المنافقون ٦٣: ١٠، والقاعدة: نصب «وأكون».

٩ - أخرج ابن أبي داود - أيضاً - عن أبي خالد، قال: قلت لأبان بن عثمان: كيف صارت «وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ». وما بين يديها وما خلفها رفع؟ قال: من قبل الكاتب. كتب ما قبلها. ثم سأل المملي: ما أكتب؟ قال: اكتب المقيمِينَ الصلاة. فكتب ما قيل له.^١

١٠ - أخرج الطبري عن قيس بن سعد؛ قال: قرأ رجل عند علي عليه السلام «وَطَلَعَ مَنْضُودٌ».^٢ فقال عليه السلام: ما شأن الطلح، إنما هو «وَطَلَعَ مَنْضُودٌ» ثم قرأ: «لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ»^٣ فقلنا: أَوْلا نحولها؟ فقال: إنَّ القرآن لا يُهاج اليوم ولا يحوّل.^٤

تلك نماذج عشرة عرضناها، أردنا بذلك لازم مدلولاتها: وهو عدم ثقة السلف بالكتابة الأولى، فلم يطمأنوا إلى ما أثبتوه أن تكون هي القراءة الصحيحة الثابتة. فلو كانوا عرفوا فيهم الكفاءة والإتقان لما تردّدوا في صحّة ما أثبتوه... هذا غاية ما تدلّنا عليه تلکم الآثار، أمّا نفس المحتوى وصحّة ما تضمّنته من تبديل نصّ المصحف الشريف، فهذا شيء لانكاد نصدّقه ألبتة. لأنّه هو التحريف الذي أجمعت الأمة الإسلامية على عدم تسرّبه إلى كتاب الله العزيز الحميد: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».^٥ فلا بدّ من الأخذ في تأويلها إلى وجه معقول أو رفضها رأساً.^٦

وأجاب ابن أشتة عن هذه الآثار بأنّ القرآن نزل على سبعة أحرف، وهي القراءات السبع، كلّها مأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وآله - فيما زعموا - فالوارد في هذه الروايات يكون المقصود: أنّ الكتابة الأوائل أخطأوا في القراءة التي وقع اختيارهم عليها، فكان ينبغي أن يختاروا للثبت في المصحف تلك القراءة التي رجّحها أصحاب هذه الروايات كعائشة

٢ - الواقعة ٥٦: ٢٩.

١ - المصدر، ص ٣٣-٣٤.

٣ - ق ٥٠: ١٠.

٤ - جامع البيان، ج ٢٧، ص ١٠٤.

٥ - الحجر ١٥: ٩.

٦ - وسوف نوفي البحث في تفنيد هكذا مزاعم مهزولة تجاه عظمة القرآن الضخمة الفخمة، عند الكلام حول صيانة القرآن من التحريف، إن شاء الله.

وابن عباس والضحاك وسعيد بن جبير وأبان بن عثمان وعلي عليه السلام.

وجنح ابن الأنباري إلى تضعيف إسناد الروايات. فوقف جلال الدين السيوطي في وجهه: أنها روايات صحيحة الإسناد، بشهادة أئمة الفن، كابن حجر والحاكم وغيرهما، فالجواب الأول أولى.^١

هذا... وأما الأخطاء الإملائية الموجودة في الرسم العثماني، فشيء لا يمكن إنكاره، الأمر الذي يدلّ دلالة قطعية على ضعف مقدرة السلف في ناحية الإملاء وأصول الكتابة الصحيحة، ومن ثمّ ذلك اللحن والتناقض في رسم الكلمات. وفيما يلي نماذج من اللحن الواقع في الرسم العثماني.

نماذج من مخالفات الرسم

وربّما نرسم جدولاً يستوعب الأخطاء الواقعة في الرسم العثماني مستقصاة، ونشير هنا - الآن - إلى أهمّ أخطاء وقعت فيه كنماذج بارزة:

- ١ - «وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ» البقرة ٢: ١٦٤. والصحيح: وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ...
- ٢ - «يَأْتِيهِمْ أَنْبُؤًا» الأنعام ٦: ٥. والصحيح: أَنْبَاءٌ...
- ٣ - «وَيَسْتَوْنَ عَنْهُ» الأنعام ٦: ٢٦. والصحيح: يَتَأَوَّنَ عَنْهُ.
- ٤ - «بِالْغَدَاةِ» الأنعام ٦: ٥٢. والصحيح: بِالْغَدَاةِ. والواو زائدة في الرسم بلا سبب معروف.

٥ - «فِيكُمْ شُرَكَاءُ» الأنعام ٦: ٩٤. والصحيح: شُرَكَاءُ.

٦ - «مَنْشُؤًا» هود ١١: ٨٧. والصحيح: مَنْشَاءُ.

- ٧ - «إِنَّهُ لَا يَأْتِئُشُّ» يوسف ١٢: ٨٧. والصحيح: لَا يَأْتِئُشُّ.
- ٨ - «أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤًا» إبراهيم ١٤: ٩. والصحيح: نَبَأٌ...
- ٩ - «فَقَالَ الضُّعْفُؤَا» إبراهيم ١٤: ٢١. والصحيح: الضُّعْفَاءُ.
- ١٠ - «وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ» الكهف ١٨: ٢٣. والصحيح: لِشَيْءٍ.
- ١١ - «لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ» الكهف ١٨: ٧٧. والصحيح: لَاتَّخَذْتَ.
- ١٢ - «قَالَ يَبْتَئِمُّ» طه ٢٠: ٩٤. والصحيح: يَا بَنِّ أُمَّ.
- ١٣ - «أَزَلَاذْبَحْنَهُ» النمل ٢٧: ٢١. والصحيح: لَاذْبَحْنَهُ. وقد زيدت ألف في الرسم بلا سبب معقول.

- ١٤ - «يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا» النمل ٢٧: ٢٩. والصحيح: الْمَلَأُ.
- ١٥ - «شُفَعُوا» الروم ٣٠: ١٣. والصحيح: شُفَعَاءُ.
- ١٦ - «هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ» الصافات ٣٧: ١٠٦. والصحيح: الْبَلَاءُ.
- ١٧ - «وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ» ص ٣٨: ١٣. والصحيح: الْاَيْكَةِ.
- ١٨ - «وَجِئَاءٌ بِالتَّيِّبِينَ» الزمر ٣٩: ٦٩. والصحيح: وَجِئَاءٌ.
- ١٩ - «وَمَا دُعُوا الْكَافِرِينَ» غافر ٤٠: ٥٠. والصحيح: وَمَا دُعَاءٌ...
- ٢٠ - «بِأَيُّكُمْ الْمُفْتُونُ» القلم ٦٨: ٦. والصحيح: بِأَيُّكُمْ.

تلك نماذج عشرون كان اللحن فيها عجيباً جداً، ولا سيما إذا علمنا أن المصاحف آنذاك كانت مجردة عن كل علامة تشير إلى إعجام الحرف أو إلى حركة الكلمة أو هجاها الصحيح. مثلاً: من أين يعرف قارئ المصحف أن «لتخذت» مشددة التاء، وأي فرق بينها وبين «لتخذت» مخففة بلام تأكيد؟! أو كيف يعرف أن ألف «لااذبحنه» زائدة لاتقراً؟! أو

أنَّ إحدى الياءين زائدة في قوله: «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ»^١ وكذلك لا يدري في «نشؤا»
-بلا علامة- أنَّ الواو زائدة، والألف ممدودة والهمزة تلفظ بعد الألف. إذ ليس في اللفظ
ما يشير إلى ذلك بتاتا وهكذا...!

مناقضات في الرسم العثماني

والشيء الأغرب وجود مناقضات في رسم المصحف، بينما الكلمة مثبتة في
موضع برسم خاص، وإذا هي بذاتها مرسومة في موضع آخر بما يخالفها، الأمر الذي يشير
العجب، ويبحث على الاعتقاد بأنَّ الكتابة الأوائل كانوا أبعد شيء عن معرفة أصول الكتابة
أو الإتقان من وحدة الرسم على الأقل!
وإليك نموذجاً من ذلك التناقض الغريب:

(الكلمة برسمها الملحون)

١ - لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ. الكهف ١٨: ٧٧

٢ - أَصْحَابُ لُتَيْكَةَ. الشعراء ٢٦: ١٧٦ وص ٣٨: ١٣

٣ - فَقَالَ الضُّعْفُؤَا. ابراهيم ١٤: ٢١

٤ - فَلَا يَسْتُخِرُونَ سَاعَةً. يونس ١٠: ٤٩

٥ - وَمَا دُعُوا الْكَافِرِينَ. غافر ٤٠: ٥٠

٦ - لَيْسَ بِظُلْمٍ لِلْعَبِيدِ. الحج ٢٢: ١٠

٧ - ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثُلَ. الفرقان ٢٥: ٩

٨ - وَمَنْعَ اللَّهُ الْبَاطِلَ. الشورى ٤٢: ٢٤

٩ - فَأَخِيكُمُ ثُمَّ يُمِيتُكُمُ. البقرة ٢: ٢٨

١٠ - إِي لَفِهِمْ رِحْلَةَ. قريش ١٠٦: ٢

١١ - قَالَ يَبْنَؤُمْ. طه ٢٠: ٩٤

١٢ - فِي أَمْوَالِنَا مَانَشُؤَا. هود ١١: ٨٧

١٣ - وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ. ابراهيم ١٤: ٣٤

١٤ - فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ. فاطر ٣٥: ٤٣

١٥ - عَلَى يَسْتٍ مِنْهُ. فاطر ٣٥: ٤٠

١٦ - لَدَا الْبَابِ. يوسف ١٢: ٢٥

١٧ - طَغَا الْمَاءُ. الحاقة ٦٩: ١١

١٨ - وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ. الكهف ١٨: ٢٣

١٩ - فَقَالَ الْمَلَأُوا. المؤمنون ٢٣: ٢٤

٢٠ - آيَةُ الثَّقَلَانِ. الرحمن ٥٥: ٣١

(الكلمة برسمها الصحيح)

إِذَا لَا تَخَذُوكَ. الاسراء ١٧: ٧٣

أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ. الحجر ١٥: ٧٨ وق ٥٠: ١٤

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ. التوبة ٩: ٩١

لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً. الأعراف ٧: ٢٤

وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ. الرعد ١٣: ١٤

لَيْسَ بِظُلَامٍ لِلْعَبِيدِ. آل عمران ٣: ١٨٢

ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ. الاسراء ١٧: ٤٨

يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ. ^١ الرعد ١٣: ٢٩

أَخْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ. الحج ٢٢: ٦٦

لَا يَلِفُ قُرَيْشٍ. ^٢ قريش ١٠٦: ١

قَالَ ابْنُ أُمٍّ. الأعراف ٧: ١٥٠

فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ. الحج ٢٢: ٥

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ. النحل ١٦: ١٨

وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ. الفتح ٤٨: ٢٣

عَلَى يَسْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ. محمد ٤٧: ١٤

لَدَى الْحَنَاجِرِ. غافر ٤٠: ١٨

إِنَّهُ طَغَى. النازعات ٧٩: ١٧

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. الكهف ١٨: ٤٥

وَقَالَ الْمَلَأُ. المؤمنون ٢٣: ٣٣

أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ. يس ٣٦: ٥٩

١ - وإن كان ثبت الألف بعد الواو أيضاً خطأ، لأنه مفرد. ٢ - وإن كان حذف الألف أيضاً لحنًا.

تلك - أيضاً - أمثلة عشرون اخترناها من التناقض الموجود في الرسم العثماني.
 وربما تزداد غرابتك - أيها القارئ - إذا ما لاحظت التناقض في إملاء سورة واحدة،
 كالمثال رقم ١٨ سورة الكهف. ورقم ١٩ سورة المؤمنون، كما رسموا «يسطة» في البقرة:
 ٢٤٧ بالسين، وفي الأعراف: ٦٩ بالصاد. وكذلك «بيسط» في الرعد: ٢٦ بالسين، وفي
 البقرة: ٢٤٥ بالصاد. وهذا أيضاً من التناقض في سورة واحدة.. إلى غير ذلك وهو كثير.

غلو فاحش

قد يغلو بعض المتزمتين بالرسم القديم، فيزعمونه توقيفياً كان بأمر النبي ﷺ
 الخاص، ولم يكن للكتابة الأوائل دخل في رسمه بالهيئة الموجودة. وإن وراء هذه
 المخالفات الإملائية سرّاً خفياً وحكمة بالغة لا يعلمها إلا الله:

نقل ابن المبارك عن شيخه عبدالعزيز الدبّاغ أنّه قال: «رسم القرآن سرّ من أسرار الله
 المشاهدة وكمال الرفعة. وهو صادر من النبي ﷺ وهو الذي أمر الكتاب أن يكتبوه على
 هذه الهيئة، فما نقصوا ولا زادوا على ماسمعه من النبي ﷺ».

ثمّ قال: «ماللصحابة ولاغيرهم في رسم المصحف، ولاشعرة واحدة، وإنّما هو
 توقيف من النبي ﷺ وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المدوّنة بزيادة الألف
 وتقصانها. لأنّها أسرار لا تهتدي إليها العقول، وهو سرّ من أسرار الله، خصّ الله به كتابه
 العزيز، دون سائر الكتب السماوية.

وكما أنّ نظم القرآن معجز، فرسمه أيضاً معجز.

وكيف تهتدي العقول إلى سرّ زيادة الألف في «مائة» دون «فئة». وإلى سرّ زيادة الياء

في «بأييد» و «بأييكم»!

أم كيف تتوصل إلى سرّ زيادة الألف في «سعوا» في سورة الحج، ونقصانها من «سعو» في سورة سبأ!

وإلى سرّ زيادتها في «عتوا» حيث كان. ونقصانها من «عتو» في سورة الفرقان!
وإلى سرّ زيادتها في «آمنوا» وإسقاطها من «باؤ. جاؤ تبوؤ. فأو» بالبقرة! - ثمّ يقول: - وكيف تتوصل إلى حذف بعض التاءات وربطها في بعض!

فكلّ ذلك لأسرار إلهيّة وأغراض نبويّة. وإنّما خفيت على الناس لأنّها أسرار باطنيّة لا تدرك إلّا بالفتح الربّاني. فهي بمنزلة الألفاظ والحروف المقطّعة التي في أوائل السور، فإنّ لها أسراراً عظيمة ومعاني كثيرة وأكثر الناس لا يهتدون إلى أسرارها، ولا يدركون شيئاً من المعاني الإلهيّة التي أُشير إليها، فكذلك أمر الرسم الذي في القرآن حرفاً بحرف»^١.

هذا وقد كشف بعضهم عن هذا السرّ الخفيّ، وأبدى تمحّلات غريبة، فزعم أن زيادة الألف في «لااذبحنه» إنّما كانت للدلالة على أنّ الذبح لم يقع. وأنّ زيادة الياء في «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ»^٢ للإيماء إلى تعظيم قوّة الله التي بنى بها السماء، وأنّها لا تشبهها قوّة، على حدّ القاعدة المشهورة: زيادة المباني تدلّ على زيادة المعاني.^٣

وقد أوضح في ذلك وأسهب أبو العباس المراكشي الشهير بابن البناء (ت ٧٢١) في كتابه «عنوان الدليل في مرسوم التنزيل»، وبين أنّ هذه الأحرف إنّما اختلف حالها في الخطّ بحسب اختلاف وأحوال معاني كلماته، من حكم خفيّة وأسرار بهيّة، منها: التنبيه على العوالم الغائب والشاهد، ومراتب الوجود والمقامات. والخطّ إنّما يرتسم على الأمر الحقيقي لا الوهمي...

١ - مناهل العرفان، ج ١، ص ٣٨٢-٣٨٣ نقلاً عن ابن المبارك في كتابه «الابريز».

٢ - الذاريات ٥١: ٤٧.

٣ - مقدّمة ابن خلدون، ص ٤١٩؛ ومناهل العرفان، ج ١، ص ٣٧٤.

ونذكر فيما يلي مقتطفات من كلامه تدلّك على مبلغ غلوّه بشأن الرسم وتكلّفه في الاختلاق الباهت:

١- زيدت الألف في «لاذبحنه» تنبيهاً على أن الذبح أشدّ من العذاب الذي ذكر في صدر الآية «لَأَعَذِّبَنَّ عَذَاباً شديداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ».^١

٢- زيدت الألف في «يرجوا» و«يدعوا» للدلالة على أن الفعل أثقل من الاسم، لتحمله ضمير الفاعل. ومن ثمّ لما استخفّوا بالفعل حذفوا منه الألف وإن كان جمعاً، كقوله: «سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ».^٢ فإنّه سعي باطل لا يصحّ له ثبوت في الوجود.

٣- زيدت الألف بعد الهمزة من قوله: «كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ»^٣ تنبيهاً على معنى البياض والصفاء بالنسبة إلى مالميس بمكنون، ومن ثمّ لم تزد بعد قوله: «كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ»^٤ للإجمال وخفاء التفصيل.

٤- زيدت الألف في «وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ».^٥ دليلاً على أن هذا المجيء هو بصفة من الظهور ينفصل بها عن معهود المجيء.

٥- زيدت الألف في «مائة» دون «فئة»، لأنّه اسم يشتمل على كثرة مفصلة بمرتبتين: آحاد وعشرات.

٦- زيدت الواو في «سَأُورِيكُمْ آيَاتِي»^٦ للدلالة على الوجود في أعظم رتبة العيان.

٧- زيدت الياء في «بِأَيْدِي»^٧ فرقاً بينها وبين «الأيدي» الذي هو جمع اليد. وأنّ القوّة التي بنى الله بها السماء هي أحقّ بالثبوت في الوجود من الأيدي. فزيدت الياء لاختصاص

٢- سبأ: ٣٤، ٥.

٤- الطور: ٥٢، ٢٤.

٦- الأنبياء: ٢١، ٣٧.

١- التمل: ٢٧، ٢١.

٣- الواقعة: ٥٦، ٢٣.

٥- الفجر: ٨٩، ٢٣.

٧- الذاريات: ٥١، ٤٧.

اللفظة بمعنى أظهر في دراك الملكوتي في الوجود.

٨ - سقطت الواو من «سَنَدْعُ الزَّبَانِيَّةَ»^١ لأن فيه سرعة الفعل وإجابة الزبانية وقوة

البطش.

٩ - سقطت الواو من «وَيَذَعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ»^٢ للدلالة على أنه سهل عليه ويسارع فيه

كما يعمل في الخير.

١٠ - كتبت «بسطة» في البقرة: ٢٤٧ بالسين. وفي الأعراف: ٦٩ بالصاد، لأنها

بالسين: السعة الجزئية وبالصاد السعة الكلية.^٣

قال الدكتور صبحي الصالح: لا ريب أن هذا غلو في تقديس الرسم العثماني، وتكلف في الفهم ما بعده تكلف. فليس من المنطق في شيء أن يكون أمر الرسم توقيفياً، ولا أن يكون له من الأسرار ما لفواتح السور، ولا مجال لمقارنة هذا بالحروف المقطعة التي تواترت قرآنيته في أوائل السور، وإنما اصطلح الكتابة على هذا اصطلاحاً في زمن عثمان، ووافقهم الخليفة على هذا الاصطلاح.^٤

وقال العلامة ابن خلدون: ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين، من أن الصحابة كانوا محكمين لصناعة الخط، وأن ما يتخیل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخیل، بل لكلها وجه.

يقولون في مثل زيادة الألف في لا اذبحنه: أنه تنبيه على أن الذبح لم يقع، وفي زيادة الياء في بأييد: أنه تنبيه على كمال القدرة الربانية. وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض.^٥

٢ - الإسراء ١٧: ١١.

١ - العلق ٩٦: ١٨.

٣ - راجع: البرهان للزركشي، ج ١، ص ٣٨٠-٤٣٠. ٤ - مباحث في علوم القرآن، ص ٢٧٧.

٥ - مقدمة ابن خلدون، ص ٤١٩ و ٤٢٨.

قال ابن الخطيب: لما كان أهل العصر الأوّل قاصرين في فنّ الكتابة، عاجزين في الإملاء، لأُمّيتهم وبداءوتهم، وبعدهم عن العلوم والفنون، كانت كتابتهم للمصحف الشريف سقيمة الوضع، غير محكمة الصنع، فجاءت الكتابة الأولى مزيجاً من أخطاء فاحشة ومناقضات متباينة في الهجاء والرسم.^١

هذا... وقد أغرب محمد طاهر الكردي - وهو يستطلع القرن الخامس عشر الهجري - فتراجع القهقراء وأخذ في الغلوّ الفاحش بشأن الرسم العثماني القديم! قال - بعد استعراض جملة من أخطاء الرسم العثماني والتناقض الموجود فيه بصورة غريبة -: «بقي علينا أن نعرف لماذا لم يكتب الكتابة الأولى المصحف على قواعد الكتابة الصحيحة، ولماذا لم يمشوا في كتابته على وتيرة واحدة؟»

«هذا سؤال يجب أن يوجّه إلى الذين كتبوه بأمر عثمان، وأنّى يكون ذلك وقد دفنهم التراب؟ ومن هنا يقول العلماء: إنّ رسم المصحف سرّ من الأسرار لا يطلع عليه أحد...!» قال: «ولا تتوهمنّ عليهم السهو أو الخطأ أو الجهل بأصول الكتابة، إنّ هذا وهم باطل... ونحن نعتقد اعتقاداً جازماً بأنّ الصحابة كانوا يعرفون قواعد الإملاء والكتابة حقّ المعرفة. ونستدلّ على قولنا هذا استدلالاً فنياً بثلاثة أمور:

الأوّل: إنّ العلامة الألوسي قال في تفسيره روح المعاني: الظاهر أنّ الصحابة كانوا متقنين رسم الخطّ، عارفين بقواعد الكتابة، غير أنّهم خالفوا القواعد في بعض المواضع عن قصد، لحكمة...»!! (ولعله يريد تمخّلات المراكشي الآتفة).

قال: «فالألوسي - وهو العالم المتبحّر وصاحب التفسير الكبير - لا يقول هذا إلّا بعد النظر والتحقيق، وإن لم يذكر شواهد تؤيّد قوله (!!!)

الثاني: إنهم كانوا يرسلون الملوك والأمراء فلا بدّ من إتقان كتابتهم.

الثالث: إنه قدمرّ على نشر الكتابة في الجزيرة إلى عهد عثمان أكثر من ربع قرن، فهل يعقل أن الصحابة لم يتقنوا الكتابة في هذه الفترة الطويلة».^١

قلت: ويكفينا جواباً عن سفاشفه ما ذكره العلامة ابن خلدون: ولاتلفتنّ إلى ما يزعمه بعض المغفلين...^٢

وقد أسهب ابن الخطيب في الردّ على هذه المزعومة الفاضحة، وأتى بالكلام مستوفى. نقتطف منه ما يلي.

قال: قال الجعبري في سياق كلامه عن هجاء المصحف: «وأعظم فوائده أنه حجاب يمنع أهل الكتاب أن يقرأوه على وجهه».^٣

قال: وبمثل هذا الهراء ينطق أحد أئمة القراء. وبمثل هذا الكلام يحتجّ القائلون بوجوب الهجاء القديم. مع أن هذا القول واضح البطلان بادي الخسران.

وفي القرآن آيات كثيرة تخاطب أهل الكتاب وتدعوهم إلى الإيمان فكيف عن تلاوته يحجبون؟!

ثمّ قال: ومن أشنع ما يتصف به إنسان سليم العقل، صحيح العرفان ما ذكره الصباغ: «إنّ فوائد هذا الرسم كثيرة وأسراره شتى، منها عدم الاهتداء إلى تلاوته على حقه إلاّ بموقّف، شأن كلّ علم نفيس يتحقّق عليه».

فقال: ياللداهية الدهياء، لقد صار القرآن مثل علم اليازرجات واللوغارتمات والطلسمات والاصطرلابات وضرب الرمل والتنجيم وماشاكل ذلك من العلوم يزعمون نفاستها لما تحتويه من أسرار لا تنال إلاّ بجهد جهيد وتلقّ طويل الأمد.

١ - تاريخ القرآن لمحمد طاهر الكردي، ص ١٠١-١٢٠. ٢ - تقدّم ذلك في «غلوّ فاحش».

٣ - راجع: مناهل العرفان، ج ١، ص ٢٧٣ فإنه أيضاً أتى بسفاشف زعمها فوائد مترتبة على الرسم العثماني القديم!

هذا... وقد قال تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ»^١. وأنتم تقولون أنه أبعدهم منه وأظلمهم عنه فما أكبر هذا الزعم! وما أعظم هذه الفرية!

قال: ولو تساءلنا: هل وضع رسم المصحف ليقرأ أو ليكون رمزاً ويظلّ طليماً، يتناقله القراء وحدهم، ويلقّونه لمن يريدون تلقينه، ممّن يتزلف إليهم بماله ونفسه ويمنعونه عمّن يرون منعه ممّن لم يرزق جاهاً ولا مالاً!

قال: ولقد رأيت بعيني وسمعت بأذني، كثيراً من ذوي الثقافات والأدب يلحنون في قراءة القرآن، لعدم أنسهم بهذا الرسم الغريب وعدم معرفتهم بأساليب القراءة على وجهها المأثور.^٢

الرأي الحاسم

هكذا يرجّح ابن الخطيب تصحيح رسم المصحف إلى ما يعرفه جمهور الناس واستقرّ عليه اصطلاح أرباب الثقافة اليوم.

وهذا رأي جمهور المحقّقين، ذهبوا إلى جواز تبديل الرسم القديم إلى الرسم الحاضر بعد أن لم يكن رسم السلف عن توقيف، وإنّما هو اصطلاح منهم أو كانت الكتابة في بداءة أمرها غير متقنة، أمّا مع تقدّم أساليب الكتابة وفيها من التوضيح ما يجعل أمر القراءة سهلاً على الجميع، فلا بدّ من تغيير ذاك الرسم إلى المصطلح الحاضر الذي يعرفه كافّة الأوساط وليكون القرآن في متناول عامّة الناس، وفي ذلك تحقيق للغرض الذي نزل لأجله هذا الكتاب الخالد ليكون هدى للناس جميعاً مع الأبد.

وبهذا الصدد يقول القاضي محمد بن الطيّب أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣) في كتابه

«الانتصار»: وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً، إذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخطّاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبهم وترك ماعداه، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف. وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه، أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحدّ محدود لا يجوز تجاوزه. ولا في نصّ السنة ما يوجب ذلك ويدلّ عليه. ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولادلت عليه القياسات الشرعيّة.

بل السنّة دلّت على جواز رسمه بأيّ وجه سهل، لأنّ رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه ولم يبيّن لهم وجهاً معيّناً، ولا نهى أحداً عن كتابته، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأنّ ذلك اصطلاح وأنّ الناس لا يخفى عليهم الحال. ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفيّة والخطّ الأوّل، وأن يجعل اللام على صورة الكاف، وأن تعوجّ الألفات، وأن يكتب على غير هذه الوجوه، وجاز أن يكتب المصحف بالخطّ والهجاء القديمين، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثّة، وجاز أن يكتب بين ذلك.

وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة وكان الناس قد أجازوا ذلك، وأجازوا أن يكتب كلّ واحد منهم بما هو عادته، وما هو أسهل وأشهر وأولى، من غير تأثيم ولا تناكر، علم أنّه لم يؤخذ في ذلك على الناس حدّ محدود مخصوص، كما أخذ عليهم في القراءة والأذان.

والسبب في ذلك أنّ الخطوط إنّما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز، فكلّ رسم دالّ على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحّته وتصويب الكاتب به على أيّ صورة كانت.

وبالجملة فكلّ من ادّعى أنّه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجّة على دعواه وأنّى له ذلك؟... انتهى. هذا ما لخصّه الشيخ عبدالعظيم الزرقاني من كلام القاضي أبي بكر الباقلاني، لكنّه تابعه بالردّ عليه من وجوه ونقول لا يخفى وهنّها وضعفها تجاه هذا التحقيق المنيع.^١

ومن ثمّ قال الدكتور صبحي الصالح - تعقيباً على هذا الكلام -: وإنّ رأي القاضي أبي بكر لجدير أن يؤخذ به، وحجّته ظاهرة، ونظره بعيد، فهو لم يخلط بين عاطفة الإجلال للسلف وبين التماس البرهان على قضية دينيّة تتعلّق برسم كتاب الله. وأمّا الذين ذهبوا إلى أنّ الرسم القرآنيّ توقيفيّ أزليّ فقد احتكموا في ذلك إلى عواطفهم، واستسلموا استسلاماً شعريّاً صوفيّاً إلى مذاويقهم ومواجيدهم، والأذواق نسبيّة لا دخل لها في الدين، ولا يستنبط منها حقيقة شرعيّة.^٢

١ - راجع: مناهل العرفان، ج ١، ص ٣٨٠-٣٨١. ٢ - مباحث في علوم القرآن، ص ٢٧٩.

سبعة آلاف مخالفة في رسم الخط!

قد يستغرب الباحث إذا ما عثر على نيف وسبعة آلاف مخالفة في الرسم العثماني القديم، ويعدّه رقماً كبيراً إذا ما قاسه إلى عدد آي القرآن، وهي نيف وستة آلاف آية..! لكن الحقيقة تشهد بذاتها على صحّة هذا الرقم الضخم، وإليك عدد ما في كلّ سورة من مخالفة جاءت في الرسم القديم:

الفاتحة:	٤	النحل:	١٥٩
البقرة:	٤٨٠	الإسراء:	١٤٢
آل عمران:	٣٣	الكهف:	١١٦
النساء:	٢٩٢	مريم:	٩٢
المائدة:	٢٢٥	طه:	١١٤
الأنعام:	٢٣٨	الأنبياء:	١٧٠
الأعراف:	٣٠٣	الحج:	١٠٤
الأنفال:	٦٨	المؤمنون:	١٢٥
براءة:	٢١٨	النور:	١٣٦
يونس:	١٣٦	الفرقان:	٧٨
هود:	١٣٦	الشعراء:	١١٠
يوسف:	١٥٣	النمل:	١٠٧
الرعد:	٧٢	القصص:	١٣٩
إبراهيم:	٦٠	العنكبوت:	١٠٨
الحجر:	٧٥	الروم:	٨٠

٣٠	النجم:	٤٨	لقمان:
٢٥	القمر:	٤١	السجدة:
٣٠	الرحمان:	١٤٤	الأحزاب:
٤٥	الواقعة:	٧٣	سبأ:
٥٨	الحديد:	٥٢	فاطر:
٤٥	المجادلة:	٧٤	يس:
٥٨	الحشر:	١٠٦	الصافات:
٣٥	المتحنة:	٧٠	ص:
٢٧	الصف:	١٠٠	الزمر:
٢١	الجمعة:	١١٥	غافر:
١٨	المناققون:	٧٤	فصلت:
١٧	التغابن:	٦٧	الشورى:
٢٤	الطلاق:	٩٠	الزخرف:
٣٢	التحریم:	٣٧	الدخان:
٢٠	الملك:	٥٣	الجاثية:
٤٢	القلم:	٥٨	الأحقاف:
٢١	الحاقة:	٥٣	محمد:
٢٤	المعارج:	٣٧	الفتح:
١٦	نوح:	٣٠	الحجرات:
٢٠	الجن:	٢٦	ق:
١٢	المزمل:	٣٤	الذاريات:
١٦	المدثر:	٢٧	الطور:

٦	التين:	١٢	القيامة:
٤	العلق:	٢١	الإنسان:
٤	القدر:	١٨	المرسلات:
٩	البيّنة:	٢٢	النبأ:
٢	الزلزلة:	٣٣	النازعات:
٤	العاديّات:	٥	عبس:
٤	القارعة:	٦	التكوير:
٢	التكاثر:	٦	الانفطار:
٣	العصر:	١١	المطفّفين:
١	الهمزة:	٧	الانشقاق:
١	الفيل:	١١	البروج:
٣	قريش	٥	الطارق:
١	الماعون:	٣	الأعلى:
١	الكوثر:	٦	الغاشية:
٣	الكافرون:	١١	الفجر:
...	النصر:	٨	البلد:
...	المسد:	١٧	الشمس:
...	الإخلاص:	٣	الليل:
١	الفلق:	٦	الضحى:
١	الناس:	...	الشرح:

تلك ستة آلاف وسبعمائة وسبعة وسبعون (٦٧٧٧) مخالفة جاءت في رسم المصحف العثماني، موزعة على السور.

وإذا أضفنا إلى هذا العدد، حذف الألف من «بسم» و «الرحمن» في البسملة، وهي مكررة في القرآن (١١٤) مرة، فيرتفع الرقم إلى (٧٠٠٥).

هذا مع غضّ النظر عن حذف الألف من لفظ الجلالة، وهو مكرّر في القرآن (٢٥٥٠) مرة. وفي البسملة (١١٤) مرة. فيبلغ عدد مخالفة الرسم القديم إلى تسعة آلاف وستمئة وتسع وستين (٩٦٦٩) وهو عدد كبير هائل. وللعثور على مواضع هذه المخالفات، بدقّة وتفصيل، راجع: البرهان للزركشي، ج ١، ص ٣٨٠-٤٣١ والمصحف الميسر، تنظيم الأستاذ عبدالجليل عيسى، شيخ كليّة أصول الدين بالجامع الأزهر. غير أنّ هذا الأخير اشتبه في مواضع، منها: ص ٧٧٥، رقم ٥، زعم «وءاتوا» لحنا فصّحه على «واوتوا». وص ٧٩٤ رقم ١، صحّح «المؤدة» على «المودة»!

وقد لخصّ جلال الدين هذه المخالفات في قواعد ستة استوفى فيها جميع ما في الرسم العثماني من مخالفات إملائية. ذكرها في الإتيقان، ج ٤، ص ١٤٦-١٥٨. ونقلها الزرقاني برمتها في مناهل العرفان، ج ١، ص ٣٦٩-٣٧٣.

وإليك الآن جدولاً تفصيلياً يقارن بين رسم الكلمة في إملائها القديم، ورسمها بالإملاء المعاصر. ماعدا حذف الألفات في مثل «الرحمن» و«العلمين» و«الصرط» وهي كثيرة في المصحف، جاءت موافقة للخط الكوفي القديم المنحدر من خطّ السريان، كانوا يكتبون الكلم بلا ألف. وكذلك لم تتعرّض لكلمات جاءت فيها الواو أو الياء بدلا عن الألف كالصلوة والزكوة^١ والتوريتة وهدين، لكثرتها وتكرّرها.

١ - كانت لغة قريش تميل بهذه الألفات نحو الواو، ومن ثمّ كتبوها كذلك.

كما ولم نذكر من الكلمة المتكررة سوى التي جاءت في أولى آية، وتركنا ذكرها في آيات وسور تالية، وأرמزنا لذلك بعلامة «ك».

ونبدأ بالكلمة على إملائها القديم، ثمّ تقابلها بإملائها المعاصر، مرتبة حسب ترتيب السور في المصحف الشريف.

جدول تفصيلي

يقارن بين رسم الكلمة بإملائها القديم ورسمها بالإملاء المعاصر

رقم الآية	(سورة البقرة)	
٣٣	يَا أَدَمُ ^١	يا آدم
٤٠	إِشْرَاءِ يَلَّ «ك»	إسرائيل
٧١	الْثَن «ك» ^٢	الآن
٨٧	عِيسَى ابْن مَرْيَمَ	عيسى بن مريم
٩٠	بِئْسَ مَا «ك»	بئسما
١٦٤	الَّيْلِ «ك»	الليل
٢٢٦	فَاءُ و	فاؤا
٢٤٠	فِي مَا «ك»	فيما
٢٧٥	الرَّبُّوا «ك»	الربا
٢٨٢	تَسْمَعُوا ^٣	تساموا
	(سورة آل عمران)	
٣٥	امْرَأَت «ك»	امراة
٧٥	الْأُمَيْنِ ^٤	الأميين

١ - برسم همزة فوق الألف.

٢ - برسم همزة أمام اللام.

٣ - برسم همزة فوق الميم.

٤ - برسم ياء كوفية صغيرة فوق الياء.

٧٩	رَبُّنِٖن ^١	رَبَّانِيَّيْن
١٤٤	اَفَايِن «ك»	اَفَايِن
١٥٣	تَلُوْن ^٢	تَلُوون
(سورة النساء)		
١٦	الَّذَان	اللَّذَان
٢٣	اَلَّتِي «ك»	اَلَّلَاتِي
٢٥	فَمِنْ مَا «ك»	فَمَمَّا
٧٨	فَمَا لِهٰؤُلَاءِ «ك»	فَمَا لِهٰؤُلَاءِ
(سورة المائدة)		
١٨	اَبْنٰوْا	اَبْنَاء
٢٩	جَزْؤًا «ك»	جَزَاء
٣١	سَوْءَة	سَوَاءَة
(سورة الأنعام)		
٥	اَنْبِئَا «ك»	اَنْبَاء
٣٤	نَبَاي	نَبَأ
٥٢	بِالْغَدُوَّة ^٣	بِالْغَدَاة
٩٤	شَرَكُوْا «ك»	شَرَكَاء

١ - برسم ياء كوفيّة صغيرة فوق الياء.

٢ - برسم واو صغيرة فوق الواو.

٣ - برسم ألف صغيرة فوق الواو.

كلمة	كلمت «ك»	١١٥
أم ما	اما «ك»	١٤٤
(سورة الأعراف)		
فلنسألن	فلنسلن ^١	٦
ماووري	ماوُرى ^٢	٢٠
رحمة	رحمت «ك»	٥٦
بسطة	بصطة ^٣	٦٩
نستحيي	نستحي ي	١٢٧
(سورة الأنفال)		
سنّة	سنّت	٣٨
(سورة التوبة)		
ولأوضعوا	ولا أوضعوا	٤٧
(سورة يونس)		
تلقاء	تلقاءى	١٥
يبدأ	يبدؤ	٣٤
أم من	أمّن	٣٥

٢ - برسم واو صغيرة فوق الواو.

١ - برسم همزة فوق السين.

٣ - برسم سين صغيرة تحت الصاد.

(سورة هود)

٨٦	بَقِيَّتْ	بَقِيَّةَ
٨٧	مَانِشُوا	مَانِشَاءَ
٩٧	مَلَايِهِ	مَلَأَهُ

(سورة يوسف)

٢٥	لَدَا	لَدَى
٨٧	تَأْيُسُوا ^١	تَيَأْسُوا
٨٧	يَأْيُسُ ^٢	يِيَأْسُ
١٠١	وَلِي يَ	وَلِيِّي
١١٠	اسْتَيْسَ ^٣	اسْتِيَأْسَ

(سورة الرعد)

٣٩	يَمَحُوا	يِمَحُو
----	----------	---------

(سورة ابراهيم)

٩	نَبِؤَا	نَبَأْ
٢١	الضَعْفَا	الضَعْفَاءَ

(سورة الحجر)

٩٥	المُسْتَهْزِئِينَ	المُسْتَهْزِئِينَ
----	-------------------	-------------------

١ - برسم همزة فوق الياء.

٢ - برسم همزة فوق الياء.

٣ - برسم همزة فوق الياء.

(سورة النحل)		
٤٣	فسألوا ^١	فسألوا
٤٨	يتفياً	يتفياً
٨٦	رءا «ك»	رأى
٩٠	وايتاي	وايتاء
(سورة الإسراء)		
١١	يدع	يدعو
(سورة الكهف)		
٢٣	لشايء	لشيء
٣٨	لكنا	لكن
٤٨	ألن	أن لن
٦٣	أرءيت	أرأيت
٧٧	لتخذت	لا تخذت
١١٠	يرجوا «ك»	يرجو
(سورة مريم)		
٢٨	يأخت	يا أخت
٤٤	يأبت	يا أبت
٤٦	يأبرهيم	يا إبراهيم

(سورة طه)		
أَتَوَكَّأَ	أَتَوَكَّؤَا	١٨
يَا ابْنَ أُمِّ	يَبْنُؤُمِّ	٩٤
لَا تَظْمَأُ	لَا تَظْمُؤَا	١١٩
سَوَاءُ اتَّهَمَا	سَوَاءُ تَّهَمَا ^١	١٢١
آنَاءُ	ءَانَاءِى	١٣٠

(سورة الأنبياء)		
سَأُرِيكُمْ	سَأُورِيكُمْ «ك»	٣٧

(سورة المؤمنون)		
الْمَلَأُ	الْمَلُؤَا «ك»	٢٤
كَلَّمَا	كَلَّ مَا «ك»	٤٤

(سورة النور)		
وَيَدْرَأُ	وَيَدْرُؤَا	٨
جَاءُوا	جَاءُو «ك»	١٣
عَمَّنْ	عَنْ مَنْ	٤٣

(سورة الفرقان)		
وَعَتُوا	وَعَتُو	٢١
وَتَمُودُ	وَتَمُودَا «ك»	٣٨

لنحيي	لنحي ^١	٤٩
	(سورة الشعراء)	
أينما	أين ما	٩٢
الغاوون	الغاون «ك»	٩٤
	(سورة النمل)	
لأذبحنه	لأذبحنه	٢١
يبدأ	يبدؤا «ك»	٦٤
أتلو	أتلوا	٩٢
	(سورة القصص)	
نتلو	نتلوا	٣
يستحيي	يستحيى «ك»	٤
قرّة	قرّت	٩
	(سورة الروم)	
شفعاء	شفعوا	١٣
لقاء	لقاي	١٦
فيحيي	فيحيى	٢٤

٣٠	فطرت	فطرة
٣٩	ليربوا «ك»	ليربو
(سورة الاحزاب)		
٣٧	لكي لا	لكيلا
(سورة سبأ)		
٥	سعو	سعوا
(سورة غافر)		
١٥	التلاقِ	التلاقي
٣٢	التنادِ	التنادي
(سورة فصلت)		
٢٩	الَّذِينَ ^١	الَّذِينَ
(سورة الشورى)		
٢٤	ويمح	ويمحو
٣٠	ويعفوا «ك»	ويعفو
٣٢	الجوار	الجواري

جزء	جزؤا	٤٠
وراء	وراءى	٥١
(سورة الدخان)		
شجرة	شجرت	٤٣
(سورة الذاريات)		
يومهم	يوم هم	١٣
بأيد	بأييد	٤٧
(سورة القمر)		
يدعو	يدع	٦
الداعي	الداع	٦
(سورة المجادلة)		
معصية	معصيت	٩
(سورة الممتحنة)		
برءاء	برءؤا ^١	٤
(سورة التحريم)		
امراة	امرات	١١
بكلمات	بكلمت ^٢	١٢

١ - برسم ألف صغيرة فوق الهمز.

٢ - برسم ألف صغيرة فوق الميم.

(سورة القلم)		
٦	بأَيِّكُمْ	بأَيِّكُمْ
(سورة التكوين)		
٨	الموءدة ^١	الموءدة
(سورة الانشقاق)		
١١	يدعوا	يدعو
(سورة الغاشية)		
٢٢	بمصيطر ^٢	بمسيطر
(سورة الفجر)		
٤	يسر	يسري
٢٣	وجاء	وجيء
(سورة قريش)		
٢	إلفهم ^٣	إيلافهم

٢- برسم سين صغيرة تحت الصاد.

١- برسم واو صغيرة بعد الهمز.

٢- برسم ياء كوفية صغيرة ومنفصلة بعد الهمز.

اختلاف المصاحف

كانت الغاية من إرسال المصاحف إلى الآفاق، هي رعاية جانب وحدة الكلمة لئلا تختلف، وليجتمع المسلمون على قراءة واحدة ونبذ ماسواها. فكان يجب أن تكون هذه المصاحف مستنسخة على نمط واحد، وأن تكون موحدة من جميع الوجوه. ومن ثم كان يجب على أعضاء المشروع أن يتحققوا من وحدتها ويقابلوا النسخ مع بعضها في دقة كاملة.

غير أن الواقعية بدت بوجه آخر، وجاءت المصاحف يختلف مع بعضها البعض. كان المصحف المدني يختلف عن المصحف المكي، والمصحف المكي يختلف عن الشامي، وهذا عن البصري، والكوفي وهكذا. الأمر الذي يدل بوضوح أن اللجنة تساهلت في أمر المقابلة - أيضاً - فلم يأخذوا بالدقة الكاملة في جانب توحيد المصاحف المرسل إلى الآفاق.

وصار هذا الاختلاف في المصاحف، من أهم أسباب نشوء الاختلاف القرائي فيما بعد، وفتح باب جديد لاختلاف القراءات في حياة المسلمين.

كان قاري كل مصر ومقرئها يلتزم - طبعاً - بقراءة ما في مصحفهم من نص. وكان عليه أيضاً أن يختار نوع الحرف والشكل حسب ما يبدو له من ظاهر الكلمة المثبتة في المصحف بلا نقط ولا تشكيل. ومن ثم كانت السلائق والمذاويق، وكذلك الأنظار والأفهام تختلف في هذا الاختيار.

أما الرواية والسماع عن الشيخ، فهي لا تنضبط تماماً وفي جميع الوجوه إذا لم تكن مثبتة في سجل أو في نص المصحف ذاته. فلا بد أن يقع فيها خلط أو اشتباه من جانب النقل أو السماع، ولا سيما إذا طالت الفترة بين الشيخ الأول والقارئ الأخير.

ومن ثم ظهرت قراءة مكة وقراءة المدينة وقراءة البصرة وقراءة الكوفة وقراءة الشام. وهكذا... الأمر الذي كان كراً على مافرّوا منه!

وزعم الزرقاني أن هذا الاختلاف في النص كان عن عمد منهم وعن قصد، لحكمة

تحمل اللفظ كل قراءة ممكنة. قال: وكتبوها متفاوتة في إثبات وحذف وبدل وغيرها، لأن عثمان قصد اشتمالها على الأحرف السبعة. فكانت بعض الكلمات يُقرأ رسمها بأكثر من وجه نحو «فتبيّنوا» و«تنشزها».

أمّا الكلمات التي لا تحتل أكثر من قراءة، فإنّهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم وفي بعض آخر برسم آخر، كوصيّ بالتضعيف وأوصى بالهمز. وكذلك «تحتها الأنهار» في مصحف و «من تحتها الأنهار» بزيادة «من» في مصحف آخر...^١

قلت: هذا تعليل عليل، بعد أن كان الغرض من نسخ المصاحف وتوحيدها هو رفع الاختلاف في القراءات. كان أحدهم يقول: قراءتنا خير من قراءتكم. فلتلّا يقع مثل هذا الجدل المرير تأسس المشروع المصاحفي باتفاق من آراء الصحابة. أمّا وبعد أن أنجزت اللجنة مهمتها وإذا بدواعي الاختلاف: الاختلاف في القراءة ذاتها، موجودة.

أمّا قضية الأحرف السبعة المفسّرة إلى القراءات السبع، فحديث مشتبّه ربّما بلغ تفسيره إلى أربعين معنى.^٢ وأوهن المعاني هو تفسيره بالقراءات، إذ لم يثبت أن النبي ﷺ قرأ القرآن على سبعة وجوه. كما أن لاختلاف القراء في قراءاتهم عللاً وأسباباً تخصّهم هم، وقد فصلها أبو محمد مكّي بن أبي طالب في كتابه «الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها» فراجع. وسوف نتكلّم عن حديث الأحرف السبع في فصل قادم والمختار هو إرادة اللّهجات المختلفة في التعبير والأداء فحسب.

هذا... وأمّا الأستاذ الأياري فإنّه يرى أن هذا الاختلاف إنّما كان بين مصاحف سبقت مصحف عثمان. وجاء هذا الأخير ليرفع تلكم الاختلاف.^٣

لكنّها نظرة تخالف النصّ القائل بأنّ الاختلاف كان في نفس مصاحف عثمان.^٤ وعلى أيّة حال فإنّ الاختلاف بين المصاحف المبعوثة إلى الآفاق، شيء واقع، ويؤسف عليه، وكانت البذرة الأولى التي انبثقت منها اختلاف القراءات فيما بعد.

١ - مناهل العرفان، ج ١، ص ٢٥٨.

٢ - تاريخ القرآن لإبراهيم الأياري، ص ٩٩.

٣ - راجع: الإتيان، ج ١، ص ١٢١.

٤ - راجع: المصاحف، ص ٣٩.

وفيما يلي عرض نموذجي عن اختلاف مصاحف الآفاق، اعتمدنا فيه على نصّ ابن أبي داود في كتابه «المصاحف» (ص: ٣٩ إلى ٤٩).

(ملحوظة): مصحفنا اليوم يتوافق - أكثرياً - مع مصحف الكوفة، سوى مواضع نرمرز إليها في الجدول التالي بعلامة (*).

غير أنّ مصحف البصرة كان أدقّ من سائر المصاحف - كما أشار إليه حديث الشامي الأنف - تدلّنا على ذلك، الآية رقم ٨٧ من سورة المؤمنون: أنّها في مصحف البصرة: «قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ اللَّهُ». وهي في مصحف الكوفة وغيرها: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ».

وكذلك الآية: ٨٩ من نفس السورة، والآية: ٣٣ من سورة فاطر، مثبتة في مصحف البصرة: «مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤٍ». وفي غيره «وَلُؤْلُؤًا».

وهكذا الآية: ١٦ من سورة الإنسان في مصحف البصرة: «قَوَارِيرًا قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ». وفي غيره «قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ»... إلى غير ذلك.

وإليك جدولاً نموذجياً يبيّن مواضع الاختلاف من مصاحف الآفاق: الشام، الكوفة، البصرة، مكة. أهمّ البلاد التي أرسلت إليها المصاحف، ومقارنتها مع المصحف الإمام «مصحف المدينة».

جدول نموذجي يعين مواضع الاختلاف من مصاحف الآفاق

السورة	الآية	مصحف المدينة	مصحف الشام	مصحف الكوفة	مصحف البصرة	مصحف مكة
البقرة	١١٦	قالوا اتخذوا الله ولداً	قالوا	وقالوا	وقالوا ...	
البقرة	١٢٢	وأوصى بها إبراهيم	وأوصى	ووصى	ووصى ...	
آل عمران	١٢٣	سارعوا إلى مغفرة من ربكم	سارعوا	وسارعوا	وسارعوا ...	
آل عمران	١٨٤	جاؤوا بالبينات وبالزبر	وبالزبر	والزبر	والزبر ...	
النساء	٦٦	...	ما فعلوه إلا قليلاً	إلا قليل	... إلا قليل	
النساء	١٧١	فامتوا بالله ورسله	فامتوا بالله ورسله	... ورسوله
المائدة	٥٣	يقول الذين آمنوا	يقول	ويقول	ويقول ...	
المائدة	٥٤	من يرتدد	من يرتدد	من يرتد	من يرتد	
الأنعام	٣٢	...	ولدار الآخرة	وللدار الآخرة	وللدار الآخرة	
الأنعام	٦٣	لئن أنجيتنا	...	لئن أنجانا	لئن أنجيتنا	
الأعراف	٣	قليلاً ما يتذكرون	يتذكرون	تذكرون	... تذكرون	
الأعراف	٤٣	ما كنا لنهتدي	ما كنا	وما كنا ...	وما كنا	
الأعراف	٧٥	قال الملأ	قال الملأ	وقال الملأ *	وقال الملأ	
الأعراف	٤١	وإذ أنجاكم	وإذ أنجاكم	وإذ أنجيناكم	وإذ أنجيناكم	
الأعراف	١٩٥	ثم كيدوني	ثم كيدوني	ثم كيدون	ثم كيدون	
الأنفال	٦٧	...	ما كان للنبي	ما كان للنبي	ما كان للنبي	
التوبة	١٠٠	تجري تحتها الأنهار	تجري من تحتها الأنهار
التوبة	١٠٧	الذين اتخذوا مسجداً ضراباً	الذين	والذين	والذين ...	
يونس	٢٢	هو الذي ينشركم	هو الذي ينشركم	هو الذي يسيركم	هو الذي يسيركم	
الرعد	٤٢	وسيعلم الكافر	...	وسيعلم الكافر	وسيعلم الكافر	
الأنعام	٩٣	قال سبحان ربى	...	قل سبحان ربى	قل سبحان ربى	

السورة	الآية	مصحف المدينة	مصحف الشام	مصحف الكوفة	مصحف البصرة	مصحف مكة
الكهف	٣٦	لا أجدن خيراً منهما	منهما	منها	... منها	
الكهف	٩٥	قال ما مكنتي	مكنتي	مكنتي	... مكنتي	
الأنبياء	٤	قل ربي يعلم	...	قال ربي يعلم	قال ربي يعلم	
الأنبياء	١١٢	قال رب احكم	قل رب احكم	
المؤمنون	٨٧	قل من رب السماوات... سيقولون لله	سيقولون لله	سيقولون لله	سيقولون الله	
المؤمنون	٨٩	قل من بيده ملكوت... سيقولون لله	سيقولون لله	سيقولون الله	سيقولون الله	
المؤمنون	١١٢	قال كم لبثتم	...	قال كم لبثتم	قل كم لبثتم	
الشعراء	٢١٧	فتوكل على العزيز	فتوكل	و توكل	و توكل ...	
فاطر	٢٣	من ذهب و لو لولا	...	و لو لولا	... و لو لولا	
يس	٣٥	و ما عملته	...	و ما عملت *	و ما عملته	
غافر	٢١	كانوا هم أشد منكم	كانوا هم أشد منكم	منهم	... منهم	
غافر	٢٦	و إن يظهر وافي الأرض	و أن	أو أن	أو أن ...	
الشورى	٣٠	بما كسبت أيديكم	بما كسبت أيديكم	فيما كسبت أيديكم	فيما كسبت أيديكم	
الزخرف	٦٨	يا عبادي	يا عبادي	يا عباد	يا عباد	
الزخرف	٧١	ما تشتهي الأنفس	ما تشتهي الأنفس	ما تشتهي الأنفس *	ما تشتهي الأنفس	
الأحقاف	١٥	بوالديه حسناً	...	بوالديه إحساناً	بوالديه إحساناً	
محمد	١٨	أن تأتيهم بغتة	أن تأتيهم ...	أن تأتيهم ...
الرحمان	١٢	والحب ذا العصف	والحب ذا العصف	والحب ذو العصف	والحب ذو العصف	
الرحمان	٧٨	تبارك اسم ربك ذو الجلال	ذو الجلال	ذو الجلال	ذو الجلال	
الحديد	١٠	وكل وعد الله الحسنى	وكل ...	و كلا ...	و كلا ...	
الحديد	٢٤	إن الله الغني الحميد	إن الله الغني	إن الله هو الغني	إن الله هو الغني ...	
الجن	٢٠	قال إنما أدعوا ربي	...	قل إنما أدعوا ربي	قل إنما أدعوا ربي	
الإنسان	١٦	قواريرا. قواريرا من	...	قواريرا. قواريرا من *	قواريرا. قواريرا من	
الشمس	١٥	فلا يخاف عقباها	فلا يخاف	و لا يخاف ...	و لا يخاف ...	

القرآن في أطوار الإناقة والتجويد

لم يزل القرآن - منذ الصدر الأوّل - في طور التجويد والتحسين، لاسيّما في ناحية كتابته وتجميل خطّه من جميل إلى أجمل. وقد أسهم الخطّاطون الكبار في تجويد خطّ المصاحف وتحسين كتابتها.

وأوّل من تنوّق في كتابة المصاحف وتجويد خطّها، هو خالد بن أبي الهياج - صاحب أمير المؤمنين علي عليه السلام - (ت حدود ١٠٠) وكان مشهوراً بجمال خطّه وإناقة ذوقه. ويقال إنّ سعداً - مولى الوليد وحاجبه - اختاره لكتابة المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦) فكان هو الذي خطّ قبلة المسجد النبويّ بالمدينة بالذهب من سورة الشمس إلى آخر القرآن. وكان قد جدّد بناءه وأوسع عمره بن عبد العزيز واليا على المدينة من قبل الوليد وبأمر منه، وفرغ من بنائه سنة ٩٠.

وطلب إليه عمر بن عبد العزيز أن يكتب له مصحفاً على هذا المثل فكتب له مصحفاً تنوّق فيه، فأقبل عمر يقلّبه ويستحسنه، ولكنّه استكثر من ثمنه فردّه عليه. والظاهر أنّ ذلك كان أيام خلافته (٩٩-١٠١) التي كان قد تزهد فيها.

قال محمد بن إسحاق - ابن النديم -: رأيت مصحفاً بخطّ خالد بن أبي الهياج، صاحب علي عليه السلام وكان في مجموعة خطوط أثرية عند محمد بن الحسين المعروف بابن أبي بكرة، ثمّ صار إلى أبي عبد الله بن حنبل عليه السلام.

وقد ظلّ الخطّاطون يكتبون المصاحف بالخطّ الكوفيّ، حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ثمّ حلّ محله خطّ النسخ الجميل في أوائل القرن الرابع، على يد الخطّاط الشهير محمد بن علي بن الحسين بن مقلّة (٢٧٢-٣٢٨).

قيل: إنّّه أوّل من كتب خطّ الثلث والنسخ، وأوّل من هندس الحروف - إذ كان بارعاً

١ - تاريخ يعقوبي، ج ٣، ص ٣٠ و ٣٦.

٢ - الفهرست لابن النديم، الفن الأوّل من المقالة الأولى، ص ١٥. والفن الأوّل من المقالة الثانية، ص ٦٦-٦٧.

في علم الهندسة - ووضع قواعدها وأصول رسمها. واتفق الباحثون أن الفضل الأكبر في تطوير وتحسين الخطّ العربيّ الإسلاميّ وتنويعه يرجع إلى هذا الخطّاط الماهر، الذي لم تنجب الأمة الإسلاميّة لحدّ الآن خطّاطاً بارعاً مثله.

وقد نسب عدد من المخطوطات الأثريّة إليه، كالمصحف الموجود في متحف هراة بأفغانستان. ويقال: إنّه كتب القرآن مرّتين.^١

وقد بلغ خطّ النسخ العربيّ ذروته في الجودة والحسن في القرن السابع على يد الخطّاط المستعصمي ياقوت بن عبدالله الموصليّ (ت ٦٨٩) كتب سبع مصاحف بخطّه الرائع الذي كان يجيده إجادة تامّة، ويكتب بأنواعه المختلفة حتى صار مثلاً يقتدى به.^٢ وهكذا صارت المصاحف تكتب على أسلوب خطّ ياقوت حتى القرن الحادي عشر، ومنذ مفتتح القرن الثاني عشر اهتمّ الأتراك العثمانيّون عنايتهم بالخطّ العربيّ الإسلاميّ لاسيّما بعد فتح سلطان سليم مصر وزوال حكم المماليك عنها، فجعل الخطّ العربيّ يتطوّر على أيد الخطّاطين الفرس الذين استخدمهم العثمانيّون في امبراطوريّتهم. وقد نقل السلطان سليم جميع الخطّاطين والرّسّامين والفنّانين إلى عاصمته، وأضافوا للخطّ العربيّ أنواعاً جديدة، لازالت تستعمل في الكتابات الدارجة، كالخطّ الرقعي والخطّ الديواني والخطّ الطغرائي والخطّ الإسلامبولي وغيرها.

ومن الخطّاطين العثمانيّين الذين ذاع صيتهم: الحافظ عثمان (ت ١١١٠) والسيد عبدالله أفندي (ت ١١٤٤) والأستاذ راسم (ت ١١٦٩) وأبوبكر ممتاز بك مصطفى أفندي الذي اخترع خطّ الرقعة، وهو أسهل الخطوط العربيّة وأبسطها استعمالاً، وقد وضع قواعده وكتب به لأوّل مرّة، في عهد السلطان عبدالمجيد خان سنة ١٢٨٠.^٣

١ - الخطّ العربيّ الإسلاميّ: ص ١٥٥ (تقلاً عن الخطّاط البغدادي، ص ١٦).

٢ - المصدر، ص ١٧١؛ ومصوّر الخط العربيّ لناجي المصرف، ص ٩٢.

٣ - الخط العربيّ الإسلامي، ص ١٢٣.

أمّا طباعة المصحف الشريف فقد مرّت - ككتابتة خطأ - بأطوار التجويد والتحسين. فلاوّل مرّة ظهر القرآن مطبوعاً في البندقيّة في حدود سنة ٩٥٠ هـ = ١٥٣٠ م. لكن السلطات الكنسيّة أصدرت أمراً بإعدامه حال ظهوره.

ثمّ قام «هنلكمان» بطبع القرآن في مدينة «هانبورق» - ألمانيا - سنة ١١٠٤ هـ = ١٦٩٤ م. ثمّ تلاه «مراكي» بطبعه في «بادو» سنة ١١٠٨ هـ = ١٦٩٨ م. وقام مولاي عثمان بطبع القرآن طبعة إسلاميّة خالصة، في مدينة «سانت بترسبورغ» (روسيا) سنة ١٢٠٠ هـ = ١٧٨٧ م. وظهر مثلها في «قازان».

وقام «فلوجل» بطبعته الخاصّة للقرآن في مدينة «لينزبورغ» سنة ١٢٥٢ هـ = ١٨٣٤ م. فتلقّاها الأوروبيون بحماسة منقطعة النظير، بسبب إملائها السهل. ولكنّها - كسائر الطبعات الأوروبيّة - لم تنجح في العالم الإسلامي.

وأوّل دولة إسلامية قامت بطبع القرآن، فكان نصيبها النجاح، هي إيران. ^١ طبعت طبعتين حجريتين جميلتين ومنقّحتين في حجم كبير، مع ترجمة موضوعة تحت كلّ سطر من القرآن، ومفهرستين بعدّة فهارس. إحداهما كانت في طهران سنة ١٢٤٣ هـ = ١٨٢٨ م والأخرى في تبريز ١٢٤٨ هـ = ١٨٣٣ م.

وظهرت في الهند - في هذا العهد - أيضاً عدّة طبعات. ثمّ عنيت الأستانة - تركيا العثمانيّة - ابتداء من سنة ١٢٩٤ هـ = ١٨٧٧ م بطبع القرآن طبعات أنيقة ومنقّحة جداً.

وقامت روسيا الملكيّة عام ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م بطبع قرآن كتب بخطّ كوفيّ قديم، في حجم كبير، يظنّ أنّه أحد المصاحف العثمانيّة الأولى، خال عن النقط والتشكيل، سقطت من أوّله ورقات، وناقص من آخره أيضاً. يبتدى من قوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا


١ - مباحث في علوم القرآن، للدكتور صبحي الصالح، ص ٩٩. وينقل عن المستشرق «بلاشير» معلومات هامة بهذا الصدد، اعتمدها في هذا العرض.

بِاللهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ»^١ ويتنهي إلى قوله: «وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ»^٢ عثروا عليه في سمرقند، فامتلكته المكتبة الملكية في بترسبورغ. ثم تولى معهد الآثار في طشقند طبعه طبعة فتوغرافية على نفس الرسم والحجم في خمسين نسخة، وأهداها إلى أهم جامعات البلاد الإسلامية. ومنها نسخة في مكتبة جامعة طهران، مسجلة برقم المطبوعات: ١٤٤٠٣/DSS.

وأخيراً قامت مصر بطبعة ممتازة للمصحف الشريف سنة ١٣٤٢هـ = ١٩٢٣م، تحت إشراف مشيخة الأزهر. وبإقرار لجنة عيّنتها وزارة الأوقاف. وقد تلقى العالم الإسلامي هذه الطبعة بالقبول، وجرت عليها سائر الطبعات.

كما ظهرت في العراق سنة ١٣٧٠هـ = ١٩٥٠م طبعة بارزة أنيقة للقرآن. وهكذا اهتمت الأمم الإسلامية في مختلف الأقطار بطبع هذا الكتاب ونشره على أحسن أسلوب وأجمل طراز. ولا تزال.

والحمد لله أولاً وآخراً حمداً لانتهاء له ولازوال

تم - محمد هادي مرفعة

شوال المكرّم ١٣٩٦

فهرس الآيات

الفاتحة

١-٧ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ... وَلَا الضَّالِّينَ ١٥٩

البقرة

٦ و٧ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى ... ٢٧٥

٨ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ٤٠٥

١٤ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ٢٦٠

٢٠ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ٣٢٤

٢١ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢٥٣، ١٦٤، ٦١

٢٦ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا ٢٦٠

٢٨ فَأَخِيكُمُ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ٣٧٢

٤٣ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ٢٤٢، ٦٢

٥٣ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥

٦١ و فومها ٣١٨

٧٨ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي ١٣١

٩٧ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ ٧٢، ٤٧

١٠٩ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ٢٤٣

- ١١٥ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٠
- ١١٨ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ: لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ! كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ٦٢
- ١٢٩ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ١٥٧
- ١٣٧ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٤٩
- ١٥٦ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ٧٤
- ١٥٨ إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ ٢٤٨، ٢٧٤، ١٦٤، ٥٥
- ١٦٤ وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ٣٦٩
- ١٦٨ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ١٦٤
- ١٨٣ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ٣٥٧، ٦٢
- ١٨٥ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ .. ١٤، ٤٤، ١٤١، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٤، ١٥٥
- ١٨٩ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا . ٢٥٨
- ١٩٠ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ٢١١
- ١٩١ فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ٢١١
- ١٩٦ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ٣٢٤
- ١٩٦ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ٣٣٣
- ٢١٣ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ . ٣٢٠
- ٢٣٤ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ٢٨٣
- ٢٤٠ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ ٢٨٣
- ٢٤٧ بسطة ٣٧٦، ٣٦٥
- ٢٥٩ نُشِيرُهَا ٣٥٣
- ٢٧٢ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ٢٤٣
- ٢٧٥ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ٦٢
- ٢٨١ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ١٦٠، ١٦١، ٢٤٤، ٢٨١، ٢٨٣

آل عمران

- ٣ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ١٥٥
- ٧ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ١٥٦، ٦٠
- ٧ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ٥٩
- ٤٨ يُعَلِّمُهُ ٣٥٣
- ٥٠ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٣٢٠
- ٩٧ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ٦٢
- ١٢٨ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ٦٦، ٥٦
- ١٧٢ و ١٧٣ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا ٢٧٤
- ١٧٣ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ٣٦٦، ٢٦٦
- ١٨٧ فَبَذَلُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُيِّنَ مَا يَشْتَرُونَ ٢٩٥

النساء

- ١ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم ١٦٤
- ٢٤ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ٣٢٤
- ٤٨ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ٢٥٠
- ٥٨ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ١٧٨
- ٥٨ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ٢٤٤
- ٧٦ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ١١٠
- ٧٦ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ١٢٥
- ٧٦ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ١٣٠
- ١١٣ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ١٢
- ١٣١ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ٣٦٧
- ١٣٣ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ١٦٤

- ١٣٧ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا ٢٠٢
- ١٥٣ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ. فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ ٦٢
- ١٦٢ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ٣٦٥، ١٢
- ١٦٢ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ٣٦٧
- ١٦٣-١٦٧ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَ ٧١
- ١٦٤ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ٥٠
- ١٧٦ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ٢٤٤

المائدة

- ٣ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ٢٨٣، ٢٤٥، ١٦٠
- ٣ الْيَوْمَ يَكْفُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ٢٨٣، ٢٤٥، ١٦٠
- ٣٨ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ٣١٧
- ٦٧ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ٣٢١
- ٦٩ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ ٣٦٧، ٣٦٥
- ٩٣ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا ٢٥٧

الأنعام

- ٥ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ ٣٦٩
- ٧ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ كُلِّ كِتَابٍ فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ ١٥٦
- ١٩ وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ١٣
- ٢٠ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ١٩٨
- ٢٣ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَسُبُّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ١٩٨
- ٢٦ وَيَتَّبِعُونَ عَنْهُ ٣٦٩
- ٣٧ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ١٥٦

- ٥٢ بِالْعَدَاةِ ٣٦٩
- ٥٤ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ٣٥٧
- ٩١ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ ١٩٩، ٥٨
- ٩١ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ٢٧١
- ٩٣ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ ٢٠٠
- ٩٤ فَيَكُفُّوا شُرُكُوتَهُمْ ٣٦٩
- ١١٢ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ٧٠
- ١١٤ أَفَغَيَّرَ اللَّهُ أُنْتَعَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ٢٠٢، ١٥٦
- ١٢١ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ٧٠
- ١٤١ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ... كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ ٢٠٣
- ١٥١ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ٢٠٤، ٢٠٣
- ١٥٢ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٢٠٣
- ١٥٣ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ٢٠٣

الأعراف

- ٢٦ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا. ذَلِكَ خَيْرٌ، ذَلِكَ ٥٣
- ٢٧ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ ٥٣
- ٥٢ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ١٥١
- ١٥٠ قَالَ ابْنُ أُمِّ ٣٧٢
- ١٥٧ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ١٣١
- ١٥٨ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ١٣١
- ١٦٣ وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ٢٠٤
- ١٧١ وَإِذْ نَقَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ٢٠٥

الأنفال

- ١ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ. قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ٥٣
- ١٢ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ٧٠
- ٢٤ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ١٢
- ٣٠ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ٢٤٥، ١٩٧
- ٣٣ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٢٤٦
- ٤١ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفْيِ الْجَمْعَانِ ١٣٨
- ٥١-٥٤ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ. كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ٦٣
- ٥٦ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ ٢٤٧
- ٥٧ فَإِنَّمَا تَتَفَقَّهُهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ ٢٤٧
- ٥٩ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ٢٤٧
- ٦٠ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ٢٤٧
- ٦١ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ٢٤٧
- ٦٢ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ ٢٤٧
- ٦٤ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٤٧، ٢٤٦
- ٦٥ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ٢٤٧
- ٧٤ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ٢٤٨

التوبة

- ٣ أَنْ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ٣٥٨
- ٢٩ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ٢٤٣
- ٣٧ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةً .. ٢٥٨
- ٨٠ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ٢٦٥، ٢٦٣
- ٨٤ وَلَا تَضَلَّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ٢٦٥، ٢٦٤

- ٩١ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ٣٧٢
- ٩٧ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ١٥٥
- ١١٣ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ ٢٦٣، ٢٤٩، ٢٤٧
- ١١٤ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ٢٤٧
- ١٢٨ و ١٢٩ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ... وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ٢٥٠

يونس

- ٢ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ ٩٠، ٧١
- ٣٠ تَبْلُو ٣٥٣
- ٤٠ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ٢٠٥
- ٤٩ فَلَا يَسْتُخِرُونَ سَاعَةً ٣٧٢
- ٦١ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ١٣
- ٩٢ نُنَجِّيكَ ٣٥٣
- ٩٤ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ٢٠٥، ٥٨، ٤٤
- ٩٥ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا ٢٠٥
- ٩٦ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ٢٠٥

هود

- ١ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١٥١
- ١٢ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ ... ٢٠٦
- ١٧ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ ٢٠٦
- ٤٤ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ ٣٠
- ٤٩ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ١٢
- ٧١ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ٣٢٠

٨٧ في أموالنا مانسؤا ٣٧٢، ٣٦٩

١١٤ وأقيم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ٢٠٦

يوسف

٢ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ٥٧، ٤٤

٣ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ٧٠

٧ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ٢٠٧

٢٥ لدا الباب ٣٧٢

٢٩ يوسف أعرض عن هذا. واستغفري لذنبك ٥٣

٣٦ إني أراني أعصر خمراً ٣١٨

٨٧ إنه لا يأتئس ٣٧٠

١١١ وتقصيل كل شيء ١٤

الرعد

١٤ وما دعاء الكافرين ٣٧٢

١٧ أنزل من السماء ماءً فسالت أوديةً بقدرها ٥٧

١٧ فاما الزبد فيذهب جفاء، واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ١٣١

٣٠ كذلك أرسلناك في أمه قد خلقت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك ١٦٣

٣١ ولو أن قرآناً سیرت به الجبال ... ولا يزال الذين كفروا تصيهم بما صنعوا قارعة ٢٥١، ٢٥٠

٣١ أفلم يتأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ٣٦٧

٣٩ يمحوا الله ما يشاء ٣٧٢

إبراهيم

٤ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ٥٧

٩ ألم يأتكم نبؤا ٣٧٠

- ٢١ فَقَالَ الضُّعَفَا ٣٧٢، ٣٧٠
- ٢٢ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ١٢٦، ١١٩
- ٢٨ و ٢٩ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيُخْسِرُونَ الْقَرَارُ ٢٠٨
- ٣٤ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ ٣٧٢

الحجر

- ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ٤٤
- ٩ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ٣٦٨، ٢٧٨، ١٣١، ١٣٠، ١٢٥، ١١٨، ٦١
- ٢٢ فَأَسْقَيْنَا كُمُوهُ ٣٦١
- ٢٣ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ٢٠٨
- ٢٤ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ٢٠٨
- ٢٥ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٢٠٨
- ٨٧ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ٣١٤، ٢٠٨، ١٧٨، ١٥٩
- ٩٠ و ٩١ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ٢٠٨
- ٩٤ و ٩٥ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ١٤٣

النحل

- ٩ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ١٥
- ٤١ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ٢٠٩
- ٤٣ و ٤٤ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ٢٠٦، ٢٠٣، ٢٠٠، ٥٨
- ٤٤ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ١٥٦
- ٦٨ و ٦٩ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي ٦٩
- ٨٩ تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ ١٤

- ٩٠ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ٢٨١
- ٩١ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ٢١٠
- ٩٥ و ٩٦ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا... بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٠٩
- ٩٨ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٤٣
- ٩٩ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ١٢٦
- ١٠٣ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ٥٧
- ١٠٦ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ٢٠١
- ١٢٥ أَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٢١١
- ١٢٦ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ... ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢٦١
- ١٢٧ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ٢٦١، ٢١١
- ١٢٨ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ٢٦١

الإسراء

- ١١ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ ٣٧٦
- ٢٣ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ٣٦٦
- ٢٦ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ٢١٢
- ٣٢ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ٢١٣
- ٣٣ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ٢١٣
- ٤٥ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ٤٣
- ٤٨ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ٣٧٢
- ٥٧ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ٢١٤
- ٦٠ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ... ٩٦، ١٨٧، ١٨٨، ٢١٤
- ٦٥ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ١١٩، ١٢٦، ١٩٤
- ٧٣ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ ١٢٨

- ٧٣ إِذَا لَا تَخْذُوكَ ٣٧٢
- ٧٤ وَلَوْلَا أَنْ تَبْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ٢٧٦، ٢١٤، ١٣٠، ١٢١
- ٧٣ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخْذُوكَ خَلِيلًا ٢١٤، ١٢١
- ٧٥ إِذَا لَا ذُقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ٢١٤، ١٢١
- ٧٦ و ٧٧ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ... وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ٢١٥
- ٧٨ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ. إِنْ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ٤٤، ١٣
- ٧٨-٨١ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ... وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ٢١٥
- ٨٥ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ٢١٩، ٢١٦
- ٨٨ قُلْ لَنْ أَجْتَعَمَّتِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ٢١٦، ١١
- ٨٩ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ٦٣
- ٩٠ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ٢١٧
- ٩٣ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُهُ ٤٤
- ٩٥ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ١٥٦
- ١٠٦ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ١٥٥، ١٥١، ٤٤، ٤٣، ١٣
- ١٠٧ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا .. ٢١٧

الكهف

- ٤ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ٢١٨
- ١٩ وَلِيَسْتَطَفَّ ٣٦٠
- ٢٣ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ ٣٦٢، ٣٧٠
- ٢٨ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ... فَطَرًا ٢١٨
- ٤٥ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ٣٧٢
- ٧٧ لَوْ شِئْتُ لَتَّخَذْتُ ٣٧٢، ٣٧٠
- ٨٣ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْيَتَيْنِ ٢١٨

- ١٠١ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ٢١٨
- ١٠٧ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ٢١٩
- ١٠٩ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ ٢١٩
- ١١٠ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ٢١٩

مريم

- ١١ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ٦٧
- ٢٦ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ٣١٨
- ٣٠ آتَانِي الْكِتَابَ ١٥٦
- ٥٨ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ ... خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ٢٢٠
- ٧١ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ٢٢٠

طه

- ١١ و ١٢ نودى ياموسى. إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ١٠٩
- ١٥ لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ٣٢٤، ١٨٢
- ٦٣ إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ ٣٦٧، ٣٦٥، ٣٦٢
- ٩٤ قَالَ يَبْنَؤُمْ ٣٧٢، ٣٧٠
- ١١٤ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ... ١٠١، ١١٨، ١٤٨، ١٥٤
- ١٣٠ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ٢٢٠
- ١٣١ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ٢٣٠

الأنبياء

- ١ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ٢٩٧
- ١٨ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ١١٠، ١٣١
- ٣٧ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي ٣٧٥

- ٤٤ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ٢٢١
- ٤٨ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ٣٦٦، ١٥
- ٥٠ وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ ١٥

الحج

- ٥ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ ٣٧٢
- ١٠ لَيْسَ بِظُلْمٍ لِّلْعَبِيدِ ٣٧٢
- ١٩ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا ٢٥١
- ٥٢ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ١٢٩، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠
- ٥٢-٥٥ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي ... عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ٢٥٢

المؤمنون

- ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٢٤١
- ١٢ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ٢٠١، ٥٤
- ١٤ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْسَ عَاقَةً ... ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ٢٠١، ٧٤، ٦٦
- ١٣ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْسًا فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ٧٤
- ٣٣ وَقَالَ الْمَلَأُ ٣٧٢
- ٦٠ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا ٣٦٥
- ٦٤-٧٧ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ ... مُبْلِسُونَ ٢٢١
- ٨٦ و٨٧ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ٣٩٩

النور

- ٢٧ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ٣٦٦
- ٣٥ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ٦٢
- ٦٠ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ ٣١٨

الفرقان

- ١ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ٤٤، ١٤
- ٨ و ٩ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا. انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا ١٩٥
- ٣٢ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ١٢٣
- ٣٢ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ١٥٦، ١٥٣، ١٤٦

الشعراء

- ١٧٦ أصحاب الأيكة ٣٧٢
- ١٩٢ وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٠٠
- ١٩٣ و ١٩٤ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ١٥١، ١٠٠، ٩٨، ٧٢، ٥٧، ٤٧
- ١٩٥ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ١٠٠، ٥٧
- ١٩٧ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ٢٢١
- ٢١٤ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ٣٢١
- ٢١٩ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ ٢٤٩
- ٢٢٤ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ٢٢٢

التمل

- ٩ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٠٩
- ١٠ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ١٠٩
- ١٠ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ١١١
- ٢١ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ٣٧٥، ٣٧٠
- ٢٩ يَا أَيُّهَا الْمَلَكُوتُ ٣٧٠

القصص

- ٧ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني ٦٩
- ٥٢ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ٢٢٢
- ٥٥ سلام عليكم لا نبئني الجاهلين ٢٢٣
- ٥٦ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ٢٤٨، ٢٤٤
- ٨٥ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ٢٢٣، ١٦٢

العنكبوت

- ٤٥ أتل ما أوحى إليك من الكتاب ٧١
- ٤٦ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ٢٢٣، ١٩٩
- ٤٧ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به .. ٢٢٣، ١٩٩
- ٤٨ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون ١٣١
- ٥٦ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ٢٢٤
- ٥٨ لنبؤنهم ٢٥٣
- ٦٠ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ٢٢٤

الروم

- ١٣ شفاء ٣٧٠
- ١٧ فسبحان الله حين تمشون وحين تضحون ٢٢٥
- ٣٠ فأقيم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ١٢
- ٥٤ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً ٧٩

لقمان

- ٢٧-٢٩ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ... بما تعملون خبير ٢٢٥
- ٢٨ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ٣١٨

السجدة

- ٧-٩ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ . ٧٤
 ١٦ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . ٢٢٥
 ١٧ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ٢٢٦
 ١٨ و ١٩ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ... نَزَّلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ٢٢٦

الأحزاب

- ٦ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ٣٢٠
 ٢١ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ٢٦٤
 ٢٣ رِجَالٌ صدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ١٥٢

سبا

- ٥ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ٣٧٥
 ٦ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ٢٢٧
 ١٥ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ٢٢٩، ٢٢٨
 ١٧ نُجَازِي ٣٥٣
 ٢٠ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ ٢٦٤
 ٢١ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ٢٢٨
 ٢٣ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ١٠٥، ١٠٤
 ٢٨ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ٢٧٩

فاطر

- ٢٩ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ٢٢٩
 ٣٢ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ ٢٢٩
 ٣٣ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ٣٩٩

- ٤٠ على يَتَّيْتِ مِنْهُ ٣٧٢
- ٤٣ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ ٣٧٢

يس

- ١٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ٢٣٠
- ٢٩ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً ٣١٨
- ٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ ٢٣٠
- ٥٢ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ٣٢٤
- ٥٥-٦٥ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ ٥٢
- ٥٩ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ ٣٧٢

الصافات

- ٨ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ١٢٧
- ١٢ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ٣٢١
- ١٠٦ لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ٣٧٠
- ١٢٧ و ١٣٨ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَقْلًا تَعْقِلُونَ ٦٢
- ١٧١-١٧٣ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ... ١١٠

ص

- ١٣ وَأَصْحَابُ لُيْكَةَ ٣٧٠
- ٢٣ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ ٣٢٠

الزمر

- ١٠ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ٢٣١
- ٢٣ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ٢٣١
- ٢٧ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٦٣

- ٢٨ قُرْآنًا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ٥٧
- ٥٣-٥٥ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ... وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٢٣١
- ٦٩ وَجَاءَ النَّبِيُّنَ ٢٧٠

غافر

- ١٨ لَدَى الْخَنَاجِرِ ٣٧٢
- ٥٠ وَمَا دُعُوا الْكَافِرِينَ ٢٧٠
- ٥١ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ١٣٠، ١١٠
- ٥٥ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ٢٣٢
- ٥٦ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ٢٣٢
- ٥٧ لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ ... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢٣٢
- ٦٠ أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ٢٦٦

فصلت

- ٧ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٢٤١
- ١٢ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ٦٩
- ٤٢ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٢٧٨، ١٢٣، ٣٦٤

الشورى

- ٧ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا غَرِيبًا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ١٣١، ٧٠
- ١١ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ٦٥
- ٢٣ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا، إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ٢٣٣
- ٢٤ وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ٢٧٢
- ٢٤-٢٦ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ... وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ٢٣٤، ٢٣٣
- ٢٧ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ ... خَبِيرٌ بَصِيرٌ ٢٣٣

- ٣٨ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ٢٣٤
 ٣٩-٤١ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ... فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ٢٣٤
 ٥١ وَمَا كَانَ لِيَشِيرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ٩٤، ٧١
 ٥٢ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ ... ٩٤

الزخرف

- ٣ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٥٧
 ٤ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ٤٠٥
 ٥ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ٢٣٤

الدخان

- ٣ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ ١٥٥، ١٤١
 ٤٣ و ٤٤ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ ٣١٧
 ٥٨ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٥٧

الجاثية

- ١٤ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ٢٣٥

الأحقاف

- ١٠ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ ٢٣٥
 ١٥-١٩ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ... وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ٢٣٦
 ٣٥ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ٢٣٦

محمد

- ١٣ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلُكُنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ٢٥٢
 ١٤ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ ٣٧٢
 ٢٠ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ١٥٦

٢٤ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ٥٦

الفتح

١٨-٢٠ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ... وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ٥٢

٢٦ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ٣٢٤

٢٧ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ٩٦

الحجرات

٦ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ٢٢٧

٦ فَتَبَيَّنُوا ٣٥٣

١٣ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ٢٥٣

ق

١٠ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ٣٣٨

٣٨ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ٢٣٦

٣٩ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ٢٣٦

الذاريات

١٩ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ٢٠٣

٤٧ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ٣٧٤، ٣٧١

الطور

٢٤ كَانَتْهُمْ لَوْلُؤٌ ٣٧٥

٤٨ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ١٠٩

النجم

٢١ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ١٢٤

- ٥-٣ وما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ١١٩، ١٢٤
- ١٧-٦ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ... مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ٩٨
- ١٩ و ٢٠ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ١٢٠
- ٢٣ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ١٢٧
- ٢٦ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شِفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ١٢٨
- ٣٢ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ٢٣٧
- ٣٣ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ٢٣٨

القمر

- ١٧ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ٣٧٩، ٥٦
- ٤٥ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ٢٣٨
- ٥٤ و ٥٥ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ٢٣٨

الرحمان

- ١٣ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨١
- ٢٩ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ٢٥٣
- ٣١ آيَةُ النَّعْلَانِ ٣٧٢

الواقعة

- ٢٣ كَأَمْثَالِ اللَّوْلُو ٣٧٥
- ٢٩ وَطَلَحَ مَنُضُودٍ ٣٦٨، ٣٣٨
- ٣٩ و ٤٠ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ٢٣٨
- ٧٧ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ١٥
- ٧٥-٨٢ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ... وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ... ٢٣٩
- ٧٧-٧٩ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ١٥١

الحديد

- ٨ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٨٢
 ١٣ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ ٣١٨
 ١٦ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ... فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ١٨٣
 ٢٥ إِنْ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ١٣١

المجادلة

- ١ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرُكُمْ ١٥٢
 ٧ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ ٣٢٠، ٣٥٣
 ٢١ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ١٣٠، ١٢٥

الحشر

- ٧ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ٢١٣
 ٢١ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا ١٥٥
 ٢٢-٢٤ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ. هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي ٦٥

الجمعة

- ٢ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ١٣١
 ١١ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ١٥٢

المنافقون

- ١٠ فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ٣٦٧

التغابن

- ١٣ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١٨٤

الملك

- ١٢ إِنْ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ٢٤٠
 ١٥ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ٢٤٠
 ٢٩ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ ٢٤٠

القلم

- ١ ن وَالْقَلَمِ ١٥٩
- ٦ يَا أَيُّكُمْ الْمَفْتُون ٣٧٠
- ١٧ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ٢٤٠
- ٣٣ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٢٤٠
- ٤٨ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ٢٤٠
- ٥٠ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ٢٤٠

الحاقة

- ١١ طغَا الْمَاءُ ٣٧٢
- ١٢ وَتَعْيَهَا أَذْنٌ وَاعِيَةٌ ٢٩٦
- ١٩-٢٣ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُومٌ اقْرَؤْا كِتَابِيَةَ... فَطُوفَها دَانِيَةً ٥٤
- ٤٤-٤٦ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا .. ١١٠، ١١٩، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦

الجن

- ١٨ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ٢٧١
- ٢٧ إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ١٣٧

المزمل

- ٢١ يا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ قُمْ اللَّيْلَ ٢٤١
- ٥ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ١٠١
- ١٠ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ٢٤٠
- ١١ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا ٢٤٠
- ٢٠ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ٤٤
- ٢٠ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ ... وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ ... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢٤١

المدثر

- ١ و٢ يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ. ١٥٨، ١٥٧
 ٣-٥ وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ. وَتَيَّابِكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ. ١٥٨

القيامة

- ١٤ و١٥ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ. ٥٤، ٥١
 ١٦ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. ١١٨، ١٠٠، ٥١
 ١٧ و١٨ إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ١١٨، ١٠٠، ٥١، ٤٤، ٤٣، ١٤، ١٣
 ٢٠ و٢١ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ. ٥١
 ٢٢-٢٤ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ. ٥١
 ٢٩ و٣٠ وَالتَّتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ. ٥٤

الإنسان

- ١٥ و١٦ قَوَارِيرًا قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ. ٣٩٩
 ٢٤ قَاضٍرٌ لِحُكْمِ رَبِّكَ. ٢٥٤

المرسلات

- ٤٨ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَزَكُّوْنَ. ٢٤١

النازعات

- ١٧ إِنَّهُ طَغَىٰ. ٣٧٢

عبس

- ١ و٢ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ. ٥٣
 ٣ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّىٰ. ٥٣

التكوير

- ١ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. ١٨٢
 ١٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ. ١٨٣
 ١٩-٢٣ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ. وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. ٩٩

المطففين

١ وَيَلِّ الْمُطَفِّفِينَ ٢٤٢

الأعلى

٦ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ١٢٣، ١١٨، ١٠٦، ١٠١، ٤٤

١٤ و ١٥ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ١٨٥

١٨ و ١٩ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى. صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ٢٩٦

الفجر

١ وَالْفَجْرِ ٣٦١

١-٤ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٥٤

٢٣ وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ٣٧٥

الليل

١ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ٣٢٢

٣ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ٣٢٤

٨ و ٩ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ١٨٦

الضحى

١ وَالضُّحَى ٣٦١، ٢٦٢

٥ فَتَرَضَى ٢٦٢

العلق

١ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ٤٤

١-٥ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ١٥٧، ١٣٩، ١٣٦

١٨ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ٣٧٦

القدر

١ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ١٥٥، ١٤١

الزلزلة

٧ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ١٨٨

القارعة

٥ الْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٣١٧

٨-١١ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَتْهُ. نَارُ حَامِيَةٍ ٥٤

التكاثر

١ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ١٨٩

الفيل

١ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ٣٢٣

قريش

١ لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ ٣٧٢، ٣٢٣

٢ إِي لَفْهَمْ رِحْلَةً ٣٧٢

الكوثر

١ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ٩٨، ٩٦

النصر

١ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ١٦٠، ١٥٧

الفلق

١ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ٣١٥

الناس

١ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ٣١٥

٤-٦ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ٧٠